سعيد حوّى



الأساس في التفسير

المجلّد الرّابع

ويشتمل على:

تَفسِيرُ سُورَةِ الأعْرَاف .

تَفسِيرُ سُورَةِ الأنْفَال .

تَفسِيرُ سُورَةِ التّوبَة .

دار السّلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

لصاحبها

عبد القادر محمود البكار

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤

حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤

بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥م

كلمة في آفاق الوحدة القرآنية بين يدي المجلد الرابع

نعرض في هذا المجلد سور:الأعراف والأنفال وبراءة ، وكما رأينا فإن القسم الأول من أقسام القرآن والذي هو قسم السبع الطوال ينتهي بنهاية سورة براءة وإذن فبنهاية هذا المجلد ينتهي عرض القسم الأول من أقسام القرآن ليأتي بعد ذلك القسم الثاني والذي يسمّية الحديث الشريف الحسن الذي مرّ معنا في قسم المئين .

....

لقد رأينا فيما مضى أن لسورة البقرة سياقها الخاص بها ،ثمّ رأينا أن كل سورة جاءت بعدها لها محورها من سورة البقرة ، وأن كلّ سورة جاءت بعد سورة البقرة تفصّل في محور من سورة البقرة ، وفي امتدادات هذا المحور من السورة نفسها ،فسورة آل عمران فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وفي امتدادات هذه المقدمة ، أي :في المعاني التي هي أكثر لصوقاً بها ، ثم جاءت سورة النساء ففصّلت في الآيات الخمس الآتية بعد المقدمة وفي امتدادات هذه الآيات ، ثمّ جاءت سورة المائدة ففصّلت في الآيتين اللتين جاءتا بعد الآيات الخمس وفي امتدادات معانيهما ، ثم جاءت سورة الأنعام ففصّلت في آخر آيتين في المقطع الأول من القسم الأول من سورة البقرة ، وفي امتدادات معانيهما ، وتأتي بعد ذلك سورة الأعراف ، وهي تفصّل في المقطع الثاني من القسم الأول من سورة البقرة ، وهو المقطع الذي يتحدث عن قصة آدم عليه السلام كما تفصّل في امتدادات هذا المقطع .

وبتفصيل السور الخمس الآتية بعد سورة البقرة لمحاورها وامتدادات هذه المحاور تكون أكثر معاني سورة البقرة قد أصابها التفصيل الأول في القسم الأول من أقسام القرآن

....

وتأتي بعد سورة الأعراف سورتا الأنفال وبراءة ، ونلاحظ أنهما تفصلان في محور يأتي بعد آيات كثيرة من قصة آدم فهما تفصلان في قوله تعالى ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم** ﴾ فلماذا جاء محورا سورتي الأنفال وبراءة بعيدين عن محور سورة الأعراف ؟

....

إن السور الخمس الآتية بعد سورة البقرة مباشرة فصّلت في الآيات التسعة والثلاثين

الآيات في سورة البقرة ولكنّ لا يأتي على ترتيب متعاقب ، غير أنك لا تخرج من قسم من أقسام القرآن إلا وقد أخذت تفصيلًا جديداً لمعاني سورة البقرة على نوع من أنواع الترتيب ستراه كلّما جاءت مناسبة .

....

ومع احتياطنا أن لا نكثر التكرار لكنّه لكون الميزة الأولى لهذا التفسير هو العرض لوجهة نظر جديدة في موضوع الوحدة القرآنية فإنّنا نرى أنفسنا مضطرين لتكرار نرجو ألا يأخذنا القارىء عليه ولنبدأ عرض سورة الأعراف .

سورة الأعراف

وهي السورة السابعة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السادسة من قسم الطوال
وآياتها مئتان وست
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله وآلهِ وأصحابِه

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة الأعراف ومحلها في السياق القرآني ومحورها :

رأينا أن سورة آل عمران فصّلت في العشرين آية الأولى من سورة البقرة ، ورأينا أن سور : النساء والمائدة والأنعام فصّلت فيما بعد ذلك إلى نهاية الآية (٢٩) . من سورة البقرة ، وفصّلت كل واحدة منها في محور خاص بها مع كونها ثلاثتها تخدم ذلك المقطع بالتكامل ، ونلاحظ أن آخر آية في سورة الأنعام قالت : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ . وهي تلفت النظر إلى الآية الثانية في محورها من سورة البقرة ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ مع الآية التي بعدها ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . وإذن فإن سورة الأنعام أوصلتنا إلى مقطع جديد في سورة البقرة ، وهوالذي فيه الحديث عن قصة آدم ، ولقد استقرت قصة آدم في سورة البقرة على قوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وتأتي بعد سورة الأنعام سورة الأعراف ﴿ **المٓصٓ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ....** ﴾ لاحظ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية في سورة الأعراف ﴿ **اتبعوا** ﴾ . والناظر إلى سورة الأعراف يرى أنها تتألف من مقدمة ، ثم قصة آدم ، وبناء عليها ، ثم قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم بناء عليها . ثم قصة موسى مع فرعون . ثم قصة بني إسرائيل بعد الخروج من مصر . ثم مواجهة مع بني إسرائيل . ومن تأمّل هذه المعاني يجد باختصار أنها نماذج من الهدى الذي أنزله الله خلال العصور على أمم ؛ وموقف هذه الأمم من هذا الهدى وما عوقبت به ، وكل ذلك بمثابة درس لهذه الأمة ، فالسورة تفصيل إذن لمحور خاص هو قوله تعالى ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وإذ كان ما قبل هذا في سورة البقرة قصة آدم ، وما بعده قصة بني إسرائيل ضمن السياق الخاص لسورة البقرة ، فإن قصة آدم وبني إسرائيل ترد هنا بما يخدم المحور الخاص لسورة الأعراف .

....

في سورة البقرة ذكرت قصة آدم ، وههنا تذكر ، ثمّ بعد ذلك توجه نداءات لبني آدم ﴿ **يابني آدم** ﴾ ليأخذوا ههنا دروس القصة .

وفي سورة البقرة تختم قصة آدم بالقاعدة : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ثمّ تأتي هناك قصة بني إسرائيل ـــ كنموذج على أمة أنزل عليها وحي – وههنا تأتي قصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب كنماذج على أمم أنزل عليها وحي ، ثمّ تأتي بعد ذلك قصة بني إسرائيل كأمة أنزل عليها وحي ، وفي هذا السياق يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ أن يقول : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ فمن خلال دروس الماضين يتوجه الخطاب إلى الناس أن يتبعوا الهدى الذي أنزله الله على محمد ﷺ،وتعطى هذه الأمة دروساً وتوجيهات

....

وقد جاءت قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة في سياق القسم الذي ابتدأ بأمر ونهي ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ﴿ **ولا تجعلوا لله أنداداً** ﴾ وجاءت قصة آدم هناك ، وفيها ذكر لعقوبة من خالف الأمر والنهي وفي الأعراف تفصيلات ذلك ؛ ولذلك يأخذ الكلام عن التوحيد والعبادة المحلَ الأكبر في السورة ويكاد القسم الأخير منها يختص بذلك

إن محور سورة الأعراف من سورة البقرة هو قوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ولهذا المحور ارتباطاته في سورة البقرة ، وامتداداته ، وتبدأ سورة الأعراف فتأمر هذه الأمة باتباع ما أنزل إليها ، وتخاطب الناس جميعاً أن يتبعواما أنزل على رسول الله ﷺ وتعد من يتبع وتنذر من يخالف ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرّسول النبيّ الأميّ ..** ﴾ فسورة الأعراف تفصّل في المحور وامتداداته وارتباطاته ، وتبني عليه في سياقها الخاص الآخذ بعضه برقاب بعض ضمن ترابط وتلاحم كاملين يستطيع المتأمل ـــ أدنى تأمل ـــ أن يراهما ، وسنرى تفصيل ذلك .

....

وسورة الأعراف تبدأ بالأحرف (الٓمٓصٓ) فهي تبدأ بالأحرف نفسها التي ابتدئت بها سورتا البقرة وآل عمران ، مع زيادة (ص) وكنا ذكرنا من قبل أن فواتح السور تؤدي خدمات متعدّدة منها أنها تعتبر مفاتيح من مفاتيح الفهم للوحدة القرآنية ، وسيتضح هذا الموضوع معنا شيئاً فشيئاً وسنرى أن الحرف (ص) إذا وجد في سورة يكون علامة على شيء له صلة بهذا الموضوع . وكلّ ما نقوله هنا : إن مجيء الأحرف الثلاثة التي بدئت بها سورة البقرة مع زيادة الحرف (ص) في قسم واحد يشير إلى انطلاقة جديدة بعد جولات :

لنتذكر أن سورة البقرة بدأت بقوله تعالى ﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين** ﴾ ثمّ سارت حتى وصلت إلى قصة آدم التي انتهت بقوله تعالى : ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ والصلة واضحة بين الآيتين هناك ، فإذ تأتي سورة الأعراف مبدوءة بنفس الأحرف مع زيادة حرف الصاد ، فكأنها تشير إلى ذلك الربط للانطلاق منه إلى تفصيل جديد ، إنّ مجيء سورة الأعراف وابتداءها بقوله تعالى ﴿ **الٓمٓصٓ** ﴾ أي بالأحرف التي بدأت بها سورة البقرة مع زيادة « ص » التي فهم منها ابن عباس أنها تشير إلى التفصيل كما سنرى ، والتي تفصل آية فيها حرف الصاد ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ كل ذلك فيه إشارات لمن تأمل . وسنرى أن لمجيء الصاد هنا زيادة على « الٓمٓ » معنى خاصاً له صلة في الدلالة على السياق القرآني العام ، وهو شيء سنراه عند سورة « مريم » وسورة « ص » وهو مرتبط بذكر « ص » هنا ، ومن ثم فإننا نؤخر الكلام عنه إلى هناك .

نُقول :

١ ــ قال الألوسي في تقديمه لسورة الأعراف : أخرج أبو الشيخ وابن حبان عن قتادة قال : هي مكية إلا آية ﴿ **واسألهم عن القرية** ﴾ وقال غيره إن هذا إلى ﴿ **وإذ أخذ ربك** ﴾ مدني . وأخرج غير واحد عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية ولم يستثنيا شيئاً ...... وكلها محكم ، وقيل : إلا موضعين ، الأول ﴿ **وأملي لهم** ﴾ فإنه نسخ بآية السيف ، والثاني ﴿ **خذ العفو** ﴾ فإنه نسخ بها أيضاً عند ابن زيد ، وادعى أيضاً ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ كذلك وفيما ذكر نظر »

٢ ــ ذكرنا من قبل أن الذين تكلموا عن الوحدة القرآنية ، والمناسبات بين السور

إما أنهم تكلموا عن هذا الموضوع من خلال صلة أوائل السورة اللاحقة بأواخر السورة السابقة ، أو من خلال الوحدة الموضوعية للقرآن بمعنى : أن المعاني القرآنية تتكامل شيئاً فشيئاً في هذا القرآن ، وكنموذج على الشيئين معاً نذكر ما قاله السيوطي في المناسبة بين سورة الأعراف وسورة الأنعام : قال :

ومناسبتها لما قبلها أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق وفيها ﴿ **هو الذي خلقكم من طين** ﴾ وقال سبحانه في بيان القرون ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ وأشير إلى ذكر المرسلين ، وتعداد الكثير منهم ، وكان ما ذكر على وجه الإجمال جيء بهذه السورة بعدها مشتملة على شرحها وتفصيله ، فبسط فيها قصة آدم وفصّلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية هلاكهم أكمل تفصيل ، ويصلح هذا أن يكون تفصيلًا لقوله تعالى ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ ولهذا صدر السورة بخلق آدم الذي جعله في الأرض خليفة ، وقال سبحانه في قصة عاد ﴿ **جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ وفي قصة ثمود ﴿ **جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ وأيضاً قال سبحانه فيما تقدم ﴿ **كتب على نفسه الرحمة** ﴾ وهو كلام موجز ، وبسطه سبحانه هنا بقوله تعالى : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون** ﴾ الخ ، وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأولى فهو أنه قد تقدم ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه** ﴾ ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه** ﴾ وافتتح هذه بالأمر باتباع الكتاب ، وأيضاً لما تقدم ﴿ **ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ قال جل شأنه في مفتتح هذه ﴿ **فلنسألنّ الذين أرسل إليهم** ﴾ الخ ، وذلك من شرح التنبئة المذكورة ، وأيضاً لما قال سبحانه ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ الآية ، وذلك لا يظهر إلا في الميزان ؛ افتتح هذه بذكر الوزن فقال عزّ من قائل ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ ثم من ثقلت موازينه : وهو من زادت حسناته على سيئاته ، ثم من خفت وهو على العكس ، ثم ذكر سبحانه أصحاب الأعراف وهم –على أحد الأقوال–: من استوت حسناتهم وسيئاتهم).

وكما ترى فإن في هذه اللفتات معاني صحيحة فالوحدة القرآنية لها أكثر من مظهر

٣ — وممّا قدم به صاحب الظلال لسورة الأعراف هذه المقتطفات :

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة . وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة .. ولكن بينما سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها ؛ وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها ؛ وتواجه الجاهلية العربية في حينها — وكل جاهلية أخرى كذلك . مواجهة صاحب الحق

الذي يصدع بالحق ، وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة الموفورة التي تحدثنا عنها إجمالًا وتفصيلًا ونحن نقدم السورة ونستعرضها ووقفنا أمامها ما شاء الله أن نقف .. بينما سورة الأنعام تتخذ هذا المنهج ، وتسلك في الطريق .. نجد سورة الأعراف ــ وهي تعالج موضوع العقيدة كذلك ــ تأخذ طريقاً آخر ، وتعرض موضوعها في مجال آخر . إنها تعرضه في مجال التاريخ البشري .. في مجال رحلة البشرية كلها من الجنة والملأ الأعلى ، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها .. وفي هذا المدى المتطاول تعرض « موكب الإيمان » من لدن آدم « عليه السلام » إلى محمد عليه الصلاة والسلام ــ تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ . يواجه بها البشرية جيلًا بعد جيل ، وقبيلًا بعد قبيل .. ويرسم سياق السورة في تتابعه : كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب . وكيف جاوبته ؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد ، وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة ؟ إنها رحلة طويلة .. ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة وتقف منها عند معظم المعالم البارزة ، في الطريق المرسوم . ملامحه واضحة ومعالمه قائمة ، ومبدؤه معلوم ، ونهايته مرسومة .. والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة . ثم تقطعه راجعة .. إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى ..

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء ، ممثلة في شخصين اثنين .. آدم وزوجه .. أبوي البشر .. وانطلق معهما الشيطان . [ممهلًا] من الله في غوايتهما وغواية ذراريهما ، ومأخوذ عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك ومبتلى كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ، ليأخذوا عهد الله بقوة ، أو ليركنوا إلى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذي أخرجهما من الجنة؛ وليسمعوا الآيات التي يحملها إليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذي لا يني يجلب عليهم بخيله ورَجِله ، ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ! .

انطلقت البشرية من هناك .. من عند ربها سبحانه .. انطلقت إلى الأرض تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذي لا ينجو منه شقي ولا سعيد .. ثم ها هي ذي تؤوب ! ها هي ذي راجعة إلى ربها الذي أطلقها في هذا المجال .. ها هي ذي تحمل ما كسبت طوال

الرحلة المرسومة .. من ورد وشوك . ومن غال ورخيص ، ومن ثمين وزهيد ، ومن خير وشر ، ومن حسنات وسيئات . ها هي ذي تعود في أصيل اليوم .. فقد انطلقت في مطلعه ! .. وها نحن أولًا نلمحها من خلال السياق في السورة موقورة الظهور بالأحمال ــ أيا كانت هذه الأحمال ــ ها هي ذي عائدة إلى ربها بما معها . تطلع في الطريق ، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير حتى إذا عادت إلى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب في خشية ووجل .. إنّ كل فرد قد عاد بحصيلته فرداً .. ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ﴾ : وكل فرد على حدة يلاقي حسابه ويلقى جزاءه .. ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية فوجاً فوجا . إلى جنة أو إلى نار . حتى تغلق الأبواب التي فتحت لاستقبال المغتربين العائدين . فقد كانوا هنالك في هذه الأرض مغتربين : ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ ..

ومع الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل . معارك الهدى والضلال معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين . ويعرض الصراع المتكرر ؛ والمصائر المتشابهة . وتتجلى صحائف الإيمان في إشراقها ووضاءتها ؛ وصحائف الضلال في انطماسها وعتامتها ، وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين . حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير .. وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ في سياق السورة . فبعد كل مرحلة هامة يبدو وكما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة : كلمة تعقيب للإنذار والتذكير .. ثم يمضي .

إنها قصة البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً . تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية ، ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاول .. حتى تنتهي إلى غايتها الأخيرة في نقطة المنطلق الأول .. وهي وجهة أخرى في عرض موضوع العقيدة غير وجهة سورة الأنعام ــ وإن تلاقت السورتان أحياناً في عرض مشاهد المكذبين وعرض مشاهد القيامة ومشاهد الوجود ــ وهو مجال آخر للعرض غير مجال الأنعام ، واضح التميز ، مختلف الحدود .

ذلك إلى طبيعة التعبير في السورتين . فالتعبير في كل سورة يناسب منهجها في عرض الموضوع . وبينما يمضي السياق في الأنعام في موجات متدافعة وبينما تبلغ المشاهد دائماً

درجة اللألاء والتوهج والالتماع ، وتبلغ الإيقاعات درجة الرنين والسرعة القاصفة والاندفاع .. إذا السياق في الأعراف يمضي هادىء الخطو ، سهل الإيقاع ، تقريري الأسلوب . وكأنما هو الوصف المصاحب للقافلة في سيرها المديد ، خطوة خطوة ، ومرحلةمرحلة ، حتى تؤوب ! وقد يشتد الإيقاع أحياناً في مواقف التعقيب ؛ ولكنه سرعان ما يعود إلى الخطو الوئيد الرتيب !

.. وهما ـــ بعد ـــ سورتان مكّيتان من القرآن .. !!! .

كلمة في أقسام سورة الأعراف ومقاطعها

تتألف سورة الأعراف من ثلاثة أقسام ، القسم الأول : ويتألف من مقدمة السورة ومقطع واحد ، والقسم الثاني : ويتألف من أربعة مقاطع ، والقسم الثالث : ويتألف من مقطعين ، وسنرى تفصيلات ذلك وأدلّته .

مقدمة السورة

تبدأ السورة بمقدمة مؤلفة من تسع آيات تحدد مضمون السورة على ضوء محورها وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

المعنى العام :

يذكر الله عز وجل في هذه المقدمة أنه أنزل هذا القرآن على رسوله ﷺ وأنّ على رسوله ﷺ ألا يتحرّج في إبلاغه ، والإنذار به ، وأن الله أنزله على رسوله ﷺ من

أجل أن ينذر الكافرين وأن يذكّر المؤمنين . ثم أمر الله عز وجل الناس أن يقتفوا آثار النّبي الأمّي الذي جاءهم بكتاب من عند الله رب كل شيء ومليكه . ثم نهاهم عن أن يخرجوا عما جاءهم به الرسول ﷺ إلى غيره ، فيكونوا قد عدلوا عن حكم الله إلى حكم غيره ، ثمّ بيّن أن التذكّر قليل ، والغفلة كثيرة . ثمّ هدّد الله عزّ وجلّ هؤلاء الغافلين ، مذكّراً بعقابه في الدنيا والآخرة ، فبيّن أن كثيراً من القرى أهلكها الله بمخالفة رسله وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولًا بذلّ الآخرة ، وأن هذه القرى الهالكة منهم من جاءهم أمر الله وبأسه ونقمته ليلا ، ومنهم من جاءهم بأسه في قيلولتهم ووقت استراحتهم وسط النهار ، وكلا الوقتين المذكورين وقت غفلة ولهو ، فما كان قول هؤلاء المكذبين عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنّهم حقيقون بهذا ، ثم بيّن تعالى أنّه سيسأل الجميع ، الرّسل والمرسَل إليهم ، ويسأل الله الأمم يوم القيامة عمّا أجابوا رسله فيما أرسلهم به . ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته . ويخبر الله الجميع بما قالوا وما عملوا من قليل وكثير ، وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور . مع الإعلام بكون الوزن للأعمال بالحق ، فلا يظلم تعالى أحداً ، والوزن يتحدّد به الفلاح والخسران ، فالمفلح من ثقلت موازينه ، والخاسر من خفّت موازينه ، بسبب ظلمهم في مواقفهم من آيات الله .

المعنى الحرفي :

﴿ **الٓمٓصٓ** ﴾ نقل ابن كثير هنا ما رواه ابن جرير عن ابن عباس في معناها (أنا الله أُفصّل) ونقل كذلك هذا القول عن سعيد بن جبير . وقال النسفي : (قال الزجاج : المختار في تفسيره ما قال ابن عباس رضي الله عنه : أنا الله أعلم وأفصّل) وأقول : إن هذه الأحرف ليس في تفسيرها نص ، وكل ما قاله المفسرون هو ملاحظات لاحظوها ففهموا منها فهماً ، وقد رأينا في أول تفسير سورة البقرة مجموعة ملاحظات حول هذه الأحرف ، ونلاحظ هنا أن ابن عباس قد فهم أن كل حرف من هذه الأحرف هو جزء كلمة يتشكل من المجموع جملة تنسجم مع معنى السورة ﴿ **كتاب أنزل إليك** ﴾ أي هذا كتاب وهو القرآن ﴿ **فلا يكن في صدرك حرجٌ منه** ﴾ أي شك فيه ، وسمى الشك حرجاً لأن الشاكّ ضيّق الصدر حرجه كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه ، أو المراد : فلا يكن صدرك حرج منه بتبليغه لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم

عنه وأذاهم فكان يضيق صدره من الأذى ولا ينشط له ، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم والنهي متوجه إلى الحرج . والمعنى : هذا الكتاب أنزلته إليك فلا يكن بعد إنزاله حرج في صدرك ﴿ **لتنذر به** ﴾ أي : أنزل إليك لإنذارك به ﴿ **وذكرى للمؤمنين** ﴾ أي : لتنذر به الكافرين ، وتذكّر به المؤمنين ، فهذا الكتاب للإنذار والذكرى ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ أي : الكتاب والسُنة لأن كليهما وحي منزّل . فما قصّه الله علينا في كتابه ، أو قصّه علينا رسوله ﷺ من أخبار الماضين ، وما أمر الله به في القرآن أو أمر به رسوله ﷺ كل ذلك وغيره من الكتاب والسنة وحي ﴿ **ولا تتبعوا من دونه** ﴾ أي من دون الله ، أو لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول ﷺ إلى غيره ؛ فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿ **أولياء** ﴾ أي ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ﴿ **قليلًا ما تَذَكّرون** ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره والمعنى : تتذكرون تذكراً قليلًا ؛ ومن ثم ، فالذكر الكثير والتذكر الكثير هما طريق الهداية من الانحراف ﴿**وكم من قرية أهلكناها**﴾ أي كثير من القرى أردنا إهلاكها ﴿**فجاءها بأسنا**﴾ أي فجاء أهلها عذابنا ﴿**بياتاً أو هم قائلون**﴾ أي بائتين في الليل، أو قائلين في النهار، من القيلولة، وخص هذان الوقتان لأنهما وقتا الغفلة فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع . قال النسفي : (وقوم لوط عليه السلام أهلكوا بالليل وقت السحر ، وقوم شعيب عليه السلام وقت القيلولة) ﴿ **فما كان دعواهم** ﴾ أي دعاؤهم وتضرعهم ﴿ **إذ جاءهم بأسنا** ﴾ أي لما جاءهم أوائل العذاب ﴿ **إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ أي اعترفوا بالظلم على أنفسهم والشرك حين لم ينفعهم ذلك ﴿ **فَلَنَسْألَنَّ الذين أرسل إليهم** ﴾ أي فَلَنَسْألَنَّ المرسل إليهم وهم الأمم عما أجابوا به رسلهم ﴿ **ولنسألنّ المرسلين** ﴾ أي عمّا أجيبوا به ﴿ **فلنقصّن عليهم** ﴾ أي فلنقصنّ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿ **بعلم** ﴾ أي عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة ، وأقوالهم وأفعالهم ﴿ **وما كنا غائبين** ﴾ أي عنهم وعمّا وجد منهم ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ أي : ووزن الأعمال يوم يسأل الله الأمم ورسلهم العدل . قال النسفي : (ثم قيل : توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان إظهاراً للنصفة وقطعاً للمعذرة) وقيل هو عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل ، والله أعلم بالكيفية التي يتم بها ذلك وسيأتي كلام على هذا الموضوع في الفوائد ﴿ **فمن ثقلت موازينه** ﴾ أي فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن وقدر — وهي الحسنات — أو ما توزن به حسناتهم ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون ﴿ **ومن خفَّت**

موازينه ﴾ أي هم الكفار فإنه لا إيمان لهم ليعتبر معه عمل . فلا يكون في ميزانهم خير فتخف موازينهم ﴿ **فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ أي يجحدون بالآيات الحجج ، والظلم بها وضعها في غير موضعها أي جحودها وترك الانقياد لها .

نقول :

وقف صاحب الظلال وقفات كثيرة عند الآيات التي مرت معنا والتي تشكّل مقدمة سورة الأعراف ، فأطنب وأجادَ — رحمه الله — وهذه مقتطفات من كلامه عن الآيات ، وخاصة عند قوله تعالى ﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ..** ﴾

قال رحمه الله : « كتاب أنزل إليك للإنذار به والتذكير .. كتاب للصدع بما فيه من الحق ولمواجهة الناس بما لا يحبون ؛ ولمجابهة عقائد وتقاليد وارتباطات ؛ ولمعارضة نظم وأوضاع ومجتمعات . فالحرج في طريقه كثير ، والمشقة في الإنذار به قائمة لا يدرك ذلك — إلا من يقف بهذا الكتاب هذا الموقف ؛ وإلا من يعاني من الصدع به هذه المعاناة ؛ وإلا من يستهدف من التغيير الكامل الشامل في قواعد الحياة البشرية وجذورها ، وفي مظاهرها وفروعها ، ما كان يستهدفه حامل هذا الكتاب أول مرة — ﷺ — ليواجه به الجاهلية الطاغية في الجزيرة العربية وفي الأرض كلها ..

وهذا الموقف ليس مقصوراً على ما كان في الجزيرة العربية يومذاك ، وما كان في الأرض من حولها .. إن الإسلام ليس حادثاً تاريخياً ، وقع مرة ، ثم مضى التاريخ وخلّفه وراءه .

إن الإسلام مواجهة دائمة لهذه البشرية إلى يوم القيامة ... وهو يواجهها كما واجهها أول مرة ، كلما انحرفت هي وارتدت إلى مثل ما كانت فيه أول مرة : إن البشرية تنتكس بين فترة وأخرى وترجع إلى جاهليتها — وهذه هي « الرجعية » البائسة المرذولة — وعندئذ يتقدم الإسلام مرة أخرى ليؤدي دوره في انتشالها من هذه « الرجعية » مرة أخرى كذلك ؛ والأخذ بيدها في طريق التقدم والحضارة ؛ ويتعرض حامل دعوته والمنذر بكتابه للحرج الذي تعرض له الداعية الأول — ﷺ — وهو يواجه البشرية بغير ما استكانت إليه من الارتكاس في وحل الجاهلية ، والغيبوبة في ظلامهاالطاغي ! ظلام التصورات . وظلام الشهوات . وظلام الطغيان والذل . وظلام

العبودية للهوى الذاتي ولأهواء العبيد أيضاً ! ويتذوق من يتعرض لمثل هذا الحرج ، وهو يتحرك لاستنقاذ البشرية من مستنقع الجاهلية ، طعم هذا التوجيه الإلهي للنبي ﷺ :

﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه ، لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾ . ويعلم ــ من طبيعة الواقع ــ من هم المؤمنون الذين لهم الذكرى ، ومن هم غير المؤمنين الذين لهم الإنذار . ويعود هذا القرآن عنده كتاباً حياً يتنزَّل اللحظة في مواجهة واقع يجاهده هو بهذا القرآن جهاداً كبيراً ..

والبشرية اليوم فى موقف كهذا الذي كانت فيه يوم جاءها محمد رسول الله ﷺ بهذا الكتاب ، مأموراً من ربه أن ينذر به ويذكِّر ؛ وألا يكون في صدره حرج منه وهو يواجه الجاهلية ، ويستهدف تغييرها من الجذور والأعماق ..

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاءها هذا الدين ، وانتكست البشرية إلى جاهلية كاملة شاملة للأصول والفروع والبواطن والظواهر والسطوح والأعماق » .

....

وقول الله ــ سبحانه ــ لرسوله ﷺ : ﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه** ﴾ ..

يصور حالة واقعية لا يمكن أن يدركها اليوم إلا الذي يعيش في جاهلية وهو يدعو إلى الإسلام ، ويعلم أنه إنما يستهدف أمراً هائلًا ثقيلًا ، دونه صعاب جسام .. يستهدف إنشاء عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال مغايرة تمام مغايرة لما هو كائن في دنيا الناس . ويجد من رواسب الجاهلية في النفوس ، ومن تصورات الجاهلية في العقول ، ومن قيم الجاهلية ، ومن ضغوطها في الأوضاع والأعصاب ، ما يحس معه أن كلمة الحق التي يحملها ، غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ، مستنكرة في القلوب ، كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس في جاهليتهم في التصورات والأفكار ، والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد ، والأوضاع والارتباطات .. ومن ثَم يجد في صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل الحرج الذي يدعو الله ــ سبحانه ــ نبيه ﷺ ألا يكون في صدره من هذا الكتاب شيء منه ، وأن يمضي به ينذر ويذكر ، ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار ، ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء ..

ولأن الأمر كذلك من الثقل ، ومن الغرابة ، ومن النفرة ، ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذي تستهدفه هذه العقيدة في حياة الناس وتصوراتهم ، فإن السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم ، ويذكرهم بمصائر المكذبين . ويعرض عليهم مصارع الغابرين .. جملة قبل أن يأخذ في القصص المفصّل عنهم في مواضعه من السياق : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتاً أوهم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين * فلَنسألَنَّ الذين أُرسل إليهم ولنسألن المرسَلين * فلنقصنّ عليهم بعلم وما كنا غائبين * والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾

....

« وفي الخطاب للرسول ﷺ كان الكتاب منزلًا إليه بشخصه ﴿ **كتاب أنزل إليك** ﴾ .. وفي الخطاب للبشر كان الكتاب ــ كذلك ــ منزلًا إليهم من ربهم : ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ .. فأما الرسول ﷺ فالكتاب منزل إليه ليؤمن به وينذر ويذكّر . وأما البشر فالكتاب منزل إليهم من ربهم ليؤمنوا به ويتبعوه ، ولا يتبعوا أمر أحد غيره .. والإسناد في كلتا الحالتين للاختصاص والتكريم والتخصيص والاستجاشة . فالذي ينزل له ربه كتاباً ، ويختاره لهذا الأمر . ويتفضّل عليه بهذا الخير ، جدير بأن يتذكر وأن يشكر ، وأن يأخذ الأمر بقوة ولا يستحسر .. »

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ قال ابن جرير : في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله « ما هلك قوم حتى يُعْذروا من أنفسهم » حدثنا بذلك ابن حميد ... عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ما هلك قوم حتى يُعْذروا من أنفسهم » قال : قلت لعبد الملك بن ميسرة (رواي الحديث عن ابن مسعود) : كيف يكون ذلك ؟ قال فقرأ هذه الآية ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين** ﴾ أخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :« كلكم راع وكلكم

مسؤول عن رعيته ، فالإمام يُسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » قال الليث : وحدثني ابن طاووس مثله ، ثم قرأ ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين بدون هذه الزيادة . وبمناسبة الآية نفسها قال الألوسي ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ بيان ــ كما قال الطبرسي ــ لعذابهم الأخروي إثر بيان عذابهم الدنيوي .

﴿ **ولنسألن المرسلين** ﴾ ماذا أجيبوا ، والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم، والمنفي في قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿**فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جانّ** ﴾ سؤال الاستعلام فلا منافاة بين الآيتين .....

« وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان الثوري أنه يقال للذين أرسل إليهم : هل بلّغكم الرسل ؟ ويقال : للمرسلين ماذا ردّوا عليكم . وأخرج أيضاً عن أبي عبد الرحمن أنه تلا هذه الآية فقال : يسأل العبد يوم القيامة عن أربع خصال يقول ربك : ألم أجعل لك جسداً ففيم أبليته ؟ ألم أجعل لك علماً ففيم عملت بما علمت ؟ ألم أجعل لك مالًا ففيم أنفقته في طاعتي أم في معصيتي ؟ ألم أجعل لك عمراً ففيم أفنيته ؟ . وأخرج هو وغيره عن طاووس أنه قرأ ذلك فقال : الإمام يسأل عن الناس ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » ولعل الظاهر أن سؤال كل من المرسل إليهم والمرسلين هنا عن أمر يتعلق بصاحبه ، ولايأبى هذا أن المكلفين يسألون عن أمور أخر ، والمواقف يوم القيامة شتى ، ويَسأل السيدُ ذو الجلال عباده فيها عن مقاصد عديدة فطوبى لمن أخذ بعضده السعد فأجاب بما ينجيه .

وتخصيص سؤال المرسلين عليهم السلام بما ذكرنا هو الذي تشهد به الأخبار وتدل عليه الآثار وفي القرآن ما يؤيد ذلك فقد قال سبحانه ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾ . (المائدة : ١٠٩)

٣ ــ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **والوزن يومئذ الحق** ﴾ قال الألوسي عن هذا الموضوع :

« والوزن ــ كما قال الراغب ــ معرفة قدر الشيء يقال : وزنته وزنا وزنة ، والمتعارف فيه عند العامة ما يقدر بالقسطاس والقبان . واختلف في كيفيته يوم القيامة . والجمهور ــ كما قال القاضي ــ على أن صحائف الأعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان لينظر إليه الخلائق إظهاراً للمعدلة ، وقطعاً للمعذرة ، كما يسألون عن أعمالهم

فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ، ولا تعرض لهم لماهية هاتيك الصحائف والله تعالى أعلم بحقيقتها .

ويؤيد ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه . والبيهقي وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر فيقول سبحانه : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون فيقول : لا يارب فيقول سبحانه : أفلك عذر وحسنة ؟ فيهاب الرجل فيقول : لا يارب فيقول جل شأنه : بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول : يارب ما هذه البطاقة من هذه السجلات ؟ فيقال إنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله تعالىٰ شيء » وهذه الشهادة ــ على ما قاله القرطبي نقلًا عن الحكيم الترمذي ــ ليست شهادة التوحيد لأن من شأن الميزان أن يوضع في أحدىٰ كفتيه شيء وفي الأخرى ضده ، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة ، ومن المستحيل أن يؤتي لعبد واحد بكفر وإيمان معاً ، فيستحيل أن توضع شهادة التوحيد في الميزان أما بعد الإيمان فإن النطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة فتوضع في الميزان كسائر الحسنات . وأيد ذلك بقوله جل وعلا في الحديث « إن لك عندنا حسنة » دون أن يقول سبحانه : إيمانا .

« وظاهر النظم الكريم أن الوزن ليس مختصاً بالمسلمين بل الكفار أيضاً توزن أعمالهم التي لا توقّف لها على الإسلام وإلىٰ ذلك ذهب البعض . وادّعىٰ القرطبي أن الصحيح أنه يخفف بها عذابهم وإن لم تكن راجحة ، كما ورد في حق أبي طالب . وذهب الكثير إلىٰ أن الوزن مختص بالمسلمين . وأما الكفار فتحبط أعمالهم كيفما كانت ، وهو أحد الوجهين في قوله تعالىٰ ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ ولا يخفف بها عنهم من العذاب شيء ، وما ورد من التخفيف عن أبي طالب فقد قال السخاوي أن المعتمد أنه مخصوص به ، وعلى هذا فلابد من ارتكاب خلاف الظاهر في الآية »

« وفي الأخبار ما هو صريح في أن الميزان جسماني فقد أخرج الحاكم وصححه عن سلمان عن النبي ﷺ قال : « يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسع فتقول الملائكة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » وفي رواية ابن المبارك

واللالكائي عنه قال : يوضع الميزان وله كفتان لو وضع في احداهما السمٰوات والأرض ومن فيهن لوسعه فتقول الملائكة . من يزن هذا ؟ الحديث ، اهـ كلام الألوسي

قال ابن كثير بمناسبة ذكر المؤمنين في الآية :

(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال ، وإن كانت أعراضاً ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً قال البغوي : « يروى هذا عن ابن عباس » كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان — أو غيايتان – أو فِرْقَان من طير صواف . ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من أنت فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك وأظمأت نهارك . وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر فيأتي المؤمن شاب حسن اللون طيب الروح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح » وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق . وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يُؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلًا ، كل سجل مد البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله : فيقول يارب ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان . قال رسول الله ﷺ : فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة » رواه الترمذي بنحو من هذا وصححه . وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث « يؤتي يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ ﴿ **فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** ﴾ وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه ، والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً . فتارة توزن الأعمال . وتارة محالها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم »

أقول : لقد تسرّع بعضهم في المقام إذ أنكر على أهل العلم تحقيقاتهم ، فما كلّ من حقق في مثل هذه الشؤون حقّق بعقلية غير إسلامية ، ولا كل من تكلم تكلم ليجادل ، إنّ هناك كثيراً من الأمور لابدّ فيها من التحقيق ، وإذا ترك أهل الحق الكلام فيها فإن ذلك يعطي فرصاً لأهل الضلال أن يشككوا أو ينتقدوا .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن محور سورة الأعراف هو قوله تعالى ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ولاحظنا أن المقدمة ذكرت أن هذا القرآن هدى الله ، وأن الله أنزله وأمر باتباعه ، ثم بين ما فعل بالقرى التي رفضت هديه ، وماذا سيكون حال الجميع يوم القيامة . والصلة واضحة بين مقدمة السورة وبين محورها ، ومن أجل زيادة الإيضاح نقول :

١ ـــ في محور السورة من البقرة نجد قوله تعالى ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينكم مني هدى** ﴾ وفي مقدمة سورة الأعراف نجد قوله تعالى ﴿ **كتاب أنزل إليك** ﴾ وبينهما اتصال واضح .

٢ ـــ في محور السورة نجد قوله تعالى ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ وفي مقدمة سورة الأعراف نجد ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ وبينهما اتصال واضح .

٣ ـــ في محور السورة نجد قوله تعالى ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وفي مقدمة السورة نجد قوله تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا يظلمون** ﴾ والصلات بين ما ورد في المحور وبين هذه المعاني واضحة .

فالمقدمة عرضت معاني المحور ، وقدمت للسياق الخاص لسورة الأعراف بما يناسب معانيها ـــ كما سنرى ـــ فلننتقل إلى المقطع الأول :



المقطع الأول

ويمتد من الآية العاشرة إلى نهاية الآية (٥٨) ويبدأ المقطع بالحديث عن قصة الإنسان ، وعن قصة آدم عليه السلام ، ثمّ تأتي نداءات للجنس البشري مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا بني آدم** ﴾ ! ﴿ **يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً** ﴾ ﴿ **يا بني آدم لا**

يفتننكم الشيطان ﴾ ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم ...** ﴾ ﴿ **يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم** ﴾

ويختم المقطع بفقرة مبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم** ﴾ والملاحظ أن المقطع يبدأ بآية فيها كلمة الشكر : ﴿ **ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون** ﴾ وينتهي بآية فيها كلمة الشكر :﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** ﴾

إن وحدة معاني المقطع وكون المقطع اللاحق يبدأ بعرض قصص أقوام مما يشير إلى بدء جديد كل ذلك دلّنا على بداية المقطع ونهايته ومن أدنى تأمل للمقطع نرى أنّه يتألف من ثلاث فقرات وهذا هو المقطع :

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا

مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ

﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ

لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ
وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا
لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى
صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن
تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ
أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ
فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ
يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ

ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

« الفقرة الأولى »

المعنى العام للمقطع :

يبدأ المقطع بذكر امتنان الله على عبيده فيما مكّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً و جعل فيها رواسي وأنهاراً ، وجعل فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش أي مكاسب وأسباباً يكسبون منها ، ويتّجرون ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر . ثم نبّه الله عز وجل بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم ، مبيناً لهم عداوة عدوهم إبليس ، وما هو منطوٍ عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ؛ ليحذروه ، ولا يتبعوا طرائقه ، وذلك أنه تعالى لمّا خلق آدم عليه السلام بيده من طين ، وصوّره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسجود تعظيماً لشأن الله تعالى ، فسمعوا كلهم وأطاعوا ، إلا إبليس لم يكن مع الساجدين . ثم يقصّ الله ما كان بعد ذلك ، إذ سأل إبليس عما أحرجه وألزمه واضطره ألا يسجد وقد أمره بالسجود ، فكان اعتذاره بأنه خير من آدم ، وهذا هو الذي منعه من السجود ـــ في زعمه ـــ وهو اعتذار أكبر من الذنب ، كأنه امتنع عن الطاعة لأنّه لايؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه : أنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له ؛ ثمّ بيّن بأنّه خير منه بأنه خُلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ، فشذ من بين الملائكة لترك السجود ، فلهذا أبلس من الرحمة أي : أويس من الرحمة ، فأخطأ ، قبّحه الله في قياسه ، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً فإن الطين

من شأنه الرازنة والحلم والأناة والتثبت ، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح . والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة لهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع ، والإنابة ، والاستكانة ، والانقياد ، والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة ، وأصرّ إبليس ـــ عليه اللعنة ـــ على المعصية ، فأصدر الله أمره الضرورى الكوني لإبليس بالخروج من الجنة ؛ بسبب عصيانه الأمر ، وخروجه عن الطاعة ؛ لأنه ما كان له أن يبقى فيها مع كبره وعصيانه ، أمره أن يخرج صاغراً ذليلاً حقيراً ؛ معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده ، فعند ذلك استدرك اللعين ، وسأل النظرة إلى يوم الدين ، فأجابه تعالى إلى ما سأل ؛ لماله في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع ، ولا معقّب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، فلمّا استوثق اللعين من النظِرة ، أخذ في المعاندة والتمّرد ، معلناً بعد أن أمن أخذ الله السريع أنّه كما أضلّه الله وأغواه فإنه سيضل عباد الله ويغويهم وسيقعد لذرية آدم ـــ الذي أُبعد بسببه ـــ على طريق الحق ، وسبيل النجاة ـــ صراط الله ـــ ليضلهم فلا يعبدوا الله ولا يوحدوه ، وأعلن أنه سيشككهم في آخرتهم ، ويرغبهم في الدنيا ، ويسفه عليهم أمر دينهم ، ويشهّي لهم المعاصي ، وبالجملة فإنه أعلن أنه سيأتي الإنسان من كل طريق ، فالخير يصدهم عنه ، والشر يحسّنه لهم ، حتى لا يكون أكثر الخلق موحدين . هذه هي المعاني التي أعلنها إبليس يوم طرده الله من رحمته ، وكان إعلانه هذا أثراً عن توهّمه وظنّه وتقديره ، وقد تحقّق ذلك على أرض الواقع ، فأكد الله تعالى اللعنة على إبليس والطرد والإبعاد ، والنفي عن كل الملأ الأعلى ، وقد أوعد إبليس ومن تبعه بأن تملأ جهنم منهم أجمعين ؛ على تمردهم وعصيانهم ، ثم ذكر الله تعالى كيف أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها ، من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ، فعند ذلك حسدهما الشيطان ، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ؛ ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ، وقال كذباً وافتراءً لهما : إن الله ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا لئلا تكونا ملَكيْن أو خالديْن في الجنة . ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما ، وحلف لهما بالله أنه ناصح لهما ، كيف لا وهو أقدم منهما بالمكان ، وأعلم بما فيه ، فخدعهما فصدقاه لأنه حلف لهما بالله ؛ فانخدعا فأكلا من الشجرة ، فعوقبا مباشرة بكشف العورات فأخذا يتستران بورق الجنة ، وأنبّهما الله عز وجل كيف يتركان الأمر ، ويخالفان النهي ، وينسيان التحذير ، فاعترفا لله وطلبا المغفرة فغفر ، ولكن الذنب لا يمر . فأمر الجميع بالهبوط إلى الأرض ، وأعلمهم أنهم فيها متعادون ؛ جند الله وجند الشيطان ، وأن لهم في الأرض

قراراً ـــ وأعماراً مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر ، وأن الأرض لهم دار مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم وفيها مماتهم ، وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلًا بعمله .

وهكذا فبعد مقدمة السورة الآمرة الناهية ، الواعظة المذكرة ، المنذرة للإنسان تبدأ القصة قصة الجنس البشري يقول صاحب الظلال :

تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشري في الأرض .. وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه في الأرض . وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات مع الكون ، ومن قدرة على التعرف إلىٰ نواميسه واستخدامها . والانتفاع بطاقاته ومقدراته ومدخراته وأقواته : ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكـــم فيها معايش قليلًا ما تشكرون** ﴾ ..

وليس هذا الا التمهيد لعرض قصة النشأة الأولىٰ وتصوير نقطة الانطلاق التي بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة والسياق يركز في هذه السورة على هذه النقطة . ويعرض قصة النشأة ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ومؤثرات عميقة ....

وبهذا المشهد في نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها ، ومصائر المرتحلين جميعاً .. وتلوح طلائع المعركة الكبرىٰ التي لا تهدأ لحظة طوال الرحلة بين هذا العدو الجاهر بالعداوة ، وبني آدم جميعاً . كما تلوح نقط الضعف في الكائن الإنساني جملة ، ومنافذ الشيطان إليه منها .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل وللإنذار والتحذير .. تحذير بني آدم مما جرىٰ لأبويهم من هذا العدو العنيد .. وفي ظل هذا المشهد الذي يقف فيه الشيطان وجهاً لوجه مع آدم وزوجه أبوي البشر . وفي ظل النتيجة التي انتهىٰ إليها الشوط الأول في المعركة يتوجه السياق بالخطاب إلىٰ بني آدم ، ويذكرهم وينذرهم ، ويحذرهم مصيراً كهذا المصير ..... »

وبمناسبة عرض قصة آدم عليه السلام وما جرى تأتي بعد ذلك نداءات لبني آدم ، أولها نداء بترك العري وصلة ذلك بما حدث لآدم وحواء من انكشاف عورتيهما بعد ما أكلا من الشجرة واضحة ، وثانيها نداء بالتحذير من فتنة الشيطان وصلة ذلك بما حدث لآدم من فتنة الشيطان واضحة ، وثالثها نداء بأخذ الزينة للعبادة وترك الإسراف في الطعام والشراب ، وصلة ذلك بما حدث لآدم بسبب الطعام واضحة .

وهكذا تأتي التعقيبات والتوجيهات والدروس المبنية على قصة آدم عليه السلام فالصلات واضحة بين ما مرّ وما سيأتي :

يقول صاحب الظلال :

ولابد أن نلحظ أن مشهد العري بعد ارتكاب المحظور ، والخصف من ورق الجنة ، ثم هذا التعقيب بتذكير بني آدم بنعمة الله في إنزال اللباس الذي يواري سوآتهم والرياش الذي يتزينون به ، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم .. لابد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة ، والتعقيب عليها على هذا النحو إنما يواجه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي العربي المشرك ، حيث كانوا تحت تأثير أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا ، ويُحرّمون أنواعاً من الثياب ، وأنواعاً من الطعام في فترة الحج ، ويزعمون أن هذا من شرع الله ، وأن الله قد حرم عليهم هذا الذي يحرمونه على أنفسهم .. ومن ثم يجيء في استعراض قصة البشرية ، أو في التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية في الجاهلية .. وفي كل جاهلية في الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هي العري ، والكشف ، وقلة الحياء من الله ، وقلة التقوىٰ ؟ ....)

ولنعد إلى عرض المعاني العامة :

فبعد عرض قصة بداية الوجود الإنساني على الأرض ومقدماتها وحيثياتها وقواعدها وقوانينها ، ها نحن الآن على الأرض ، تجري علينا أحكام هذه المقدمة وقواعدها وقوانينها ، فإذا استقرت هذه المعاني يتوجه الله عز وجل بأربعة نداءات لبني آدم : النداء الأول يذكّرهم الله عز وجل بما امتنّ عليهم به ممّا جعل لهم من اللباس والريش . فاللباس لستر العورات وهي السوءات ، والريش ما يتجمل به . فالأول من

الضروريات ، والريش من التكميلات والزيادات ، ثم بين لهم أن لباس التقوى ـــ الذي هو الإيمان والعمل الصالح وسمت ذلك ـــ خير وأفضل وأحسن ، وأن هذا وهذا من آيات الله التي تدل على وجوده وقد جعل الله هذه الآية لمن يتذكّر ويتعظ .

فإذا اتضح للمتذكرين هذا وهذا : نعمة الله عليهم باللباس والزينة ، ونعمة الله بلباس التقوى الذي هو أفخر ما يزين الإنسان .

يوجه الله عز وجل النداء الثاني لبني آدم ، محذراً لهم من إبليس وقبيله ، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والفساد ، والتسبب في هتك عورته ، بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، فلا يكن سبباً لفتنتنا نحن بني آدم ، فينزع عنا اللباس الحسي ، واللباس المعنوي ، فتظهر العورات كلها ، وقد فعل عليه لعنة الله . فخلعت البشرية-إلا قليلًا- اللباس الحسي والمعنوي . ثم بين تعالى أن الشيطان وجنده يروننا ولا نراهم ، وأن سنة الله أن يجعل الشياطين أولياء للكافرين ؛ يطيعونهم ويتبعون أوامرهم ، وهذا هو الواقع ، فحيثما كان إيمان كان لباس حسي ومعنوي ، وحيثما كان الكفر لم يبق هذا ولا هذا ، وبين ذلك ناس يخلعون أو يلبسون على قدر قربهم من الكفر أو الإيمان . ثم بين تعالى كيف أن كثيرين يفعلون الفواحش التي لا تتفق مع اللباس الحسي والمعنوي ، ويدّعون أنهم يفعلون ذلك تقليداً للآباء ، وأنهم يفعلون ذلك طاعة لله ، وكذبوا ؛ لأن الله يأمر بالعدل والإحسان ولا يأمر بالفحشاء ، وما يقولون إلا جهلاً بالله وشرعه وأوامر دينه ، وفي هذا المقام أمر الله رسوله ﷺ أن يبين أن الله يأمر بالعدل والاستقامة في عبادته بأن تكون في محالّها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات ، فيما أخبروا به عن الله ، وما جاؤوا به من الشرائع . وبالإخلاص له في عبادته ؛ فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين : أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك ، بمثل هذا يأمر الله ولكن كما كان في البدء ضلال وهدى ، فسيبقى ضلال وسيبقى ناس يتخذون الشياطين أولياء من دون الله ، ويظنّون أنهم على هدى ، كما نرى الآن المنحرفين عن أمر الله فما من واحد منهم إلا ويظن أنه النموذج الأعظم للإنسان العظيم المحيط بكل شيء ، وإنما قد نفخ الشيطان فيه من الغرور .

ثم يوجه الله عز وجل النداء الثالث لبني آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، بستر العورات ، ولبس الجميل ، وأن يأكلوا ويشربوا بلا سرف ، لأن الله لا يحب

المسرفين . تلك شريعة الله التي أمر الله رسوله ﷺ بالإعلان عنها ، إباحة الزينة ، والطيبات وكيف لا والله خلقها للمؤمنين في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة ، لا يشركهم فيها أحد من الكفار ؛ فإن الجنة محرمة على الكافرين . فشريعة الله إذن إباحة الزينة والطيبات ، وإنّما نهى الله - عزّ وجل - عن الخبائث ، وحرّم وضع الزينة في غير موضعها ، فما أحلى شريعة الله ، وما أجمل آياتها ، وكم فصّل الله هذه الآيات للعالمين ، ثم حدّد الله - عز وجل - ما حرّمه ، وهي الفواحش الظاهرة والباطنة ، والإثم ، والبغي ، والشرك ، والافتراء على الله ، فأما الإثم فالمعصية ، وأما البغي : فأن تعتدي على الناس بغير حق ، وأما الشرك : فأن تعبد مع الله غيره ، وأما القول على الله بغير علم : فأن تصفه بغير صفته ، أو تنسب له ما لم يقله ولم يحكم به . ثم أنذر تعالى أن لكل قرن ميقاتهم المقدّر لهم ، لا يستأخرون عن الأجل المحدّد لهم ساعة ولا يستقدمون ؛ لعل النّاس يتّعظون فيبقوا عندما أحل الله ، ويتركوا ما حرم .

ثمّ يوجه الله عز وجل النداء الرابع لبني آدم : أنه في حالة بعثته رسولًا يقصّ على الناس آياته فإن سنته أن من ترك المحرمات وفعل الطاعات فلا خوف عليه فيما يستقبله ، ولا هو يحزن على ما خلّفه ، وأنّ من كذب بآيات الله واستكبر عن العمل بها فإنّه من أصحاب النار خالداً فيها أبداً .

هذه معاني النداءات الأربعة لبني آدم وهي المعاني الفطرية التي ينبغي أن يعيها كل إنسان عقل قصة أبيه آدم ، وعقل قصة البداية كلها .

وختمت النداءات بقوله تعالى : ﴿ **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وهي نفس المعاني التي تدور حولها سورة الأعراف التي محورها في سورة البقرة ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾

....

ثم يتجه السياق فيتكلم بمجموعة آيات عن الذين كذبوا بآيات الله ، وبمجموعة آيات عن المؤمنين ، فبين بالمجموعة الأولى أنّه لا أحد أظلم مِمّن يفتري على الله

الكذب ، أو يكذب بآيات الله المنزلة ، وأن هؤلاء يأخذون ما كتب لهم في الدنيا من خير وشر ، ورزق وجاه ، وسعادة أو شقاء ، ثم تبدأ شقاوتهم الحقيقية من لحظة الموت إذ تدعوهم الملائكة عند الموت ، وعند قبض أرواحهم إلى النار ، فتؤنبهم وتقرعهم ، سائلة عن آلهتهم التي عبدوها وأخلصوا لها من دون الله أين هي ، تأتيهم وتخلصهم ، فلم يكن عندهم جواب إلا الاعتراف بأن هذه الآلهة المزعومة لا نفع عندها ولا ضر ، وإلا الاعتراف بأنهم كافرون . هؤلاء يقال لهم يوم القيامة ادخلوا مع أمثالكم من الأمم السالفة ، الكافرة من الجن والإنس في النار ، التي كلما دخلت فيها أمة لعنت هذه الأمة أختها ، ثم إذا اجتمعوا فيها جميعاً قال المتأخرون - شاكين إلى الله - أن المتقدمين هم سبب ضلالهم ، ودعوا الله أن يذيق هؤلاء ضعف العذاب على ما ورطوهم في الكفر ، فيكون الجواب : أن الجميع يستحقون ضعف العذاب ولكنهم لجهلهم - حتى بعد دخول النار - لم يعلموا هذا ، وعندئذ يقول المتقدمون للمتأخرين شامتين بالمتأخرين : فذوقوا العذاب بسبب كسبكم ، وإن ادعاءكم الفضل علينا لم ينفعكم شيئاً ، ثم يقرر الله عز وجل أن المكذبين بآياته المستكبرين عنها لا يرفع لهم عمل صالح ، ولا يتقبل منهم دعاء ولا تفتح لأرواحهم - يوم يتوفون - أبواب السماء ، وأن الجنة عليهم حرام ؛ وذلك جزاء إجرامهم ، ولهم زيادة على هذا ، جهنم هي فراشهم ، وهي لحافهم وذلك جزاء ظلمهم .

....

وبعد أن ذُكر حال الأشقياء عُطف بذكر حال السعداء : الذين آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، وما أسهل هذا وأطيبه ، وكيف لا ولم يكلفهم الله إلا ما يستطيعونه . هؤلاء لهم الجنة خالدين فيها أبداً - وما أطيبها من دار ، لا غل في صدور أهلها وتجري من تحتهم الأنهار ، وإذ نالوا هذه الكرامة فإنهم يحمدون الله الذي هداهم لطريق الجنة ، معترفين بأنه لولا الله ما اهتدوا ، ذاكرين أن ما جاءتهم الرسل به حق ، وكافأهم الله على هذا الاعتراف بأن أعلمهم أن هذه الجنة قد أورثهم الله إياها بعملهم ، فبسبب أعمالهم نالتهم الرحمة ، فدخلوا الجنة وتبوأوا منازلهم ، وكل ذلك بفضل الله . هم اعترفوا لله بفضله ، وهو جل جلاله شكر لهم عملهم زيادة في إكرامهم .

وإذ نال المكذبون ما يستحقون ، ونال المؤمنون مايستحقون ، وإذ عرض الله لنا عاقبة المكذبين والمصدقين ، قص علينا ما جرى من حوار بين أهل الجنة وأهل النار ،

وبين أهل الأعراف وأهل الجنة وأهل النار ، ومن هذا الحوار نعرف عاقبة الكبر والكفر ، وعاقبة الإيمان والعمل الصالح .

....

يخبر تعالى أن أهل الجنة يخاطبون أهل النار على جهة التقريع والتوبيخ إذ استقروا في منازلهم فيقولون لهم : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قالوا: نعم فنادى مناد أن لعنة الله مستقرة على الظالمين ، الذين صدوا الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه ، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبل معوجة غير مستقيمة ، وهم بلقاء الله في الدار الآخرة جاحدون ، يكذبون بذلك لايصدقونه ولا يؤمنون به ؛ فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أقوالًا وأعمالًا ، ولما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبّه أن بين الجنة والنار حجاباً : وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذي وصفه الله في سورة الحديد ﴿ **فضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَلِه العذاب** ﴾

وهو الأعراف جمع عرف ، وفي الأصل فكل مرتفع من الأرض تسميه العرب عرفاً ، وحاصل الكلام في أهل الأعراف:أنهم قوم استوَت حسناتهم وسيئاتهم هؤلاء أهل الأعراف يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ، يحبون أهل الجنة ويطمعون أن يدخلوا الجنة ، وهم داخلوها إن شاء الله . فإن الله ما جعل الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم . هؤلاء أصحاب الأعراف يحبون أهل الجنة كما رأينا ، وإذا رأوا أصحاب النار تعوّذوا بالله أن يجعلهم معهم ، وكما أن أهل الجنة يُقرِّعون أهل النار فإن أهل الأعراف يقرّعون أهل النار ، فينادون رجالًا يعرفونهم من أهل النار بسيماهم: ما أغنى عنكم جمعكم (أي كثرتكم) واستكباركم من عذاب الله شيئاً بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنّكال . وعندما يقول أهل الأعراف مايقولونه يقول الله لأهل التكبر والأموال أي : لأهل النار عن أهل الأعراف أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته ثم يأمر بإدخال أهل الأعراف الجنة فما أكثر حسرة أهل النار .

ثم يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ، ينادي الرجل أباه أو أمه فيقول له : قد احترقت فأفض علي من الماء فيقال لهم

أجيبوهم ، فيقولون : إن الله حرمهما على الكافرين ؛ بما كانوا يعملونه في الدنيا باتخاذهم الدين لهواً ولعباً ، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها ، عما أمروا به من العمل للآخرة ، ولذلك فإنهم يعاقبون يوم القيامة بأن يعاملهم الله معاملة المنسيِ من الخير ، يتركهم في النار كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم ذاك وبسبب حجودهم بآيات الله .

وبعد أن بيّن لنا حال أهل الجنة وأهل النار من خلال هذاالحوار ختم المقطع بفقرة طويلة : بدأها بالإخبار عن إعذاره إلى الكافرين ، بإرسال الرسول إليهم بالكتاب وأنه كتاب مفصّل مبيّن فضّله الله على علم . فكلما ازداد الخلق علماً بهذا الكتاب ازدادوا إيمانا به ، لأن فيه ما يعجز ويبهر وتقوم به الحجة على الخلق أجمعين ، ومع كونه فى غاية التفصيل ، ومع كونه مظهر علم الله المحيط والشامل والكامل والمنزه عن الجهل والخطأ وقد جعل فيه الهداية والرحمة للمؤمنين تركوا العمل به . هذا الكتاب تحدث عن كل شيء ومما تحدث عنه أمر الدنيا والآخرة ولايزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب ، وحتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . فيتم تأويله يومئذ أي يوم القيامة ، وعندئذ يعترف الذين تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا أن رسل الله قد جاؤوا بالحق ، ويطلبون وقتذاك من يشفع لهم ، ويتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ، زاعمين أنهم لو عادوا لعملوا غير عملهم الأول وأنّى لهم هذا وهذا ؟ فقد خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها وذهب عنهم ماكانوا يعبدونهم من دون الله ، فلا يشفعون لهم ولاينصرونهم ولاينقذونهم مما هم فيه . إنها النهاية العادلة لهؤلاء المجرمين المكذبين المستكبرين .

وفي هذا السياق تأتي آية هي نموذج على هذا الكتاب الذي أنزله الله بعلم والذي فصّل فيه بعلم . وهي تذكر بالله وقدرته وتعطي مالله لله ، وسنؤجل الكثير مما فيها إلى التفسير الحرفي وفوائده .

يخبر الله تعالى في هذه الآية أنه خالق العالم . سمواته وأرضه ومابين ذلك في ستة أيام . قال ابن كثير (واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس) أو هو يوم آخر ؟ ثم يذكر تعالى استواءه على العرش ، ثم يذكر أنه يغشي الليل النهار يطلبه سريعاً ، وأن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ،

فالجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته فهو الذي له الخلق ، ومن كان هذا شأنه فله الأمر ، وليس لأحد أن ينازعه حق الأمر فهو الإله والخلق عبيد ، وليس من أحد له حق الأمر معه إلا بإذنه ويختم الله عز وجل الآية بالثناء على نفسه ﴿ **تبارك الله رب العالمين** ﴾ .

وفي هذا السياق يرشدنا تعالى بعد أن عرفنا على قدرته وعلمه إلى دعائه الذي فيه صلاحنا في دنيانا وأخرانا، ويرشدنا أن يكون هذا الدعاء على حال التذلل والاستكانة والخشوع بأن يجتمع فيه التضرع والخفية وقد فسر ابن جرير تضرعاً فقال : تذللًا واستكانة لطاعته . وفسر خفية : بخشوع قلوبكم ، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهاراً مراءاة . وقد بيّن تعالى أنه لا يحب المعتدين لافي الدعاء ولا في غيره . ثم نهى عن الإفساد في الأرض وخاصة بعد الإصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور سائرة على السداد ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ، فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل إليه خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب مبيناً أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره .

وبعد أن ذكر أنه خالق السمٰوات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر ، يعود السياق ليعرفنا تعالى على ذاته من خلال عنايته ورعايته ورحمته بعباده ، ويذكرنا في الوقت نفسه باليوم الآخر ، فأخبر أنه هو الذي يرسل الرياح مبشرات بين يدي المطر الذي هو مظهر من مظاهر رحمته العظمى بخلقه ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالًا أي من كثرة ما تحمل من الماء يسوقه الله إلى أرض مجدبة ميتة لا نبات فيها فيخرج به من كل الثمرات ، فكما يحيي الله هذه الأرض بعد موتها كذلك يحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة ، فمن كان له قلب فإنه يتذكر ، ثم ضرب الله مثلًا للمؤمن ، والكافر بالبلد الطيب ، والبلد الخبيث ، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه سريعاً وحسناً وطيباً ومباركاً ، وأما البلد الخبيث كالسباخ وغيرها فإن نباته لا يخرج إلا خبيثاً لا خير فيه ، فكذلك المؤمن ينزل على قلبه القرآن فينمو إيمانه وينمو الخير في قلبه ، وأما الكافر فلا يزيده الوحي إلا عناداً ، ويختم الله المقطع بالتذكير أنه يصرف الآيات لقوم يشكرون .

ذكّرنا في بداية المقطع بتمكيننا في الأرض ، وجعله لنا فيها معايش لنشكر ، وذكّرنا بما أنعم علينا من نعمة الوحي في آخر المقطع لنشكر ، فمن لم تستجلب نعمة الله في الكون

شكره ، ومن لم تستجلب آيات الله في كتابه شكره فأي قلب عاق قلبه ؟ .

كلمة في السياق :

١ - في سورة البقرة جاءت قصة آدم بعد قوله تعالى ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وفي سورة الأعراف جاءت قصة آدم بعد قوله تعالى : ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلًا ما تشكرون** ﴾ وفي سورة البقرة جاءت قصة آدم ، وبعدها مباشرة خطاب لبني إسرائيل ، وههنا تأتي قصة آدم وبعدها خطابات لبني آدم ، ثم عرض لقصص أقوام انحرفوا عن أمر الله ثم تأتي قصة بني إسرائيل ، فههنا تفصيل لمحور السورة وامتداداته وارتباطاته ، وههنا بناء عليه ودروس في شأنه .

٢ - بدأت السورة آمرة باتباع ما أنزل الله ، ناهية عن اتخاذ غيره ولياً من دونه ، وأنذرت وذكّرت بما فُعل بالأقوام الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، ثم ذكرت بأن حكمة الله في استخلاف الإنسان والتمكين له هي استخراج شكره . ثم قصّت علينا قصة آدم وفيها على لسان الشيطان ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ ثم انتهى المقطع بقوله تعالى ﴿ **كذلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرون** ﴾

فما خلق الله للإنسان فمن أجل استخراج شكره ، وما أنزل عليه من آيات فمن أجل استخراج شكره ، ومقدمة السورة والمقطع الأول فيها يبينان طريق الشكر ، وما يتنافى معه .

٣ - في بداية المقطع حديث عن الخروج من الجنة وأسباب ذلك ، وفي أواسط المقطع حديث عن العودة إلى الجنة ، وحديث عن النار ، وفيما بين ذلك وبعده حديث عن طريق ذلك . فالمقطع له وحدته وله صلاته بمقدمة السورة ، وهو والمقدمة كالمقدمة لما يأتي بعد ذلك من السورة ، ولنا عودة إلى السياق فلنبدأ بعرض المعنى الحرفي للمقطع :

المعنى الحرفي للفقرة الأولى :

﴿ **ولقد مكنّاكم في الأرض** ﴾ أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ، أو أقدرناكم على التصرف فيها ﴿ **وجعلنا لكم فيها معايش** ﴾ المعايش جميع معيشة وهي مايعاش به من

المطاعم والمشارب وغيرهما ﴿ **قليلًا ما تشكرون** ﴾ أي شكركم قليل ، أي تشكرون شكراً قليلًا . ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أي خلقنا أباكم آدم عليه السلام طيناً غير مصور ثم صورناه بعد ذلك ، أو خلقناكم في أصلاب الرجال وصورناكم في أرحام النساء ، أو الخلق لآدم والتصوير للذرية . ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** ﴾ أي لم يكن ممن سجد لآدم عليه السلام . ﴿ **قال ما منعك ألا تسجد** ﴾ أي أي شيء منعك من السجود ﴿ **إذ أمرتُك** ﴾ السؤال عن المانع من السجود - مع علمه به - للتوبيخ ، ولإظهار معاندته ، وكفره ، وكبره ، وافتخاره بأصله ، وتحقيره أصل آدم ، وفي الآية دليل لمن ذهب من الأصوليين إلى أن الأمر يفيد الوجوب ﴿ **قال أنا خير منه خلقتني من نار** ﴾ وهي جوهر نوراني ﴿ **وخلقته من طين** ﴾ أي وهو ظلماني ، وفي الفوائد كلام عن هذا . ﴿ **قال فاهبط منها** ﴾ أي إن كنت تتكبر فاهبط من الجنة أو من السماء لأنه كان فيها وهي مكان المطيعين والمتواضعين ﴿ **فما يكون لك** ﴾ أي فما يصح لك ﴿ **أن تتكبّر فيها** ﴾ - أي وتعصي ﴿ **فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ أي من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه ، يذمك كل إنسان ويلعنك كل لسان لتكبرك ، وبه يعلم أن الصغار ملازم للاستكبار ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ أي أمهلني إلى يوم البعث ، والبعث وقت النفخة الأخيرة ﴿ **قال إنك من المنظرين** ﴾ إلى النفخة الأولى ، وإنما أجيب إلى ذلك لما فيه من الابتلاء وفيه تقريب لقلوب الأحباب أي هذا بِرّي بمن يسيئني فكيف بمن يحبني ، وإنما جسّره على السؤال مع وجود الزلّل منه في الحال علمه بحلم ذي الجلال ﴿ **قال فبما أغويتني** ﴾ أي أضللتني . أي فبسبب إغوائك إياي أقسم ﴿ **لأقعدَنَّ لهم صراطك المستقيم** ﴾ أي لأعترضن لهم على طريق الإسلام ، مترصداً للرد ، متعرضاً للصد ، كما يتعرض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة ﴿ **ثم لآتينّهم من بين أيديهم** ﴾ بأن أشككهم بالآخرة ﴿ **ومن خلفهم** ﴾ بأن أرغبهم في الدنيا ﴿ **وعن أيمانهم** ﴾ أي من قِبل الحسنات ﴿ **وعن شمائلهم** ﴾ أي من قِبل السيئات ، ولم يقل من فوقهم ومن تحتهم لمكان الرحمة والسجدة : واستعمال عن حين الكلام عن الأيمان والشمائل لأنها تدلُّ على الانحراف ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ أي مؤمنين ، قال ظناً فأصاب ظنُّه . قال تعالى في سورة سبأ ﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه** ﴾ ﴿ **قال اخرج منها** ﴾ أي من الجنة أو السماء ﴿ **مذءوماً** ﴾ أي معيباً ﴿ **مدحوراً** ﴾ أي مطروداً مبعداً من رحمة الله أقسم ﴿ **لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم** ﴾ أي منك وممن تبعك ﴿ **أجمعين** ﴾ بدون

استثناء ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ قال الله هذا لآدم بعد إخراج إبليس من الجنة ، اتخذ أنت وزوجك الجنة مسكناً ﴿ **فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا** ﴾ أي فتصيرا ﴿ **من الظالمين** ﴾ بمعصيتكما الله إن خالفتما أمره ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ أي ألقى إليهما الوسوسة ، والوسوسة الكلام الخفي المكرر الملقى بغير اتئاد أى بعجَلة ﴿ **ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما** ﴾ أي يكشف لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وفيه دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه لم يزل سترها مستقيماً في الطباع والعقول ﴿ **وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين** ﴾ أي إلّا كراهة أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر وتستغنيان عن الغذاء ﴿ **أو تكونا من الخالدين** ﴾ أي من الذين لايموتون ويبقون في الجنة ساكنين ﴿ **وقاسمهما** ﴾ أي وأقسم لهما وصدّقاه فشاركاه في القسم بتحقيق مايراد القسم له ولذلك استعملت صيغة المفاعلة للدلالة على هذا المعنى ﴿ **إني لكما لمن الناصحين** ﴾ فإني من قَبلكما هاهنا ، وأعلم بهذا المكان ﴿ **فدلّاهما بغرور** ﴾ أي فزهما إلى الأكل من الشجرة بما غرّهما به من القسم بالله ، وإنما يخدع المؤمن بالله ولم يكونا يظنان أن أحداً يحلف بالله كاذباً فوقعا في المعصية ، ﴿ **فلما ذاقا الشجرة** ﴾ أي وجدا طعمها آخذين في الأكل منها ﴿ **بدت لهما سوءاتهما** ﴾ أي : ظهرت لهما عوراتهما ؛ لتهافت اللباس عنهما ، وكانا لايريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر ﴿ **وطفقا** ﴾ أى جعلا ﴿ **يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ أي يجعلان على عورتهما من ورق الجنة ورقة فوق ورقة ليستترابها كما تخصف النعل أي ترقع ﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ هذا عتاب من الله وتنبيه على الخطأ ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين** ﴾ وكان في هذا توبتهما قال النّسفي (وفيه دليل على المعتزلة لأن الصغائر عندهم مغفورة أى بلا توبة) وهذا يعني أنه اعتبر فعل آدم صغيرة ﴿ **قال اهبطوا** ﴾ الخطاب لآدم وحواء بلفظ الجمع لأن إبليس هبط من قبل ، ويحتمل أنه هبط إلى السماء ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ أي : متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿ **ولكم في الأرض مستقر** ﴾ أي استقرار أو موضع استقرار ﴿ **ومتاع** ﴾ أي : وانتفاع عيش ﴿ **إلى حين** ﴾ أي إلى انقضاء آجالكم ﴿ **قال فيها** ﴾ أي في الأرض ﴿ **تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ مبعوثين للثواب والعقاب . وبهذا تمت الفقرة الأولى من هذا المقطع وفيها كما قال صاحب

الظلال : (ثلاثة نماذج من خلق الله : نموذج في الطاعة المطلقة والتسليم العميق ، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت ، وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشرية) .

نُقول وفُصول :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ولقد مكناكم في الأرض** ﴾ يقول صاحب الظلال : « من هنا تبدأ الرحلة الكبرى .. تبدأ بتمهيد عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض ، كحقيقة مطلقة ، وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلًا

﴿ **ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلًا ما تشكرون** ﴾ : إن خالق الأرض وخالق الناس ، هو الذي مكّن لهذا الجنس البشري في الأرض . هو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات الكثيرة التي تسمح بحياة هذا الجنس وتقوّته وتعوله ، بما فيها من أسباب الرزق والمعايش ، هو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها وتركيبها وحجمها وبُعدها عن الشمس والقمر ، ودورتها حول الشمس ، وميلها على محورها . وسرعة دورتها . إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس عليها . وهو الذي أودع هذه الأرض من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات مايسمح بنشأة هذا الجنس وحياته ، وبنمو هذه الحياة ورقيها معاً .. وهو الذي جعل هذا الجنس سيد مخلوقات هذه الأرض ، قادراً على تطويعها واستخدامها ؛ بما أودعه الله من خصائص واستعدادات للتعرف إلى بعض نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته ..

ولولا تمكين الله للإنسان في الأرض بهذا وذلك ، مااستطاع هذا المخلوق الضعيف القوة أن « يقهر الطبيعة » كما يعبر أهل الجاهلية قديماً وحديثاً ! ولا كان بقوته الذاتية قادراً على مواجهة القوى الكونية الهائلة الساحقة !

إن التصورات الجاهلية هي التي تصور الكون عدواً للإنسان ، وتصور القوى الكونية مضادة لوجوده وحركته ؛ وتصور الإنسان في معركة مع هذه القوى - بجهده وحده وتصور كل تعرف إلى النواميس الكونية ، وكل تسخير لها « قهراً للطبيعة » في المعركة بينها وبين الجنس الإنساني !

إنها تصورات سخيفة ، فوق أنها تصورات خبيثة !

لو كانت النواميس الكونية مضادة للإنسان ، عدوة له ، تتربص به ، وتعاكس اتجاهه ، وليس وراءها إرادة مدبّرة - كما يزعمون - ما نشأ هذا الإنسان أصلًا ! وإلا فكيف كان ينشأ ؟ كيف ينشأ في كون معادٍ بلا إرادة وراءه ؟ ولما استطاع المضي في الحياة على فرض أنه وجد ! وإلا فكيف يمضي والقوى الكونية الهائلة تعاكس اتجاهه ؟ وهي بزعمهم - التي تصرّف نفسها ولا سلطان وراء سلطانها ؟

إن التصور الإسلامي وحده وهو الذي يمضي وراء هذه الجزيئات ليربطها كلها بأصل شامل متناسق .. إن الله هو الذي خلق الكون ، وهو الذي خلق الإنسان . وقد اقتضت مشيئته وحكمته أن يجعل طبيعة هذا الكون بحيث تسمح بنشأة هذا الإنسان ، وأودع الإنسان من الاستعدادات ما يسمح له بالتعرف إلى بعض نواميس الكون واستخدامها في حاجته .. وهذا التناسق الملحوظ هو الجدير بصنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه ولم يجعل خلائقه متعاكسة متعادية متدابرة ! .

وفي ظل هذا التصور يعيش « الإنسان » في كون مأنوس صديق ؛ وفي رعاية قوة حكيمة مدبرة .. يعيش مطمئن القلب ، مستروح النفس ، ثابت الخطو ، ينهض بالخلافة ، ويتعامل مع الكون بروح المودة والصداقة ؛ ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود ؛ وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته ، وتيسر له قدراً جديداً من الرقي والراحة والمتاع .

إن هذا التصور لا يكفه عن الحركة لاستطلاع أسرار الوجود والتعرف إلى نواميسه .. على العكس ، هو يشجعه ويملأ قلبه ثقة وطمأنينة .. إنه يتحرك في مواجهة كون صديق لا يبخل عليه بأسراره ، ولا يمنع عنه مدده وعونه .. وليس في مواجهة كون عدو يتربص به ويعاكس اتجاهاته ويسحق أحلامه وآماله ! .

إن مأساة « الوجودية » الكبرى هي هذا التصور النكد الخبيث .. تصور الوجود الكوني - بل الوجود الجماعي للبشرية ذاتها - معاكساً في طبيعته للوجود الفردي الإنساني متجهاً بثقله الساحق إلى سحق هذا الوجود الإنساني ! إنّه تصور بائس لابد أن ينشىء حالة من الانزواء والانكماش والعدمية ! أو ينشىء حالة من الاستهتار والتمرد والفردية ! وفي كلتا الحالتين لا يكون إلا القلق المضني ، والبؤس النفسي والعقلي ، والشرود في التيه : تيه التمرد ، أو تيه العدم .. وهما سواء ، ..

وهي ليست مأساة « الوجودية » وحدها من مذاهب الفكر الأوربي . إنها مأساة الفكر الأوربي كله - بكل مذاهبه واتجاهاته - بل مأساة الجاهلية كلها في جميع أزمانها وبيئاتها . المأساة التي يضع الإسلام حداً لها بعقيدته الشاملة التي تنشىء في الإدراك البشري تصوراً صحيحاً لهذا الوجود ، وما وراءه من قوة مدبرة .

إن « الإنسان » هو ابن هذه الأرض ؛ وهو ابن هذا الكون . لقد أنشأه الله من هذه الأرض ، ومكنه فيها ، وجعل له فيها أرزاقاً ومعايش ، ويسر له المعرفة التي تسلمه مفاتيحها ؛ وجعل نواميسها موافقة لوجود هذا الإنسان ، تساعده - حين يتعرف إليها على بصيرة - وتيسر حياته ..

ولكن الناس قليلًا ما يشكرون - ذلك أنهم في جاهليتهم لا يعلمون .. وحتى الذين يعلمون لا يملكون أن يوفوا نعمة الله عليهم حقها من الشكر وأنى لهم الوفاء ؟ لولا أن الله يقبل منهم ما يطيقون ، وهؤلاء ينطبق عليهم بهذين الاعتبارين قوله تعالى :
﴿ **قليلًا ما تشكرون** ﴾

فصل : في مظاهر من الكبر :

في قصة آدم عليه السلام عبر كثيرة ودروس كثيرة :
لقد امتنع إبليس من السجود لآدم بدعوى الخيرية ، وما أكثر ما كانت دعوى الخيرية حائلا دون وجود الصف الإسلامي الواحد ، وما أكثر ما كانت دعوى الخيرية عاملًا من عوامل تفرق صف المسلمين ، إن الصف الإسلامي من حقه أن يخرج قياداته بالشورى ومن قدّمه الصف ، ومن قدمته الشورى فعلى الجميع أن يلتزموا بإمرته ، ولكن كم من الناس يمنعهم من ذلك الكبر مهما لبسوا لبوس التواضع ؟

إن كثيرين لايبدأون البداية الصحيحة ، مع أن البدايات الصحيحة وحدها هي التي توصل إلى نتائج صحيحة ، فإذا ما بدأت تظهر ثمرات البدايات الصحيحة يريد الكثيرون أن يتقدموا ، وإذا لم يتقدموا يستكبرون عن السير في الطريق الصحيح ، إنّ ذلك من نزغات الشيطان فليحاسب كل منا نفسه .

فصل : في التواضع :

قال الألوسي : أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله تعالى ومن تكبر وضعه الله عز وجل » ومن حديثه رضي الله تعالى عنه : « من تواضع لله تعالى رفع الله تعالى حكمته وقال : انتعش نعشك الله ، ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله تعالى إلى الأرض » . وإذلال الله تعالى المتكبرين يوم القيامة مما نطقت به الأخبار .

أخرج الترمذي ، عن عمرو بن شعيب عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له : بولس يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار »

فصل : في مناقشة التطوريين :

عند قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** ﴾ يناقش صاحب الظلال بعض الاتجاهات المنحرفة فيقول (إن الخلق قد يكون معناه : الإنشاء . والتصوير قد يكون معناه : إعطاء الصورة والخصائص .. وهمامرتبتان في النشأة لا مرحلتان .. فإن « ثم » قد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للترقي المعنوي . والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود . فالوجود يكون للمادة الخامة ، ولكن التصوير - بمعنى إعطاء الصور - أرقى من درجات الوجود . فكأنه قال : إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية . وذلك كقوله تعالى : ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾

فإن كل شيء أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدِي إلى أدائها عند خلقه . ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها . والمعنى لايختلف إذا كان معنى « هَدى » : هداه إلى ربه . فإنه هُدي إلى ربه عند خلقه وكذلك آدم صور وأُعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه ... « وثم » .. للترقي في الرتبة ، لا للتراخي في الزمن . وعلى آية حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام . وفي نشأة الجنس البشري ، تؤكد أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحباً لخلقه . وأن الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في

« وجود » الإنسان . من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان . كما تقول الداروينية .

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية « ظنية » وليست « يقينية » لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظناً ! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدلها أو تغيرها .

على أنه - على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود « أنواع » من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف السائدة في الأرض ، ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة ، ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة .. ولكن هذا لا « يحتّم » أن يكون بعضها « متطوراً » من بعض .. وحفريات دارون وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا .. لاتستطيع أن تثبت - في يقين مقطوع به - أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها - ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً .. وهذا يمكن تعليله كما قلنا .. أن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع . فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ . ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض .

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة ، في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع . وهذا ما تؤكده مجموعة النصوص القرآنية في نشأة البشرية .

وتفرّد « الإنسان » من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذي اضطر الداروينيون المحدثون - وفيهم الملحدون بالله كلية - للاعتراف به ، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية ، وعدم تداخلها مع الأنواع في تطور عضوي)

فصل : في حكمة إنظار إبليس :

- لقد سأل إبليس النظرة ﴿ **قال أنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ وقد أجيب إلى طلبه فما الحكمة في ذلك ؟ في هذا الموضوع يقول صاحب الظلال :

(لقد أجيب إبليس إلى ملتمسه . لأن مشيئة الله - سبحانه - اقتضت أن يترك

الكائن البشري يشق طريقه ؛ بما ركِّب في فطرته من استعداد للخير والشر ؛ وبما وهبه من عقل مرجح ، وبما أمده من التذكير والتحذير على أيدي الرسل ؛ ومن الضبط والتقويم بهذا الدين ، كما اقتضت أن يتلقى الهداية والغواية ؛ وأن يصطرع في كيانه الخير والشر ؛ وأن ينتهي إلى إحدى النهايتين ، فتحق عليه سنة الله ، وتتحقق مشيئته بالابتلاء ، سواء اهتدى أوضل ، فعلى سنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة يتحقق الهدى أو الضلال)

فصل : في تعقيبات على قصة آدم :

مما عقب به صاحب الظلال على قصة أدم هذه القطوف التي ننقلها استكمالًا لأخذ عِبَر هذه الفقرة من المقطع :

(إن الحقيقة الأولى التي نستلهما من قصة النشأة الإنسانية هي - كما قلنا من قبل - التوافق بين طبيعة الكون ونشأة الكائن الإنساني ، والتقدير الإلهي المحيط بالكون والإنسان والذي يجعل هذه النشأة قدراً مرسوماً لا فلتة عارضة ، كما يجعل التوافق بينهما هو القاعدة .

... والحقيقة الثانية المستلهَمة من قصة النشأة الإنسانية : هي كرامة هذا الكائن الفريد في العوالم الحية ؛ وضخامة دوره المنوط به ؛ وسعة الآفاق والمجالات التي يتحرك فيها ؛ وتنوع العوالم التي يتعامل معها - في حدود عبوديته لله وحده - مما يتناقض تماماً مع المذاهب الحسية الوضعية المادية التي تهدد قيمته كعامل أساسي مؤثِّر في الكون ، حيث تسند الأهمية كلها للمادة وتأثيراتها الحتمية . ومع مذهب النشوء والارتقاء الذي يلحقه بعالم الحيوان ولايكاد يحفل بخصائصه الإنسانية المتميزة ، أو مذهب التحليل النفسي الفرويدي الذي يصوره غارقاً في وحل الجنس حتى مايتسامى إلا عن طريق هذا الوحل نفسه !.. إلا أن هذه الكرامة لهذا الكائن الفريد لاتجعل من الإنسان « إلٰها » كما تحاول فلسفات عهد التنوير أن تقول ، إنما هو الحق والاعتدال في التصور الإسلامي السليم .

والحقيقة الثالثة : أن هذا الكائن - على كل تفرّده هذا - أو بسبب تفرّده هذا - ضعيف في بعض جوانب تكوينه ، حتى ليمكن قيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل ، من خطام شهواته .. وفي أولها ضعفه تجاه حب البقاء . وضعفه تجاه حب

الملك .. وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله ، ويستسلم لهواه ، أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه ، في جهد ناصب ، لا يكل ولا يدع وسيلة من الوسائل ! .

وقد اقتضت رحمة الله به – من ثم – ألا يتركه لفطرته وحدها ، ولا لعقله وحده وأن يرسل إليه الرسل للإنذار والتذكير – كما سيجيء في آية تالية في معرض التعقيب على القصة – وهذه هي صخرة النجاة بالنسبة له ... النجاة من شهواته بالتخلص من هواه والفرار إلى الله . والنجاة من عدوه الذي يخنس ويتوارى عند ذكره لربه ، وتذكّر رحمته وغضبه ، وثوابه وعقابه .. وهذه كلها مقويات لإرادته ، حتى يستعلي على ضعفه وشهواته .. وقد كان أول تدريب له في الجنة هو فرض « المحظور » عليه ؛ لتقوية هذه الإرادة ، وإبرازها في مواجهة الإغراء والضعف . وإذا كان قد فشل في التجربة الأولى ، فقد كانت هذه التجربة رصيداً له فيما سيأتي .

... والحقيقة الرابعة : هي جدية المعركة مع الشيطان وأصالتها ، واستمرارها وضراوتها .

لقد بدا من سياق القصة إصرار هذا العدو العنيد على ملاحقة الإنسان في كل حالة ، وعلى إتيانه من كل صوب وجهة ، وعلى اتباعه في كل ساعة ولحظة :

﴿ قال : فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

لقد اختار اللعين أن يزاول هذا الكيد ، وأن يُنظَر لمزاولته على المدى الطويل .. اختار هذا على أن يضرع إلى الله أن يغفر له خطيئته في معصيته عياناً وقد سمع أمره مواجهة ! ثم بين أنه سيقعد لهم على طريق الله ، لا يمكّنهم من سلوكه وأنه سيأتيهم من كل جهة يصرفهم عن هداه .

وهو إنما يأتيهم من ناحية نقط الضعف فيهم ومداخل الشهوة . ولا عاصم لهم منه إلا بالتقوّي بالإيمان والذكر ، والتقوّي على إغوائه ووسوسته ، والاستعلاء على الشهوات وإخضاع الهوى لهدى الله .» . « وأخيراً فإن القصة والتعقيبات عليها – كما سيجيء – تشير إلى شيء مركوز في طبع الإنسان وفطرته . وهوالحياء من التعري وانكشاف سوأته :

﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماووري عنهما من سوآتهما ﴾ ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ .. ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله ﴾ . ﴿ يا بني آدم لايفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويْكم من الجنة ينزع عنها لباسهما ليريهما سوآتهما ﴾ .

وكلها توحي بأهمية هذه المسألة ، وعمقها في الفطرة البشرية . فاللباس وستر العورة زينة للإنسان وستر لعوراته الجسدية . كما أن التقوى لباس وستر لعوراته النفسية .

والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية ، وتحرص على سترها ومواراتها .. والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس . وتعرية النفس من التقوى ، ومن الحياء من الله ومن الناس ، والذين يطلقون ألسنتهم وأقلامهم وأجهزة التوجيه والإعلام كلها لتأصيل هذه المحاولة – في شتى الصور والأساليب الشيطانية الخبيثة – هم الذين يريدون سلب « الإنسان » خصائص فطرته ، وخصائص « إنسانيته » التي بها صار إنساناً . وهم الذين يريدون إسلام الإنسان لعدوه الشيطان ومايريده به من نزع لباسه وكشف سوآته ! وهم الذين يُنفِّذون المخططات الصهيونية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإشاعة الانحلال فيها لتخضع لملك صهيون بلا مقاومة . وقد فقدت مقوماتها الإنسانية .

إن العري فطرة حيوانية . ولا يميل الإنسان إليه إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان . وإن رؤية العري جمالًا هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً . والمتخلفون في أواسط إفريقية عراة . والإسلام حين يدخل بحضارته إلى هذه المناطق يكون أول مظاهر الحضارة اكتساء العراة ، فأما في الجاهلية الحديثة « التقدمية » فهم يرتكسون إلى الوهدة التي ينتشل الإسلام المتخلفين منها ، وينقلهم إلى مستوى « الحضارة » بمفهومها الإسلامي الذى يستهدف استنقاذ خصائص الإنسان وإبرازها وتقويتها .

والعري النفسي من الحياء والتقوى – وهو ما تجتهد فيه الأصوات والأقلام وجميع أجهزة التوجيه والإعلام – هو النكسة والردة إلى الجاهلية . وليس هو التقدم والتحضر كما تريد هذه الأجهزة الشيطانية المدرَّبة الموجهة أن توسوس) .

فوائد :

١ - قال النسفي تعليقاً على ادعاء إبليس أنه خير من آدم : وقد أخطأ الخبيث : بل الطين أفضل لرزانته ووقاره ومنه الحلم والحياء والصبر ، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار ، وفي النار الطيش والحدّة والترفّع ، وذلك دعاه إلى الاستكبار . والتراب عدة الممالك ، والنار عدة المهالك ، والنار مظنّة الخيانة والإفناء ، والتراب مئنّة الأمانة والإنماء . والطين يطفىء النار ويتلفها ، والنار لا تتلفه ، وهذه فضائل غفل عنها إبليس . حتى زلّ بفاسد من المقاييس . وقول نافي القياس : أول من قاس إبليس ، قياس . على أن القياس عن مثبته مردود عند وجود النص : وقياس إبليس عناد للأمر المنصوص . وكان الجواب لما منعك أن يقول : منعني كذا . وإنما قال أنا خير منه ، لأنه قد استأنف قصته وأخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم عليه السلام وبعلّة فضله عليه فعلم منها الجواب - كأنه قال : منعني من السجود فضلي عليه - وزيادة عليه وهي إنكار الأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله . إذ سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب) في الزعم الإبليسي .

٢ - في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح « وخلقت الحور العين من الزعفران » .

٣ - وفي إسناد صحيح إلى الحسن البصري قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وقال ابن سيرين « أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس » والإسناد إليه صحيح . والملاحظ أن قياس إبليس كان مع النص ولا قياس مع النص .

٤ - روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبي فاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال : فعصاه وأسلم » قال : « وقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك. وإنما المهاجر كمثل الفرس في الطِوَل (أي الحبل) ، فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ؛ وهو جهاد النفس والمال فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال : فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ . « فمن فعل ذلك منهم

فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

٥ - لما كان الشيطان قد أقسم أن يتسلط على الإنسان من جهاته كلها ، فقد ورد في الأحاديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها فقد روى البزار بإسناد حسن عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم إني أسالك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي : اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي ، واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي » . وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد صححه الحاكم عن عبد الله ابن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي » . قال وكيع : من تحتي يعني الخسف .

٦ - قال ابن كثير : وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها . ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه ، أو رسوله ﷺ .

٧ - يروي المفسرون كلاماً كثيراً عند قصة آدم وليس في الكثير منه حديث عن رسول الله ﷺ والمرجح أن أكثر الروايات هذه عن بني إسرائيل ، ومرجع ذلك إلى التوراة ، ونحن لانستطيع اعتماد نقول التوراة الحالية لتأكدنا من وجهة النظر العلمية القطعية أن التوراة الحالية ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى ، بل حدث فيها تغيير وتبديل كثيران ؛ إذ هي جمع روايات شعبية بعد عصور متطاولة ، فإذا عرفنا هذا أدركنا أن كل نقل عن التوراة إنما هو للاستئناس فقط ولا نبني عليه شيئاً ، والتوراة الحالية تقص قصة آدم في سفر التكوين الإصحاح الثاني ، والثالث ، والرابع ، والخامس ، وفيها (فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر) وفيها أن آدم وحواء كانا عريانين في الأصل ولكنهما ما كانا يريان عوراتهما ، فلما أكلا من الشجرة انفتحت أعينهما على أنهما عريانان (والرواية الصحيحة عن وهب بن منبه - وهو ممن أسلم من علماء أهل الكتاب - قال : كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما لا يرى هذا

عورة هذه ولا هذه عورة هذا ...) وتذكر التوراة أن الحية هي التي قامت بدور الموسوس وأثّر هذا على كلام المفسرين المسلمين ؛ فجعلوا للحية دوراً في عملية الوسوسة ، بأن دخل الشيطان بواسطتها إلى الجنة بعد أن أخرج منها ، وكان على بابها في الأمر الأول بالخروج ، وليس في تفصيل شيء من ذلك منفعة تعود على المخاطب ، ولذلك لم يفصل الله بها ولا رسوله ؛ فلا نقف كثيراً عند هذه القضايا ، والتوراة الحالية في هذا القسم منها واضحة التناقض ، فبينما تشعر في مكان منها بأن الجنة كانت على الأرض تقول في آخر القصة (فطرد الإنسان وأقام شرقي عدن (أي جنة عدن) الكروبيم (أي العرش) ولهيب سيف فتقلب لحراسة طريق شجرة الحياة ، وهذا يقابل جعل السماء رجوماً للشياطين) فبينما ترى هنا كلاماً عن جنة فوقها عرش الرحمن ، وبينها وبين سكان الأرض مابينها ، تجد ما يشعر بغير ذلك ، في مكان آخر ، وكما قلنا فليس في التوراة الحالية مانأخذ منه إلا للاستئناس ، وفيما يوافق الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو الكتاب والسنة ، وقد لاحظنا أن كثيراً مما روي عن ابن عباس ، وأبي بن كعب وغيرهما في هذا المقام ، له أصل في التوراة

٨ - إن من أهم ما ينبغي أن نلاحظه في قصة آدم عليه السلام أن المذنب لا يمر بدون نوع عقوبة ، ولورافقته توبة ، ونسأل الله العفو والعافية وحسن الختام .

٩ - من المعلوم أن هناك صراعاً عنيفاً بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة حول خلق أفعال العباد ، فالمعتزلة يزعمون أن العبد يخلق أفعاله ، وأهل السُنة يقولون بما قرره القرآن ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾ وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **فبما أغويتني** ﴾ التي هي من حجج أهل السنة والجماعة ، يروي النسفي قصة عن طاووس (أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل قدري . [أي لايؤمن بالقدر »فقال طاووس : تقوم أو تقام ؟ فقام

الحرام فجاء رجل قدري- أي لا يؤمن بالقدر- فقال طاووس: تقوم أو تقام ؟ فقام

أغويتني . وهو يقول : أنا أغوي نفسي .

١٠ - عندما أمر الله آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض تذكر التوراة في سفر التكوين الإصحاح الثالث أن الله قال : (وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ، وقال لآدم ، لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلًا : لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك ، بالتعب تأكل كل أيام حياتك ، وشوكاً وحَسَكاً تنبت لك وتأكل عشب

الحقل بعرق وجهك ، تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها ، لأنك تراب إلى تراب تعود) .

١١ - الملاحظ أن إبليس لم ينكر صفات الله ولا وجوده ، ومع ذلك فقد كفر ، وفي هذا أكبر ردّ على من يتصور أن مجرد الإيمان بوجود الله يدخل صاحبه في عداد المسلمين المؤمنين ، بل لابد من الإيمان والتسليم وفي هذا يقول صاحب الظلال : (لقد جعل إبليس له رأيا مع النص . وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر .. وحين يوجد النّص القاطع والأمر الجازم ينقطع النظر . ويبطل التفكر وتتعين الطاعة ، ويتحتم التنفيذ .. وهذا إبليس - لعنه الله - لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبّر ، الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره .. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه .. بمنطق من عند نفسه : ﴿ **قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ فكان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوه :

﴿ **قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** ﴾ . إن علمه بالله لم ينفعه ، واعتقاده بوجوده وصفاته لم ينفعه .. وكذلك كل من يتلقى أمر الله ؛ ثم يجعل لنفسه نظراً في هذا الأمر يترتب عليه قبوله أو رفضه ؛ وحاكمية في قضية قضى الله فيها من قبل ، يرد بها قضاء الله في هذه القضية .. إنه الكفر إذن مع العلم ومع الاعتقاد . فإبليس لم يكن ينقصه العلم . ولم ينقصه الاعتقاد !) .

١٢ - إن قصة آدم وردت في سورة البقرة كما رأينا ، وترد هنا الآن مرة ثانية . وقصة بني إسرائيل وردت في سورة البقرة ، وتردهنا مرة ثانية ، ولكنهما تردان هنا ضمن السياق الخاص لسورة الأعراف ، وبما يخدم هذا السياق ، وهناك وردتا ضمن السياق الخاص لسورة البقرة بما يخدم ذلك ، ومن ثم نفهم حكمة من حِكَم تكرار القصة القرآنية ، إننا نلاحظ أن معاني من القصة ترد في مكان ، ومعاني أخرى ترد في مكان . وقد تشترك المعاني أحياناً ، وتفترق أحياناً وكل ذلك لتؤدي في سياقها الخاص والعام ما يخدم السورة التي هي فيها ضمن سياقها ومحلها ومكانها . فمثلا قصة آدم في سورة البقرة تخدم سياقها الخاص الذي هو سياق الأمر ﴿ **اعبدوا** ﴾ فهي نموذج للانحراف عن الأمر ، وما يترتب عليه ، وكيف ينبغي أن يفعل الإنسان ليتخلص من مخالفته . أما قصة آدم في سورة الأعراف فهي تخدم موضوع الاتباع وما يترتب عليه ، والكفر وما يترتب عليه .

ولننتقل إلى الفقرة الثانية في هذا المقطع وهي مجموعتان :

المجموعة الأولى

﴿ **يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم** ﴾ أي يستر عوراتكم ، وعبّر بكلمة الإنزال لأن الماء وراء كل منتفع به ، إما مباشرة وإما بالواسطة ، ويدخل في ذلك اللباس ، والماء من السماء أي من السحاب ﴿ **وريشاً** ﴾ أي ولباس زينة استعير من ريش الطير لأنه لباسه وزينته، والمعنى: أنزلنا عليكم لباسين، لباساً يواري سوءاتكم ، ولباساً يزيّنكم ﴿ **ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ أي ولباس الورع الذي يقي العقاب هو خير ﴿ **ذلك من آيات الله** ﴾ **أي** : إنزال اللباس من آيات الله الدالة على فضله ورحمته على عباده ﴿ **لعلهم يذكّرون** ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه ، وهذه الآية واردة عقيب ذكر بُدُوِّ السوءات ، وخصف الورق على آدم وحواء عليهما السلام - إظهاراً للنعمة فيما خلق من اللباس ، ولما في العري من الفضيحة ، وإشعار بأن التستر من التقوى ، وتذكير بما أعطي آدم وبما سلب ، لأنه عصى ، حتى لانقع في خداع الشيطان .

يقول صاحب الظلال :

« هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة .. مشهد العري وتكشّف السوءات والخصف من ورق الجنة .. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة .. والخطيئة كانت في معصية أمر الله ، وتناول المحظور الذي نهى عنه الله .. وليست هي الخطيئة التي تتحدث عنها أساطير (الكتاب المقدس !) والتي تعج بها التصورات الفنية الغربية المستقاة من تلك الأساطير ومن إيحاءات « فرويد » المسمومة .. لم تكن هي الأكل من « شجرة المعرفة » - كما تقول أساطير العهد القديم . وغيرة الله - سبحانه وتعالى - من « الإنسان » وخوفه - تعالى عن وصفهم علواً كبيراً - من أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيصبح كواحد من الآلهة ! كما تزعم تلك الأساطير . ولم تكن كذلك هي المباشرة الجنسية كما تطوف خيالات الفن الأوربي دائما حول مستنقع الوحل الجنسي ، لتفسر به كل نشاط الحياة كما علّمهم فرويد اليهودي ! ..) .

ويقول الألوسي : (قوله تعالى ﴿ **لباساً يواري سوءاتكم** ﴾« سوءاتكم » أي التي قصد إبليس - عليه اللعنة - إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلىٰ خصف الأوراق وأنتم مستغنون عن ذلك . روى غير واحد أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عرايا ويقولون لا نطوف بثياب

عصينا الله تعالىٰ فيها فنزلت هذه الآية ، وقيل : إنهم كانوا يطوفون كذلك تفاؤلا بالتعري عن الذنوب والآثام ولعل ذكر قصة آدم عليه السلام حينئذ للإيذان بأن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من قِبل الشيطان وأنه أغواهم في ذلك كما فعل بأبويهم) .

كلمة في السياق :

تتألف هذه المجموعة من أربعة نداءات تتوجه إلى بني آدم وهى كما قال صاحب الظلال (وقفة من وقفات التعقيب في سياق السورة ، وهي وقفة طويلة بعد المشهد الأول في قصة البشرية الكبرى . وفي سياق السورة وقفات كهذه عند كل مرحلة . كأنما ليقال : قفوا هنا لتدبّر ما في هذه المرحلة من عبرة قبل أن تمضوا قدماً في الرحلة الكبرى .

وهي وقفة في مواجهة المعركة التي بانت طلائعها بين الشيطان والبشرية وقفة للتحذير من أساليب الشيطان ومداخله ؛ ولكشف خطته ما كان منها وما يكون متمثلًا في صور وأشكال شتى .. ولكن المنهج القرآني لا يعرض توجيها إلا لمواجهة حالة قائمة ؛ ولا يقص قصصاً إلا لأن له موقعاً في واقع الحركة الإسلامية .. إنه كما قلنا لا يعرض قصصاً لمجرد المتاع الفني ! ولا يقرر حقيقة لمجرد عرضها النظري .. إن واقعية الإسلام وجدّيته تجعلان توجيهاته وتقريراته ، لمواجهة حالات واقعة بالفعل في مواجهة الحركة الإسلامية) .

فائدة :

الملاحظ أن الآية ذكرت نعمة الله علينا باللباس الحسي ، وذكّرتنا بلباس التقوى ، وهناك تلازم بين اللباسين يقول صاحب الظلال : (فهناك تلازم بين شرع الله اللباس لستر العورات والزينة ، وبين التقوى .. كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب ويزيّنه . وذاك يستر عورات الجسم ويزيّنه . وهما متلازمان . فعن شعور التقوى لله ، والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عري الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى وأن يدعو إلى العري ... العري من الحياء والتقوى ، والعري من اللباس وكشف السوأة . إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي – كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم ، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون – إنما هي فطرة خلقها الله في الإنسان ؛ ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر ؛ وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق .

وبعد النداء الأول الذي جاء تعقيباً على قصة آدم عليه الصلاة والسلام يأتي النداء الثاني : ﴿ **يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويْكم من الجنة** ﴾ أي لا يخدعنكم ولا يضلنكم بألّا تدخلوا الجنة ، كما فتن أبويكم بأن أخرجهما منها ، والمعنى : يابني آدم لا تتبعوا الشيطان فيفتنكم . ﴿ **ينزع عنهما لباسهما** ﴾ أي : أخرجهما نازعاً عنهما لباسهما بأن كان سبباً في أن نُزع عنهما ﴿ **ليريهما سوآتهما** ﴾ أي عوراتهما ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم** ﴾ أي إنه يراكم هو وذريته ، أو هو وجنوده من حيث لا ترونهم ، هذا تعليل للنهي وتحذير من فتنته ، بأنه بمنزلة العدو المداجي ، يكيدكم من حيث لا تشعرون . قال ذو النون : إن كان هو يراك من حيث لا تراه ؛ فاستعن بمن يراه من حيث لايراه ، وهو الله الكريم الستار ، الرحيم الغفار ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ أي نصراء وموجهين ، ومربين ومتسلطين على الكافرين ، وقد نجح الشيطان – عليه اللعنة – بأن جعل أكثر أهل الأرض يخلعون اللباسين : اللباس الحسي ، والمعنوي ؛ حتى أصبح الظهور بالعري الكامل غير مستنكر ، ولا مستفظع ، ولا مستغرب ، في كثير من أنحاء العالم ، وتعليقاً على هذه الآية يقول صاحب الظلال : (إنه النداء الثاني لبني آدم ، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم ، وما جرى لهما مع الشيطان ؛ وعلى مشهد العري الذي أوقفهما فيه عدوهما بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما .

وهذا النداء يصبح مفهوما بما قدمناه من الحديث عن تقاليد الجاهلية العربية في حكاية العري عند الطواف بالبيت . وزعمهم أن ماوجدوا عليه آباءهم هو من أمر الله وشرعه

لقد كان النداء الأول تذكيراً لبني آدم بذلك المشهد الذى عاناه أبواهم ، وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة ، والرياش الذى يتجمل به .. أما هذا النداء الثاني فهو التحذير لبني آدم عامة ، وللمشركين ، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد ؛ فيسلمهم إلى الفتنة – كما فعل مع أبويهم من قبل ، إذ أخرجهما من الجنة ، ونزع عنهما لباسهما لير يهما سوءاتهما – فالعري والتكشف الذي يزاولونه – والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً – هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه ؛ وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه . فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم ؛ وأن ينتصر في هذه المعركة ، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف)

....

وعند قوله تعالى في الآية ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ﴾ يذكر الألوسي تحقيقاً حول إمكانية رؤية الجن فيقول : (والقضية مطلقة لا دائمة ، فلا تدل على ما ذهب إليه المعتزلة من أن الجن لا يُرون ولا يظهرون للإنس أصلا ولا يتمثلون .

ويشهد لما قلنا ما صح من رؤية النبي ﷺ لِمقدَّمهم حين رام أن يشغله عليه الصلاة والسلام عن صلاته ، فأمكنه الله تعالى منه ، وأراد أن يربطه إلى سارية من سواري المسجد يلعب به صبيان المدينة ، فذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه .

ورؤية ابن مسعود لجن نصيبين . وما نقل عن الشافعي رضي الله تعالىٰ عنه من أن من زعم أنه رآهم ردت شهادته وعزِّر لمخالفته القرآن ، محمول - كما قال البعض - على زاعم رؤية صوَرِهم التي خلقوا عليها ؛ إذ رؤيتهم بعد التشكل الذي أقدرهم الله تعالى عليه مذهب أهل السنة ، وهو رضي الله تعالى عنه من ساداتهم . وما نُوزع به القول بقدرتهم على التشكل من استلزامه رفع الثقة بشيء فإن من رأى ولو ولده يحتمل أنه رأى جنياً تشكل به مردود بأن الله تعالىٰ تكفّل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدي لمثل ذلك المترتب عليه من الريبة في الدين ، ورفع الثقة بعالم وغيره فاستحال شرعاً الاستلزام المذكور » « وعندي أنه لا مانع من رؤيته ﷺ للجن على صورهم التي خلقوا عليها ؛ فقد رأىٰ جبريل عليه السلام بصورته الأصلية مرتين ، وليست رؤيتهم بأبعد من رؤية الجن . وأما رؤية الأولياء بل سائر الناس لهم متشكلين فكتب القوم مشحونة بها ، ودفاتر المؤرخين والقصاص ملأىٰ منها [أقول : وقد ثبتت رؤيتهم متشكلين رؤيتهم لأكثر من صحابي].وعلى هذا لا يفسق مدعي رؤيتهم في صورهم الأصلية إذا كان مظنة للكرامة ، وليس في الآية أكثر من نفي رؤيتهم كذلك بحسب العادة ، ومن هذا يعلم أن القول بكفر مدّعي الرؤية خارج عن الإنصاف فتدبَّر) . هـ كلام الألوسي

ولنعد إلى التفسير :

بعد الآيتين اللتين نادتا بني آدم في شأن اللباس الحسي والمعنوي : لباس الجسد ، ولباس التقوى ، يبين الله عز وجل كيف أن المنحرفين عن أمره ينحرفون ويبررون لانحرافاتهم بأنواع من التبريرات ، كلها خاطيء وظالم فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة ﴾ الفاحشة : ما يبالغ في قبحه من الذنوب كالطواف بالبيت عراة فعل أهل الجاهلية ، وكالشرك والزنى ومن السياق نعرف أن ترك الستر فاحشة ﴿ قالوا وجدنا عليها آباءنا

والله أمرنا بها ﴾ أي إذا فعلوا الفاحشة اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها حيث أقرنا عليها ؛ إذ لو كرهها لنقلنا عنها ، وهما باطلان لأن أحدهما تقليد للجهّال ، والثاني افتراء على ذي الجلال ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء** ﴾ إذ المأمور به لابد أن يكون حسناً ﴿ **أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ هذا استفهام يفيد الإنكار والتوبيخ ﴿ **قل أمر ربي بالقسط** ﴾ أي بالعدل وبما هو حسن عند كل عاقل فكيف يأمر بالفحشاء ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ أي وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد أي اقصدوا عبادته مستقمين إليها غير عادلين إلى غيرها في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود ﴿ **وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أي واعبدوه مخلصين له الطاعة مبتغين بها وجهه خالصاً ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ أي كما أنشاكم ابتداءاً يعيدكم . احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق ، والمعنى : أنه يعيدكم فيجازيكم عن أعمالكم فأخلصوا له العبادة ﴿ **فريقا هدى** ﴾ وهم المسلمون ﴿ **وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ وهم الكافرون ﴿ **إنهم** ﴾ أي الفريق الذي حق عليهم الضلالة ﴿ **اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله** ﴾ أي أنصاراً فهذا سبب ضلالهم وإضلالهم ﴿ **ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ وهذا حال كل كافر يكون على غاية الضلال ويظن أنه على غاية الهدى ، ومنتهى الصواب ، وعلى الذروة فى رجاحة العقل ، وحسن التصرف ، وغير ذلك مما يمليه الغرور فى ادعاء ألقاب وأوصاف ، وإنما هي الضلال والضياع والعمى .

كلمة في السياق :

بعد أن بيّن الله عز وجل ما يبرربه الكافرون لأنفسهم ارتكابهم الفواحش ، وردّ عليهم ، وكان من جملة الردّ ما بينّه في وصفه لنوعية أوامره من كونها من نوع القسط والعبادة والإخلاص والدعاء وكان من جملة ما يأمر به ﴿ **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد** ﴾ بعد هذا كله يأتي النداء الثالث في المجموعة : آمراً بأخذ الزينة عند كل مسجد ، وناهياً عن الإسراف في الطعام والشراب ، فإذا كان ستر العورة مطلوباً خارج المسجد وخارج الصلاة . فمن باب أولى أن يكون مطلوباً في المسجد ، وفي الصلاة ، وإذا كان الطعام هو الذي جرّ أبانا إلى المعصية فعلينا ألّا نسرف في الطعام والشراب ؛ لأن الإسراف نفسه معصية ، ويجرّ إلى المعاصي كذلك ، وهكذا يأتي الأمر الثالث بعد أن سُبق بكثير من الموطئات التي توصل إليه : ﴿ **يابني آدم خذوا زينتكم عند كل**

مسجد ﴾ أي خذوا لباس زينتكم كلما صليتم ، وأقل ذلك ستر العورة ، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئاته للصلاة ؛ لأن الصلاة مناجاة الرب فيستحب لها التزيّن والتعطر كما يجب التستر والتطهر قال الألوسي في تفسير قوله تعالى ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ : أي طواف أو صلاة ، وإلى ذلك ذهب مجاهد . وأبو الشيخ وغيرهما ، وسبب النزول على ما روي عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه كان أناس من الأعراب ، يطوفون بالبيت عراة ، حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة ، فتعلق على سفلها سيوراً مثل هذه السيور التي تكون على وجه الحمر من الذباب وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله　　ومابدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وحمل بعضهم الزينة على لباس التجمّل لأنه المتبادر منه ونسب للباقر - رضي الله تعالى عنه - وروي عن الحسن السبط - رضي الله تعالى عنه -أنه كان إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه فقيل له : يا ابن رسول الله ﷺ لم تلبس أجود ثيابك ؟ فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، فأتجمل لربي وهو يقول : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ فأحب أن ألبس أجمل ثيابي ، ولا يخفى أن الأمر حينئذ لا يحمل على الوجوب لظهور أن هذا التزيّن مسنون لا واجب .

« وأخرج ابن عساكر وغيره عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ **خذوا زينتكم** ﴾ الخ « صلوا في نعالكم » .

أقول : تُسنُّ الصلاة في النعال إذا كانت طاهرة ، ولم يكن مكان الصلاة مفروشاً ، ولقد غلا ناس في هذا الشأن سلباً أو إيجابا ، فلم يراع بعضهم ضرورة أن يكون المسجد نظيفاً ، ولم يراع بعضهم تغيرّ الزمان ، وتغيّر حال المساجد ، وغاب عن بعضهم السنة حيث ينبغي تطبيقها . ثم قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ أي بالشروع في الحرام ، أو مجاوزة الشبع ، أو بتحريم الحلال ﴿ **إنه لا يحب المسرفين** ﴾ المتجاوزين ما أحلّ الله إلى ما حرّم ﴿ **قل من حرم زينة الله** ﴾ أي من الثياب وكل ما يتجمّل به ، وفي الاستفهام إنكار على محرِّم الحلال ﴿ **التي أخرج لعباده** ﴾ أي سخرها لهم بخلق أصلها كالقطن من الأرض والقز من الدُّود ﴿ **والطيبات من الرزق** ﴾ أي والمستلذات من المآكل والمشارب ﴿ **قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا** ﴾ غير خالصة لهم لأن المشركين شركاؤهم فيها ﴿ **خالصة يوم القيامة** ﴾ لا يشركهم فيها أحد ، وقد نبّه الله

تعالى بهذا أن طيبات الحياة الدنيا خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة ، والكفار لهم تبع ﴿ **كذلك نُفصّل الآيات** ﴾ ليتميز الحلال من الحرام ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أنه لا شريك له ﴿ **قل إنما حرم ربّيَ الفواحش** ﴾ أي ما تفاحش قبحه أي تزايد ﴿ **ما ظهر منها وما بطن** ﴾ أي سرها وعلانيتها ﴿ **والإثم** ﴾ أي الذنب وهو المخالفة لأمر الله ﴿ **والبغي** ﴾ أي الظلم والكبر ﴿ **بغير الحق** ﴾ أما ردّ البغي بمثله فهو وإن كان - لولا الابتداء من الظالم بغياً - فإنه مأذون فيه شرعاً ﴿ **وأن تشركوا** ﴾ أي وحرم الشرك ﴿ **بالله مالم ينزِّل به سلطاناً** ﴾ والله لا ينزل برهاناً أبداً على أن يشرك به غيره ، ولكنه ردٌّ لزعمهم أنهم أشركوا بأمر الله ﴿ **وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ أي وحرّم عليكم أن تتقوّلوا على الله بوصفه بغير صفاته ، وأن تفتروا الكذب عليه بتحريم ما أحل ، أو تحليل ما حرّم ﴿ **ولكل أمة أجل** ﴾ أي وقت معين يأتيهم فيه عذاب الاستئصال إن لم يؤمنوا ، وهو وعيد لمن يرفض هذا الدين بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله ﴿ **فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ ذكر الساعة في هذا المقام لأنها أقل ما يستعمل في الإمهال والمعنى لا يمهلون لحظة واحدة

تعليقات :

رأينا أنه يدخل في أخذ المسلم زينته عند كل مسجد أن يصلي ويطوف وهو ساتر عورته وهذا شيء اعترضت عليه الجاهلية وتعليقاً على ذلك يقول صاحب الظلال : « ومن عجيب ما روي من حال المشركين الذين خوطبوا بهذه الآيات أول مرة ؛ ووجه إليهم هذا الاستنكار الوراد في قوله تعالى : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ...** ﴾ . مارواه الكلبي قال : « لما لبس المسلمون الثياب ، وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بها . فنزلت الآية .. » فانظر كيف تصنع الجاهلية بأهلها ! ناس يطوفون ببيت الله عرايا ؛ فسدت فطرتهم وانحرفت عن الفطرة السليمة التي يحكيها القرآن الكريم عن آدم وحواء في الجنة : ﴿ **فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ .. فإذا رأوا المسلمين يطوفون بالبيت مكسوين ، في زينة الله التي أنعم بها على البشر ، لإرادته بهم الكرامة والستر ؛ ولتنمو فيهم خصائص فطرتهم الإنسانية في سلامتها وجمالها الفطري ؛ وليتميزوا عن العري الحيواني .. الجسمي والنفسي .. إذا رأوا المسلمين يطوفون ببيت الله في زينة الله وفق فطرة الله « عيّروهم » .

إنه هكذا تصنع الجاهلية بالناس .. هكذا تمسخ فطرهم وأذواقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم وماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس في هذا الأمر غير الذي فعلته بالناس في جاهلية المشركين العرب ؟ وجاهلية المشركين الإغريق ؟ وجاهلية المشركين الرومان ؟ وجاهلية المشركين الفرس ؟ وجاهلية المشركين في كل زمان وكل مكان ؟ ماذا تصنع الجاهلية الحاضرة بالناس إلا أن تعريهم من اللباس ، وتعريهم من التقوى والحياء ؟ ثم تدعو هذا رقياً وحضارة وتجديداً ؛ ثم تعيّر الكاسيات من الحرائز العفيفات المسلمات ، بأنهن « رجعيات » « تقليديات » . « ريفيات » .

المسخ هو المسخ . والانتكاس عن الفطرة هو الانتكاس . وانقلاب الموازين هو انقلاب الموازين . والتبجح بعد ذلك هو التبجح ﴿ **أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون !** ﴾ .

وما الفرق كذلك في علاقة هذا العري ، وهذا الانتكاس ، وهذه البهيمية وهذا التبجح ، بالشرك ، وبالأرباب التي تشرِّع للناس من دون الله ؟ لئن كان مشركو العرب قد تلقوا في شأن ذاك التعري من الأرباب الأرضية التي كانت تستغل جهالتهم وتستخف بعقولهم لضمان السيادة لها في الجزيرة .. ومثلهم بقية الجاهليات القديمة التي تلقت من الكهنة والسدنة والرؤساء ... فإن مشركي اليوم ومشركاته يتلقون في هذا عن الأرباب الأرضية كذلك .. ولا يملكون لأمرهم ردا .. إن بيوت الأزياء ومصمميها ، وأساتذة التجميل ودكاكينها ، هي الأرباب التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيق منه نساء الجاهلية الحاضرة ولا رجالها كذلك ! إن هذه الأرباب تصدر أوامرها ، فتطيعها القطعان والبهائم العارية في أرجاء الأرض طاعة مزرية . وسواء كان الزي الجديد لهذا العام يناسب قوام أية امرأة أو لا يناسبه ، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح ، فهي تطيع صاغرة .. تطيع تلك الأرباب . وإلا « عُيِّرت » من بقية البهائم المغلوبة على أمرها .

ومن ذا الذي يقبع وراء بيوت الأزياء ؟ ووراء دكاكين التجميل ؟ ووراء سعار العري والتكشّف ؟ ووراء الأفلام والصور والروايات والقصص ، والمجلات والصحف ، التي تقود هذه الحملة المسعورة .. وبعضها يبلغ في هذا إلى حد أن تصبح المجلة أو القصة ماخوراً متنقلًا للدعارة ؟!. من الذي يقبع وراء هذا كله ؟ .

الذي يقبع وراء هذه الأجهزة كلها ، في العالم كله .. يهود .. يهود يقومون

بخصائص الربوبية على البهائم المغلوبة على أمرها ، ويبلغون أهدافهم كلها من إطلاق هذه الموجات المسعورة في كل مكان .. أهدافهم من تلهية العالم كله بهذا السعار ؛ وإشاعة الانحلال النفسي والخلقي من ورائه ، وإفساد الفطرة البشرية ، وجعلها ألعوبة في أيدي مصممي الأزياء والتجميل ! ثم تحقيق الأهداف الاقتصادية من وراء الإسراف في استهلاك الأقمشة وأدوات الزينة والتجميل وسائر الصناعات الكثيرة التي تقوم على هذا السعار وتغذيه .

إن قضية اللباس والأزياء ليست منفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة . ومن ثم ذلك الربط بينها وبين قضية الإيمان والشرك في السياق .

إنها ترتبط بالعقيدة والشريعة بأسباب شتى : إنها تتعلق - قبل كل شيء - بالربوبية ، وتحديد الجهة التي تشرع للناس في هذه الأمور ، ذات التأثير العميق في الأخلاق والاقتصاد وشتى جوانب الحياة . كذلك تتعلق بإبراز خصائص « الإنسان » في الجنس البشري ، وتغليب الطابع « الإنساني » في هذا الجنس على الطابع الحيواني . والجاهلية تمسخ التصورات والأذواق والقيم والأخلاق ، وتجعل العري - الحيواني - تقدماً ورقياً . والستر - الإنساني - تأخراً ورجعية ! وليس بعد ذلك مسخ لفطرة الإنسان وخصائص الإنسان .

وبعد ذلك عندنا جاهليون يقولون : ماللدين والزي ؟ ماللدين وملابس النساء ؟ وماللدين والتجميل ؟ .. إنه المسخ الذي يصيب الناس في الجاهلية في كل زمان وكل مكان !!!

ولأن هذه القضية التي تبدو فرعية ، لها هذه الأهمية في ميزان الله وفي حساب الإسلام ، لارتباطها أولًا بقضية التوحيد والشرك ، ولارتباطها ثانياً بصلاح فطرة الإنسان وخلقه ومجتمعه وحياته ، أو بفساد هذا كله .. فإن السياق يعقب عليها بإيقاع قوي مؤثر ، يوقع به عادة في مواقف العقيدة الكبيرة .. إنه يعقب بتنبيه بني آدم ، إلى أن بقاءهم في هذه الأرض محدود مرسوم ؛ وأنه إذا جاء الأجل فلايستقدمون ساعة ولا يستأخرون : ﴿ **ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ إنها حقيقة أساسية من حقائق هذه العقيدة ، يوقع بها السياق على أوتار القلوب الغافلة ، غير الذاكرة ولا الشاكرة ، لتستيقظ فلا يغرها امتداد الحياة .

والأجل المضروب إما أجل كل جيل من الناس بالموت المعروف الذي يقطع الحياة . وإما أجل كل أمة من الأمم بمعنى الأمد المقدر لقوتها في الأرض واستخلافها .. وسواء هذا أو ذاك فإنه مرسوم لايتقدمون عنه ولا يستأخرون » .

أقول : إن التذكير بنهايات الأمم فى سياق النهي عن الإسراف ، وفي سياق ذكر المحرمات واضح الصلة ، فالأمم التي تبطر وتنحرف عن أمر الله بارتكاب الفواحش والآثام تغفل عن مصيرها ، فجاءت الآية الآخيرة في هذا السياق تذكّر بالمصير .

* * *

وقد لاحظ صاحب الظلال من خلال الآيات التي مرت هنا من سورة الأعراف أن هناك تشابهاً وتكاملًا بين سورتي الأعراف والأنعام فسجلة بقوله :

(وقبل أن نترك هذه الجولة نسجل مالا حظناه من التشابه العجيب في مراجعة المنهج القرآني للجاهلية في شأن الذبائح والنذور والتحليل فيها والتحريم - في سورة الأنعام - ومواجهته للجاهلية - هنا في شأن اللباس والطعام .. ففي شأن الذبائح والنذور في الأنعام والثمار ، بدأ أولًا بالحديث عما تزاوله الجاهلية فعلًا من هذه التقاليد ؛ وعما تزعمه - افتراء على الله - من أن هذا الذي تزاوله من شرع الله . ثم طلب إليهم الدليل الذي يستندون إليه في أن الله حرم هذا الذي يحرمونه ، وأحل هذا الذي يحلونه ﴿ **أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ .. ثم واجه هروبهم من هذه المواجهة بإحالة الأمر إلى قدر الله وإلى أمره لهم بهذا الشرك الممثل في مزاولة الحاكمية وهي من خصائص الألوهية : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ! كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون : قل : فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين . قل : هَلُمّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ، ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون** ﴾ حتى إذا انتهى من تفنيد هذا الباطل الذي يدّعونه ويفترونه ، قال لهم : تعالوا لأُبيّن لكم حقيقة ما حرم الله عليكم وحقيقة ما أمركم به : عن المصدر الصحيح الوحيد المعتمد في هذا الشأن ؛ والذي لا يجوز الأخذ عن غيره : ﴿**قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً** ﴾ ..الخ ..

وهنا كذلك سار على نفس النسق ، وعلى ذات الخطوات .. ذكر ماهم عليه من فاحشة العري ومن الشرك في مزاولة الحاكمية في التحريم والتحليل في اللباس والطعام . وحذرهم ما هم عليه من الفاحشة والشرك ، وذكّرهم مأساة العري التي واجهها أبواهما في الجنة بفعل الشيطان وكيده ؛ ونعمة الله عليهم في إنزال اللباس والرياش .. ثم استنكر دعواهم أن ما يزاولونه من التحريم والتحليل هومن شرع الله وأوامره : ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل : هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا . خالصة يوم القيامة كذلك نفصِّل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ مشيراً هنا إلى العلم اليقيني لا الظن والخرص الذي يبنون عليه دينهم وشعائرهم وعباداتهم وشرائعهم .. حتى إذا أبطل دعواهم فيما يزاولون عاد ليقرر لهم ما حرمه ربهم عليهم فعلاً : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش – ما ظهر منها وما بطن– والإثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ .. كما أنه قد بين لهم من قبل حقيقة ما أمر الله به في شأن اللباس والطعام – لا مايدعونه هم وينسبونه إلى الله : ﴿ **قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين** ﴾ وفي كلتا المواجهتين علق القضية كلها بقضية الإيمان والشرك . لأنها في صميمها هي قضية الحاكمية ، ومن الذي يزاولها في حياة البشر . وقضية عبودية الناس ولمن تكون !

ذات القضية وذات المنهج في مواجهتها . وذات الخطوات . وصدق الله العظيم : ﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ وهذه الوحدة في المنهج تبدو أهميتها ويزداد بروزها حين نذكر طبيعة سورة الأنعام وطبيعة سورة الأعراف والمجالين المختلفين اللذين تعالجان فيهما قضية العقيدة .. فإن اختلاف المجال لم يمنع وحدة المنهج في مواجهة الجاهلية في القضايا الأساسية .. وسبحان منزِّل هذا القرآن ..

كلمة فى السياق :

مرّت معنا في المجموعة ثلاثة نداءات موجهة لبني آدم واستقر النداء الأخير على قوله تعالى ﴿ **ولكل أمّة أجل** ﴾ فالأمم كلها ستنتهي وترجع إلى الله . ومن ثمّ يأتي النداء الرابع لبني آدم وهو يواجههم بحجة الله عليهم أنّه أرسل لهم رسلًا فلم تبق لهم حجة ألا يستقيموا وألا يتقوا ، والصلة بين النداء الرابع وبين ما سبقه في المجموعة ، وبين ماسبقه في السورة كلها واضحة وسنتحدث عنها فيما بعد :

فإلى النداء الرابع : ﴿ **يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصُّون عليكم آياتي** ﴾ أي يقرؤون عليكم كتبي ﴿ **فمن اتقى وأصلح** ﴾ أي فمن اتقى الشر منكم وأصلح العمل ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ فيما يستقبلونه ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما خلفوه ، أو لاخوف عليهم أصلًا لأن الله يرعاهم في شأنهم كله ، ولاهم يحزنون لأنهم متوكلون على الله في كل شؤونهم ﴿ **والذين كذبوا** ﴾ أي منكم يا بني آدم ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي بوحينا وكتبنا ﴿ **واستكبروا عنها** ﴾ أي تعظّموا عن الإيمان بها ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أي ماكثون فيها أبداً وبهذا تنتهي المجموعة الأولى من الفقرة الثانية من المقطع وقد انتهت بالمعنى الذى تدور حوله السورة كلها وهو محور السورة في سورة البقرة .

فوائد :

١ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير** ﴾ نذكر هذين الحديثين

أ ــ روى الإمام أحمد عن أبي العلاء الشامي قال : لبس أبو أمامة ثوباً جديداً ، فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمّل به في حياتي ، ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ « من استجدّ ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمّل به في حياتي ثم عمد إلى الثوب الخَلِق فتصدق به كان في ذمة الله ، وفي جوار الله ، وفي كنف الله حياً وميتاً » ورواه أيضاً الترمذي وابن ماجه .

ب ــ وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن أبي مطر أنه رأى عليّاً رضي الله عنه أتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ، ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه : الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمّل به في الناس ، وأواري به عورتي . فقيل : هذا شيء ترويه عن نفسك أوعن النبي ﷺ ؟ قال : هذا شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة : « الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمّل به في الناس وأواري به عورتي »

٢ – وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ قال ابن كثير : (قال

مجاهد : كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قبلها النِسعة[1] أو الشيء فتقول :

اليوم يبدو كله أو بعضه ومابدا منه فلا أحلّه فأنزل الله ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ الآية ، قلت القائل ابن كثير - : كانت العرب ماعدا قريشاً لايطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش - وهم الحُمْس - يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه : ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلايتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو كله أو بعضه ومابدا منه فلا أحلّه . وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من شرع الله ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾ روى ابن جرير عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

٤ - هناك اتجاه في فهم قوله تعالى : ﴿ **كمابدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ هذا الاتجاه يفسره قولهم : بدأ خلقكم كفاراً ومؤمنين وسيبعثكم كفاراً ومؤمنين ، وبعد أن ذكر ابن كثير بعض الأحاديث منها : « يبعث كل نفس على ما كانت عليه » رواه مسلم وابن ماجه ولفظه « يبعث كل عبد على ما مات عليه » قال : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد وبين قوله تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها** ﴾ وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه وينصرّانه ويمجّسانه » وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله

(١) النسِعة : قطعة من جلد مضفورة عريضة توضع على صدر البعير

تعالى : « **إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم** » الحديث ووجه الجمع على هذا : أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله في غرائزهم وفطرهم ، ومع هذا قدّر أنّ منهم شقياً ومنهم سعيداً ﴿ **وهو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾ وفي الحديث: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿**الذي قدر فهدى**﴾ ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ وفي الصحيحين، «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسَّر لعمل أهل الشقاوة » . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ ثمّ علّل ذلك فقال : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله** ﴾ الآية قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة له اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيرتكبها عناداً منه لربه ، لأنه لو كان كذلك لم تكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد أو فريق الهدى فرق ، وقد فرق الله تعالى بين أسمائها وأحكامها في هذه الآية) أقول إننا نرجح الاتجاه الأول في التفسير لأنه الأقرب إلى الفهم الفطري البادي وتدل عليه النصوص .

٥ - وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ روى مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال والنساء ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾ الآية ، قال : كان الرجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة . هذا فعل الجاهلية القديمة ، ربطوا بين العري والعبادة ، وفعل الجاهلية الحديثة عري وكفر ، وبُعْد عن كل عبادة . فالحمد الذي جعلنا مسلمين متجملين بالستر ، ومن آداب المسلم في صلاته ما ورد في معناها من السنة : يستحب عند الصلاة - ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد - الطيب لأنه من الزينة ، والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض ، كما روى الإمام أحمد في حديث جيد الإسناد ... عن ابن عباس مرفوعاً قال . قال رسول الله ﷺ : « **البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير**

ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم ، وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر » ورواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح . وللإمام أحمد أيضاً وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » . وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تميماً الداري اشترى رداء بألف ، وكان يصلي فيه . والحد المفروض من ستر العورة في العبادة هو ستر ما بين السرة والركبة ، على خلاف في السرَه والركبة هل هما عورة ؟ وعلى خلاف هل يجب فوق ذلك أوْلا في الأحوال غير الاستثنائية ؟

٦ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ قال بعض السلف : جمع الله الطب كله في نصف آية ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ وروى البخاري .. عن ابن عباس أنه قال : وكُلْ ما شئت والْبَس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة . وروى ابن جرير بإسناد صحيح ... عن ابن عباس قال : أحلّ الله الأكل والشراب مالم يكن سرفاً أو مخيلة . وروى الإمام أحمد ... عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « كلوا واشربوا والبسوا ، وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ورواه النسائي وابن ماجه أيضاً . وروى الإمام أحمد . عن المقدام بن معد يكرب الكندي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلًا لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسِه » . ورواه النسائي والترمذي قال : حسن صحيح . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده ... عن أنس بن مالك قال : رسول الله ﷺ : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » ورواه الدار قطني في الأفراد وقال : هذا حديث غريب تفرد به بقية .

ولا شك أن مراعاة عدم الإسراف في الطعام والشراب عامل رئيسي في الصحة ، وقليلًا من يراعي ذلك لغموض موضوع السرف ، ولكونه نسبياً ، ولاشك أن ما فوق الشبع سرف .

وبمناسبة هذه الآية قال النسفي : (وكان للرشيد طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن الحسن بن واقد : ليس في كتابكم في علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ؟ فقال له علي : قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه ، وهو قوله : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ . فقال النصراني : ولم يرو عن رسولكم شيء في

الطب فقال : **قد جمع** رسولنا الطب **في** ألفاظ **يسيرة وهي قوله عليه السلام** : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء . وأعط كل بدن ماعودته » فقال النصراني : ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً) وقد خص بعض المؤلفين الطب النبوي بالتأليف والجمع هذا مع ملاحظة أن الرسالة لم تأت لتفصّل في مثل هذه القضايا ويكفي أنّها وجّهت للتداوي وفرضت صناعة الأدوية ، والحديث الذي ذكره النسفي لايصح رفعه إلى رسول الله ﷺ بل هو من كلام بعض الحكماء .

٧ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ نذكر مارواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا** أحد أغير من الله ، **فلذلك** حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » أخرجاه في الصحيحين .

كلمة في سياق المجموعة :

هذه المجموعة تحدثت عن مجمل ما ينبغي أن يلاحظه بنو آدم بعد إذ أهبطهم الله إلى الأرض ، ففيها خلاصة الهدى الذي يطالب به بنو آدم في كل عصر وفي كل مصر ، وعلى لسان كل رسول .

والمجموعة كما بينت هذا فإنها بينت مارتب الله على الطاعة والمعصية في هذه التوجيهات ،فهي بهذا بينت عاقبة ترك الهدى ، كما بينت حسن اتباعه . والمجموعة كلها تكاد تكون تعقيباً على قصة آدم عليه السلام فإذا اتضح هذا فلنلاحظ .

١ - أن المجموعة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وهى المعاني نفسها التي ختمت بها قصة آدم فى سورة البقرة ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ... ﴾ وهذا يؤكد أن محور سورة الأعراف هو ما ذكرنا من سورة البقرة .

٢ - نلاحظ أن مقدمة السورة ختمت بقوله تعالى ﴿ **ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ لاحظ كلمة الظلم ، ثم جاءت قصة آدم وورد فيها ﴿ **فتكونا من الظالمين** ﴾ ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ لاحظ كذلك

الاشتقاق من كلمة الظلم ، ثمّ جاءت المجموعة الأولى من فقرة نداءات بني آدم ، والآن تأتي المجموعة الثانية وتبدأ بقوله تعالى ﴿**فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته ..** ﴾ مما يشير إلى تلاحم مقدمة السورة مع المقطع الأول فيها ، وهذا يؤكد أن مقدمة السورة مع المقطع الأول فيها يشكلان قسماً واحداً ، ولنا عودة على هذا الموضوع

٣ - نلاحظ أن الفقرة الأولى في المقطع والتي تحدثت عن قصة آدم قد ذكرت قصة الخروج من الجنة ، ثم جاءت المجموعة الأولى : فذكّرت بني آدم في أرضهم ، وذكرتهم بمصير الأمم على الأرض ، وذكّرتهم بعاقبة الأمر وأنه جنة أو نار . ثم تأتي الآن المجموعة الثانية من الفقرة الثانية : وفيها أطول عرض لمشهد من مشاهد الآخرة ، ابتداء من الموت الذي هو بداية الرجعة إلى ما بعد ذلك ، الفقرة الأولى في المقطع فيها قصة الخروج ، والفقرة الثانية فيها قصة الرحلة وقصة العودة ، يقول صاحب الظلال : (وفي هذا التناسق بَيْن القصة السابقة والتعقيبات عليها ، ومشاهد القيامة اللاحقة من مبدئها إلى منتهاها من الجمال ما فيه . فهي قصة تبدأ في الملأ الأعلى ، على مشهد من الملائكة - يوم أن خلق الله آدم وزوجه وأسكنهما الجنة ، فدلاهما الشيطان عن مرتبة الطاعة والعبودية الكاملة الخالصة ، وأخرجهما من الجنة - وتنتهي كذلك في الملأ الأعلى على مشهد من الملائكة .. فيتصل البدء بالنهاية . ويضمان بينهما فترة الحياة الدنيا ومشهد الاحتضار في نهايتها . وهو يتسق في الوسط مع البدء والنهاية كل الاتساق)

٤ - وإذن تأتي المجموعة الثانية من الفقرة الثانية وفيها قصة العودة والحساب والعقاب والجزاء ، وقد سبقت مباشرة بقوله تعالى : ﴿ **فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها** ﴾ وتأتي الآية الأولى منها فتذكر أن أظلم الظالمين من افترى على أن الله كذباً أو كذّب بآياته . ثم تستمر المجموعة فتذكر مشهد الوفاة وماذا يجري لأرواح الكفار : ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتّح لهم أبواب السماء** ﴾ ثم مآلهم بعد ذلك إلى النار . كما تذكر مآل أهل الإيمان ، ثم تتحدث عما يجري بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، وعن حال أهل الأعراف ، وتذكر ما يكون من حوار ، وخلال ذلك نرى قوله تعالى ﴿ **فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ....** ﴾ لاحظ كلمة الظالمين ، ونرى قوله تعالى على لسان أهل الأعراف ﴿ **ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ إنّ صلة ذلك بالآية الأولى من المجموعة ﴿ **فمن أظلم ....** ﴾ لا تخفى

٥ - إنّه لمشهد واعظ ، هذا المشهد الذي نراه في المجموعة الثانية يأتي بعد النداءات التي وُجهّت لبني آدم لتعميق معنى الالتزام بوحي الله ، ولتعمق معنى الفرار عمّا يخالف ذلك .

٦ - والمجموعة كذلك تفصّل في موضوع المحور ، فتعطينا تصوّراً عن مآل من يتابع الوحي وتصوراً عن مآل من يكفر ، وتصوّراً عن مآل من يقتصد ولننتقل الآن إلى المجموعة الثانية من الفقرة الثانية في المقطع ، فإنه بعد ما قرر الله تعالى قصة آدم في الفقرة الأولى ، ونادى بني آدم النداءات الأربعة التي ختمت ببيان ما أعد الله لأهل الجنة ، وما أعده للمكذبين المستكبرين في المجموعة الأولى من الفقرة الثانية ، تأتي المجموعة الثانية في الفقرة الثانية ومحلها من السياق ما رأيناه :

تفسير المجموعة الثانية من الفقرة الثانية

﴿ **فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذّب بآياته** ﴾ أي لا أحد أشنع ظلماً ممّن تقول على الله ما لم يقله ، أو كذّب ما قاله ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾ أي ما كتب لهم من الأرزاق والأعمار والسعادة والشقاوة في الدنيا ﴿ **حتى إذا جاءتهم رسلنا** ﴾ أي ملك الموت وأعوانه ﴿ **يتوفونهم** ﴾ أي يقبضون أرواحهم والآية تفيد أن نيلهم حظهم في الدنيا مستمر حتى ساعة التوفي فإن الملائكة تقول تقريعاً ﴿ **قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله** ﴾ أي أين الألهة الذين كنتم تعبدونهم من دون الله ليذبوا عنكم ﴿**قالوا ضلواعنا** ﴾ أي غابوا عنا فلا نراهم ﴿ **وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ أي اعترفوا بكفرهم بلفظ الشهادة التي تفيد تحقيق الكلام ﴿ **قال** ﴾ أي يقول الله يوم القيامة لهؤلاء الكفار ﴿ **ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار** ﴾ أي ادخلوا كائنين في جملة أمم مصاحبين لهم قد مضت من كفار الجن والإنس في النار ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾ أي كلما دخلت أمة النار لعنت شبيهتها وشكلها في الدين ، أي لعنت التي ضلت بالاقتداء بها ﴿ **حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً** ﴾ أي حتى إذا تلاحقوا واجتمعوا في النار كلهم السابقون واللاحقون والسادة والأتباع ﴿ **قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار** ﴾ تحتمل أن تكون الأخرى مَنْزِلَة والأولى مَنْزلة أي : قال الأتباع والسفلة للسادة والرؤوس ، أي عنهم ؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم ، وتحتمل أن يكون المتأخرون قالوا للمتقدمين ، لأن ضلال المتأخرين كان بسبب الاقتداء بمن قبلهم ، ويرجح هذا قوله تعالى : ﴿ **من قبلكم** ﴾ .

﴿ **قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون** ﴾ أي يا ربنا هؤلاء القادة ، أو هؤلاء السابقون المتقدمون علينا قد أضلونا بالغواية والإغواء ؛ فضاعف لهم العذاب في النار . ﴿ **قال لكل ضعف** ﴾ أي للقادة ضعف لغوايتهم وإغوائهم ، لضلالهم وإضلالهم ، وللأتباع ضعف لكفرهم ولاقتدائهم ولتقويتهم أمر القادة ، فلولا الأتباع ما كان للقادة سلطان . أو للمستقدمين ضعف بضلالهم وإضلالهم ، وللمتأخرين ضعف بضلالهم ومتابعتهم ﴿ **ولكن لا تعلمون** ﴾ أي ما لكل فريق منكم من العذاب ، أو لا يعلم كل فريق مقدار عذاب الفريق الآخر ﴿ **وقالت أولاهم لأخراهم** ﴾ أي وقال القادة عن الأتباع ، أو وقال السابقون عن اللاحقين ﴿ **فما كان لكم علينا من فضل** ﴾ هذا يحتمل فما كان لكم علينا من نصرة ، أو يحتمل أن لا فضل لكم علينا وإنا متساوون في استحقاق الضعف ، أو يحتمل أن هذا من كلام الأمم السابقة لمن بعدها لأن المتأخرين كانوا يرون أنفسهم خيراً وأحسن وأرقى من المتقدمين ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾ أي بكسبكم وكفركم وهو من قول الأولين للآخرين .

فائدة :

في عصرنا تسمع عبارات كثيرة كلها تعبر عن شعور المعاصرين أنهم خير من السابقين من مثل : عصرنا عصر النور ، عصر المدنية ، عصر التقدم ، عصر حضارة القرن العشرين ، عصر التحرر ، وأمثال ذلك ، كما تسمع عن الماضين : متأخرين جهلة ، عصور الظلام ، عصور الوحشية ، وغير ذلك مما يفيد أن المعاصرين يحتقرون الماضين ، مع ملاحظة أن كفر المعاصرين استمرار لكفر الماضين ، والذي نرجحه في فهم الآية أن الآيتين السابقتين سجّلتا هذا المعنى بشكاية المتأخرين للمتقدمين أنهم سبب ضلالهم ، وشماتة الأولين بالآخرين إذ كانوا يدّعون أنّ لهم فضلا على السابقين ، فشمتوا بهم أن فضلهم ما حال بينهم وبين العذاب المضاعف ، وفي مثل هذا التصوير ، وفي تعدد المعاني الصحيحة التي يعطيها النص أحياناً تظهر بعض مظاهر الإعجاز في القرآن ، وكيف أنّ مُنَزِّله لابد أن يكون هو الذي يعلم الحاضر والمستقبل ، هو رب العالمين ولنعد إلى السياق :

﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّح لهم أبواب السماء** ﴾ بعد أن ذكر ما تقول الملائكة للكافرين عند الموت ، وذكر ما يقول الله لهم يوم القيامة ، عاد السياق ليحدثنا عما يكون للكافر عند الموت ، على قول في فهم الآية ، وما يكون للكافر يوم القيامة على فهم ، فقوله تعالى : ﴿ **لا تُفتَّح لهم أبواب السماء** ﴾ يحتمل أن يعني : ألا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة ،

إذ هي في السماء ، أوْلا يصعد لهم عمل صالح ، ولا تنزل عليهم البركة ، أوْ لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين إلى السماء ، ويشهد لهذا الفهم الأخير النصوص ، كما سنرى في الفوائد ، فالآية على الفهم الأخير عودة إلى الحديث عما يكون للكافرين عند الموت ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط** ﴾ الخياط والمخيط ما يخاط به : وهو الإبرة ، وسم الخياط أي ثقب الإبرة ، والجمل البعير أو الحبل الغليظ : وعلى هذا وهذا كثير من أئمة التفسير والمعنى : كما أنه لا يدخل الجمل في ثقب الإبرة أبداً ، كذلك هؤلاء لا يدخلون الجنة أبداً وتشبيه دخول الجنة بالدخول في سم الخياط يشير إلى أن دخول الجنة يحتاج إلى تواضع ، وأن الطريق إلى الجنة دقيق ﴿ **وكذلك نجزي المجرمين** ﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الفظيع الذي وصفنا ﴿ **نجزي المجرمين** ﴾ أي الكافرين وجريمتهم التكذيب بآيات الله ، والاستكبار عنها ﴿ **لهم من جهنم مهاد** ﴾ أي فراش ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ أي أغطية جمع غاشية وهي الغطاء ﴿ **وكذلك نجزي الظالمين** ﴾ أنفسهم بالكفر ، وبعد أن فصّل في مصير المكذبين المستكبرين بدأ يفصّل في أمر المؤمنين ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلّف نفساً إلا وسعها** ﴾ أي إلّا طاقتها . والتكليف : إلزام ما فيه كلفة ومشقة ، فمن ظن أن الإسلام راحة جسد مطلقة فقد أخطأ الفهم ووهم ، وذكر التكليف بقدر الطاقة بعد ذكر الإيمان والعمل الصالح ؛ حتى لا يفهم فاهم أن دخول الجنة متوقف على مالا يمكن عمله ﴿ **أولئك** ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ **أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ أي ماكثون فيها أبداً ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ أي من حقد كان بينهم في الدنيا ، فلم يتبق بينهم إلا التوادّ والتعاطف ، وهذا من تمام السعادة في الجنة ، أنه ليس فيها إلّا سلام حسي ومعنوي ، ظاهري وباطني ﴿ **تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ لتتم لهم سعادة المنظر ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا** ﴾ أي لما هو وسيلة إلى هذا الفوز العظيم وهو الإيمان ﴿ **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾ أي وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله ﴿ **لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ يقولون ذلك سروراً بما نالوا ، وإظهاراً لما اعتقدوا ، وفي كلامهم إشارة إلى أن إرسال الرسل لطف من الله بخلقه ، واعتراف منهم بالفضل لأصحاب الفضل ﴿ **ونودوا أن تلكم الجنة** ﴾ أي ونودوا بأنه تلكم الجنة ﴿ **أورثتموها** ﴾ أي أعطيتموها ، سمّاها ميراثاً لأنها لا تُستَحق بالعمل ، بل هي محض فضل الله ، ووعده على الطاعات ، كالميراث ليس بعوض بل هو صلة خالصة ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ أي بسبب أعمالكم الصالحة ، وفي الفوائد كلام عن هذا المقام ، ومن تمام النعمة أن ترى خصم العقيدة في النار ، وأن يراك في الجنة ، وأن يطمع فيما أنت فيه الطامعون ، ويأتي الآن حوار فيه مزيد من التفصيل عن حال أهل النار وأهل الجنة ، وفيه عرض لنوع آخر من العذاب للكافرين ، ونوع آخر من النّعيم لأهل

الإيمان ﴿ **ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً** ﴾ من الثواب ﴿ **فهل وجدتم ما وعد ربكم** ﴾ من العذاب ﴿ **حقاً** ﴾ وإنما قالوا لهم ذلك شماتة بأصحاب النار ، واعترافاً بنعم الله ﴿ **قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم** ﴾ أي فنادى مناد وهو مالك يسمع أهل الجنة والنار ﴿ **أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون** ﴾ أي يمنعون ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي عن دينه . ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾ أي ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض ﴿ **وهم بالآخرة** ﴾ أي بالدار الآخرة ﴿ **كافرون** ﴾ اجتمع لهم الصد عن سبيل الله ، وإرادتهم الإفساد ، والكفر باليوم الآخر ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ أي وبين الجنة والنار ، أو بين الفريقين حجاب هو السور المذكور في قوله تعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ . ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ أي على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الجنة والنار والأعراف هي أعاليه جمع عرف ، استعير من عرف الفرس وعرف الديك ﴿ **رجال** ﴾ من آخر المسلمين دخولًا في الجنة ، لاستواء حسناتهم وسيئاتهم ، وفي الفوائد كلام . ﴿ **يعرفون كلًا** ﴾ أي من زمرة السعداء والأشقياء ﴿ **بسيماهم** ﴾ أي بعلامتهم . قيل سيما المؤمنين بياض الوجوه ونضارتها ، وسيما الكافرين سواد الوجوه وزرقة العيون ﴿ **ونادَوا** ﴾ أي أصحاب الأعراف ﴿ **أصحاب الجنة أن سلام عليكم** ﴾ هي تحية ، وهي تهنئة منهم لأهل الجنة ولا شك أن الإنسان يتساءل عن مصير أصحاب الأعراف ومن ثم جاء الجواب دون ذكر السؤال لكونه متوقَّعاً ﴿ **لم يدخلوها** ﴾ أي أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿ **وهم يطمعون** ﴾ في دخولها ﴿ **وإذا صُرِفَت أبصارهم** ﴾ أي أبصار أصحاب الأعراف وكأن صارفاً يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ﴿ **تلقاء أصحاب النار** ﴾ أي ناحيتهم ورأوا ما هم فيه من العذاب ﴿ **قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ استعاذوا بالله ، وفزعوا إلى رحمته ، ألَّا يجعلهم معهم ﴿ **ونادى أصحاب الأعراف رجالًا** ﴾ من رؤوس الكفرة ﴿ **يعرفونهم بسيماهم** ﴾ أي بعلامتهم ﴿ **قالوا ما أغنى عنكم جمعكم** ﴾ أي جمعكم المال ، أو المراد به الكثرة والاجتماع ﴿ **وما كنتم تستكبرون** ﴾ أي واستكباركم على الحق وعلى الناس ، لقد زال كل شيء ولم يبق لهم إلَّا الذل والعار والنار ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ يحتمل أن هذا من خطاب الله ويحتمل أنه من كلام أهل الأعراف والمشار إليهم هم الفقراء والمستضعفون الذين دخلوا الجنة من قبل أو أهل الأعراف ، ومعنى أقسمتم : حلفتم ، والمعنى أقسمتم عليهم بأن لا يصيبهم الله برحمته أي لا يدخلهم الجنة ، وذلك من احتقارهم إياهم لفقرهم . ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ هذا من كلام الله لأهل الأعراف . أي يقال لأصحاب الأعراف بعد أن نظروا إلى الفريقين وعرفوهم بسيماهم وقالوا ما قالوا . ﴿ **ونادى أصحاب النار**

أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ أي من غيره من الأشربة لدخوله في حكم الإفاضة ، أو من الطعام والفاكهة على تقدير . أو ألقوا علينا مما رزقكم الله ، وإنما سألوا ذلك مع يأسهم عن الإجابة لأن المتحير ينطق بما يفيد وبما لا يفيد ، وذكر الإفاضة يدل على أن الجنة فوق النار ﴿ **قالوا** ﴾ أي أهل الجنة ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ تحريم منع كما في قوله تعالى ﴿ **وحرمنا عليه المراضع** ﴾ (القصص : ١٢) ثم وصف الكافرين بالصفات التي أوبقتهم ؛ وجعلتهم يستحقون هذا العذاب ﴿ **الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً** ﴾ فحرّموا وأحلوا ماشاؤوا ، أو اتخذوا اللعب واللهو ديناً لهم ﴿ **وغرّتهم الحياة الدنيا** ﴾ فنسوا الآخرة واغتروا بطول البقاء ﴿ **فاليوم ننساهم** ﴾ أي نتركهم في العذاب ﴿ **كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ أي كنسيانهم اليوم الآخر ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أي وكما كانوا بالوحي يجحدون ، فهذه هي الصفات التي أوبقتهم : حب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، والتكذيب بآيات الله .

فوائد :

١ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تُفتَّح لهم أبواب السماء** ﴾ يروي ابن كثير مجموعة أحاديث نذكرها مع حذف الأسانيد: (روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلْحَد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر ، مرتين أو ثلاثة ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن على وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ،ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ؛ ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون –يعني – بها على ملأمن الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ، فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ،

حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعادروحه ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : ديني الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعُث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول له : قرأت كتاب الله ؛ فآمنت به ،وصدقت ، فينادي مناد من السماء ، أن صدق عبدي ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، فيأتيه من رَوْحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد البصر ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرُّك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال إلى الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة ، سود الوجود ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال فتفرَق في جسده ،فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول .. فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفه ، وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **لاتُفتّح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط** ﴾ فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خرّمن السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق** ﴾ فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول :هاه هاه لا أدري فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء ، أن كذب فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وسَمُومهما ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي

يسوءك ، هذا يومك الذي كنتَ توعد ،فيقول : من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر ؟ فيقول أنا عملك الخبيث ، فيقول : رب لا تقم الساعة » . وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه . وفيه : حتى إذا خرج روحه (أي المؤمن) صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء . وفتحت له أبواب السماء ، وليس من أهل باب إلاوهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفي آخره : ثم يقيّض له (أي للكافر) أعمى أصم أبكم ، في يده مِرْزَبَّة لوضرب بها جبل كان تراباً ، فيضربه ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين . قال البراء : ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار .

وروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له ... عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس المطمئنة ، كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون فلان ، فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة ، التي كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان . فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل ، وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغسَّاق وآخر من شكله أزواج ، فيقولون ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ، فيقولون : لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة فإنه لم تفتح لك أبواب السماء ، فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر) اهـ ابن كثير .

وعند قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتَّح لهم أبواب السماء** ﴾ يقول الألوسي :

﴿ **لا تفتح لهم** ﴾ أي لأرواحهم إذا ماتوا ﴿ **أبواب السماء** ﴾ كما تفتح لأرواح المؤمنين . أخرج أحمد . والنسائي . والحاكم وصححه . والبيهقي . وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل صالحاً قال : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة

وأبشري بروح وريحان ، ورب راض غير غضبان ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان . فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة ، كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب راضٍ غير غضان ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة ، وإذا كان الرجل السوء قالت : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون : فلان ابن فلان. فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، لا تفتح لك أبواب السماء ، فترسل من بين السماء والأرض ثم تصير إلى القبر » والأخبار في ذلك كثيرة . وقيل : لا تفتح لأعمالهم ولا لدعائهم أبواب السماء .

وروي ذلك عن الحسن . وقيل : لاتفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم . وروي ذلك عن ابن جريج وقيل : المراد لايصعد لهم عمل ولاتنزل عليهم بركة)

٢ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ نذكر ما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتصّ لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا » وقال السدي في قوله ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار** ﴾ الآية : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما فيُنزع ما في صدورهم من غل ، فهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً . وقد روى أبو إسحاق ... عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نحواً من هذا ، وروى ابن جرير عن قتادة قال : قال علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **ونزعنا ما في صدروهم في غل** ﴾ وقال عبد الرزاق ... أن علياً رضي الله عنه قال : فينا والله أهل بدر نزلت ﴿ **ونزعنا ما في صدروهم من غل** ﴾ فالجنة إذن سلام في الباطن وفي الظاهر ، وسلام في التعامل ، وسلام في الحال وفي المآل ، فهي دار السلام نسأل الله أن يجعلنا من أهلها .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ قال ابن كثير (روى النسائي وابن مردويه واللفظ له ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أنّ الله هداني : فيكون له شكراً ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني ، فيكون له حسرة » . ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة ، فدخلتم الجنة ،وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ؛ وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) ا هـ كلام ابن كثير .

وعن قوله تعالى ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾ يقول صاحب الظلال : (هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم لايكلفون إلاطاقتهم .. هؤلاء هم يعودون إلىٰ جنتهم إنهم أصحابها - بإذن الله وفضله - ورّثها لهم - برحمته - بعملهم الصالح مع الايمان؛ جزاء مااتبعوا رسل الله ، وعصوا الشيطان ، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم ، ولولا رحمة الله ماكفىٰ عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله ﷺ : لن يدخل أحداً منكم الجنة عملُه » قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : « ولاأنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » وليس هنالك تناقض ولا اختلاف بين قوله الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوىٰ .. وكل ماثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرَق الإسلامية لم يقم على الفهم الصحيح لهذا الدين ، إنما ثار عن الهوىٰ ، فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة ، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا ؛ فكتب على نفسه الرحمة ، وقبل منهم جَهْد المقل القاصر الضعيف ، وكتب لهم به الجنة فضلًا منه ورحمة ؛ فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة ..

وبعد فإذا كان أولئك المغترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار ويتخاصمون ، وتغلي صدورهم بالسخائم والأحقاد ، بعد أن كانوا أصفياء أولياء .. فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون ، متصافون متوادّون يرفّ عليهم السلام والولاء : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾

فهم بشر وهم عاشوا بشراً . وقد يثور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه وغل يغالبونه ويغلبونه .. ولكن تبقى في القلب منه آثار .
قال القرطبي في تفسيره المسمى أحكام القرآن : « قال رسول الله ﷺ الغل على أبواب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله من قلوب المؤمنين) .

٤ ــ بمناسبة قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿**وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ نقل النسفي كلاماً يحتج به على المعتزلة في موضوع خلق الأفعال عن الشيخ أبي منصور الماتريدي قال: (إن المعتزلة خالفوا الله فيما أخبر، ونوحاً عليه السلام ، وأهل الجنة والنار ، وإبليس لأنه قال الله تعالى : ﴿ **يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ وقال نوح عليه السلام : ﴿ **ولاينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم**﴾ وقال أهل الجنة: ﴿**وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**﴾ وقال أهل النار: ﴿ **لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ وقال إبليس : ﴿ **فبما أغويتني** ﴾ .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقاً** ﴾ يقول ابن كثير : وكذلك قرَّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى : « يا أبا جهل بن هشام ، وياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة – وسمى رؤوسهم – هل وجدتم ماوعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ماوعد ربي حقاً » . وقال عمر : يارسول الله تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا » .

أقول : فلنقبل : على الله بالعمل والإخلاص والمحبة له ولرسوله ﷺ وللمؤمنين ، والبغض لأعدائه ، فلعلّ الله يوقفنا الموقف الأكرم فنكون من أهل الدرجات العلى وما ذلك على الله بعزيز ، وإن أملنا به كبير ، ورجاءنا له لعظيم على تقصير في العمل واتهام للنفس .

٦ – وعند قوله تعالى ﴿ **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً** ﴾ يقول صاحب الظلال :
(وفي هذا الوصف : ﴿ **ويبغونها عوجاً** ﴾ إيحاء بحقيقة مايريده الذين يصدون عن سبيل الله إنهم يريدون الطريق العوجاء ؛ ولا يريدون الطريق المستقيم . يريدون العوج ولا يريدون الاستقامة . فالاستقامة لها صورة واحدة : صورة المضي على طريق الله ومنهجه وشرعه . وكل ما عداه فهو أعوج ؛ وهو إرادة للعوج . وهذه الإرادة تلتقي مع

الكفر بالآخرة . فما يؤمن بالآخرة أحد ، ويستيقن أنه راجع إلى ربه ؛ ثم يصدّ عن سبيل الله ، ويحيد عن نهجه وشرعه .. وهذا هو التصوير الحقيقي لطبيعة النفوس التي تتبع شرعاً غير شرع الله ، التصوير الذي يجلو حقيقة هذه النفوس ويصفها الوصف الصحيح) .

٧ – وقد حكى القرطبي وغيره في أهل الأعراف اثني عشر قولا وأقوى الأقوال ما ذكرنا ، ويشهد له الحديث المرسل الحسن عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال : « هم آخر من يُفصل بينهم من العباد ، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال : أنتم قوم أخرجتكم حسناتُكُم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم »

ومما روي في شأن الأعراف ماروي عن حذيفة فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتُهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم : اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم .

ومن الأقوال فيهم مارواه الحافظ بن عساكر عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب ، فسألناه عن ثوابهم فقال : على الأعراف ، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ . فسألناه : وما الأعراف ؟ فقال : حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار .

وأقوى الأقوال فيهم ما اعتمدناه ومما ذكره ابن كثير بمناسبة الكلام عن أهل الأعراف دون أن يذكر من أخرجه قال : وقال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكافأت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصّرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجُعِلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد ، أذن لهم في طلب الشفاعة . فأتوا آدم فقالوا : يا آدم ، أنت أبونا ، فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ماعلمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني إبراهيم . فيأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول : هل تعلمون من أحد اتخذه الله خليلًا ؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ماعلمت كنهه ما

أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني موسى ، فيأتون موسى عليه السلام فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً وقربه نجياً غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ماأستطيع أن أشفع لكم . ولكن ائتوا عيسى ، فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرىء الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسي ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتوني ، فأضرب بيدي على صدري . ثم أقول : أنالها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش فآتي ربي عزوجل فيفتح لي من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفَّع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي أمتي فيقول : هم لك . فلا يبقى نبي مرسل ، ولا ملك مقرّب ، إلا غبطني بذلك المقام : وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنة ، فاستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب فكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى في صدروهم شامات بيض يُعرَفون بها يقال لهم : مساكين أهل الجنة . »

قال الألوسي في قوله تعالى: ﴿**وعلى الأعراف**﴾ (أي أعراف الحجاب أي أعاليه وهو السور المضروب بينهما جمع عرف مستعار من عرف الدابة والديك . وقيل : العرف ما ارتفع من الشيء أي أعلى موضع منه لأنه أشرف وأعرف مما انخفض منه . وقيل : ذاك جبل أحد .

فقد روي عنه ﷺ « أُحد يحبنا ونحبه ، وأنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار ، يحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم ، وهم - إن شاء الله تعالىٰ - من أهل الجنة » وقيل : هو الصراط . وروي ذلك عن الحسن بن المفضل . وحكي عن بعضهم أنه لم يفسر الأعراف بمكان وأنه قال : المعنىٰ وعلى معرفة أهل الجنة والنار « رجال » والحق أنه مكان ، والرجال طائفة من الموحّدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار جعلوا هناك حتىٰ يقضي بين الناس ، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم فقال لهم : قوموا ادخلوا الجنة فإني غفرت لكم ، أخرجه أبو الشيخ والبيهقي وغيرهما عن حذيفة . وفي رواية أخرىٰ عنه « يجمع الله تعالىٰ الناس ثم يقول لأصحاب

الأعراف : « ماتنتظرون ؟ » قالوا : ننتظر أمرك فيقال : « إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها ، وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوها بمغفرتي ورحمتي » وإلىٰ هذا ذهب جمع من الصحابة والتابعين . وقيل هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أجلسهم الله تعالىٰ على أعالي ذلك السور تمييزاً لهم على سائر أهل القيامة وإظهاراً لشرفهم وعلو مرتبتهم) .

٨ ـــ وبمناسبة قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿**أفيضوا علينا من الماء**﴾ ذكر ابن كثير ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الصفار قال : سألت ابن عباس – أو سئل – أيُّ الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » وأخرج أيضاً .. عن أبي صالح قال : لما مرض أبو طالب قالوا له : لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به ؟ فجاءه الرسول ، وأبو بكر عند النبي ﷺ فقال أبو بكر : إن الله حرمهما على الكافرين .

٩ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا**﴾ قال ابن كثير : وفي الصحيح : أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْك ترأس وتَرْبَع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني .

كلمة في السياق :

انتهينا من الكلام عن المجموعة الثانية من الفقرة الثانية في المقطع الأول، ولم يبق في هذا المقطع إلا الفقرة الثالثة ، وهي فقرة تقيم الحجة على الناس ، وتطالبهم بالعبادة والدعاء ، وتنهاهم عن الفساد في الأرض ، وتذكّر ببعض السنن ، وهذه الفقرة بمثابة الخاتمة للمقطع الأول :

تفسير الفقرة الثالثة :

﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصَّلناه** ﴾ أي بيّنا وميزنا حلاله وحرامه ومواعظه وقصصه ﴿ **على علم** ﴾ أي عالمين بكيفية تفصيل أحكامه ﴿ **هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ فهو مع كونه مفصّلًا وبعلم فإنه هدى ورحمة ولكن للمؤمنين ﴿ **هل ينظرون** ﴾ أي هل

ينتظرون ﴿ **إلا تأويله** ﴾ أي إلّا عاقبة أمره ومايؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد قال الربيع : لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم نأويله يومئذ ﴿ **يوم يأتي تأويله** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **يقول الذين نسوه** ﴾ أي تركوه وأعرضوا عنه ﴿ **من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ أي تبيّن وصح أنهم جاؤوا بالحق فأقروا حين لاينفعهم ﴿ **فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل** ﴾ أي هل يشفع لنا شافع ،أو هل نرد فنعمل على حسب الأمر ونترك ماكنا عليه ﴿ **قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون** ﴾ أي ماكانوا يعبدونه من الأصنام ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام** ﴾ والحكمة في كون الخلق في ستة أيام ، مع قدرة الله على خلقها دفعة واحدة ، للإعلام بالتأني في الأمور ، ولأن لكل عمل يوماً ، ولأن إنشاء شيء بعد شيء أدل على عالم ، مدبر ، مريد ، يصرفه على اختياره ، ويجريه على مشيئته ، ومر معنا في المعني العام الخلاف في كون الستة أيام من أيامنا أو من أيام الله ، ومر معنا في سورة البقرة كلام حول موضوع خلق السمٰوات والأرض ، وسنتحدث في سورة هود عن هذا المعنى بتفصيل أكثر إن شاء الله ، وتفصيله النهائي في سورة فصلت والنازعات . ﴿ **ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار** ﴾ أي يجعل الليل يلحق النهار فيغطيه ﴿ **يطلبه حثيثاً** ﴾ أي سريعاً . قال النسفي : والطالب هو الليل ، وهذا موضوع مهم فيه معجزة كما سنرى في الفوائد ﴿ **والشمسَ والقمرَ والنجومَ** ﴾ أي وخلق الشمس والقمر والنجوم ﴿ **مسخرات بأمره** ﴾ أي مذللات بأمره التكويني ﴿ **ألا له الخلق** ﴾ أي هو الذي خلق الأشياء كلها وهو الخالق وحده ﴿ **والأمر** ﴾ فمن حقه التشريع والتكليف وليس لأحد معه حق في الأمر إلا بإذنه ﴿ **تبارك الله** ﴾ أي كثر خيره أو دام بره ﴿ **رب العالمين** ﴾ خالقهم وسيدهم والمهيمن عليهم ، والمسيطر المُسَخّر ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ أي وأنتم ذووتضرع وخفية ، والتضرع من الضراعة وهي الذل ، والخفية الإسرار ، والمعنى : ادعوا ربكم تذللًا وتملقاً ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ أي المجاوزين ما أُمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره ، وعن ابن جريج : الرافعين أصواتهم بالدعاء ، وعنه : الصياح في الدعاء مكروه وبدعة .﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ أي بالمعصية بعد الطاعة ، أو بالشرك بعد التوحيد ، أو بالظلم بعد العدل ، أو بالبدعة بعد السنَّة ، أو بتعطيل الشريعة بعد إقامتها ، أو هذا كله ﴿ **وادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾ أي : ادعوه خائفين من الرد ، طامعين في الإجابة . أو خائفين من النيران ، طامعين في الجنان . أو خائفين من الفراق ،

طامعين في التلاق . أو خائفين من غيب العاقبة طامعين في ظاهر الهداية . أو خائفين من العدل طامعين في الفضل ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ أي قريبة ممن اتصفوا بالإحسان . وذكر النسفي خمسة أوجه لتذكير كلمة قريب في هذا المقام وليس من غرضنا في هذا الكتاب مثل هذا ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً** ﴾ أي مبشرة بالمطر ﴿ **بين يدي رحمته** ﴾ أي أمام نعمته وهو الغيث الذي هو من أجل النعم ﴿ **حتى إذا أقلّت** ﴾ أي حملت ورفعت ﴿ **سحاباً ثقالًا** ﴾ أي بالماء ﴿ **سقناه لبلد ميِّت** ﴾ أي لأجل بلد ميت ليس فيه مطر لسقيه ﴿ **فأنزلنا به** ﴾ أي بالسحاب أو بالسَوْق ﴿ **الماء فأخرجنا به من كل الثمرات** ﴾ أي بالماء ﴿ **كذلك** ﴾ . أي مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات ﴿ **نخرج الموتى لعلكم تذكّرون** ﴾ أي فيؤديكم التذكر إلى الإيمان بالبعث ، إذ لا فرق بين الإخراجين ؛ لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إماتته ، والآية صريحة في رد الخرافة القائلة بأن المطر ليس من السحاب الناتج عن بخار الماء . ﴿ **والبلد الطيب** ﴾ أي والأرض الطيبة التراب ﴿ **يخرج نباته بإذن ربه** ﴾ أي بتيسيره كأنه قيل يخرج نباته حسناً وافياً ﴿ **والذي خبث** ﴾ أي والبلد الخبيث ﴿ **لا يخرج إلا نكداً** ﴾ أي لا يخرج نباته إلا نكدا ، والنكد : هو الذي لا خير فيه . وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ ، وهو المؤمن ، ولمن لايؤثر فيه شيء من ذلك ، وهو الكافر ، وهذا التمثيل واقع على أثر مَثَل ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد في علم البلاغة ﴿ **كذلك نصرِّف الآيات** ﴾ مثل ذلك التصريف نردد الآيات ونكررها ﴿ **لقوم يشكرون** ﴾ نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا ويعتبروا فيها وبهذا تم المقطع .

فوائد :

١ - قال الألوسي : في قوله تعالى ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام** ﴾ شرع في بيان مبدأ الفطرة أثر بيان معاد الكفرة ، ويحتمل أنه سبحانه لما ذكر حال الكفار وأشار إلى عبادتهم غيره سبحانه ، احتج عليهم بمقدوراته ومصنوعاته جل شأنه ، ودلهم بذلك على أنه لامعبود سواه فقال مخاطبا بالخطاب العام ﴿ **إن ربكم الله** ﴾ أي خالقكم ومالككم ﴿ **الذي خلق السمٰوات** ﴾ السبع ﴿ **والأرض** ﴾ بما فيها .

ثم قال الألوسي : (فإن المتعارف أن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ولم تكن هي حينئذ . نعم العرش وهو المحدد على المشهور موجود إذ ذاك على مايدل عليه بعض الآيات ، وليس بقديم كما يقوله من ضل عن الصراط المستقيم لكن ذاك ليس نافعاً في تحقق اليوم العرفي وإلىٰ حمل اليوم على المتعارف وتقدير المضاف ذهب جمع من العلماء) .

ثم قال الألوسي . (وإلى حمله على اللغوي ، وعدم التقدير ذهب آخرون وقالوا : كان مقدار كل يوم ألف سنة ، وروي ذلك عن زيد بن أرقم) .

وقال صاحب الظلال في الستة أيام التي تمّ فيها الخلق : (فأما الأيام الستة التي خلق الله فيها السمٰوات والأرض ، فهي كذلك غيب لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله جميعاً : ﴿ **ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ .. وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن .إنها قد تكون ست مراحل . وقد تكون ستة أطوار . وقد تكون ستة أيام من أيام الله التي لا تقاس بمقاييس زماننا الناشيء من قياس حركة الأجرام إذ لم تكن قبل الخلق هذه الأجرام التي نقيس نحن بحركتها الزمان !.. وقد تكون شيئاً آخر .. فلا يجزم أحد ماذا يعني هذا العدد على وجه التحديد .. وكل حمل لهذا النص ومثله على « تخمينات » البشرية لا يتجاوز مرتبة الفرض والظن – باسم « العلم ! » الذي لا يتجاوز في هذا المجال درجة الظنون والفروض) .

٢ – قال ابن كثير : (وأما قوله تعالى : ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً : وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ بل الأمر كما قال الأئمة ، منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري قال : من شبّه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه ، فمن أثبت لله تعالى ماوردت به الآيات القديمة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى)

٣ ـ في قوله تعالى : ﴿ **يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً** ﴾ معجزة كبرى إذفيها تقرير

لمبدأ دوران الأرض بما لايقبل الجدل ، وكونها كذلك في الوقت الذي لم تستقر فيه البشرية على مبدأ الدوران إلا بعد قرون طويلة فذلك دليل على أن هذا الكتاب أنزله الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض وقد فصلنا ذلك في كتابنا « الرسول » ﷺ من سلسلة الأصول الثلاثة ، وخلاصة ما نقوله هنا: إن فقه اللغة يفرض علينا أن يكون الطالب في قوله تعالى ﴿ **يطلبه حثيثاً** ﴾ هو الليل ولو كانت الأرض ثابتة لكان النهار هو الذي يطلب الليل لأن المنبع الضوئي وقتذاك هو الطالب ، أما والقرآن يذكر أن الليل هو الطالب فذلك لا يكون إلا إذا كانت الأرض هي الدائرة على محورها ، ولايفهم من ذلك أن الشمس ثابتة ، إذ ليس في هذا الكون شيءإلا وهو في حالة حركة ما ، فالشمس لها ثلاث حركات على ماقرره علماء الكون في عصرنا ، وسيمر هذا معنا كثيرا ، ولاتعني حركة الأرض ثبات الشمس . ولا حركة الشمس ثبات الأرض ، بل الكل في فلك يسبحون على غاية الإتقان . فسبحان الله ما أعظمه .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ يذكر ابن كثير : (قال ابن جرير ... عن عبد العزيز الشامي عن أبيه - وكانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله ، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه لقوله ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً « اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله) .

٥ - قال الألوسي في تفسير التسخير من قوله تعالى : ﴿ **والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ (أي خلقهن حال كونهن مذللات تابعات لتصرفه سبحانه فهنَّ بما شاء غير ممتنعات عليه جل شأنه ، كأنهن مميزات أمرن فانقدن ، فتسمية ذلك أمراً على سبيل التشبيه والاستعارة ويصح حمل الأمر على الإرادة كما قيل أي هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته) .

٦ - وقال الألوسي : في شرح قوله تعالى ﴿ **تبارك الله رب العالمين** ﴾ وفي مناسبة ذلك للآية بعدها ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ :

(وقال البيضاوي : المعني : تعالىٰ بالوحدانية والألوهية وتعظَّم بالتفرد بالربوبية ، وعلى هذا فهو ختام لُوحظ فيه مطلعه ، ثم إنه تعالىٰ بعد أن بيّن التوحيد ، وأخبر أنه

كلمة في سورة الأعراف ومحلها في السياق القرآني ومحورها :

رأينا أن سورة آل عمران فصّلت في العشرين آية الأولى من سورة البقرة ، ورأينا أن سور : النساء والمائدة والأنعام فصّلت فيما بعد ذلك إلى نهاية الآية (٢٩) . من سورة البقرة ، وفصّلت كل واحدة منها في محور خاص بها مع كونها ثلاثتها تخدم ذلك المقطع بالتكامل ، ونلاحظ أن آخر آية في سورة الأنعام قالت : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض** ﴾ . وهي تلفت النظر إلى الآية الثانية في محورها من سورة البقرة ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ مع الآية التي بعدها ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ . وإذن فإن سورة الأنعام أوصلتنا إلى مقطع جديد في سورة البقرة ، وهوالذي فيه الحديث عن قصة آدم ، ولقد استقرت قصة آدم في سورة البقرة على قوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وتأتي بعد سورة الأنعام سورة الأعراف ﴿ **المٓصٓ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ....** ﴾ لاحظ قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **فمن تبع هداي** ﴾ وقوله تعالى في الآية الثانية في سورة الأعراف ﴿ **اتبعوا** ﴾ . والناظر إلى سورة الأعراف يرى أنها تتألف من مقدمة ، ثم قصة آدم ، وبناء عليها ، ثم قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم بناء عليها . ثم قصة موسى مع فرعون . ثم قصة بني إسرائيل بعد الخروج من مصر . ثم مواجهة مع بني إسرائيل . ومن تأمّل هذه المعاني يجد باختصار أنها نماذج من الهدى الذي أنزله الله خلال العصور على أمم ؛ وموقف هذه الأمم من هذا الهدى وما عوقبت به ، وكل ذلك بمثابة درس لهذه الأمة ، فالسورة تفصيل إذن لمحور خاص هو قوله تعالى ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وإذ كان ما قبل هذا في سورة البقرة قصة آدم ، وما بعده قصة بني إسرائيل ضمن السياق الخاص لسورة البقرة ، فإن قصة آدم وبني إسرائيل ترد هنا بما يخدم المحور الخاص لسورة الأعراف .

....

المتفرد بالخلق والأمر ، أمر عباده أن يدعوه مخلصين متذللين فقال عز من قائل ﴿ **ادعوا ربكم** ﴾ .

٧ - في تفسير قوله « خفية » في قوله تعالى ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ يقول الألوسي : («وخفية» أي سراً. أخرج ابن المبارك وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ، وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أنه تعالىٰ يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ وأنه سبحانه ذكر عبداً صالحاً فرضي له فعله فقال تعالىٰ ﴿ **إذ نادىٰ ربه نداء خفياً** ﴾ وفي رواية عنه أنه قال : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً . وجاء في حديث أبي موسىٰ الأشعري أنه قال ﷺ لقوم يجهرون : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولاغائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم ، وهو أقرب من أحدكم من عنق راحلته » والمعنى : أرفقوا بأنفسكم واقصروا من الصياح في الدعاء) .

٨ - وفي آداب الدعاء يقول الألوسي : (وروىٰ ابن جرير عن ابن جريج أن رفع الصوت بالدعاء من الاعتداء المشار إليه بقوله سبحانه : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن زيد بن أسلم ، وذهب بعضهم إلىٰ أنه مما لا بأس به ، ودعاء المعتدين الذي لا يحبه الله تعالىٰ هو طلب مالا يليق بالداعي ، كرتبة الأنبياء عليهم السلام ، والصعود إلى السماء ، وأن منه ماذهب جمع إلىٰ أنه كفر ، كطلب دخول إبليس وأبي جهل وأضرابهما الجنة ، وطلب نزول الوحي والتنبي ونحو ذلك من المستحيلات لما فيه من طلب إكذاب الله تعالىٰ نفسه . وأخرج أحمد في مسنده وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء ، وحسب المرء أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار ، وما قرب إليها من قول وعمل ، ثم قرأ ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ وفصّل آخرون فقالوا: الإخفاء أفضل عند خوف الرياء، والإظهار أفضل عند عدم خوفه ، وأولى منه القول بتقديم الإخفاء على الجهر فيما إذا خيف الرياء ، أو كان في الجهر تشويش على نحو مصل ، أو نائم ، أو قارىء ، أو مشتغل بعلم شرعي ، وبتقديم الجهر على الإخفاء فيما إذا خلا عن ذلك ، وكان فيه قصد تعليم جاهل ، أو نحو إزالة وحشة عن مستوحش ، أو طرد نحو نعاس أو كسل عن الداعي نفسه ، أو إدخال سرور على قلب مؤمن ، أو تنفير مبتدع عن بدعة ، أو نحو ذلك) .

وقال الألوسي كذلك : (وذكروا للدعاء آداباً كثيرة منها الكون على طهارة ، واستقبال القبلة ، وتخلية القلب من الشواغل ، وافتتاحه واختتامه بالصلاة على النبي ﷺ ، ورفع اليدين نحو السماء ، وإشراك المؤمنين فيه ، وتحري ساعات الإجابة ، ومنها يوم الجمعة - عند كثير - ساعة الخطبة ، ويدعو فيها بقلبه ، كما نص عليه أفضل متأخري عصره الفاضل الطحطاوي في حواشيه على الدر المختار ، فيما نقله عنه أفقه المعاصرين ابن عابدين الدمشقي ، ووقت نزول الغيث ، والإفطار ، وثلث الليل الأخير ، وبعد ختم القرآن ، وغير ذلك مما هو مبسوط في محله) .

وقال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى: ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين**﴾ (وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إن الذي تدعون سميع قريب » . وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إنْ كان إلّا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : ﴿ **إذ نادى ربه نداءً خفياً** ﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت ، والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة ، ثم روى عن عطاء الخراساني عن ابن عباس في قوله ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ في الدعاء ولا في غيره وقال أبو مجلز : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ لا يسأل منازل الأنبياء . وروى أحمد ... عن مولى لسعد : أن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول : اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ، فقال : لقد سألت الله خيراً كثيراً ، وتعوذت به من شر كثير ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء . وفي لفظ - يعتدون في الطهور والدعاء - وقرأ هذه الآية ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً** ﴾ الآية - وإن بحسبك أن تقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل » .

وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن أبي أمامة : أن عبد الله بن المغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال : يا بني سل الله الجنة ، وعُذْبِه من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » . وأخرجه أبو داود بإسناد حسن لا بأس به ، والله أعلم .

٩ - وبمناسبة الأمر بالدعاء نقول : إن رسول الله ﷺ يقول : « الدعاء مُخُّ العبادة » [١] وفي رواية « الدعاء هو العبادة » [٢] وسنرى في هذه السورة حضاً كثيراً على الدعاء وطلباً شديداً له ، حتى إن الحكمة في الابتلاء إنما هي من أجل التضرع ، والتضرع دعاء ، وإنما كان للدعاء أهميته الكبرى والعظيمة لأنه المظهر الأعظم للعبودية والافتقار إلى الله ، وهو مع هذا عنوان معرفة الله ، فنحن عندما نرفع أيدينا في الدعاء وندعو ، يكون ذلك اعترافاً منا بأن الله موجود ، وسميع وقادر على كل شيء . وهو الذى يرفع الكربات ، ويجيب الدعوات . والدعاء مع ذلك رمز الخضوع والتذلل والافتقار فلنكثر من الدعاء .

١٠ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ قال ابن كثير : (وقال قريب ولم يقل قريبة لأنه ضمّن الرحمة معنى الثواب ، أو لأنها مضافة إلى الله ، فلهذا قال : قريب من المحسنين) . وقال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين . رواه ابن أبي حاتم) .

١١ - وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **والبلد الطيِّب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً** ﴾ : (هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وعند هذه الآية يروى ابن كثير حديث البخاري التالي بما يشير به إلى أن الحديث في معنى ما تعرضت له الآية : روى البخاري عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً ، فكانت منها نقية ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان ، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به ،

---

(١) أخرجه الترمذي وهو ضعيف .
(٢) أخرجه أصحاب السنن وصححه وحسنه الترمذي .

فعلِمَ وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذين أرسلت به » ورواه مسلم والنسائي) .

١٢ – وعند قوله تعالى ﴿ **كذلك نصرِّف الآيات لقوم يشكرون** ﴾ يقول الألوسي :(﴿ **لقوم يشكرون** ﴾ نِعَمَ الله تعالىٰ ، ومنها تصريف الآيات ، وشكر ذلك بالتفكر فيها ، والاعتبار بها وخصّ الشاكرين لأنهم المنتفعون بذلك ، وقال الطيبي : ذكر « لقوم يشكرون » بعد « لعلكم تذكرون » من باب الترقي لأن من تذكر آلاء الله تعالىٰ عرف حق النعمة فشكر ، وهذا كما قال – غير واحد–: مثل لمن ينجح فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لا يؤثّر فيه شيء من ذلك . أخرج ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنّ قوله سبحانه وتعالىٰ ﴿ **والبلد الطيب** ﴾ الخ مَثَل ضربه الله تعالىٰ للمؤمنين يقول : هو طيب وعمله طيب والذي خبث إلى آخره مثل للكافر يقول هو خبيث وعمله خبيث .

وإيثار خصوص التمثيل بالأرض الطيبة والخبيثة استطراد عقيب ذكر المطر وإنزاله بالبلد وموازنة بين الرحمتين كما في الكشاف ، وفيه إشارة إلىٰ معنىٰ ما ورد في صحيح مسلم عن عياض المجاشعي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته عن الله عز وجل « إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)

كلمة في السياق :

رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ وفي هذا المقطع رأينا ثلاث فقرات : في الفقرة الأولى قصة آدم ، وفي الفقرة الثانية التوجيهات الرئيسية الأربعة لبني آدم ، والتي تذكّرنا بالعبرة من قصة آدم ، وفي آخر هذه التوجيهات الإشارة إلى القاعدة التي هي محور سورة الأعراف . وفيها تفصيل لما أعده الله للكافرين والمؤمنين بما يتفق مع محور السورة ، وفي الفقرة الأخيرة تذكير بهذا القرآن وبوجوه من الإعجاز فيه ، وهو الصيغة النهائية الأخيرة للهدى المنزل من الله على البشرية وتذكير بالله ونعمه ، وأمر للإنسان بالتضرع والتذلل والعبادة ، وترك الإفساد في الأرض ، ومثل للناس في موقفهم من الهدى المنزّل عليهم ، وكل ما في هذا المقطع يستجيش الإنسان ويهيجه لاتباع ما أنزل الله ، ويخوفه من الكفر بما أنزل ،

والاستكبار على من أُنزل عليهم من الرسل بمعان متعددة ، وبطرق من العرض هدفها واحد ، وإذا ما استخرج هذا أطيب الاستعداد عند الإنسان لاتباع هذا القرآن الذي هو - كما ذكرنا - الصيغة النهائية والأخيرة لهدى الله ، فإن السورة تبدأ تقصّ علينا قصص أمم أنزل عليها هدى ، وكيف كان موقفها من هذا الهدى ، وكيف عوقبت عندما رفضت هذا الهدى ، وقبل أن نبدأ نحب أن نذكّر بما قلناه من قبل وهو أن ذكر القصة في سورة من سور القرآن إنما يخدم غرضها فإذا ما تكررت القصة فإنها في كل مرة تخدم غرضاً خاصاً ، ومن ثَم تجد أحياناً القصة يذكر طرف منها في مكان وطرف منها في مكان ، وذلك لأن قسماً منها يخدم غرض السورة الأولى ، والقسم الآخر يخدم غرض السورة الثانية ، وقد تتكرر القصة والمعاني متقاربة أو واحدة ولكن شيئاً ما منها هو سبب التكرار ، فإذا عرفنا أن ما قصّه الله علينا من قصص يستوعب كل النماذج للحياة البشرية ، وأنه مهما حدث تكرار فلمراد خاص ، وضمن محورخاص ،وبأسلوب خاص ، وطريقة عرض خاصة ،عرفناكم في هذا القرآن من إعجاز لا يحُاط به . وعرفنا رشحة من معنى قوله تعالى الذي مر معنا في هذا المقطع﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

فصل في أقسام السورة :

مرّ معنا حتى الآن مقدمة سورة الأعراف ، والمقطع الأول منها ، وقلنا إن المقدمة والمقطع تشكلان القسم الأول من السورة ، وهذا القسم تتكامل معانيه كما رأينا ، يبدأ بقوله تعالى ﴿ **كتاب أنزل إليك** ﴾ ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ وينتهي بالفقرة المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم** ﴾ والمنتهية بقوله تعالى ﴿ **والبلد الطيّب يخرج نباته بإذن ربه** ﴾
وبعد ذلك يأتي القسم الثاني :

وفيه قصص أقوام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، ثم تعقيب عليها، ثم يستمر القسم بالحديث عن موسى عليه السلام وقومه والدليل على أن قصة موسى استمرار لما قبلها استعمال كلمة « ثم » في بدايتها ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى ...** ﴾

وتنتهي قصة موسى وقومه بقوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ....** ﴾ وتستغرق أكبر قطاع من السورة . ويأتي بعد ذلك القسم الأخير من السورة وبدايته

قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ....** ﴾

فالسورة تتألف من ثلاثة أقسام ، ونحن الآن سنبدأ عرض القسم الثاني ، والمقطع الأول فيه يتحدث - كما قلنا - عن قصص أقوام : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وفيه كذلك تعقيب على قصص هؤلاء الأقوام ، وفي هذا التعقيب عرض لبعض سنن الله في الأمم التي ينزل عليها وحياً

وصلة المقطع في سياق السورة أنه يقصّ علينا قصص أقوام أنزل عليهم وحي ، وكيف كان موقفهم من هذا الوحي ، وكيف فعل الله عز وجل بهم ، وصلة ذلك بمحور السورة من البقرة ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ إن صلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة لا تخفى .

....

يأتي إذن المقطع الأول من القسم الثاني وفيه قصص: نوح، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، عليهم السلام وكل منهم قد دعا قومه إلى الله عز وجل ، ولذلك صلة بما تقدمه من معان وفي ذلك يقول صاحب الظلال :

« إن موكب الإيمان الذي يسير في مقدمته رسل الله الكرام ، مسبوق في السياق بموكب الإيمان في الكون كله . في الفقرة السابقة مباشرة ﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ .

وإن الدينونة لهذا الإله ، الذي خلق السماوات والأرض ، والذي استوى على العرش ، والذى يحرك الليل ليطلب النهار ، والذي تجري الشمس والقمر والنجوم مسخّرات بأمره ، والذي له الخلق والأمر . إن الدينونة لهذا الإله وحده هي التي يدعو إليها الرسل كافة . هي التي يدعون إليها البشرية كلها ، كلما قعد لها الشيطان على صراط الله فأضلّها عنه ؛ وردّها إلى الجاهلية التي تتبدى في صور شتى ؛ ولكنها كلها تتسم بإشراك غير الله معه في الربوبية ، والمنهج القرآني يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله . ودعوة البشر إلى الاتساق مع الكون الذي يعيشون فيه ؛ والإسلام لله الذي

أسلم له الكون كله ؛ والذي يتحرك مسخراً بأمره . ذلك أن هذا الإيقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشري هزاً ؛ وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط في سلك العبادة المستسلمة ؛ فلا يكون هو وحده نشازاً في نظام الوجود كله .

إن الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ؛ إنما يدعونها إلى الأصل الذي يقوم عليه الوجود كله ؛ وإلى الحقيقة المركوزة في ضمير هذا الوجود .. وهي ذاتها الحقيقة المركوزة في فطرة البشر ، والتي تهتف بها فطرتهم حين لا تلوي بها الشهوات ، ولايقودها الشيطان بعيداً عن حقيقتها ، وهذه هي اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآني في السورة على النحو الذي تتابع به) .

ولنبدأ بعرض المقطع الأول من القسم الثاني.

المقطع الأول من القسم الثاني

ويمتد من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (١٠٢) وهذا هو :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ * وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا

لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ
وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ
أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ
ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ
أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا
فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا

مُرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن
لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا
مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ
إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ
بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ
طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ

يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَ
لَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا
ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ
رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ
شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ
﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ
ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا
بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ
عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ
أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم

بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

المعنى العام :

يبدأ السياق في هذا المقطع بعرض قصة نوح عليه السلام وقومه ثم هود عليه السلام وقومه ، ثم قصة صالح عليه السلام وقومه ، ثم قصة لوط عليه السلام وقومه ثم قصة شعيب عليه السلام وقومه ، ثم تأتي مجموعة آيات فيها مجموعة قواعد وسنن ، ثم بعد ذلك يأتي مقطع جديد هو استمرار لهذا المقطع ، وفيه قصة موسى مع فرعون ... ومن خلال هذا العرض نرى أن الله عزوجل قد أنزل هدى بواسطة رسل فكيف كان موقف الناس من هذا الهدى ؟ وماذا كان العقاب ؟ ، فأما نوح فقد دعا قومه إلى عبادة الله والالتزام برسالاته واتباع رسوله ، فكان موقفهم منه هو اتهامه بالضلال وتكذيبه والتعجب من أن ينزل الله على أحد من خلقه وحياً فعوقبوا بالغرق ، ونجى الله نوحاً وأهل الإيمان .

وأما هود فقد : دعا قومه إلى عبادة الله وتقواه وتَذَكُّر نعم الله عليهم ؛ فاتهموه بالسفه والطيش ، وكذبوه وتعجبوا أن ينزل الله عليه وحياً ، وأصروا على ما هم عليه من الشرك ، فعاقبهم الله بتسليط ريح عليهم استأصلتهم ونجى الله هوداً والمؤمنين .

وأما صالح فكذلك : دعا قومه إلى عبادة الله وتذكر نعمه ، وأتاهم بالمعجزة الشاهدة على صحة رسالته وهي الناقة ؛ فأصروا على الكفر والاستكبار والصد عن سبيل الله وقتلوا الناقة ، فعاقبهم الله بالزلزال والصيحة فماتوا أجمعون ونجى الله صالحاً والمؤمنين .

وأما لوط : فقد دعا قومه إلى ترك إتيان الرجال - وهي الفاحشة التي لم تعرفها البشرية قبلهم - فكان موقف قومه تكذيبه وتهديده بالإخراج من قريتهم ؛ فعاقبهم الله فأمطر الله عزوجل عليهم حجارة من السماء أهلكتهم ، وخسف بقراهم وأنجى الله لوطاً والمؤمنين .

وأما شعيب : فقد دعا قومه إلى عبادة الله ، والوفاء بالكيل والميزان ، وألا يخونوا الناس في أموالهم ، وأن يتركوا الفساد في الأرض ، وألا يصدوا عن سبيل الله ، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، فكان موقفهم أن هددوه بالنفي من أرضهم هو ومن معه ؛ فعاقبهم الله بأن أهلكهم بزلزال رافقته صيحة وصاعقة من السماء ونجى الله شعيباً والمؤمنين .

وبعد أن بَيَّنَ الله عزوجل مواقف هذه الأمم من الهدى المنزل عليها بواسطة رسلها وماعاقبهم به في الدنيا وكيف نجى المؤمنين ، يذكر الله عز وجل ما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء ، بأن سلط عليهم البأساء فأصابهم في أبدانهم . والضراء فأصابهم بالفقر والحاجة ، وكل ذلك من أجل أن يتضرعوا إليه فيدعوه ويخشوه ويبتهلوا إليه في كشف ما نزل بهم . ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا ، فما عقلوا شيئاً من الذي أراد منهم ؛ فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ، فحوّل الحال عليهم من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا واستمر حالهم على الكفر حتى كثرت الأموال والأولاد ، واعتبروا كلا الحالين عادياً لا علاقة لله فيه ، ولا علاقة لما هم فيه من الكفر بكلا الحالين . ابتلاهم الله بهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولاهذا ، ولا انتبهوا بهذا ولا هذا . وقالوا قد مسَّنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر . وإنما هو الدهر تارات وتارات . فلم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء والضراء ، هذا كله والرسل بين أظهرهم تدعوهم إلى الله ، وتقيم عليهم الحجج

ويظهر الله على أيديهم المعجزات وهم غافلون لا يتعظون بكلام نبي ولا بعقوبة ربانية واعظة ، حتى إذا أعذروا من أنفسهم أخذهم الله بالعقوبة فجأة وبغتة ، وعلى غير شعور منهم أو مقدمات ، مع أنهم لو آمنوا بما جاءت به الرسل وصدقوا واتبعوا واتقوا الله بفعل الطاعات وترك المحرمات لفتح الله عليهم الدنيا ، بإنزال المطر ، وإنبات الأرض ، ولكنهم كذّبوا رسل الله فعاقبهم بالهلاك على ماكسبوا من المآثم والمحارم .

وبعد أن ذكر - عزوجل - سنته في الأمم التي ينزل عليها هدى ، ويرسل لها رسلًا ، من خلال ذكر النماذج السابقة في القصص الخمس . ومن خلال ذكر القاعدة الكلية بعد ذلك ، وإذ كان هذا كله من أجل أن يعقل هذا العالم الذي بُعث له رسول الله ﷺ محمد ، فإن الله عزوجل يعقّب على ما مضى كله بالوعظ والتحذير ، فخوّف وحذّر البلاد والأمم أن ينزل بهم عذابه في ليل أو نهار ، وهم غافلون ، وحذّرهم أن يأتيهم بأسه ونقمته وأخذه لهم ، فإنه لا يأمن أحد من بأس الله إلا خاسر وغافل ، وإنما تستحق البلاد والأمم ذلك في حالة كفرها وتمردها على رسول الله ﷺ ودعوته ودينه . ثم عَجَّب الله من حال الذين يستخلفون في أرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها ، ثم يسيرون بسيرة الهالكين ، فكيف لا يتعظون ، والله قادر على أن يصيبهم بما أصاب السابقين ، ولكنه الكفر والكبر والتكذيب الذي يستحق به أصحابه عمى القلب فلا يتعظون .

وبعد أن قص الله تعالى خبر قوم : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وما كان من إهلاكه الكافرين ، وإنجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر إليهم ، بأن بيَّن لهم الحق على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، وبعد أن بيّن الله سنته في الإهلاك بعد الإعذار وتقليب الأحوال ، وبعد أن حذّر العالم من عقابه ، وبعد أن عجّب من الغفلة بعد رؤية ما حدث للأمم أنهى هذا المقطع بأن بيّن لرسوله ﷺ أنه يقصّ عليه من أخبار الأمم السابقة ، وأن هذه الأمم الهالكة قد جاءتهم رسلهم بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به ، وأنهم لم يؤمنوا بما جاءتهم به الرسل ؛ بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم كبراً فاستحقوا أن يطبع الله على قلوبهم ، ثم بين تعالى لرسوله ﷺ أن أكثر الأمم السابقة لم يكن عندها وفاء لعهد الله الذي أخذه عليهم ، بما جبلهم عليه وفطرهم ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، فأقروا بذلك وشهدوا

على أنفسهم به ، ثم هم خالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لامن عقل ولا من شرع ، بل في الفِطَر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عنه ، ومع ذلك فقد نقضت أكثر الأمم عهد الله هذا ، ثم بين تعالى أن أكثر الأمم السابقة فاسقة ، خارجة عن الطاعة والامتثال .

وبتقرير هذا المعنى ينتهي المقطع ، بعد أن استقر من خلاله ضرورة اتباع هدى الله المنزَّل ومآل العاصين والطائعين ، وسنة الله في هؤلاء وهؤلاء ،ومنها نفهم أن أكثرية الخلق لاتتبع الهدى ، حتى لايكون استغراب ولا تعليق للهدى بأكثرية أو أقلية . فالحق حق قَبِلَه الأكثرون أو رفضوه . وأهل الحق ناجون قلّة كانوا أو كثرة . وأهل الباطل هالكون مهما كثروا .

ويجيء المقطع بما يحقق محور السورة ويعمّقه ، وعلى خطه وسياقه ، ولايحتاج إدراك ذلك إلى بذل جهد ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هدايَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾

فالمقطع قَصّ علينا من نبإ الهدى الذي أنزله الله عز وجل ومآل من اتبعوه في الدنيا ، ومآل من صَدَّ ، ومن قبل حدثتنا السورة عن مآل المؤمنين والكافرين في الآخرة .

....

يقول صاحب الظلال في عرضه لهذا المقطع :

(نحن مع موكب الإيمان .. هذه أعلامه وهذه علائمه وهذه هي معالم طريقه .. وهو يواجه البشرية في رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضي .. يواجهها كلما التوت بها الطريق ، وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ، وكلما تفرَّقت بها السبل تحت ضغط الشهوات التي يقودها الشيطان من خطامها ، محاولًا أن يرضي حقده وأن ينفذ وعيده وأن يمضي ببني آدم من خطام هذه الشهوات إلى جهنم فاذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدىٰ ويلوّح لها بالنور ويستروح بها روْح الجنة ويحذرها لفحات السموم ونزغات الشيطان الرجيم عدوها القديم ..

.. إنه مشهد رائع .. مشهد الصراع العميق في خضم الحياة على طول الطريق . إن التاريخ البشري يمضي في تشابك معقّد كل التعقيد ، إن هذا الكائن المزدوج الطبيعة المعقّد التركيب الذي يتألف كيانه من أبعد عنصرين تؤلف بينهما قدرة الله وقدره - عنصر الطين الذي نشأ منه وعنصر النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الطين إنساناً - إن هذا الكائن ليمضي في تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك ، معقّدة كل التعقيد .. يمضي بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوامل التي أسلفنا في قصة آدم الحديث عنها يتعامل مع (الذات) الإلهية مشيئتها وقدرها وجبروتها ورحمتها وفضلها .. الخ .. ويتعامل مع الملأ الأعلىٰ وملائكته ، ويتعامل مع إبليس وقبيلته ، ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه ، ويتعامل مع الأحياء في هذه الأرض ، ويتعامل مع بعضه البعض يتعامل مع الآفاق والعوالم بطبيعته تلك وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم ..

وفي هذا الخِضَم المتشابك من العلاقات والروابط : يجري تاريخه من القوة في كيانه والضعف ومن التقوىٰ والهدىٰ ، ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوىٰ الروحية ومن التعامل مع قدر الله في النهاية ... من هذا كله يتكون تاريخه .. وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه .

والذين يفسّرون التاريخ الإنساني تفسيراً « اقتصادياً » أو « سياسيا » والذين يفسرونه تفسيراً « بيولوجيا » والذين يفسرونه تفسيراً « روحياً » أو « نفسياً » والذين يفسرونه تفسيراً « عقلياً » كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة والعوالم المتباعدة التي يتعامل معها الإنسان ، ويتألف من تعامله معها تاريخه ، والتفسير الإسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع ويحيط به وينظر إلىٰ التاريخ الإنساني من خلاله .

ونحن هنا أمام مشاهد صادقة لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية ، وقد تجمعت في المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر - الظاهرة والخفية - التي يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الأولىٰ ، ولقد شهدنا هذا الكائن . باستعداداته الأساسية ، شهدنا تكريمه في الملأ الأعلىٰ وإسجاد الملائكة له ، والبارىء العظيم يعلن ميلاده ، وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه ، وشهدنا مهبطه إلىٰ الأرض ، وانطلاقه في التعامل مع عناصرها

ونواميسها الكونية ، ولقد شهدناه يهبط إلىٰ الأرض مؤمنا بربه مستغفراً لذنبه مأخوذا عليه عهد الخلافة أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوىٰ ، مزوَّداً بتلك التجربة الأولىٰ في حياته ثم مضى به الزمن وتقاذفته الأمواج في الخضم ، وتفاعلت تلك العوامل المعقّدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله ، تفاعلت في واقعه وفي ضميره ، ثم ها نحن أولاء في هذا الدرس نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقّدة المتشابكة إلىٰ الجاهلية !!!

إنه نسي .. وقد نسي .. إنه يضعف وقد يضعف .. إن الشيطان يغلبه .. وقد غلبه .. ولابد من الإنقاذ مرة أخرى !!!

لقد هبط إلى هذه الأرض مهتدياً تائباً موحِّداً .. ولكن ها نحن أولاء نلتقي به ضالًا مغترباً مشركاً ، لقد تقاذفته الأمواج في الخضم ، ولكن هنالك معلماً في طريقه .. هنا لك الرسالة ترده إلىٰ ربه . فمن رحمة ربه به أنه لايتركه وحده

وها نحن أولاء في هذه السورة نلتقي بموكب الإيمان يرفع أعلامه رسل الله الكرام : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسىٰ ومحمد – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم – بتوجيه الله وتعليمه – إنقاذ الركب البشري من الهاوية التي يقوده إليها الشيطان وأعوانه من شياطين الإنس المستكبرين عن الحق في كل زمان . كما نشهد مواقف الصراع بين الهدىٰ والضلال وبين الحق والباطل وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والإنس ثم نشهد مصارع المكذبين في نهاية كل مرحلة ونجاة المؤمنين . بعد الإنذار والتذكير ..

والقصص في القرآن لا يتبع دائماً ذلك الخط التاريخي ولكنه في هذه السورة يتبع هذا الخط ، ذلك أنه يعرض سير الركب البشري منذ النشأة الأولى ، ويعرض موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماماً عن معالم الطريق وقاده الشيطان كليّة إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم) .

المعنى الحرفي :

﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه** ﴾ أي والله لقد أرسلنا ﴿ **فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ دعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده . ﴿ **إني أخاف عليكم**

عذاب يوم عظيم ﴾ أي يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم ﴿ **قال الملأ من قومه** ﴾ أي الأشراف والسادة ﴿ **إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ أي في ذهاب من طريق الصواب بيِّن ، والرؤية هنا رؤية القلب والعقل في زعمهم ، وهكذا في كل عصر يزعم الكافرون أن أهل الهدى على ضلال ، وأن حكمهم عليهم بهذا إنما هو حكم عقلي علمي أو مايسمونه الآن موضوعياً ﴿ **قال يا قوم ليس بي ضلالة** ﴾ أي ليس بي شيء من الضلال ولم يقل ضلال كما قالوا بل قال ضلالة لأن الضلالة أخصّ من الضلال فإذا لم يكن عنده ضلالة من الضلالات فمن باب أولى ألا يكون ضالًا ﴿ **ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ هذا تأكيد لنفي الضلالة لأن كونه رسولًا من الله مُبلِّغا لرسالاته في معنى كونه على الصراط المستقيم ، فكان في الغاية القصوى من الهدىٰ ، وهذا الذي يفيده ابتداءً التعبير بلكن التي تفيد الاستدراك ﴿ **أبلّغكم رسالات ربي** ﴾ هذا بيان لكونه رسول رب العالمين ومن ثم يقوم بالبلاغ ، والمراد برسالات الله هنا ماأوحي إليه في الأوقات المتطاولة أو في المعاني المتعددة من الأوامر والنواهي والمواعظ والبشائر والمذكِّرات ﴿ **وأنصح لكم** ﴾ أي وأقصد صلاحكم بإخلاص وقال وأنصح لكم ولم يقل وأنصحكم ليفيد مبالغته في تمحيضهم النصيحة . وحقيقة النصح : إرادة الخير لغيرك مما تريده لنفسك ، أو النهاية في صدق العناية ﴿ **وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ أي من صفاته يعني قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه وأن بأسه لايُرد عن القوم المجرمين ﴿ **أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم** ﴾ الاستفهام للإنكار والمراد بالذكر الموعظة ، والمراد على رجل منكم أي على لسان رجل منكم أي من جنسكم ، وذلك أنّهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون ﴿ **ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين** ﴾ يعنون إرسال البشر ويقولون ﴿ **ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة** ﴾ ثم بيَّن حكمة الإرسال ﴿ **لينذركم** ﴾ عاقبة الكفر ﴿ **ولتتقوا** ﴾ أي ولتوجد منكم التقوى وهي الخشية بسبب الإنذار ﴿ **ولعلكم ترحمون** ﴾ أي ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم ﴿ **فكذبوه** ﴾ أي فنسبوه إلى الكذب ﴿ **فأنجيناه والذينّ معه** ﴾ أي والذين آمنوا معه ﴿ **في الفلك** ﴾ أي في السفينة ﴿ **وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عَمِين** ﴾ أي عن الحق يقال : أعمى في البصر وعم في البصيرة .

نُقول :

بمناسبة قوله تعالى ﴿**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من**

إله غيره﴾ يقول صاحب الظلال: (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول: ﴿**فقال: ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ فهي الكلمة التي لاتتبدّل، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لاتوجد إلا بها، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لاتقوم على غيره. وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط. وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

إن دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله في حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس إله غيره . والسلطان يتمثل في الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وإنشائه وتدبيره بقدرة الله وقَدَره . كما يتمثل في الاعتقاد بربوبيته للإنسان وإنشائه وتدبيره أمره بقدرة الله وقدره ، وعلى نفس المستوى يتمثل في الاعتقاد بربوبية الله لهذا الإنسان في حياته العملية الواقعية ، وقيامها على شريعته وأمره تمثله في التقدم بشعائر العبادة له وحده . كلها حزمة واحدة غير قابلة للتجزئة . وإلا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه) .

وبمناسبة ردّ قوم نوح على نوح عليه السلام بقولهم : ﴿ **قال الملأ من قومه : إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ . قال صاحب الظلال :(كما قال مشركو العرب لمحمد - ﷺ - إنه صبأ ، ورجع عن دين إبراهيم ، وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال ! بل هكذا يبلغ التبجّح الوقح بعد ما يبلغ المسخ في الفطر ! .. تنقلب الموازين وتبطل الضوابط . ويحكم الهوى ؛ مادام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذي لا ينحرف ولايميل . وماذا تقول الجاهلية عن المهتدين بهدى الله ؟ إنها تُسمّيهم الضالين وتدعو من يهتدي منهم إلى المستنقع الكريه . وإلى الوحل الذي تتمرغ الجاهلية فيه .

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التي لا تكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص ؟ إنها تسمى ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما « رجعية » وتخلفاً وجموداً وريفية ! وتحاول الجاهلية بكل ماتملكه من وسائل التوجيه والإعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما في الوحل الذي تتمرغ فيه في المستنقع الكريه !

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ، وجنون الأفلام والسينما والتليفزيون وما إليه ؛ وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهي ؟ إنها تقول

عنه : إنه « جامد » . ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول أن تجره إلى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته .. إن الجاهلية هي الجاهلية .. فلا تتغير إلا الأشكال والظروف .

وينفي نوح عليه السلام عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه . إنما هو رسول من رب العالمين . يحمل لهم الرسالة . ومعها النصح والأمانة . ويعلم من الله مالا يعلمون . فهو يجده في نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون : ﴿ **قال : يا قوم ليس بي ضلالة ، ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ .

فوائد :

١ - في سفر التكوين من أسفار العهد القديم المعتمدة عند اليهود والنصارى ، على ما فيها من جهالات وضلالات . في الإصحاح الخامس منه حديث عن نوح عليه السلام وأنه نوح بن لامَكَ بن مَتُوشالَحَ بن أخنوخ (وهو إدريس - عليه السلام - بن يارَدَ بن مُهَلْلِئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام) ذكر هذا في الإصحاح الخامس بأن ذكرت هذه السلسلة واحداً فواحدا مع عمر كل وما ولد ، وهذا المذكور هنا هو الذي ذكره ابن كثير عن ابن إسحق مع اختلاف بسيط في رسمه بعض الأسماء مما يدل على أن ابن إسحق أخذ هذا الكلام من ههنا ، والنقل عن كتب أهل الكتاب ليس فيه بأس على ألا يأخذ أكبر من حجمه ، بمعنى : ألا يعطى من الثقة أكثر مما يستأهل ، فمجموع ما بأيدينا من كتب العهدين - الجديد والقديم - إذا سلطت عليها سهام النقد العلمي فإنها لا تعدل عندنا الحديث الضعيف . بل إن قسماً كبيراً منها من الموضوع المكذوب حتماً بموازين النقد العلمي . فما سننقله منها ممّا لا نص فيه من كتابنا أو سنة رسولنا عليه الصلاة والسلام لا يعدو أن يكون المراد بذكره الاستئناس . لا ندافع عنه إنْ ثبت بطلانه ، ولا نتحمل مسؤلية ما فيه ، ولا نعتبره جزءاً من ديننا ، وإن ما في سفر التكوين من تهافت أو تناقض أو كذب صريح يجعل حكمنا عليه أقسى من حكمنا على ما بعده من أسفار العهد القديم الخمسة الأولى ، والتي يسمونها التوراة . ولنا أثناء عرضنا هذه السورة جولة سنراها حول التوراة ، كما أن لنا كَرَّات على معان في قصة نوح عليه السلام .

٢ - قال ابن كثير (وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام . قاله ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوّروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور . فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسمّوها بأسماء أولئك الصالحين : ودّاً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله لا شريك له .)

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لايدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة - وهم أوفر ماكانوا وأكثر جمعاً - « ياأيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت . فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكّسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد) .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ أي وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً عليه السلام كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، والمراد بقوله تعالى « أخاهم » أي واحداً منهم ، وإنما جعل واحداً منهم لأنهم عن رجل منهم أفهم ، فكانت الحجة عليهم ألزم ﴿ **قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾ دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده وحضّهم على التقوى التي طريقها التوحيد والعبادة ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه** ﴾ أي الأشراف والسادة ممّن كفر ، وقد فهم بعضهم من وصف ملأ قوم هود بالذين كفروا ، وعدم وصف قوم نوح بذلك ، أن بعضاً من أشراف عاد أسلموا ، ولم يوجد من أشراف قوم نوح من أسلم ﴿ **إنا لنراك في سفاهة** ﴾ أي في خفة حلم وسخافة عقل حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر واستعمال « في » قبل كلمة « سفاهة » تفيد أنهم بالغوا في وصفه بالسفاهة حتى إنها محيطة به وهو متمكن فيها غير منفك عنها ﴿ **وإنا لنظنُّك من الكاذبين** ﴾ أي في ادعائك الرسالة ﴿ **قال ياقوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح** ﴾ أي لكم فيما أدعوكم إليه ﴿ **أمين** ﴾ على ما أقول لكم ، وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى

الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ، أدب حسن ، وخلق عظيم ، وإخبار الله عن ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على مايكون منهم ﴿ **أوَ عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ هذا يحتمل أن عاداً خلفوا قوم نوح في الأرض ، ويحتمل أنهم خلفوهم في مساكنهم ، وهذا يفيد أن سلطان قوم عاد امتد إلى مناطق قوم نوح ، مع ملاحظة أن هناك اتجاهين في كون قوم نوح هم سكان الأرض وحدهم ، أو أنهم سكان منطقة محددة منها وهي مواضيع ستأتي في محلها ﴿ **وزادكم في الخلق بصطة** ﴾ أي طولًا وعرضاً والمعنى: زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم ﴿ **فاذكروا آلاء الله** ﴾ أي نِعمَه ومنّته عليكم في استخلافكم وبسطة أجرامكم وماسواهما من عطاياه ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ بطاعة رسول الله فيما أنذركم به ، وتذكركم نعمة الله فتشكرونه ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا** ﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة وترك دين الآباء في اتخاذ الأصنام شركاء معه ؛ حباً لما نشأوا عليه ؛ وقولهم أجئتنا يحتمل أن يكون لهود عليه السلام ، مكان منعزل عن قومه يتحنّث فيه كما كان يفعل رسول الله ﷺ بحراء قبل المبعث ، فلما أوحي إليه جاء قومه يدعوهم ﴿ **فأْتنا بما تعدنا** ﴾ أي من العذاب ﴿ **إن كنت من الصادقين** ﴾ أنّ العذاب نازل بنا ﴿ **قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب** ﴾ الرجس : العذاب . والسخط : الغضب . وقوله قد وقع أي قد نزل ، جعل المتوقع الذي لابد من نزوله بمنزلة الواقع ﴿ **أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزّل الله بها من سلطان** ﴾ أي من حجة . وقوله ﴿ **في أسماء سميتموها** ﴾ أي : في أشياء ما هي إلا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمون الأصنام آلهة وهي خالية من معني الألوهية ﴿ **فانتظروا** ﴾ أي نزول العذاب ﴿ **إني معكم من المنتظرين** ﴾ ذلك .

يقول صاحب الظلال : والتعبير المتكرر في القرآن : ﴿ **مانَزّل الله بها من سلطان** ﴾ (هو تعبير موحٍ عن حقيقة أصيلة .. إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال .. إن الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه .

وكم من كلمات بَرَّاقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوّقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين .. ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه - سبحانه - سلطان .

وفي ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدي : ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ .

إن هذه الثقة هي مناط القوة التي يستشعرها صاحب الدعوة إلى الله .. إنه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال . كما أنه على يقين من سلطان الحق الذي معه وقوته بما فيه من سلطان الله) .

....

﴿ **فأنجيناه والذين معه** ﴾ أي من آمن به ﴿ **برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ الدابر : الأصل أو الكائن خلف الظهر وقطع دابرهم : استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم ﴿ **وما كانوا مؤمنين** ﴾ نفىٰ الإيمان عنهم وأثبت التكذيب ؛ ليؤكد أن الاستئصال كان في محله . يقول صاحب الظلال : فهو الـمَحْقُ الكامل الذي لا يتخلف منه أحد . وهو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد في الركب يتبع أدبار القوم ! وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . وتحقق النذير مرة أخرى بعد إذ لم ينفع التذكير .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى على لسان هود ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ يقول صاحب الظلال : (إنها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة .. إنها السنة الماضية ، والناموس الجاري ، والقانون الواحد ..

إن قوم عاد هؤلاء من ذراري نوح والذين نجوا معه في السفينة ، وقيل : كان عددهم ثلاثة عشر .. وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام - وهو الإسلام - كانوا يعبدون الله وحده ، مالهم من إله غيره ، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين . فهكذا قال لهم نوح : ﴿ **ولكني رسول من رب العالمين** ﴾ . فلما طال عليهم الأمد ، وتفرقوا في الأرض ، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية ، وقادهم من شهواتهم - وفي أولها شهوة الملك وشهوات المتاع ، وفق الهوى لا وفق شريعة الله ، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد)

٢ - وبمناسبة رد قوم هود على هود عليه السلام واتهامهم إياه بالسفاهة يقول صاحب الظلال : (وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى وأن يستنكر منهم قلة التقوى ؛ ورأوا فيه سفاهة وحماقة ، وتجاوزاً للحد ، وسوء تقدير للمقام ! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعاً في غير تحرج ولا حياء : ﴿ **قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ .. هكذا جزافاً بلا تروّ ولا تدبّر ولا دليل .)

٣ - قال محمد بن إسحق عن عاد : هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح . وفي سفر التكوين في الإصحاح العاشر أن من أولاد سام أرام ومن أولاد أرام عوص ولم يذكر من ولد عوص فهذا الذي أغفله السفر ذكره ابن إسحق أن عاداً بن عوص ويلاحظ أن إرم ذكره سفر التكوين باسم أرام قال ابن كثير : هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البرّ قال تعالى ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد** ﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم .... وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف : وهي جبال الرمل قال محمد بن إسحق ... عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا يقول لرجل من حضر موت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرَة[1] حمراء ذات أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه . قال : لا : ولكني قد حُدّثت عنه ، فقال الحضرمي : وما شأنه ياأمير المؤمنين قال : فيه قبر هود عليه السلام . رواه ابن جرير .

(أقول ولا زال أهل حضرموت يعرفون قبراً عندهم أنه قبر هود عليه السلام) . والله أعلم . قال ابن كثير : وهذا (إشارة إلى ما ساقه) فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن وأن هوداً عليه السلام دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسباً ، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد الله خلقهم شدد على قلوبهم ...

(أقول : المراد باليمن هنا اليمن كله الذي يشمل جنوبي الجزيرة العربية كلها . قال محمد بن إسحق : كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله .

---

(١) المدرة : هو الطين الذي لا رمل فيه

٤ – والعرب يتناقلون كلاماً كثيراً عن عاد ، فلم يزالوا يتوارثون ما حدث لعاد فيزيدون وينقصون ، وما قَصّه الله عنهم فيه كفاية للعبرة ، وأجود ما نستطيع نقله ونطمئن إليه في هذا الباب ما رواه الإمام أحمد وغيره عن الحارث البكري قال : خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ ، فمررت بالربذة ، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها ، فقالت لي : يا عبد الله إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة ، هل أنت مبلغي إليه ؟ قال : فحملتها فأتيت المدينة ، فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد بسيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً ، قال فجلست ، فدخل منزله – أو قال : رحله – فأستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت وسلّمت ، فقال : هل بينكم وبين تميم شيء ؟ قلت : نعم وكانت لنا الدَّبَرة[1] عليهم ، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها ، فسألتني أن أحملها إليك ، وها هي بالباب ، فأذن لها فدخلت ، فقلت : يارسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فاجعل الدهناء ، فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله ، فإلى أين يضطرك مضطرك ؟ قال قلت : إن مثلي ماقال الأول : معزَى حملت حتفها[2] ، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً ، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافدعاد . قال هيه ، « وما وافدعاد ! » – وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه – قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له : قيل . فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما : الجرادتان . فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال : اللهم إنك تعلم أني لم أجيء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم اسق عاداً ماكنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودي منها : اختر ، فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودي منها خذها رماداً رِمْدداً ، لاتبقي من عاد أحداً قال : فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا . قال أبو وائل (أحد رجال سند الحديث) وصدق ، قال : وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدهم قالوا : لا تكن كوافد عاد هكذا رواه الإمام ، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير أيضاً . هذا الحديث يبين أن قصة عاد كانت معروفة لدى العرب مألوفة لديهم لا بكل تفصيلاتها ولكن لم تكن غريبة عنهم ، وكانوا يتناقلون خبرها جيلًا بعد جيل ولكنا لم ننقل كل مايقولونه لاحتمال الوهم فيه .

---

(١) الهزيمة لهم ، والانتصار للآخرين .

(٢) مثل يضرب لمن يحمل ما فيه حتفه .

ولنا كلام سيأتي عن عاد إذا جاء محله فلنكتف الآن بما ذكرنا

....

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿ **قد جاءتكم بيِّنة من ربكم** ﴾ أي آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوّة صالح عليه السلام ﴿ **هذه ناقة الله** ﴾ أضيفت الناقة إلى الله لأنها بتكوينه تعالى المباشر بلا صلب ولا رحم ﴿ **لكم آية** ﴾ هذا بيان لمن هي له آية وهم ثمود لأنهم عايشوها ﴿ **فذروها تأكل في أرض الله** ﴾ لأن الأرض أرضه ، والناقة ناقته ، فاتركوها تأكل في أرض ربها من نبات ربها فليس عليكم مؤونتها ﴿ **ولاتمسُّوها بسوء** ﴾ أي بأذىً فلا تطردوها ولاتعقروها إكراماً لآية الله ﴿ **فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ إن مَسَسْتموها بسوء ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ يوحي هذا بأنه كان لثمود السلطان في أرض العرب بعد عاد ﴿ **وبوَّأكم في الأرض** ﴾ أي وأنزلكم في الأرض التي أنتم فيها وهي أرضهم المعروفة حتى الآن بآثارها منهم ما بين الحجاز والشام ﴿ **تتخذون من سهولها قصوراً** ﴾ أي غرفاً للصيف ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتاً** ﴾ أي للشتاء ﴿ **فاذكروا ءَالآءَ الله** ﴾ أي نعمه ﴿ **ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾ بمعصيتكم لله ورسوله ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا** ﴾ أي قال المستكبرون للمستضعفين ﴿ **لمن آمن منهم** ﴾ دلّ على أن المستضعفين كانوا كافرين ومؤمنين ، وكلام المستكبرين للمستضعفين المؤمنين ﴿ **أتعلمون أن صالحاً مُرسَل من ربه** ﴾ سألوهم هذا السؤال على سبيل السخرية ﴿ **قالوا** ﴾ أي المؤمنون ﴿ **إنا بما أُرسِل به مؤمنون** ﴾ سألهم المستكبرون عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مسَلَّماً ، كأنهم قالوا العلم بإرساله وبما أرسل به لا شبهة فيه ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون .

يقول صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟** ﴾

(وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ولاستنكار إيمانهم به وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه . ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافاً لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم والثقة في نفوسهم والاطمئنان في منطقهم .. إنهم على يقين من أمرهم فماذا يجدي التهديد والتخويف ، وماذا تجدي السخرية والاستنكار ... من الملأ المستكبرين ؟ : ﴿ **قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ .

﴿ **قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به** ﴾ أي برسالة صالح ﴿ **كافرون** ﴾ قالوا هذا مع وضوح الآية وظهور الحجة - فعليهم اللعنة - ﴿ **فعقروا الناقة** ﴾ أي قتلوها وذبحوها ومع أن العاقر واحد منهم فإنه قد نسب الفعل إلى جميعهم لأنه كان برضاهم . قال قتادة : بلغني أن من قتلها طاف عليهم كلّهم أنّهم راضون بقتلها حتى على النّساء في خدورهن ، وعلى الصبيان جميعهم ﴿ **وعتَوْا عن أمر ربهم** ﴾ أي وتولوا عن دين ربهم واستكبروا عنه ، ويمكن أن يكون المراد بأمر الله أمره لهم في أمر الناقة أن يذروها تأكل في أرض الله ﴿ **وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا** ﴾ أي من العذاب ﴿ **إن كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة** ﴾ أي الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها ﴿ **فأصبحوا في دارهم** ﴾ أي في بلادهم أو مساكنهم ﴿ **جاثمين** ﴾ أي مَيّتين يقال : الناس جُثَّمٌ أي : قعود لا حراك بهم ولايتكلمون ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ أي لما عقروا الناقة ﴿ **وقال** ﴾ عند فراقه إياهم ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ أي الآمرين بالهدى وسبب عدم حب الناصح استحلاء الهوى ، ولم يزل الناس قديماً وحديثاً هذا دأبهم يستثقلون النصيحة حتى المؤمنون منهم إلا الصديقون فما بالك بالكافرين . قال النسفي : والنصيحة منيحة تدرأ الفضيحة ، ولكنها وخيمة تورث السخيمة .

أقول : إلا إذا كان المنصوح صديقاً والناصح مخلصاً .

فوائد :

١ - قال صاحب الظلال : (ولا يذكر السياق هنا أين كان موطن ثمود ولكنه يذكر في سورة أخرىٰ أنهم كانوا في الحِجْر - وهي بين الحجاز والشام - ونلمح من تذكير صالح لهم أثر النعمة والتمكين في الأرض لثمود ، كما نلمح طبيعة المكان الذي يعيشون فيه فهو سهل وجبل ، وقد كانوا يتخذون في السهل القصور ، وينحتون في الجبال البيوت فهي حضارة عمرانية واضحة المعالم في هذا النص القصير ، وصالح يذكّرهم استخلاف الله لهم من بعد عاد وإن لم يكونوا في أرضهم ذاتها ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية في التاريخ لحضارة عاد وأن سلطانهم امتد خارج الحِجْر أيضاً وبذلك صاروا خلفاء مُمَكَّنين في الأرض محكمين فيها وهو ينهاهم عن الانطلاق في الأرض بالفساد اغتراراً بالقوة والتمكين وأمامهم العبرة ماثلة في عاد الغابرين) .

٢ - قال ابن كثير : (قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من

العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام ، إلى وادي القرى وما حوله) أقول : وعاثر المذكور في النسب يسميه سفر التكوين « جاثر » والمساكن التي ذكرها ابن كثير لازالت موجودة وهي تثير دهشة الناظر للجهد الذي بذل فيها ولبقائها هذه الآلاف من السنين ، وكأنها الآن منحوتة ، والرحلة إليها سهلة وقد علمنا رسول الله ﷺ كيف يكون أدب المسلم . إذا رأى ديار الظالمين الهالكين أو مَرَّ بها .

فقد روى الإمام أحمد ... عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل . ثم أرتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » . وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - وهو بالحجر « ولا تدخلوا على هؤلاء المعذَبين إلّا أنّ تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين .. وله أيضاً .... عن أبي كبشة الأنماري عن أبيه قال : لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس : « الصلاة جامعة » قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : « ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم : نعجب منهم يارسول الله قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك : رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً . وسيأتي قوم لايدفعون عن أنفسهم شيئاً » .

وأقول : إن بعض الناس يتشددون في المنع عن رؤية أثار هؤلاء الأقوام والذى يبدو لي - والله أعلم - أن رسولنا عليه الصلاة والسلام منع من النظرة التي لا يرافقها اعتبار كيف وإن معرفة هذه الآثار والكلام عنها - خاصة في عصرنا - فيه معنى التصديق لكتاب الله أمام المشككين الذين لم يتركوا شيئاً إلا شككوا فيه .

٣- ويعلمنا عليه الصلاة والسلام بمناسبة قصة ثمود ألّا نسأل الله آية ، فقد روى الإمام أحمد عن جابر قال : لما مَرّ رسول الله ﷺ بالحِجر قال : « لا تسألوا الله

الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوماً ، ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أخْمَدَ الله مَنْ تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحداً كان في حرم الله » فقالوا من هو يارسول الله ؟ قال : « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » وهذا الحديث على شرط مسلم . وقد روى عبد الرزاق عن معمر قال أخبرني إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ مَرَّ بقبر أبي رغال فقال : أتدرون من هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هذا قبر أبي رغال من ثمود كان في حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ، ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » .

وقبر أبي رغال معروف مشهور عند العرب ، والعرب تروي قصته بأشكال متعددة ، فإما أن الرجل متعدد ، أو بعض الروايات غير ثابتة ، وإذا ورد عن رسولنا ﷺ شيء ، وثبت ، لا نلتفت إلى غيره . ولنا كلام على ثمود ، وبلادهم ؛ سيأتي في محله .

ولنعد إلى السياق :

فبعد أن قصّ الله عز وجل علينا قصة ثمود ، يقصّ علينا بعدها قصة لوط ، ولا يحدثنا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، مع أن لوطاً عليه الصلاة والسلام من المستجيبين لدعوة إبراهيم ، وفي حكمة طيّ قصة إبراهيم ههنا والحديث عن لوط عليه السلام في هذا السياق يقول صاحب الظلال : (وتمضي عجلة التاريخ فيظلنا عهد إبراهيم - عليه السلام - ولكن السياق لا يتعرض هنا لقصة إبراهيم ؛ ذلك أنّ السياق يتحرىٰ مصارع المكذبين متناسقاً مع ما جاء في أول السورة ﴿ **وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون** ﴾ وهذا القصص إنما هو تفصيل لهذا الإجمال في إهلاك القرىٰ التي كذّبت بالنذير ، وقوم إبراهيم لم يهلكوا لأن إبراهيم عليه السلام لم يطلب من ربه هلاكهم بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله ، إنما تجيء هنا قصة قوم لوط ابن أخي إبراهيم ومعاصره بما فيها من إنذار وتكذيب وإهلاك يتمشى مع ظلال السياق على طريقة القرآن) .

﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة** ﴾ أي تفعلون السيئة المتمادية في القبح ﴿ **ما سبقكم بها** ﴾ أي ما عملها قبلكم ﴿ **من أحد** ﴾ أي أحداً أبداً ﴿ **من العالمين** ﴾ أنكر

عليهم ثم وبخهم فقال : أنتم أول من عملها ثم بين لهم فاحشتهم ﴿ **إنكم لتأتون الرجال** ﴾ أي تجامعونهم - نعوذ بالله من سخطه - ﴿ **شهوة من دون النساء** ﴾ أي شهوة لامن النساء اللاتي هُنّ محل الشهوة الحقيقي ، وقوله شهوة أي اشتهاءً لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة ولا ذمَّ أعظم منه ، لأنه وَصْف لهم بالبهيمية ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ بعد أن أنكر عليهم تخلى عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي أدّت بهم إلى ارتكاب القبائح وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء . فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد ﴿ **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم** ﴾ أي لوطاً ومن معه يعني أنهم ماأجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط من إنكار الفاحشة ، ووصفهم بصفة الإسراف الذي هو أصل الشر ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين ، ثم عللوا سبب الإخراج بما ليس عيباً بل هو مدح وثناء فقالوا ﴿ **إنهم أُناس يتطهرون** ﴾ أي يدّعون الطهارة ويتنزهون عما نفعل قال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال ، وأدبار النساء . ﴿ **فأنجيناه وأهله** ﴾ أي ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين ﴿ **إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أي من المهلكين بالعذاب ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً** ﴾ أي وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً أهلكناهم به ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ أي الكافرين .

نُقول :

- **يقول صاحب الظلال** :(وتكشف لنا قصة قوم لوط عن لون خاص من انحراف الفطرة وعن قضية أخرىٰ غير قضية الألوهية والتوحيد التي كانت مدار القصص السابق ولكنها في الواقع ليست بعيدة عن قضية الألوهية والتوحيد .. إن الاعتقاد في الله الواحد يقود إلى الإسلام لسننه وشرعه ، وقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى ، وأن يجعلهما شقين للنفس الواحدة تتكامل بهما ، وأن يتم الامتداد في هذا الجنس عن طريق النسل وأن يكون النسل من التقاء ذكر و أنثى ومن ثَم ركبّهما وفق هذه السنة صالحيْن للالتقاء صالحيْن للنسل عن طريق هذا الالتقاء مجهزيْن عضوياً ونفسياً لهذا الالتقاء وجعل اللّذة التي ينالانها عندئذ عميقة والرغبة في إتيانها أصيلة وذلك لضمان أن يتلاقيا فيحققا مشيئة الله في امتداد الحياة ثم لتكون هذه الرغبة الأصيلة وتلك اللذة العميقة دافعاً في مقابل المتاعب التي يلقيانها بعد ذلك في الذرية من حمل ووضع ورضاعة ، ومن نفقة وتربية وكفالة ثم لتكون كذلك ضماناً لبقائهما ملتصقين في أسرة تكفل الأطفال الناشئين الذين تطول فترة

حضانتهم أكثر من أطفال الحيوان ويحتاجون إلى رعاية أطول من الجيل القديم !

هذه هي سنة الله التي يتصل إدراكها والعمل بمقتضاها بالاعتقاد في الله وحكمته ولطف تدبيره وتقديره ومن ثم يكون الانحراف عنها متصلًا بالانحراف عن العقيدة وعن منهج الله للحياة ويبدو انحراف الفطرة واضحاً في قصة قوم لوط حتى إن لوطاً ليجبههم بأنهم بدع دون خلق الله فيها وأنهم في هذا الانحراف الشنيع غير مسبوقين :

﴿ ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾

والإسراف الذي يدمغهم به لوط هو : الإسراف في تجاوز منهج الله الممثَّل في الفطرة السوية والإسراف في الطاقة التي وهبهم الله إياها لأداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة فإذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الإخصاب فهي مجرد « شهوة » شاذة لأن الله جعل لذة الفطرة الصادقة في تحقيق سنة الله الطبيعية فإذا وجدت نفس لذتها فى نقيض هذه السنة فهو الشذوذ إذن والانحراف والفساد الفطري قبل أن يكون فساد الأخلاق ولا فرق في الحقيقة فالأخلاق الإسلامية هي الأخلاق الفطرية بلا انحراف ولا فساد ، إن التكوين العضوي للأنثى – كالتكوين النفسي – هو الذي يجعل لذة الفطرة الصادقة للذكر في هذا الالتقاء الذي لا يقصد به مجرد الشهوة إنما هذه الشهوة المصاحبة له رحمة من الله ونعمة إذ يجعل القيام بتحقيق سنته ومشيئته في امتداد الحياة مصحوبا بلذة تعادل مشقة التكليف ، فأما التكوين العضوي للذكر – بالنسبة للذكر – فلا يمكن أن يحقق لذة للفطرة السليمة بل إن شعور الاستقذار ليسبق ، فيمنع مجرد الاتجاه عند الفطرة السليمة . وطبيعة التصور الاعتقادي ونظام الحياة الذي يقوم عليه ذو أثر حاسم في هذا الشأن فهذه هي الجاهلية الحديثة في أوروبا وفي أمريكا ينتشر فيها هذا الانحراف الجنسي الشاذ انتشاراً ذريعاً بغير مامبرر إلا الانحراف عن الاعتقاد الصحيح وعن منهج الحياة الذي يقوم عليه وقد كانت هناك دعوى عريضة من الأجهزة التي يوجهها اليهود في الأرض لتدمير الحياة الإنسانية لغير اليهود بإشاعة الانحلال العقيدي والأخلاقي ، كانت هناك دعوى عريضة من هذه الأجهزة الموجهة بأن احتجاب المرأة هو الذي ينشر هذه الفاحشة الشاذة في المجتمعات ، ولكن شهادة الواقع تخرق العيون ففي أروبا وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى – كما في عالم البهائم – وهذه الفاحشة الشاذة يرتفع معدلها بارتفاع الاختلاط ولا ينقص ولا يقتصر على الشذوذ بين الرجال بل يتعداه إلى الشذوذ بين النساء

ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ « السلوك الجنسي عند الرجال » و« والسلوك الجنسي عند النساء » في تقرير « كنزي » الأمريكي ولكن هذه الأجهزة الموجهة ماتزال تردد هذه الأكذوبة وتسندها إلى حجاب المرأة لتؤدي ماتريده بروتوكولات صهيون ووصايا مؤتمرات المبشرين ونعود إلى قوم لوط فيتجلى لنا الانحراف مرة أخرىٰ في جوابهم لنبيهم :

﴿ **وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾ يا عجباً أوَ من يتطهّر يخرج من القرية إخراجاً ليبقى فيها الملوثون المدنَسون ؟! ولكن لماذا العجب ؟ وماذا تصنع الجاهلية الحديثة ؟ أليست تطارد الذين يتطهرون فلا ينغمسون في الوحل الذي تنغمس فيه مجتمعات الجاهلية - وتسميه تقدمية وتحطيماً للأغلال عن المرأة وغير المرأة - أليست تطاردهم في أرزاقهم وأنفسهم وأموالهم وأفكارهم وتصوراتهم كذلك ولاتطيق أن تراهم يتطهرون لأنها لاتتسع ولا ترحب إلا بالملوثين الدنسين القذرين ؟ إنه منطق الجاهلية في كل حين ؟؟ وتعرض الخاتمة سريعاً بلا تفصيل ولا تطويل : ﴿ **فأنجيناه وأهله - إلا امرأته كانت من الغابرين - وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : (ولوط هو ابن هاران بن آزر) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ، ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - عليهم لعائن الله - قال عمرو بن دينار في قوله ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ قال : ما نزا ذَكَر على ذَكَر حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك - الخليفة الأموي باني جامع دمشق - لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذَكَراً يعلو ذَكَراً »

أقول : إنّه ما من شهوة أظهر بطلاناً في العقل وانحرافاً عن سنة الفطرة كهذه الشهوة التي لاتنتج إلا مقتاً . فالشهوة الجنسية ركبها الله في الإنسان لدفع الذكر نحو الأنثى ؛ ليبقى الجنس البشري ، فعندما تصرف هذه الشهوة عن طريقها بذلك فذلك منتهى الجهل . قدّر لو اكتفى الرجال بالرجال كم يبقى الجنس البشري ؟

وفي سفر التكوين من أسفار العهد القديم الإصحاح الحادي عشر (ولد تارح ابرام وناحور وهاران ، وولد هاران لوطاً) وتارح هو آزر وعلى هذا فإن رواية سفر التكوين متفقة مع ما ذكره ابن كثير . وقد ذكر انتقال لوط إلى سدوم في الإصحاح الثالث عشر من سفر التكوين ، وذكر في الإصحاح التاسع عشر قصة إهلاك سدوم وعمورة ، وفي هذا الإصحاح (وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من قلب السماء وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح) وفي هذا الإصحاح غير ما ذكرنا من السخف والجرأة على الأنبياء مالا يفعله إلا اليهود - عليهم لعنة الله - تجرأوا على قتل الأنبياء واتهامهم بكل نقيصة فاختلطت كتبهم بشيء من الحق مع زيف كثير .

٢ - وفي العقوبة التشريعية في الإسلام لمن يعمل عمل قوم لوط يقول ابن كثير :

« وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله : إلى أن اللائط يُلقىٰ من شاهق ويتبع بالحجارة كما فُعل بقوم لوط . وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، والحجة مارواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث الدرا وردي ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . وقال آخرون : هو كالزاني ، فإن كان محصناً رجم وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام بإجماع العلماء ، إلا قولًا شاذا لبعض السلف ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ . ولنا كلام على قصة قوم لوط وقراهم سيأتي في محله إن شاء الله .

وبعد قصة قوم لوط تأتي قصة قوم شعيب : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً** ﴾ مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة كما سنرى . أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ويسميه العلماء خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ دعاهم إلى الله وتوحيده وتلك دعوة كل رسول ﴿ **قد جاءتكم بيِّنة من ربكم** ﴾ أي معجزة ولم يذكر القرآن ما هي معجزته فدّل ذلك على أنه ما من رسول إلا وله معجزة بها تقوم الحجة على قومه ، ذُكر ذلك أو لم يذكر بيِّنت أو لم تبيّن ﴿ **فأوفوا الكيل والميزان** ﴾ أي أتموهما ﴿ **ولا تبخسوا الناس**

أشياءهم ﴾ أي ولا تنقصوا حقوقهم بتطفيف الكيل ونقصان الوزن وكانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعتهم ، أو لا تخونوا الناس في أموالهم ﴿ **ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها** ﴾ أي لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء والأولياء ﴿ **ذلكم** ﴾ أي ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان ، وترك البخس ، والإفساد في الأرض ﴿ **خير لكم** ﴾ قال النسفي : في الإنسانية وحسن الأحدوثة . وأقول : في الدنيا والآخرة﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي مصدقين لي في قولي ﴿ **ولا تقعدوا بكل صراط** ﴾ أي بكل طريق ﴿ **توُعِدون** ﴾ أي من آمن بشعيب بالعذاب ﴿ **وتصدون عن سبيل الله** ﴾ أي عن عبادته ودينه وطريقه ﴿ **من آمن به** ﴾ أي بالله ﴿ **وتبغونها عوجاً** ﴾ أي وتطلبون لسبيل الله العوج أي تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة ؛ لمنعهم عن سلوكها أو تطلبون الطريقة المعوجة . والمعنى : لاتقعدوا موعدين وصادّين عن سبيل الله وباغين عوجاً ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلًا فكثَّرَكُم** ﴾ أي واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلًا عددكم فكثَّركم الله ووفر عددكم ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي كيف كان آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا** ﴾ أي فانتظروا ﴿ **حتى يحكم الله بيننا** ﴾ أي بين الفريقين بأن ينصر المحقّين على المبطلين ، ويظهرهم عليهم ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ لأن حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الجور ، وفي الآية بيان أن الدعوة إلى الله تقسم الناس قسمين : أهل حق ، وأهل باطل ، وفي الآية وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، وحث للمؤمنين على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم ، ويحتمل أن تكون الآية خطاباً للفريقين حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه** ﴾ والاستكبار على الأنبياء ودعوتهم كفر فالذين استكبروا هم الذين كفروا ﴿ **لنخرجَنَّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُنَّ في ملتنا** ﴾ أي ليكونن أحد الأمرين إمَّا إخراجكم وإمّا عودكم في الكفر ﴿ **قال** ﴾ أي شعيب ﴿ **أَوَلَوْ كنّا كارهين** ﴾ تقديره : أتعيدوننا في مِلّتكم في حال كراهتنا ، أو مع كوننا كارهين ﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عُدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ أي بعد أن خلّصنا الله منها ، فإن قال قائل كيف يقول شعيب ﴿ **إن عدنا في ملتكم** ﴾ والكفر على الأنبياء محال ؟ فالجواب : أراد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب

﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾ أي وما ينبغي لنا وما يصح ﴿ **إلا أن يشاء الله ربنا** ﴾ أي إلّا أن يكون سبق في مشيئته أن نعود فيها إذ الكائنات كلها بمشيئة الله تعالى خيرها وشرها ﴿ **وسع ربنا كل شيء علماً** ﴾ أي هو عالم بكل شيء فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول وقلوبهم كيف تتقلَّب ﴿ **على الله توكلنا** ﴾ في أن يُثَبِّتنا على الإيمان ، ويوفقنا لازدياد الإيقان ، ويحمينا من مراد الأعداء ﴿ **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق** ﴾ أي احكم ، والفتاحة الحكومة ، والقضاء بالحق يفتح الأمر المغلق ، فلذا سمي فتحاً ، وكان أهل عُمان يسمون القاضي فتاحاً . ﴿ **وأنت خير الفاتحين** ﴾ أي خير الحاكمين . ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ أي مغبونون لفوات فوائد البخس والتطفيف باتّباعه لأنه ينهاكم عنها ويحملكم على الإيفاء والتسوية ﴿ **فأخذتهم الرجفة** ﴾ أي الزلزلة ﴿ **فأصبحوا في دراهم جاثمين** ﴾ أي مَيّتين ﴿ **الذين كذبوا شعيباً كأن لم يَغْنَوْا فيها** ﴾ أي كأن لم يقيموا فيها ﴿ **الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين** ﴾ لا لِمَنْ اتبعه - كما زعم الكافرون - وفي التعبير ما يفيد : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا كأن لم يقيموا في دراهم ؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فهم الرابحون ، وفي التكرار مبالغة واستعظام لتكذيبهم ولما جرى عليهم ﴿ **فتولى عنهم** ﴾ بعدما نزل بهم العذاب ﴿ **وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى** ﴾ أي أحزن ﴿ **على قوم كافرين** ﴾ ويحتمل أنه يريد لقد أعذرت لكم في الإبلاغ والتحذير مما حل بكم ، فَلَمْ تصدقوني فكيف آسى عليكم . كما يحتمل أنه حزن على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم ؛ لكفرهم واسحقاقهم ما نزل بهم .

نُقول :

قال صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين** ﴾ .

١ لقد دعاهم إلى أعدل خطة . ولقد وقف عند آخر نقطة لايملك أن يتراجع وراءها خطوة ... نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذىً وترك كلٍّ وما اعتنق من دين . حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان في الأرض وجود ممثّل في جماعة من

الناس لا تدين للطاغوت . إن وجود جماعة مسلمة في الأرض ، لاتدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولاتحكم في حياتها شرعاً إلا شرعه ، ولاتتبع في حياتها منهجاً إلا منهجه .. إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت - حتى لو انعزلت هذه الجماعة في نفسها وتركت الطواغيت لحكم الله حتى يأتي موعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة - حتى لو آثرت هي ألا تخوض معه المعركة - إن وجود الحق في ذاته يزعج الباطل . وهذا الوجود ذاته هو الذي يفرض عليه المعركة مع الباطل .. إنها سنة الله لابد أن تجري .. ﴿ **قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن في ملتنا** ﴾ . هكذا في تبجُّح سافر ، وفي إصرار على المعركة لايقبل المهادنة والتعايش ! إلا أن قوة العقيدة لاتتلعثم ولا تتزعزع أمام التهديد والوعيد.. لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطة التي لايملك أن يتزحزح وراءها خطوة .. نقطة المسالمة والتعايش - على أن يترك لمن شاء أن يدخل في العقيدة التي يشاء ، وأن يدين للسلطان الذي يشاء : في انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين - وما يملك النبي أن يتراجع خطوة واحدة وراء هذه النقطة ، تحت أي ضغط أو أي تهديد من الطواغيت .. وإلا تنازل كليةً عن الحق الذي يمثله .. فلما أن تلقى الملأ المستكبرون عرضه هذا بالتهديد بالإخراج من قريتهم أو العودة في ملتهم ، صدع شعيب بالحق ، مستمسكاً بملته ، كارهاً أن يعود في الملة الخاسرة التي أنجاه الله منها ، واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله :

﴿ **قال : أَوَلَوْ كُنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملّتكم بعد إذ نجانا الله منها . ومايكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين** ﴾ .

وفي هذه الكلمات القلائل تتجلىٰ طبيعة الإيمان ، ومذاقه في نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه . كذلك نشهد في قلب الرسول ذلك المشهد الرائع .. مشهد الحقيقة الإلهية في ذلك القلب وكيف تتجلى فيه . ﴿ **قال : أولو كنا كارهين** ﴾ ؟ .

يستنكر تلك القولة الفاجرة : ﴿ **لَنخْرجَنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودُن في ملتنا** ﴾ .. يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التي أنجانا الله

منها !! ﴿ **قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ إن الذي يعود إلى ملة الطاغوت الجاهلية ، التي لا يخلص فيها الناس الدينونية والطاعة لله وحده ، والتي يتخذ الناس فيها أرباباً من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .. إن الذي يعود إلى هذه الملة - بعد إذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه إلى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد - إنما يؤدي شهادة كاذبة على الله ودينه ، شهادة مؤداها أنه لم يجد في ملة الله خيراً فتركها وعاد إلى ملة الطاغوت ! وأن وجودها لايتنافى مع الإيمان بالله . فهو يعود إليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله .. وهي شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الإسلام . شهادة الاعتراف براية الطغيان وراء اغتصاب سلطان الله في الحياة .

وكذلك يستنكر شعيب - عليه السلام - مايتهدده به الطغاة من إعادته هو والذين آمنوا معه إلى الملة التي أنجاهم الله منها : ﴿ **ومايكون لنا أن نعود فيها** ﴾ .

وما من شأننا أصلًا : وماينبغي لنا قطعا أن نعود فيها .. يقولها وأمامه التهديد الذي يزاوله الطاغوت في كل أرض مع الجماعة المسلمة ، والتي تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده - مهما عظمت وشقت - أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت ! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة ! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته . فهذه « الإنسانية » لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان ؟! وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟! .. وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى مثله ورغباته وشهواته ؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟!

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لايحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والمفهومات والأخلاق والتقاليد والعادات فوق مايتحكم في أرواحهم وفي حياتهم ذاتها ، فيذبحهم على مذبح هواه ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعلام المجد لذاته والجاه ! ثم

يكلفهم أعراضهم في النهاية .. حيث لايملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت ، سواء في صورة الغصب المباشر - كما يقع على نطاق واسع على مدار التاريخ - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أي شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أي ستار .. والذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطوغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم أو يفقد الإحساس بالواقع ! .

إن عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف في النفس والعرض والمال .. ومهما تكن تكاليف العبودية لله فهي أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة . فضلًا على وزنها في ميزان الله .

أقول : في شريعتنا الإكراه الملجىء يبيح للإنسان أن يقول كلمة الكفر إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان ، وهو موضوع سيمر معنا في سورة النحّل

فائدة :

قال ابن كثير : قال محمد بن إسحق عن مدين : هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال : واسمه بالسريانية يثرون ، (قلت) : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون** ﴾ (القصص : ٢٣) وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة . وفي سفر التكوين الإصحاح السابع والثلاثين في قصة يوسف يرد ذكر الإسماعليين ويبدو أن المراد بهم العرب ، ثم يرد ذكر المديانيين فيقول : (واجتاز رجال مديانيون تجار) . فالمديانيُّون غير العرب وغير الفلسطينيين وعلى حسب خريطة مايسمّى بالكتاب المقدس فإن مدين تمتد شرقي وغربي خليج العقبة .

وبعد أن قصّ الله علينا ما فعله بأقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب فإن تعقيباً على هذا كله يأتي في هذا المقطع : يقول صاحب الظلال : « ثم يقف سياق السورة وقفة للتعقيب على ذلك القصص - وفق منهج السورة - فيكشف في هذا التعقيب عن خطوات قدر الله بالمكذبين .. كيف يأخذهم بالبأساء والضراء لعل قلوبهم تصحو وترق ، وتلجأ إلى الله وتتضرع إليه ، فإذا لم تستيقظ هذه القلوب ولم تنتفع بالابتلاء ، أخذهم الله بالسراء - وهي أشد في الابتلاء - حتى يزدادوا عن قدر الله غفلة ويظنون

الحياة لهواً ولعباً . وعندئذ يأخذهم الله بغتةً على حين غفلة : ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون** ﴾ .

وهنا يكشف السياق كذلك عن العلاقة بين القيم الإيمانية وسنن الله في أخذ الناس ، حيث لا انفصال في خطوات قدر الله بين هذه السنن وتلك القيم . هذه العلاقة التي تخفى على الغافلين لأن آثارها قد لاتبدو في المدى القريب ؛ ولكنها لابد واقعة في المدى الطويل . ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ .

ويعقب الكشف عن خطوات قدر الله بالمكذبين ؛ وسننه وعلاقتها بالقيم الإيمانية في حياة البشر ، لمسات من التهديد تهزّ القلوب ، ولفتات إلى مصارع المكذبين توقظ الغافلين : ﴿ **أفأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أَوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ ﴿ **أَوَلَم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون** ﴾ وينتهي هذا التعقيب بلفتة إلى رسول الله - ﷺ - عن هذا القصص ؛ وتلخيص لأمر الأقوام التي كذبت من قبل ؛ ووصف لحقيقة حالهم ونسيانهم لعهد الله معهم على الاعتراف بألوهيته ووحدانيته ؛ وعدم جدوى الآيات والبينات والخوارق التي جاءهم بها رسلهم بسبب تعطل فطرتهم وغفلة قلوبهم : ﴿**تلك القرى نقصُّ عليك من أنبائها . ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وماوجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ .

ولنعرض التفسير الحرفي لهذا التعقيب الذي يأتي كدرس بين قصص مَن ذكر وقصة موسى وفرعون :

﴿ **وما أرسلنا في قرية من نبي** ﴾ يقال لكل مدينة قرية إذ المعروف أن الأنبياء ترسل في الحواضر ﴿ **إلا أخذنا أهلها بالبأساء** ﴾ أي : بالبؤس والفقر ﴿ **والضرَّاء** ﴾ أي : الضر والمرض وهذا الأخذ لاستكبارهم عن اتباع نبيهم فعاقبهم الله بنقصان النفس والمال ﴿ **لعلهم يضَّرَّعون** ﴾ أي ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر ﴿ **ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ أي أعطيناهم بدل ماكانوا فيه من البلاء والمحنة الرخاء والسعة والصحة ﴿ **حتى عفوا** ﴾ أي حتى كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم من قولهم : عفا النبات إذا كثر ﴿ **وقالوا قد مسَّ آباءنا الضرّاء والسرّاء** ﴾ أي قالوا هذه عادة الدهر ، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء ، وقد مس آباءنا نحو ذلك ، وماهو بعقوبة الذنب ، ولا رب ولا رسول ، فكونوا على ما أنتم عليه ﴿**فأخذناهم بغتة**﴾أي فجأة ﴿**وهم لايشعرون**﴾ أي بنزول العذاب ﴿ **ولو أن أهل القرى** ﴾ المذكورة أو كل قرية مطلقاً ﴿ **آمنوا واتقوا** ﴾ آمنوا بالله ورسله ، واتقوا الشرك والمعاصي ﴿ **لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ أي المطر والنبات ، أو لآتيناهم بالخير من كل وجه ﴿ **ولكن كذبوا** ﴾ بالله وآياته ورسله ﴿ **فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ أي بكفرهم وسوء كسبهم . ﴿ **أفأمِنَ أهل القرى** ﴾ أي الكافرون منهم ﴿ **أن يأتيهم بأسنا** ﴾ أي عذابنا ﴿ **بياتاً** ﴾ أي ليلًا أي وقت بيات ﴿ **وهم نائمون أوَ أمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحى** ﴾ أي نهاراً والضحى في الأصل ضوء الشمس إذا أشرقت ﴿ **وهم يلعبون** ﴾ أي وهم يشتغلون بما لايجدي عليهم . والاستفهام في الآيتين للإنكار والمعنى إنكار الأمن من أحد هذين الوجهين من إتيان العذاب ليلًا ، أوضحى ﴿ **أفأمنوا مكر الله** ﴾ أي : أخذه العبد من حيث لايشعر ، وقال بعضهم : مكره بهم تركه إياهم على ما هم عليه ثم أخذهم ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ أي إلا الكافرون الذين خسروا أنفسهم حتى صاروا إلى النار ﴿ **أو لم يهد** ﴾ أي : يتبين ﴿ **للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم** ﴾ أي : أو لم يهد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين ﴿ **ونطبع على قلوبهم** ﴾ أي ونحن نختم على قلوبهم ﴿ **فهم لايسمعون** ﴾ الوعظ ﴿ **تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها** ﴾ أي تلك القرى المذكورة من قوم نوح إلى قوم شعيب نقص عليك بعض أنبائها ، ولها أنباء غيرها

لم نقصها عليك ﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ أي بالمعجزات ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا** ﴾ أي عند مجيء الرسل والبينات ﴿ **بما كذبوا من قبل** ﴾ بما كذبوا من قبل مجيء الرسل ، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولًا حين جاءتهم الرسل أي : استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرّين مع تتابع الآيات ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الطبع الشديد ﴿ **يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ لما علم منهم أنهم يختارون الثبات على الكفر ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم** ﴾ أي لأكثر الناس ﴿ **من عهد وإن** ﴾ أي وإنه أي : وإن الشأن والحديث ﴿ **وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ أي لخارجين عن الطاعة ومعنى ما وجدنا هنا ما علمنا وهل المراد بأكثرهم الأمم المذكورون- فإنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضر ومخافة لئن أنجاهم ليؤمنن ثم أنجاهم ولم يفوا - أو المعنى : إن أكثر الناس نقضوا عهد الله وميثاقه في الإيمان ؟ .

قال الألوسي :

والكلام على تقدير مضاف أي : ماوجدنا وفاء عهد كائن لأكثرهم ، فإنهم نقضوا ماعاهدوا عليه الله تعالى عند مساس البأساء والضراء قائلين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، وإلى هذا ذهب قتادة ، وتخصيص هذا الشأن بأكثرهم ليس لأن بعضهم كانوا يوفون بالعهد بل لأن بعضهم كانوا لايعاهدون ولا يوفون ، وقيل المراد بالعهد : ما وقع يوم أخذ الميثاق ، وروي ذلك عن أبي بن كعب ، وأبي العالية ، وقيل المراد به : ما عهد الله تعالى إليهم من الإيمان والتقوى ، بنصب الدلائل والحجج ، وإنزال الآيات ، وفسره ابن مسعود بالإيمان كما في قوله تعالى : ﴿ **واتخذ عند الرحمن عهداً** ﴾ وقيل : هو بمعنى البقاء أي ما وجدنا لهم بقاء على فطرتهم .

وقال صاحب الظلال في الآية الأخيرة :

﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ ...

« والعهد الذي يشار إليه هنا قد يكون هو عهد الله على فطرة البشر ، الذي ورد ذكره في أواخر السورة : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا** ﴾ ...

وقد يكون هو عهد الإيمان الذي أعطاه أسلافهم الذين آمنوا بالرسل . ثم انحرفت الخلائف ، كما يقع في كل جاهلية . إذ تظل الأجيال تنحرف شيئاً فشيئاً حتى تخرج من

عهد الإيمان وترتد إلى الجاهلية .

وأياً كان العهد فقد تبين أن أهل هذه القرى لا عهد لأكثرهم يستمسكون به ، ويثبتون عليه . وإنما هو الهوى المتقلب ، والطبيعة التي لاتصبر على تكاليف العهد ولا تستقيم . ﴿ **وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ منحرفين عن دين الله وعهده القديم .. وهذه ثمرة التقلب .. ونقض العهد ، واتباع الهوى ... ومن لم يمسك نفسه على عهده مع الله ، مستقيماً على طريقته ، مسترشداً بهداه ، فلا بد أن تتفرق به السبل ، ولا بد أن ينحرف ، ولا بد أن يفسق .. وكذلك كان أهل تلك القرى . وكذلك انتهى بهم المطاف . » .

وتعليقا على هذا التعقيب الذي جاء بعد قصص أقوام عذّبوا والذي جاء خاتمة للمقطع الأول من القسم الثاني في السورة ، والذي يأتي بين يدي قصة موسى وفرعون ، وقصة موسى مع قومه تعليقاً على هذا التعقيب يقول صاحب الظلال :

« هذه وقفة في سياق السورة للتعقيب على ما مضى من قصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب .. وقفة لبيان سنة الله التي جرت بها مشيئته وحققها قدره بالمكذبين في كل قرية - والقرية هي المدينة الكبيرة أو الحاضرة المركزية - وهي سنة واحدة يأخذ الله بها المكذبين ، ويتشكل بها تاريخ الإنسان في جانب منه أصيل .. أن يأخذ الله المكذبين بالبأساء والضراء ، لعل قلوبهم ترق وتلين وتتجه إلى الله وتعرف ألوهيته وحقيقة عبودية البشر لهذه الألوهية القاهرة . فإذا لم يستجيبوا أخذهم بالنعماء والسراء ، وفتح عليهم الأبواب ، وتركهم ينمون ويكثرون ويستمتعون ... كل ذلك للابتلاء .. حتى إذا انتهى بهم اليسر والعافية إلى الاستهتار والترخص ، وإلى الغفلة وقلة المبالاة ، وحسبوا أن الأمور تمضي جزافاً بلا قصد ولا غاية ، وأن السراء تعقب الضراء من غير حكمة ولا ابتلاء ، وأنه إنما أصابهم ما أصاب آباءهم من قبل لأن الأمور تمضي هكذا بلا تدبير : ﴿ **وقالوا : قد مسّ آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أخذهم الله بغتة ، وهم سادرون في هذه الغفلة . لم يدركوا حكمة الله في الابتلاء بالضراء والسراء . ولم يتدبروا حكمته في هذه الغفلة في تقلب الأمور بالعباد ، ولم يتقوا غضبه على المستهترين الغافلين ، وعاشوا كالأنعام بل أضل حتى جاءهم بأس الله .. ولو أنهم آمنوا بالله واتقوه لتبدّلت الحال ، ولَحَلت عليهم البركات ، ولَأفاض الله عليهم من رزقه في السماء والأرض ، ولَأنعم عليهم نعيمه المبارك الذي تطمئن به الحياة ، ولا يعقبه النكال والبوار .

ثم يحذر الله الذين يرثون الأرض من بعد أهلها .. يحذرهم الغفلة والغرة ويدعوهم إلى اليقظة والتقوى .. ويلفتهم إلى العبرة في مصارع الغابرين الذين ورّثوا هم الأرض من بعدهم ، فإنما تنتظرهم سنة الله التي لاتتبدّل والتي يتكيف بها تاريخ البشر على مدارج القرون .

وتنتهي الوقفة بتوجيه الخطاب إلى الرسول ﷺ : ﴿ **تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ..** ﴾ لإظهاره على سنة الله فيها ، وعلى حقيقة هذه القرى وأهلها : ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾ فهذا الرسول الأخير وأمته هم الوارثون لحصيلة رسالات الله كلها ، وهم الذين يفيدون من أنبائها وعظاتها ... » .

نُقول :

١ - في الربط بين العقيدة والحياة الاقتصادية للأمم يقول صاحب الظلال :

« إن العقيدة الإيمانية في الله ، وتقواه ، ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن خط تاريخ الإنسان . إن الإيمان بالله وتقواه ، ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض . وعْداً من الله . ومن أوفى بعهده من الله ؟ ونحن - المؤمنين بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب المؤمن ، فنصدقه ابتداء ، لانسأل عن علله وأسبابه ولا نتردد لحظة في توقع مدلوله ، نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعده بمقتضى الإيمان ..

ثم ننظر إلى وعد الله نظرة التدبر - كما يأمرنا إيماننا كذلك - فنجد علته وسببه .

إن الإيمان بالله دليل على حيوية في الفطرة وسلامة في أجهزة الاستقبال الفطرية وصدق في الإدراك الإنساني وحيوية في البنية البشرية ورحابة في مجال الإحساس بحقائق الوجود ... وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرر من العبودية للهوىٰ ومن العبودية للعبيد وما من شك أن الإنسان المتحرر بالعبودية لله أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة من العبيد للهوى ولبعضهم بعضاً .

وتقوىٰ الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور والشطط والغرور في دفعة الحركة ودفعة الحياة وتوجه الجهد البشري في حذر وتحرج فلا يعتدي ولا يتهور ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح عاملة في الأرض متطلعة إلىٰ السماء متحررة من الهوىٰ والطغيان البشري عابدة خاشعة تسير سيرة صالحة منتجة تستحق مدد الله بعد رضاه فلا جرم تحفها البركة ويعمها الخير ويظلها الفلاح – والمسألة – من هذا الجانب – مسألة واقع منظور – إلى جانب لطف الله المستور – واقع له علله وأسبابه الظاهرة إلى جانب قدر الله الغيبي الموعود .

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون ، في توكيد ويقين ، ألوان شتى لايفصلها النص ولا يحددها . وإيحاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ، ولا تفصيل ولابيان . فهي البركات بكل أنواعها وألوانها ، وبكل صورها وأشكالها ، ما يعهده الناس وما يتخيلونه ، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال .

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لايعرفون الإيمان ولايعرفون الحياة . وما أجدرهم أن ينظروا هذه الصلة قائمة يشهد بها الله – سبحانه – وكفى بالله شهيداً . ويحققها النظر بأسبابها التي يعرفها الناس . ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ .

ولقد ينظر بعض الناس فيرى أمماً – يقولون : إنهم مسلمون – مضيقاً عليهم في الرزق ، لايجدون إلا الجدب والمحق !... ويرى أمما لايؤمنون ولا يتقون ، مفتوحاً عليهم في الرزق والقوة والنفوذ .. فيتساءل : وأين إذن هذه السنة التي لاتتخلف ! .

ولكن هذا وذلك وَهْم تخيله ظواهر الأحوال .

إن أولئك الذين يقولون : إنهم مسلمون .. هم في الغالب لا مؤمنون ولا متقون ! إنهم لايخلصون عبوديتهم لله ، ولا يحققون في واقعهم شهادة أن لا إله إلا الله إنهم يسلمون رقابهم لعبيد منهم يتألهون عليهم ، ويشرعون لهم – سواء القوانين أو القيم أو التقاليد – وما أولئك بالمؤمنين .

فالمؤمن لايدع عبداً من العبيد يتأله عليه ، ولا يجعل عبداً من العبيد ربه الذي يصرّف حياته بشرعه وأمره .. ويوم كان أسلاف هؤلاء الذين يزعمون الإيمان مسلمين حقاً . دانت لهم الدنيا ، وفاضت عليهم بركات من السماء والأرض ، وتحقق لهم وعد الله » .

٢ - وفي شرح سنة الله بالإملاء للظالمين يقول صاحب الظلال عند قوله تعالى :

﴿ **ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أي حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيش ، واستيسروا الحياة : ولم يعودوا يجدون في أنفسهم تحرجاً من شيء يعملونه ، ولا تخوفاً من أمر يصنعونه .. والتعبير : « عفوا » - إلى جانب دلالته على الكثرة - يوحي بحالة نفسية خاصة . حالة قلة المبالاة . حالة الاستخفاف والاستهتار . حالة استسهال كل أمر ، واتباع عفو الخاطر في الشعور والسلوك سواء .. وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة حين يطول بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء - أفراداً وأمما - كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت فلم تعد تحفل شيئاً ، أو تحسب حساباً لشيء . فهم ينفقون في يسر ويلتذون في يسر ، ويلهون في يسر ، ويبطشون كذلك في استهتار . ويقترفون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان ويرتعش لها الوجدان في يسر واطمئنان . وهم لايتقون غضب الله ولا لوم الناس ، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا تحرج ولا مبالاة ، وهم لايفطنون لسنة الله في الكون ، ولايتدبرون اختباراته وابتلاءاته للناس . ومن ثم يحسبونها تمضي هكذا جزافاً ، بلا سبب معلوم ، وبلا قصد مرسوم : ﴿ **وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ ..

وقد أخذنا دورنا في الضراء وجاء دورنا في السراء . وها هي ذي ماضية بلا عاقبة ، فهي تمضي هكذا خبط عشواء .

عندئذ .. وفي ساعة الغفلة السادرة ، وثمرة للنسيان واللهو والطغيان ، تجيء العاقبة وفق السنة الجارية . ﴿ **فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون** ﴾ .

جزاء بما نسوا واغتروا وبعدوا عن الله وأطلقوا لشهواتهم العنان فما عادوا يتحرجون من فعل ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال .

هكذا تمضي سنة الله أبداً . وفق مشيئته في عباده . وهكذا تحرك التاريخ الإنساني بإرادة الإنسان وعمله - في إطار سنة الله ومشيئته وهاهو ذا القرآن الكريم يكشف للناس عن السنة ، ويحذرهم الفتنة ... فتنة الاختبار والابتلاء بالضراء والسراء .. وينبه فيهم دواعي الحرص واليقظة ، واتقاء العاقبة التي لاتتخلف ، جزاء وفاقاً على اتجاهم وكسبهم . فمن لم يتيقظ ومن لم يتحرج ، ومن لم يتق ، فهو الذي يظلم نفسه ويعرضها

لبأس الله الذي لايرد . ولن تظلم نفس شيئاً .

« فأما أولئك المفتوح عليهم في الرزق .. فهذه هي السنة : ﴿ **ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء** ﴾ فهو الابتلاء بالنعمة الذي مر ذكره وهو أخطر من الابتلاء بالشدة – وفرق بينه وبين البركات التي يعدها الله من يؤمنون ويتقون . فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح .. وكم من أمة غنية قوية ولكنها تعيش في شقوة مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق وينتظرها الانحلال . فهي قوة بلا أمن . وهو متاع بلا رضى وهي وفرة بلا صلاح . وهو حاضر زاهٍ يترقبه مستقبل نكد . وهو الابتلاء الذي يعقبه النكال .

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى ، بركات في الأشياء وبركات في النفوس ، وبركات في المشاعر ، وبركات في طيبات الحياة .. بركات تنمي الحياة وترفعها في آن . وليست مجرد وفرة مع الشقوة والتردي والانحلال ..» .

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأخذناهم بغتة** ﴾ قال ابن كثير : وفي الحديث « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر » .

٢ – بمناسبة عدم اعتبار الكافرين بالبأساء والضراء يقول ابن كثير : وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين : « عجباً للمؤمن لايقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبرفكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » . فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به في الضراء والسراء . فلهذا جاء في الحديث : « لايزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لايدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه » . أو كما قال .

٣ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً** ﴾ يذكر النسفي أن ابنة الربيع بن خيثم قالت لأبيها : « مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يابنتاه إن أباك يخاف البيات » . أراد ما حذرت منه الآية وهكذا فإن المؤمن هو الذي يخاف ماأوعد الله به ، أما الكافر فإنه لايسمع ولا يعقل .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ نقول: دلت الآية على أن الرخاء الاقتصادي طريقه الإيمان والتقوى ، طريقه طاعة الله والالتزام بشرعه ، لا كما توسوس شياطين الإنس والجن ، موجهة بزخرف قولها أن الرخاء في تطبيق مبادىء أمم الكفر الاقتصادية مما يلغي شرع الله ، أو يعطله ، أو يخالفه .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ قال الألوسي : « واستدلت الحنفية بالآية على أن الأمن من مكر الله تعالى وهو - كما في جمع الجوامع - الاسترسال في المعاصي اتكالًا على عفو الله تعالى كفر ، ومثله اليأس من رحمة الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ **إنه لاييأس من روْح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ وذهبت الشافعية إلى أنهما من الكبائر لتصريح ابن مسعود رضي الله تعالىٰ عنه بذلك .

وروىٰ ابن أبي حاتم والبزار عن ابن عباس أنه ﷺ سئل ما الكبائر ؟ فقال الشرك بالله تعالىٰ ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله . » وهذا أكبر الكبائر قالوا : وما ورد من أن ذلك كفر محمول على التغليظ وآية لا ييأس الخ كقوله تعالى : ﴿ **الزانية لاينكحها إلازان** ﴾ و ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله** ﴾ في قول . وقال بعض المحققين : إن كان في الأمن اعتقاد أن الله تعالى لايقدر على الانتقام منه ، وكذا كان في اليأس اعتقاد عدم القدرة على الرحمة والإحسان أو نحو ذلك ، فذلك مما لاريب في أنه كفر ، وإن خلا عن نحو هذا الاعتقاد ولم يكن فيه تهاون وعدم مبالاة بالله تعالىٰ ، فذلك كبيرة وهو كالمحاكمة بين القولين » .

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن محور سورة الأعراف هو ضرورة اتباع هدى الله المنزل ، وما أعد الله لمن اتبع هذا الهدى وما جزاء من خالفه ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وقد رأينا في هذا المقطع كيف أن أهل الإيمان نجاهم الله ، وكيف أن أهل الكفر - ممن رفضوا هدى الله - أهلكهم الله ، وعذبهم في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أكبر ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ فالمقطع إذن واضح في كونه ضمن السياق العام الذي يفصّل محور السورة ، ومما فصله أن أهل الإيمان لا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، بتولي الله إياهم .

٢ - ولقد رأينا أن السورة تتألف من ثلاثة أقسام ، القسم الأول يتألف من مقدمة

السورة ومقطع ، والقسم الثاني يتألف من أربعة مقاطع ، المقطع الأول في قصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، والتعقيب عليها ، وقد مر معنا ، وسيأتي بعد المقطع الأول من القسم الثاني ثلاثة مقاطع كلها في بني إسرائيل .

المقطع الأول : فيه قصة موسى مع فرعون .
المقطع الثاني : فيه قصة موسى مع قومه .
المقطع الثالث : في بني إسرائيل : مافعل الله لهم وبهم .

وكل من المقاطع الثلاثة يرينا كيف استقبلت الأمم هدى الله ، وكيف عوقبت ، ولو أننا تذكرنا مقدمة السورة التي جاء فيها : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ .

ولو أننا تذكرنا المقطع الأول وما جاء فيه من نداءات لبني آدم لرأينا ارتباط وتلاحم مقاطع هذا القسم مع القسم الأول ، فإذا عرفنا أن القسم الثالث يبدأ بالحديث عن أخذ الله العهد على بني آدم . ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم** ﴾ وأن القسم الأخير كله في تفصيل قضية العبودية والربوبية ، وإذا ماتذكرنا ما جاء في نهاية المقطع الذي مرّ معنا . ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ إذا تذكرنا هذا كله أدركنا تلاحم أقسام السورة ومقاطعها .

٣ – وفيما بين يدي المقاطع الثلاثة الآتية بعد التعقيب على مصارع أقوام ننقل ما قاله صاحب الظلال ونضعه تحت عنوان :

بين يدي الكلام عن المقاطع الثلاثة الآتية بالسورة

« وبعد الوقفة للتعقيب على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب تجيء قصة موسىٰ – عليه السلام – مع فرعون وملئه أولًا ، ثم مع قومه بني إسرائيل أخيراً .. وتشغل قصة موسىٰ في هذه السورة أوسع مساحة وأكبر قدر شغلته في سورة واحدة من سور القرآن كلها ، وقدوردت حلقات من قصة بني إسرائيل في مواضع كثيرة ، وذلك عدا الإشارات القصيرة إليها في مواضع من القرآن أخرىٰ .. وكانت أكثر القصص وروداً في القرآن كله – ولعل ذلك التفصيل في قصة هذه الأمة كان للحكمة التي أشرنا إليها من قبل – في هذه الظلال – في الجزء السادس في صحفتي (١٢٤ – ١٢٥) على النحو التالي :

« من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء

والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها ، فقد كانوا حرباً على الجماعة المسلمة منذ اليوم الأول ، هم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة ، وأمدوهم بوسائل الكيد للعقيدة وللمسلمين معا ، وهم الذين حرّضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الجماعة المسلمة ، وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم ، كما تولوا بثَّ الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة ، وذلك كله قبل أن يسفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصريحة ، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف من هم أعداؤها : ماطبيعتهم ؟ وما تاريخهم ؟ وما وسائلهم ؟ وما حقيقة المعركة التي تخوضها معهم ؟ ولقد علم الله أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله ، كما كانوا أعداء هدىٰ الله في ماضيهم كله فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً ووسائلهم كلها مكشوفة .

« ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير . وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة طويلة ، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم ، ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ، ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف ، كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم ... فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة – وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها – بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ ،وتعرف مزالق الطريق وعواقبها ، ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم ؛ لتضم هذه التجربة – في حقل العقيدة والحياة – إلىٰ حصيلة تجاربها ، وتنتفع بهذا الرصيد وتنفع على مدار القرون . ولتتقي – بصفة خاصة – مزالق الطريق ومداخل الشيطان وبوادر الانحراف على هدي التجارب الأولىٰ .

« ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إسرائيل ذات صحائف شتىٰ في المدىٰ الطويل ، وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها وتنحرف أجيال منها ، وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ستصادفها فترات تمثل فترات من حياة بني إسرائيل ، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة نماذج من العقابيل التي تلم بالأمم ، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته . ذلك أن أشد القلوب استعصاء على الهدىٰ والاستقامة هي التي عَرفت ثم انحرفت ، فالقلوب الغُفل الخامة أقرب إلى الاستجابة ؛ لأنها تفاجأ من الدعوة بجديد يهزها . وينفض عنها الركام لجدته عليها وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول

مرة . فأما القلوب التي نوديت من قبل فالنداء الثاني لاتكون له جدته ولا تكون له هزته ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجديته ، ومن ثَم تحتاج إلى الجهد المضاعف وإلى الصبر الطويل ! » .... الخ .

وقد وردت حلقات من قصة موسىٰ – عليه السلام – وبني إسرائيل من قبل في هذه الظلال المرتّبة وفق ترتيب السور في المصحف – لا وفق ترتيب النزول – في سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام .. ولكن إذا اعتبرنا ترتيب النزول فإن هذه الحلقات الواردة منها هنا في سورة الأعراف المكية تكون سابقة على ماورد منها في السور المدنية ، وذلك ظاهر من طبيعة عرضها هنا وطبيعة عرضها هناك . فهي هنا تعرض على طريق الحكاية والقصص ، وهناك تعرض على سبيل مواجهة بني إسرائيل بها وتذكيرهم بأحداثها ووقائعها ومواقفهم فيها .

ولقد وردت القصة في أكثر من ثلاثين موضعاً في القرآن كله – مكيه ومدنيه – ولكن ورودها مفصّلة اقتصر على عشرة مواضع في عشر سور منها ستة مواضع هي أكثرها تفصيلًا . والذي ورد منها في سورة الأعراف كان هو أول تفصيل .. كما أنه هو أوسع مساحة وإن تكن الحلقات التي وردت في هذه المساحة أقل مما ورد منها في سورة طه .

وهي تبدأ هنا من حلقة مواجهة فرعون وملئه بالرسالة . بينما تبدأ في سورة طه من حلقة النداء لموسى عليه السلام في جانب الطور ، وتبدأ في سورة القصص من حلقة مولد موسىٰ في فترة اضطهاد بني إسرائيل .. ويبدأ عرضها .. متناسقاً مع جو السورة وأهدافها – بالتوجيه إلى عاقبة تكذيب فرعون وملئه وذلك منذ اللحظة الأولى في عرضها ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسىٰ بآياتنا إلىٰ فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

ثم تمضي حلقات القصة ومشاهدها .. أولًا .. في مواجهة فرعون وملئه .. وأخيراً في مواجهة بني إسرائيل والتوائهم وزيفهم وانحرافهم .

ولما كنا سنستعرض القصة – فيما بعد – بالتفصيل فإننا نكتفي هنا بالوقوف أمام معالمها البارزة وموحياتها الكلية :

إن موسى – عليه السلام – يواجه فرعون وملأه بأنه رسول من رب العالمين :

﴿ **وقال موسى : يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ كذلك حين تقع المباراة بينه وبين سحرة فرعون فيغلبون ويؤمنون فإنهم يؤمنون برب العالمين . ﴿ **وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾ وحين يهددهم فرعون بالعذاب الرهيب فإنهم يتوجهون إلى ربهم ويعلنون أنهم عائدون إليه في حياتهم ومماتهم وبعثهم وفي أمرهم كله : ﴿ **قالوا : إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ .

ثم إن موسى عليه السلام وهو يعلّم قومه في مواضع كثيرة يعرّفهم بربهم الحق فعندما أعلن فرعون أنه سيعيد اضطهاد بني إسرائيل بقتل ذكورهم واستحياء إناثهم ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ ﴿ **قالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ . وعندما جاوز بهم البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم وطلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء القوم آلهة ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاًوهو فضلكم على العالمين** ﴾.

فهذه النصوص القرآنية في القصة تثبت حقيقة الدين الذي جاء به موسى عليه السلام ،وحقيقة التصور الاعتقادي الذي تنشئه هذه الحقيقة وهو التصور الصحيح الذي جاء به الإسلام وتضمنه دين الله في جميع الرسالات ، كما أنها تثبت زيف النظريات والتكهنات التي يدلي بها الباحثون في تاريخ الأديان من الغربيين ومن يأخذ بمنهجهم وتقريراتهم ممن يكتبون عن تطور العقيدة .

كذلك تثبت هذه النصوص ألوان الانحراف التي صاحبت تاريخ بني إسرائيل وجبلتهم الملتوية – حتى بعد بعثة موسى عليه السلام ذلك من مثل قولهم ﴿ **يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة** ﴾ ومثل اتخاذهم العجل في غيبة موسى على الجبل لميقاته مع ربه ، ومثل طلبهم رؤية الله جهرة ، وإلا فإنهم لايؤمنون ولكن هذه الانحرافات لا تمثل حقيقة العقيدة التي جاء بها موسى من ربه ، إنما هي انحرافات عن هذه العقيدة فكيف تحسب الانحرافات إذن على العقيدة ذاتها ؟ ويقال إنها « تطورت » إلى التوحيد ؟! .

كذلك تكشف مواجهة موسى لفرعون وملئه عن حقيقة المعركة بين دين الله كله

جداً بمدلولها الحقيقي فإن الطاغوت الذي يزاول الربوبية – بمزاولته للحاكمية بغير شرع الله وتعبيد الناس له بهذه الحاكمية وعدم إرسالهم لله – لايطيق هذه العصبة كما لم يطق فرعون دعوة موسى إلى رب العالمين ، وإعلان السحرة المؤمنين أنهم آمنوا برب العالمين ، وكما ظل هو والملأ من قومه مصرّين على رد هذه الدعوة والآيات تتوالى عليهم ، والنكبات كذلك تتوالىٰ عليهم من الجدب والآفات والجوع والبلاء ولكن هذا كله كان عندهم أيسر وأهون من التسليم بربوبية الله للعالمين لما تحويه من مدلول صريح بعزلهم هم عن مزاولة هذا السلطان المغتصب الذي يعّبدون به الناس لغير رب العالمين .

كذلك تتجلىٰ من خلال عرض هذه الآيات خطوات قدر الله بالمكذبين من أخذهم بالبأساء والضراء ، ثم أخذهم بالرخاء والسرّاء ، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر في نهاية المطاف ، والتمكين للمؤمنين الذين كانوا يُستَضْعُفون ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنىٰ على بني إسرائيل بما صبروا ودمّرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾ .

ولكن بني إسرائيل غلبت عليهم جبلتهم الملتوية الخبيثة ففسقوا عن أمر الله – كما يجلو السياق القرآني ذلك — وراوغوا موسىٰ نبيهم وزعيمهم ومنقذهم مراوغة مؤذية وعصوا وبطروا النعمة ولم يستقيموا ولم يشكروا ، وتكرر منهم ذلك كله بعد مغفرة الله لهم وقبولهم – مرة بعد مرة – إلىٰ أن حقت عليهم كلمة الله في النهاية ﴿ **وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

لقد صدق وعيد الله ، ولا بد أن يصدق في مقبل الأيام ، وإنما هي دورات لهم في التاريخ حتىٰ إذا عتوا وأفسدوا وتجبروا واشتد أذاهم ، بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلىٰ يوم القيامة .

وأخيراً فإن هذه السورة مكية وقد ورد فيها عن التواء بني اسرائيل ومعصيتهم وسوء جبلتهم الكثير .. بينما يزعم المستشرقون – اليهود والصليبيون سواء – أن محمداً ﷺ لم يهاجم اليهود – بزعمهم – بهذا القرآن إلا بعد أن يئس في المدينة من استجابتهم له ، وأنه كان يحاسنهم في مكة وفي أول عهده بالمدينة فيقول – بزعمهم – قرآنا لايهاجمهم فيه إنما يحدثهم عن التقاء العرب بهم في النسب إلى جدهم إبراهيم ، طمعاً في إسلامهم له ، فلما يئس منهم هاجمهم هذا الهجوم ... وكذبوا فهذه سورة مكية تصف الحق في

شأنهم لا فرق بين ماجاء فيها وما جاء في سورة البقرة المدنية في هذا الحق الذي لايتبدّل ، وإذا نحن تجاوزنا عن الآيات من (١٦٣ - ١٧٠) في هذه السورة بوصفها مدنية وهي التي ورد فيها تأذن الله - سبحانه - بأن يرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب إلىٰ يوم القيامة ، فإن الآيات التي قبلها والتي بعدها والتي لاشك في أنها مكية تضمنت الحق في جبلة بني إسرائيل ، وفيها ذكر عبادتهم للعجل ، وطلبهم من موسىٰ أن يجعل لهم إلهاً صنماً ، بينما هم خارجون من مصر باسم الله الواحد ، وأخذ الرجفة لهم لأنهم أبوا الإيمان إلا أن يروا الله جهره ، وتبديلهم قول الله لهم وهم يدخلون القرية ... الخ مما يدفع أولئك الزاعمين من المستشرقين بالافتراء على التاريخ بعد الافتراء على الله ورسوله ، وهؤلاء هم الذين يتخذهم بعض من يكتبون عن الإسلام أساتذة لهم فيما يكتبون » .

« وإذا كانت القصة بطولها مسوقة في هذه السورة - في استعراض موكب الإيمان - لتدل على خطوات قدر الله مع المكذبين ، ولتصور العلاقة بين القيم الإيمانية وسنة الله في الحياة البشرية ، فإنها مسوقة كذلك لبيان طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، ممثلتين في شخوص القصة وأطرافها ، وقد ختمت بمشهد أخذ الميثاق على بني إسرائيل ، تحت المعاينة الكاملة لبأس الله الشديد : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون** ﴾ ....) .

وبعد هذا التقديم لمعاني المقاطع الثلاثة في القسم الثاني نبدأ عرض المقطع الأول منها وهو المقطع الثاني من القسم الثاني :

المقطع الثاني من القسم الثاني

تتألف سورة الأعراف من ثلاثة أقسام ، والقسم الثاني منها يتألف من أربعة مقاطع ، تشغل قصة موسى وقومه منها ثلاثة مقاطع :

والقسم الثاني بمقاطعه الأربعة يقص علينا قصص أقوام أنزل عليهم هدى وكيف كان موقفهم من هذا الهدى .

ولقد كان المقطع الأول حديثاً عن قوم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وسيأتي المقطع الثاني وينصب الكلام فيه عن موسى عليه السلام وفرعون ، وكيف كان عاقبة فرعون وقومه ، ثم يأتي المقطع الثالث وينصب الكلام فيه عن بني إسرائيل

وانحرافاتهم .

ونحن الآن في المقطع الثاني من هذا القسم . وفيه نموذج على الهدى المنزل ، وموقف الناس منه والناس هنا شعب مستضعف ودولة ظالمة على رأسها قائد متغطرس متأله .

والمقطع يمتد من الآية (١٠٣) إلى نهاية الآية (١٣٧) وهو نموذج على ماذكرنا ومثال عملي ، وشرح للقواعد والآيات التي ختم بها المقطع السابق وهذا هو المقطع :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ

أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

(١٣١) وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ (١٣٧)

تلخيص لمعاني المقطع :

يقول صاحب الظلال ملخصاً معاني هذا المقطع: (يتضمن هذا الدرس قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه . من حلقة مواجهتهم بربوبية الله للعالمين ، إلى حلقة إغراقهم أجمعين . وما بين هذه وتلك من المباراة مع السحرة . وغلبة الحق على الباطل . وإيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون . وتوعد فرعون لهم بالعذاب والتقتيل والتنكيل . واستعلاء الحق في نفوسهم على هذا التوعد ، وانتصار العقيدة في قلوبهم على حب الحياة . ثم ماتلا ذلك من التنكيل ببني إسرائيل . وأخذ الله لفرعون وملئه بالسنين ونقص من الثمرات . ثم أخذهم بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم . وهم يستغيثون بموسى في كل مرة أن يدعو ربه ليرفع عنهم العذاب . حتى إذا رُفع عنهم عادوا لما كانوا فيه ، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءهم من الآيات . حتى حقت عليهم كلمة الله في النهاية فأغرقوا في اليم بتكذيبهم بآيات الله وغفلتهم عن حكمة

ابتلائه - وفق السنة الجارية في أخذ المكذبين بالضراء والسراء قبل أخذهم بالدمار والهلاك - ثم إعطاء الخلافة في الأرض لقوم موسى جزاء على صبرهم واجتيازهم ابتلاء الشدة ... لتعقبها فتنة الرخاء ..) ..

المعنى العام :

يخبر تعالى أنه بعد الرسل الذين مر ذكرهم وهم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب - عليهم السلام - قد أرسل بالمعجزات والحجج الدامغات والدلائل البينات إلى فرعون مصر وقومه في زمنه ، فكان موقفهم الجحود لها والكفر بها ؛ ظلماً منهم وعناداً ؛ فأصابهم ما أصاب المفسدين نتيجة لذلك ، ومن ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يعتبر بهذه العاقبة والنهاية التي كانت لهؤلاء المفسدين ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وكذّبوا رسله ، فأغرقهم الله عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه ، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه ، وأشفى لقلوب أولياء الله .

ومن الآية الأولى التي تنتهي بالأمر لرسول الله ﷺ ، ثم لأمته بالاعتبار بما كان لفرعون نعلم أن السياق كله من أجلنا ، فما يقص الله علينا من قصص في هذه السورة إلا من أجل أن نأخذ عبرة فنزداد تمسكاً بالوحي الذي أنزله الله على هذه الأمة .

ومن الآية الأولى في هذا المقطع ندرك محتوى المقطع : إرسال موسى إلى فرعون وقومه ، وخلق الآيات الكثيرة على يده ، واستكبار فرعون وقومه ، واستحقاقهم العذاب بذلك ونزوله بهم ، وهذا الذي نرى تفصيله ، وأول مانراه في المقصع ماجرى من حوار بين موسى عليه السلام وفرعون ، يعلن موسى لفرعون أنه رسول الله ، أرسله رب العالمين خالق كل شيء وربه ومليكه ، ومن كان شأنه التبليغ عن الله فإنه حري به وجدير على ألا يقول على الله إلا الحق ، ثم أخبره أن معه الحجة القاطعة التي تشهد على أنه رسول الله ، وتدل على صدقه فيما جاء به ؛ وبناء على ذلك فإنه يطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل مطلِقاً سراحهم من أسره وقهره ، تاركاً إياهم ليعبدوا ربهم ، وعندئذ أظهر فرعون تشككه وعدم تصديقه ورفضه لما طُلب منه ؛ وطلب من موسى إن كانت معه حجة أن يظهرها إن كان صادقاً فيما ادعى ، وعندئذ أظهر موسى معجزتيه الرئيسيتين إلى فرعون : إلقاء العصا فتتحول حية عظيمة بإذن الله ، وإخراج يده من ثوبه بعد ما أدخلها فيه فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض يراها كل من نظر إليها .

وعندئذ اتفق هو ومن حوله من بطانته على اعتبار أن ما صدر عن موسى سحر ، وأن الهدف من هذا السحر هو إخراج المصريين من أرضهم ، وتشاوروا في أمرهم كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس فيما أظهره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم . وإخراجه إياهم من أرضهم ، ومن ثم استقر رأيهم أن يتركه وأخاه مرجئاً أمرهم ، وأن يرسل في أقاليم ملكه من أجل أن يجمع له السحرة من سائر البلاد ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ، واعتقد من اعتقد منهم أن ما جاء به موسى سحر ، فلهذا قرروا أن يجمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات ، وقد كان ذلك . وجمع السحرة ، وتشارط السحرة وفرعون : أنهم إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء جزيلًا ، فوعدهم ومنّاهم أن يعطيهم ما أرادوا ، أو يجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون بدأت المبارزة بينهم وبين موسى فعرضوا على موسى أن يبدأ هو أو يبدأوا هُمْ ، فطلب منهم موسى أن يبدأوا ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلع له ، والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذلك كان إذ ألقى السحرة سحرهم الذي يشبه في الظاهر عمل موسى . ألقوا الحبال والعصيّ فخيلوا إلى الأبصار أنها أصبحت حيات حقيقية ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولكنه سحر عظيم مبهر . وعندئذ أوحى الله إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الوقت العظيم الذي فرق الله تعالى فيه الحق والباطل أن يلقي عصاه ؛ فإذا هي تنقلب حية وتأكل كل ما ألقوه وما أوهموا به . قال ابن عباس : فجعلت لاتمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلَّا التقمته ؛ فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس بسحر فخروا سجداً وأعلنوا إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون ، فما كان من فرعون إلا أن توعّد السحرة لما آمنوا بموسى ، مدَّعيا أن غلبة موسى عليهم إنَّما كانت لتآمر بينهم وبين موسى ، بسبب أن موسى هو معلّمهم السحر ، وهو يعلم - عليه لعنة الله - وكل من له لب يعلم أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله ، وأظهر المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة على صدق ماجاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاقل سلطنته ، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ، ممّن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضرهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور في مقامهم ذلك ، والتقدم عند فرعون ،

وموسى عليه السلام لايعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك . وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم .

ثم ادعى أن سبب هذا التآمر أن السحرة - بالتعاون مع موسى - يريدون أن يصلوا إلى الدولة والسلطان ، ويسلبوها من الأكابر والرؤساء - أي منه ومن أعوانه - وبناء عليه فإنه سيقطع أيديهم وأرجلهم ، من كل واحد منهم يداً ورجلًا ، متعاكستين يميناً بشمال أو شمالًا بيمين ، وأنه سيصلبهم جميعاً ، فكان أن أعلنوا أنهم قد تحققوا أنهم راجعون إلى الله ، وأن عذاب الله أشد من عذاب فرعون ونكاله ، وأنهم سيصبرون على عذاب فرعون ليتخلصوا من عذاب الله ، ثم دعوا الله تعالى أن يعمهم بالصبر على دينه والثبات عليه ، وأن يقبضهم إليه مسلمين متابعين لرسوله عليه السلام ، فكانوا في أول النهار سحرة فصاروا في آخره شهداء بررة .

وبعد هذه الجولة الخاسرة مع موسى عليه السلام ، وبدلا من أن يؤمن فرعون وملؤه بعد تسليم أهل الاختصاص بالسحر أن موسى رسول الله وليس بساحر ، يذكر لنا الله - عز وجل - ما تآمر به فرعون وقومه ، وما تمالؤا به على موسى ، وما أضمروه له ولقومه من الأذى والبغضة ، إذ يقص علينا أن حاشية فرعون حرضت فرعون على موسى . وما هو بحاجة إلى تحريض ، ولكنه نفاق البطانة ، ومسارعتها إلى إرضاء نفس الحاكم ، مدّعية أن موسى وقومه مفسدون في الأرض ، إذ هم تاركون لآلهة فرعون ، عابدون غيرها داعون لعبادة الله رب العالمين . وهكذا الشأن دائماً أن المفسدين الحقيقيين يَسِمون المصلحين الحقيقيين بالإفساد ، وهنا أعلن فرعون قراره بإحياء سنته اللعينة القديمة وهي قتل أبناء بني إسرائيل ، واستحياء نسائهم ؛ قهراً لهم وإذلالًا ، وأمام هذا الطغيان الرهيب لم يكن من موسى إلا أن أمر قومه - وهم المستضعفون - بالاستعانة بالله والصبر . وهكذا تمر لحظات صعبة على أهل الله ، ليس أمامهم إلا هذا . ووعدهم موسى بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم ولكنهم - وهم من هم في اللجاج والمخالفة - قالوا شاكين متذمرين أن هذا الأذى قد نزل بهم من قبل مجيء موسى ومن بعد ، فقال منبهّاً لهم عن حالهم الحاضر وما يصيرون إليه من مآلهم ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ وهذا تحضيض لهم على الصبر وحسن الرجاء ، وعلى العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم ، وبدأت العقوبات تتوالى على فرعون وقومه انتصاراً لموسى وقومه ، وعظة لفرعون وقومه ، وتلك سنة الله التي رأيناها من قبل ، أن يأخذ بالبأساء والضراء ابتداءً من لم يؤمن برسله ، وهكذا فعل بفرعون وقومه ، ابتلاهم بالجوع والقحط ، فلا ثمر ولا زرع ؛ من

أجل أن يتعظوا فكان موقفهم كموقف الأمم السابقة ، إن جاءهم الخصب والسّعة ادّعوا أن هذا لهم حق ومستحق ، وإن جاءهم الجدب والقحط ادعوا أن هذا بسبب موسى وقومه وماجاءوا به ، ناسين أن هذا كله من عند الله ؛ ولكنهم جهلة بالله وسننه ؛ ومع ما ابتلاهم الله به ومع كل مارأوا من الآيات ؛ فإنهم عبَّروا عن تمردهم وعتوهم وعنادهم للحق ، وإصرارهم على الباطل بإعلانهم بأن أي آية يجيئهم بها موسى ، وأي حجة يقيمها عليهم ، فإنهم سيردونها ولا يقبلونها ، وأنهم لن يؤمنوا به ولا بما جاء به . فسلط الله عليهم البرد والأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار ، والموت ، والجراد ، والقمَّل ، والضفادع ، وفي كل واحدة من هذه آية واضحة مفصلة ، ومع ذلك أصروا على الاستكبار ، وأصروا على التلبس بالإجرام ، وكان من دأبهم أنهم إذا وقع بهم العذاب طلبوا من موسى أن يدعو الله ليرفع العذاب ، معاهدين الله أنهم سيؤمنون بموسى ويرسلون معه بني إسرائيل ، وفي كل مرة كانوا ينكثون إذا رفع عنهم العذاب ، ثم إنهم لما أصروا على العتو والتمرد مع ابتلاء الله إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة ، انتقم الله منهم بإغراقه إياهم في البحر الذي فرقه الله لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها ، ثم أخذ الله بيد بني إسرائيل بعد ذلك ناقلًا إياهم من حال إلى حال ، حتى أورثهم مشارق الأرض ومغاربها ، والمراد بالأرض التي أورثوها فلسطين تحقيقاً لوعد الله لهم ودمّر الله ماصنع فرعون وما بناه .

وبهذه المعاني ينتهي هذا المقطع ، وهو كما قلنا من قبل نموذج على سنن الله التي ذكرها قبيل هذا المقطع من كونه يمتحن الذين يبعث إليهم رسولًا - فيرفضون رسالته - بالبأساء والضراء ، ثم يعطيهم خصباً ليتعظوا بهذا وهذا ، ولكن جرت العادة أن يستكبروا ولا يتعظوا في الحالين وعندئذ يكون الأخذ . وهذا ما كان لفرعون وقومه .

وكذلك رأينا أن الله قرر أن أكثر الناس ليس لهم عهد وأكثرهم فاسقون . وهكذا رأينا في قصة فرعون مع موسى في هذا المقطع كيف أن فرعون وقومه كانوا ينكثون في كل مرة . وقد رأينا كيف أن الله يتولى الفئة المؤمنة إما بتثبيتها حتى تقتل لتكون شهيدة ، وإما بنصرها والانتصار لها والانتقام من عدوها وإنجائها . وهي معان كلها تجري على نسق واحد ، عاقبة اتباع الهدى المنزل ، وعاقبة رفضه ، وذلك هو محور هذه السورة .

ونلاحظ أنه في هذه السورة قد قص الله علينا مقطعاً في قصة فرعون هو ما رأينا

معانيه ، وفي سور أخرى سيقص الله علينا جوانب أخرى من قصة فرعون مع موسى أو يكرر معنى من المعاني المذكورة هنا ، وفي كل مرة تأتي القصة أو جزء منها ، إنما تأتي لتخدم غرضاً في السورة وفي السياق بما ينسجم مع موضوع السورة ومحورها ، وبما يشكل في النهاية عرضاً كاملًا للقصة من كل جوانبها دون أن يخل هذا بوحدة السورة القرآنية ، وبما يحقق المظهر الأعلى من التكامل القرآني ، وكل ذلك يبرز مدى الكمال في هذا القرآن ، وكيف لا ومنزله هو الله الذي له المثل الأعلى في كل شيء تبارك وتعالى وهذا الذي قلناه مظهر من مظاهر الكمال والتكامل في هذا القرآن ، وإن كل ماقاله ويقوله أحد في شأن هذا القرآن إنما هو قطرة من بحار الكمال الذي لايحيط به إلا الله .

المعنى الحرفي :

﴿ **ثم بعثنا من بعدهم** ﴾ أي من بعد الرسل المذكورين ، أو من بعد الأمم المذكورة ، وظاهر النص أن موسى جاء بعد هذه الأمم ، وبعد هؤلاء الرسل ، وهذا يؤكد الاتجاه الذي يقول بأن الرجل الذي آوى إليه موسى من مدين ليس هو شعيباً عليه السلام إذ بين شعيب وموسى زمن طويل كما سنرى ذلك في سورة القصص ﴿ **موسى بآياتنا** ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ﴿ **إلى فرعون وملإه فظلموا بها** ﴾ أي فكفروا بآياتنا . أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد ، ويمكن أن يراد بقوله ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أي فظلموا الناس بسببها حين آذوا من آمن . أو أن كلمة الظلم استعملت بدل الكفر لأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان كان كفرهم بها ظلماً حيث وضعوا الكفر موضع الإيمان ﴿ **فانظر** ﴾ يا محمد ويا من يقتدي به ويتابعه ﴿ **كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أي الذين صدّوا عن سبيل الله وكذبوا رسله حيث كانت نهايتهم الغرق ﴿ **وقال موسى يافرعون** ﴾ يقال لملوك مصر الفراعنة كما يقال لملوك فارس الأكاسرة فليست كلمة فرعون اسمه بل لقبه ﴿ **إني رسول من رب العالمين** ﴾ إليك . ﴿ **حقيق** ﴾ أي خليق وجدير ﴿ **على ألا أقول على الله إلا الحق** ﴾ أي الصدق ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم** ﴾ أي بما يبين رسالتي وهي المعجزات ﴿ **فأرسل معي بني إسرائيل** ﴾ أي فخلّهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض المقدسة ﴿ **قال إن كنتَ جئت بآية** ﴾ أي من عند من أرسلك ﴿ **فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾ أي فأتني بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها . ﴿ **فألقى** ﴾ أي موسى ﴿ **عصاه** ﴾ من يده ﴿ **فإذا هي ثعبان** ﴾ أي حية عظيمة ﴿ **مبين** ﴾ أي ظاهر أمره أنه ثعبان ﴿ **ونزع يده** ﴾ أي من جيبه

﴿ **فإذا هي بيضاء للناظرين** ﴾ أي فإذا هي بيضاء للنظارة ولاتكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضاً عجيباً خارجاً عن العادة يجذب الناس للنظر إليه ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم** ﴾ أي عالم بالسحر ماهر فيه قد خيل إلى الناس العصا حية والآدم أبيض ، وهذا الكلام ذكر على لسان فرعون في سورة الشعراء ، وهنا ذكر على لسان الملأ فإما أن كلًا منهم قاله فحكى قوله ثمة وقولهم هنا ، أو قاله ابتداءً فتلقفه الملأ منه بعد أن أوحى إليهم به وتبنوه ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ أي مصر ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أي فماذا تشيرون وهو - أي السؤال الأخير - من كلام فرعون قاله للملأ بعد أن قالوا ماقالوه وفي ذلك إشعار أن الطاغية يُشعِر من حوله أنه منفِّذ لأوامرهم ﴿ **قالوا أرجه وأخاه** ﴾ أي أخِّر واحبس أي : أخر أمره ولاتعجل ، فكأنه هَمَّ بقتله فقالوا أخر أمره واحبسه ولا تقتله ليتبيَّن سحره عند الخلق والمراد بأخيه هارون عليهما السلام ﴿ **وأرسل في المدائن حاشرين** ﴾ أي جامعين ﴿ **يأتوك بكل ساحر عليم** ﴾ أي مثله في المهارة أو بخير منه ﴿ **وجاء السحرة فرعون** ﴾ يفهم من ذلك أنه أرسل إليهم فحضروا ﴿ **قالوا إن لنا لأجراً** ﴾ أي لجعلًا عظيماً ﴿ **إن كنا نحن الغالبين** ﴾ أي إنْ غلبنا موسى في سحره ﴿ **قال نعم** ﴾ أي إنَّ لكم لأجراً ﴿ **وإنكم لمن المقربين** ﴾ أي عندي فتكونون أول من يدخل وآخر من يخرج ﴿ **قالوا ياموسى إما أن تلقي** ﴾ أي عصاك . ﴿ **وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ لما معنا ويظهر أنّ رغبتهم كانت في أن يلقوا قبله ، فهم هذا من طريقة خطابهم وذكرهم أنفسهم بضمير نحن ﴿ **قالَ** ﴾ موسى ﴿ **ألقوا** ﴾ ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، واعتماداً على أن المعجزة لن يغلبها شيء ، وليظهر للناس بطلان سحرهم بعد أن يندهش الناس به . ولا شك أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل المتناظرون قبل أن يتخاوضوا في الجدال . وقد خدمهم حسن الأدب هذا فالحسنة تأتي بالحسنة . بدأوا معه بحسن الأدب ، وانتهوا مؤمنين به ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس** ﴾ أي أروا أعين الناس بالحِيل والشعوذة وخيلوا إليهم ما الحقيقة بخلافه كما سيأتي تفصيل ذلك في سورة طه ﴿ **واسترهبوهم** ﴾ أي وأرهبوهم إرهاباً شديداً كأنهم استدعوا رهبتهم بالحيلة . ﴿ **وجاؤوا بسحر عظيم** ﴾ أي في باب السحر أو في عين من رآه ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف** ﴾ أي تبتلع . ﴿ **مايأفكون** ﴾ أي مايقلبونه من الحق إلى الباطل ويزورونه . ﴿ **فوقع الحق** ﴾ أي فثبت وحصل ﴿ **وبطل ماكانوا يعملون** ﴾ أي من السحر .

فائـــدة :

بمناسبة قوله تعالى: ﴿**سحروا أعين الناس**﴾ يقول الألوسي: (واستدل بالآية من قال - كالمعتزلة - إن السحر لا حقيقة له وإنما هو مجرد تخييل ، وفيه أنهم إن أرادوا أن ماوقع في القصة من السحر كان كذلك فمسلم والآية تدل عليه ، وإن أرادوا أن كل سحر تخييل فممنوع والآية لاتدل عليه ، والذي ذهب إليه جمهور أهل السنة أن السحر أقسام وأن منه مالا حقيقة له ومنه ماله حقيقة ، كما يشهد بذلك سحر اللعين لبيدبن الأعصم اليهودي رسول الله ﷺ ، وسحر يهود خيبر ابن عمر رضي الله عنه حين ذهب ليخرص تمرهم ، وذكروا أنه قد يصل السحر إلى حد المشي على الماء والطيران في الهواء ونحو ذلك ، وترتب ذلك عليه كترتب الشبع على الأكل ، والري على الشرب ، والإحراق على النار ، والفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله تعالى ، نعم قال القرطبي : أجمع المسلمون على أنه ليس من السحر مايفعل الله تعالى عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع ، وفلق الحجر ، وقلب العصا ، وإحياء الموتى ، وإنطاق العجماء ، وأمثال ذلك من آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام . ومن أنكر حقيقته استدل بلزوم الالتباس بالمعجزة ، وتُعقّب بأن الفرق مثل الصبح ظاهر) .

وبمناسبة الكلام عن انقلاب عصا موسى ثعباناً قال الألوسي :

والآية من أقوى الأدلة على جواز انقلاب الشيء عن حقيقته كالنحاس إلى الذهب، إذ لو كان ذلك تخييلًا لبطل الإعجاز، ولم يكن لذكر «مبين» أي في ﴿**فإذا هي ثعبان مبين**﴾ وارتكاب غير الظاهر غير ظاهر، ويدل كذلك أيضاً أنه لا مانع في القدرة من توجه الأمر التكويني إلى ماذكر وتخصيص الإرادة له، والقول بأن قلب الحقائق محال والقدرة لا تتعلق به فلا يكون النحاس ذهباً غير مقبول ، والحق جواز الانقلاب إما بمعنى أنه تعالى يخلق بدل النحاس ذهباً على ماهو رأي بعض المتكلمين من تجانس الجواهر واستوائها في قبول الصفات ، والمحال إنما هو انقلابه ذهباً مع كونه نحاساً لامتناع كون الشيء في الزمن الواحد نحاساً وذهباً وعلى أحد هذين الاعتبارين توكأ أئمة التفسير في أمر العصا ...) .

أقول : في عصرنا استطاع علماء الكون أن يحوّلوا العنصر إلى عنصر آخر من خلال تغيير عدد الألكترونات والبروتونات في الذرة فالقول باستحالة ذلك لم يعد وارداً ، أما موضوع السحر فلم يزل ولن يزال النقاش فيه قائماً ، والفارق بينه وبين المعجزة واضح ، فالسحر جزء من عالم الأسباب ، والمعجزة خرق لعالم الأسباب .

وبمناسبة الكلام عن السحر في قصة موسى وفرعون ننقل فقرة من كتاب « الطبيعة الخارقة » لمؤلفه ليل واطسون تحت عنوان السحر : (قام العالم التشيكي ميلان ديزل بتجارب حول التوارد الذهني وفي هذه التجارب كان المرسِل يدعي أعراضاً مرضية أو عاطفية ، وكان المستقبِل لهذه المعلومات على الفور يتأثر بهذه الأعراض وكأنه أصيب بالمرض حقاً فلو ركز المرسِل ذهنه على إرسال معلومات عن إصابته بالاختناق فإن المستقبِل يسعل بشدة ويبدو عليه أنه فعلًا قد أصيب بالاختناق .

وهذه الظاهرة تلقي الضوء حول كيفية عمل المشعوذين والسحرة . فهم يقومون بدور المرسِل الذي يفكر نيابة عن المريض ويعطيه المعلومات عن مرضه وشفائه .

يروي « وليام سيبروك » الذي عاش بين القبائل البدائية في غرب أفريقيا الفرنسية قصة عن رجل بلجيكي قتل أحد أفراد هذه القبائل ، فما كان من هذه الأخيرة إلا أن أحضرته لأعوانه بواسطة السحر : وضع الرجل على رأس جبل .. وعلى الجبل المقابل جاء الساحر ومعه القتيل وألبسه ثياب القاتل وبدأ بالتمتمة ، وبدأت الطبول بالقرع ، وبدأ الرجال بالتمتمة أيضاً ولم يلبث البلجيكي القاتل أن توفي فوراً . والنظرية الراجحة أنه مات بعد الإيحاء له بذلك عن طريق العقل الباطني . ولكن الاكتشاف بأن العواطف تتوارد أيضاً قد يعني أن الاحتفال الديني عند مقتل الرجل كان له علاقة بموته ، وأن الجو المشحون بالكراهية من حوله يعطي نفس التأثير كالتنويم المغناطيسي الذي قد يكون السبب في مقتل الرجل عن طريق تركيز عواطف الكره والتي يصدرها الساحر ورفاقه باتجاهه .

لاشك بأن الطقوس التي تصاحب السحر تؤدي أحياناً للهلوسة . والمعروف عن السحرة أنهم يحضرون أدويتهم الشافية كما يهيئون أجواءهم الخاصة . وليس كل السحر شعوذة . لغاية الآن لم يكتشف الإنسان دواء شافياً للسرطان إلا أن هناك طريقة قديمة في علاجه باستعمال أعشاب معينة ، يعتمد تأثيرها على الوقت الذي تقطف فيه . ومن بين حوالى سبعين ألف تجربة أجريت على الأوقات المختلفة لقطف النبتة ، هناك وقت واحد ولحظة معينة تكون فيه النبتة تتأثر بحركة النجوم والشمس كما تتأثر بالخسوف والكسوف .

مما سبق شرحه ، فأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن المادة والعقل والسحر كلها مرتبطة برباط واحد في هذا الكون) اهـ . من كتاب الطبيعة الخارقة .

وقال صاحب الظلال بمناسبة الكلام عن السحر بالآيات :

« وكانت أرض مصر تموج بالكهنة في شتى المعابد ، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر . ففي الوثنيات كلها تقريباً يقترن الدين بالسحر ، ويزاول السحر كهنةُ الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هي التي يلتقطها « علماء الأديان » فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما بطل السحر ، وإن العلم سينهي عهد الدين كما أنهى عهد السحر : إلى آخر هذا الخبط الذي يسمونه « العلم » . ولنعد إلى التفسير الحرفي

﴿ **فغلبوا** ﴾ أي فرعون وجنوده والسحرة ﴿ **هنالك وانقلبوا صاغرين** ﴾ أي وصاروا أذلاء مبهوتين . ﴿ **وألقي السحرة ساجدين** ﴾ أي وخروا سجداً لله فكأنما ألقوا إلقاءً لشدة خرورهم . أو لم يتمالكوا مما رأوا فكأنهم ألقوا إلقاءً ومن ثم عبَّر بقوله ﴿**فألقي** ﴾ . ﴿ **قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾ عرفوا أن فعل موسى ليس سحراً ولايمكن أن يكون من صنع بشر فآمنوا بالله وبرسوليه موسى وهارون ﴿**قال فرعون آمنتم به** ﴾ هذا توبيخ منه لهم ﴿ **قبل أن آذن لكم** ﴾ أي قبل إذني لكم ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾ أي إن صنعكم هذا حيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا إلى الصحراء لغرض لكم وهو أن تخرجوا من مصر القبط وتُسكِنوا بني إسرائيل أو لتكون لكم الدولة والسلطان أنتم وموسى وتُخْرجوا أهل الدولة والسلطان الحقيقيين منها ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ هذا وعيد مجمل فصّله بما بعده ﴿ **لأقطعنّ أيديَكم وأرجلَكم من خلاف** ﴾ أي من كل شق طرفاً ، من شق يد ومن شق رجل ﴿ **ثم لأصلبنّكم أجمعين** ﴾ بدون استثناء ﴿ **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أي فلا نبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته أو إنا جميعاً - يعنون أنفسهم وفرعون - ننقلب إلى الله فيحكم بيننا ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أي وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله أرادوا وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر وهو الإيمان ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً** ﴾ أي اصبب علينا الصبر صبّاً ذريعاً ، أي هَبْ لنا صبرا واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا كما يفرغ الماء إفراغاً . ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ أي ثابتين على الإسلام ﴿ **وقال الملأ من قوم فرعون أتذر** ﴾ أي أتترك ﴿ **موسى وقومه ليفسدوا في الأرض** ﴾ أي أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها ﴿**ويذرك وآلهتك** ﴾ أي ويتركك وما تعبد من آلهة .

ولقد كان لفرعون آلهة مزعومة وتروي أوراق البردى أن رعمسيس الثاني أصدر منشوراً يدعو فيه إلى عبادة نفسه كما هو ثابت في الوثائق التاريخية والآثار المحفوظة ، فهل

رعمسيس الثاني هو فرعون موسى ؟ الأمر فيه خلاف كثير ﴿ **قال** ﴾ أي فرعون مجيباً للملأ ﴿ **سنقتّل أبناءهم ونسْتَحْيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ أي سنجدد عادة قتل الأبناء ليعلموا أنا على ماكنا عليه في الغلبة والقهر ، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا ، وقتل الأبناء واستحياء النساء فيه معان خسيسة كثيرة فعليه لعنة الله وقد فعل ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا** ﴾ قال لهم ذلك حين جزعوا من قول فرعون وتهديده تسلية لهم ووعداً بالنصر عليهم ﴿ **إن الأرض لله** ﴾ كلها ومنها أرض مصر والشام ﴿ **يورثها من يشاء من عباده** ﴾ مَنَّاهُم بأن يرثوا الأرض وهذا يساعد على الصبر ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ هذه بشارة لهم بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم وفيه حض لهم من أجل أن يكونوا متقين ﴿ **قالوا** ﴾ متذمرين شاكين ﴿ **أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى إلى أن استنبىء وإعادته عليهم بعد ذلك مع أنواع أخرى من الأذى ، وفيه مع التذمر استبطاء لوعد النصر ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض** ﴾ هذا تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم في الأرض الموعودين باستخلافها وهي الشام ﴿ **فينظر كيف تعملون** ﴾ أي فيرى الله مايكون منكم من العمل حسنه وقبيحه وشكر النعمة وكفرانها ليجازيكم على حسب مايوجد منكم ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين** ﴾ بالقحط والجدب . ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ حتى لاتعطي أرضهم ثمارها ويحتمل أن القحط لأهل البوادي ونقص الثمرات لأهل الحواضر والأمصار ﴿ **لعلهم يذَّكَّرون** ﴾ أي ليتعظوا فينتبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر ، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً وأرق أفئدة . ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ أي الصحة والخصب ﴿**قالوا لنا هذه** ﴾ أي هذه التي نستحقها ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أي جدب ومرض ﴿ **يطَّيَّروا بموسى ومن معه** ﴾ أي يتشاءمون بهم ويقولون هذه بشؤمهم ولولا مكانهم لما أصابتنا ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أي هو سبب خيرهم وشرهم ﴿ **عند الله** ﴾ أي في حكمه ومشيئته والله هو الذي يقدّر مايصيبهم من الحسنة والسيئة ﴿ **ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ ذلك ﴿ **وقالوا مهما تأتنا به من آية** ﴾ سموها آية على سبيل الاستهزاء ، أو أنهم قالوا إعلاناً للاستكبار ، أو لأن موسى يسميها آية ﴿ **لتسحرنا بها** ﴾ هذا من تمام وقاحتهم وإصرارهم على أن موسى ساحر ﴿ **فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أي بمصدقين ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان** ﴾ يحتمل أنه ما طاف بهم وعليهم من مطر أو سيل ، ويحتمل أنه الجدري ، ويحتمل أنه الطاعون ،

ويحتمل أنه الموت ، ولكل ذلك وجه في اللغة . وكل من ذلك قال به أحد المفسرين ﴿ **والجراد** ﴾ تأكل زروعهم وثمارهم ﴿ **والقُمَّل** ﴾ يحتمل أن المراد به أولاد الجراد الصغار قبل نبات أجنحتها ، ويحتمل أنها كبار القردان ، ويحتمل أنه القمل المعروف وهو الدواب السود الصغار ، ويحتمل أنه البراغيث ولكل ذلك وجه في اللغة ﴿ **والضفادع** ﴾ سلطت عليهم كذلك ﴿ **والدم** ﴾ عذبوا به كما سنرى ﴿ **آيات مفصلات** ﴾ أي مبيّنات ظاهرات لا يُشْكل على عاقل أنها من آيات الله أو مفرقات عن بعضها بحيث تظهر السابقة عن اللاحقة ﴿ **فاستكبروا** ﴾ أي عن الإيمان بموسى ﴿ **وكانوا قوماً مجرمين** ﴾ بكفرهم وعتوهم وإيذائهم لله ورسوله والمؤمنين ﴿ **ولما وقع عليهم الرجز** ﴾ أي العذاب وهل المراد به آخر المذكورات السابقات الدم ، أو العذاب المذكور واحداً بعد واحد ، والراجح الثاني ﴿ **قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أي بعهده عندك وهو النبوة . قال النسفي : ادع الله لنا متوسلًا إليه بعهده عندك ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل** ﴾ فدعا موسى ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ﴿ **فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل** ﴾ أي إلى حد من الزمان ﴿ **هم بالغوه** ﴾ هم واصلون إليه لا محالة فمعذبون فيه لاينفعهم ماتقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿ **إذا هم ينكثون** ﴾ أي فلما كشفنا عنهم العذاب فاجئوا بالنكث ولم يؤخروه ﴿ **فانتقمنا منهم** ﴾ الانتقام ضد الإنعام كما أن العقاب هو ضد الثواب ﴿ **فأغرقناهم في اليم** ﴾ أي في البحر ، واليم : البحر العميق ، وقد يُراد بهذه الكلمة لجة البحر ومعظم مائه ﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ . أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة تفكرهم فيها ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعَفون** ﴾ أي بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام ﴿**مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**﴾ أي فلسطين إذ المراد بالأرض الأرض المعهودة الموعودون بها ﴿**وتَمّت كلمة ربك الحسنى** ﴾ أي مضت واستمرت والحسنى تأنيث الأحسن ﴿ **على بني إسرائيل** ﴾ والكلمة الحسنى هي وعد الله لهم بإهلاك عدوهم واستخلافهم ﴿ **بما صبروا** ﴾ أي بسبب صبرهم وحسبك بهذا حاثاً على الصبر ودالًا على أن من قابل البلاء بالجزع وَكلَه الله إليه ، ومن قابله بالصبر ضمن الله له الفرج ﴿ **ودمَّرنا** ﴾ أي وأهلكنا ﴿ **ما كان يصنع فرعون وقومه** ﴾ من العمارات والقصور والصناعات ﴿ **وما كانوا يعرشون** ﴾ أي يرفعونه من الجنات أو ماكانوا يرفعونه من الأبنية المشيدة ، ولقد أعطى الله بني

إسرائيل فلسطين . عندما كانوا مسلمين وأعطانا إياها لأننا مسلمون ، وهي اليوم والأمس وغداً للمسلمين ، وعلى المسلمين أن يستردوها من الكافرين .

كلمة في السياق :

كما انتهت قصة قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ،وقوم لوط ، وقوم شعيب في المقطع الأول من القسم الثاني ، تنتهي قصة فرعون : ﴿ **ودمَّرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾ولذلك قلنا إن هذا الجزء من قصة موسى يعتبر مقطعاً مستقلًا ليأتي بعد ذلك مقطع يرينا موقف بني إسرائيل أنفسهم من الوحي الذي أنزل عليهم .

إن في هذا القسم دروساً ، دروساً للكافرين ، ودروساً للمؤمنين .

نقول :

١ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم** ﴾ يقول صاحب الظلال :

« إنهم يصرحون بالنتيجة الهائلة التي تتقرر من إعلان تلك الحقيقة .. إنها الخروج من الأرض .. إنها ذهاب السلطان .. إنها إبطال شرعية الحكم .. أو .. محاولة قلب نظام الحكم ! بالتعبير العصري الحديث !

إن الأرض لله . والعباد لله . فإذا ردت الحاكمية في أرض لله ، فقد خرج منها الطغاة الحاكمون بغير شرع الله ! أو خرج منها الأرباب المتألهون الذين يزاولون خصائص الألوهية بتعبيد الناس لشريعتهم وأمرهم . وخرج منها الملأ الذين يوليهم الأرباب المناصب والوظائف الكبرىٰ ، فيعبّدون الناس لهذه الأرباب ! .

هكذا أدرك فرعون وملؤه خطورة هذه الدعوة ... وكذلك يدركها الطواغيت في كل مرة .. لقد قال الرجل العربي — بفطرته وسليقته — حين سمع رسول الله يدعو الناس إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : « هذا أمر تكرهه الملوك ! » .. وقال له رجل عربي آخر بفطرته وسليقته « إذن تحاربك العرب والعجم » لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته . كان يفهم أن شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أو عجماً كانت لشهادة أن لا إله إلا الله جديتها في حسِّ هؤلاء

العرب لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً فما كان أحد منهم يفهم أنه يمكن أن تجتمع في قلب واحد ، ولا في أرض واحدة ، شهادة أن لا إله إلا الله مع الحكم بغير شرع الله فيكون هناك آلهة مع الله ، ماكان أحد منهم يفهم شهادة أن لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم بعض من يدعون أنفسهم « مسلمين » .

٢ - وبمناسبة إيمان السحرة وتحديهم لفرعون يقول صاحب الظلال :

« ويقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان ، وأمام الوعي ، وأمام الاطمئنان .. يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب ، ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام . فإذا هي مستعصية عليه ، لأنها من أمر الله ، لايملك أمرها إلا الله .. وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله ؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله ؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان ؟!.

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية . هذا الذي كان بين فرعون وملئه ، والمؤمنين من السحرة .. السابقين .. إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية . بانتصار العقيدة على الحياة ، وانتصار العزيمة على الألم ، وانتصار « الإنسان على الشيطان » ، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة . والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب .

إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية ! فهذه القلة التي كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز وتُمنَّى بالقرب من السلطان .. هي ذاتها التي تستعلي على فرعون ؛ وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتُقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب . وما تغير في حياتها شيء ، ولاتغير من حولها شيء . في عالم المادة . إنما وقعت اللمسة الخفية التي تسلك الكوكب المفرد في الدورة الكبرى ، وتجمع الذرة التائهة إلى المحور الثابت ، وتصل الفرد الفاني بقوة الأزل والأبد .. وقعت اللمسة التي تحول الإبرة ، فيلتقط القلب إيقاعات القدرة ويتسمع الضمير أصداء الهداية ، وتتلقى البصيرة إشراقات النور .. وقعت اللمسة التي لاتنتظر أي تغيير في الواقع المادي ، ولكنها

هي تغيِّر الواقع المادي ، وترفع « الإنسان » في عالم الواقع إلى الآفاق التي لم يكن يطمح إليها الخيال !

ويذهب التهديد . ويتلاشى الوعيد . ويمضي الإيمان في طريقه . لا يتلفت ، ولا يتردد ، ولا يحيد .

ويسدل السياق القرآني الستار على المشهد عند هذا الحد ولا يزيد .. إن روعة الموقف تبلغ ذروتها ، وتنتهي إلى غايتها . وعندئذ يتلاقى الجمال الفني في العرض ؛ مع الهدف النفسي للقصة على طريقة القرآن في مخاطبة الوجدان الإيماني بلغة الجمال الفني ، في تناسق لايبلغه إلا القرآن .

ولكننا نحن في هذه الظلال ينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام هذا المشهد الباهر الأخَّاذ .. نقف ابتداء أمام إدراك فرعون وملئه أن إيمان السحرة برب العالمين رب موسى وهارون ، يمثل خطراً على نظام ملكهم وحكمهم ، لتعارض القاعدة التي يقوم عليها هذا الإيمان ، مع القاعدة التي يقوم عليها ذلك السلطان ، وقد عرضنا لهذا الأمر من قبل .. ونريد أن نقرر هذه الحقيقة ونؤكدها إنه لايجتمع في قلب واحد ، ولا في بلد واحد ، ولا في نظام حكم واحد أن يكون الله رب العالمين ، وأن يكون السلطان في حياة الناس لعبد من العبيد يباشره بتشريع من عنده وقوانين .. فهذا دين وذلك دين ..

ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة . بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم ، وجعل لهم فرقاناً في تصورهم أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة ، وإنه لاينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين . فهذا الإيمان على هذا النحو يهدد عرش فرعون وملكه وسلطانه ، ويهدد مراكز الملأ من قومه وسلطانهم المستمَد من سلطان فرعون .. أو بتعبير آخر مرادف : من ربوبية فرعون ، ويهدد القيم التي يقوم عليها المجتمع الوثني كله .. وهذا الإدراك لطبيعة المعركة ضروري لكل من يتصدى للدعوة إلى ربوبية الله وحده . فهو وحده الذي أهّل هؤلاء المؤمنين للاستهانة بما يلقونه في سبيله .. إنهم يقدمون على الموت مستهينين ليقينهم بأنهم هم المؤمنون برب العالمين ، وأن عدوهم على دين غير دينهم ، لأنه بمزاولته للسلطان وتعبيد الناس لأمره ينكر ربوبية رب العالمين .. فهو إذن من الكافرين .. وما يمكن أن يمضي المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين على ماينتظرهم فيها من التعذيب والتنكيل إلا بمثل هذا اليقين بشقيه : أنهم هم المؤمنون ، وأن أعداءهم هم الكافرون ، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين ، ولا ينقمون منهم إلا الدين .

ونقف بعد ذلك أمام الروعة الباهرة لانتصار العقيدة على الحياة وانتصار العزيمة على الألم . وانتصار الإنسان على الشيطان . وهو مشهد بالغ الروعة .. نعترف أننا نعجز عن القول فيه فندعه كما صوره النص القرآني الكريم) .

٣ – وبمناسبة قول الملأمن قوم فرعون لفرعون : ﴿ **أتذر موسىٰ وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ .. يقول صاحب الظلال :

(فالإفساد في الأرض – من وجهة نظرهم – هو الدعوة إلى ربوبية الله وحده حيث يترتب عليها – تلقائياً – بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هذا النظام قائم على أساس حاكمية فرعون بأمره – أو بتعبير مرادف على أساس ربوبية فرعون لقومه — وإذن فهو – بزعمهم – الإفساد في الأرض ، بقلب نظام الحكم وتغيير الأوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الأوضاع الربوبية فيه لله لا للبشر . ومن ثم قرنوا الإفساد في الأرض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه .. ولقد كان فرعون إنما يستمد هيبته وسلطانه من الديانة التي تعبد فيها هذه الآلهة .. بزعم أنه الابن الحبيب لهذه الآلهة وهي بنوّة ليست حسية ! فلقد كان الناس يعرفون جيداً أن الفرعون مولود من أب وأم بشرين . إنما كانت بنوة رمزية يستمد منها سلطانه وحاكميته . فإذا عَبد موسىٰ وقومه رب العالمين ، وتركوا هذه الآلهة التي يعبدها المصريون فمعنى هذا هو تحطيم الأساس الذي يستمد منه فرعون سلطانه الروحي على شعبه المستخَف ، الذي إنما يطيعه لأنه هو كذلك فاسق عن دين الله الصحيح .. وذلك كما يقول الله سبحانه : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه ... إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ فهذا هو التفسير الصحيح للتاريخ .. وما كان فرعون بقادر على أن يستخف قومه فيطيعوه ، لو لم يكونوا فاسقين عن دين الله .. فالمؤمن بالله لايستخفه الطاغوت ولايمكن أن يطيع له أمراً وهو يعلم أن هذا الأمر ليس من شرع الله ومن هنا كان يجيء التهديد لنظام حكم فرعون كله بدعوة موسىٰ – عليه السلام – إلى ﴿ **رب العالمين** ﴾ وإيمان السحرة بهذا الدين وإيمان طائفة من قوم موسى كذلك وعبادتهم لرب العالمين .. ومن هنا يجيء التهديد لكل وضع يقوم على ربوبية البشر للبشر من الدعوة إلى ربوبية الله وحده .. أو من شهادة أن لا إله إلا الله .. حين تؤخذ بمدلولها الجدي الذي كان الناس يدخلون به في الإسلام .

ومن هنا كذلك استثارت هذه الكلمات فرعون . وشعر بالخطر الحقيقي على نظامه

كله فانطلق يعلن عزمه الوحشي البشع :

﴿ **قال : سنقَتِّلُ أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ :

٤ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذَّكَّرون** ﴾ .. قال صاحب الظلال : (إنها إشارة التحذير الأول .. الجدب ونقص الثمرات .. و« السنين » تطلق في اللغة على سني الجدب والشدة والقحط وهي في أرض مصر ، المخصبة المثمرة المعطاء تبدو ظاهرة تلفت النظر وتهز القلب ، وتثير القلق ، وتدعو إلى اليقظة والتفكر لولا أن الطاغوت والذين يستخفهم الطاغوت – بفسقهم عن دين الله فيطيعونه– لايريدون أن يتدبروا ولا أن يتفكروا ، ولايريدون أن يروا يد الله في جدب الأرض ونقص الثمرات ، ولايريدون أن يتذكروا سنن الله ووعده ووعيده ، ولايريدون أن يعترفوا بأن هناك علاقة وثيقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة العملية .. لأن هذه العلاقة من عالم الغيب .. وهم أغلظ حساً وأجهل قلباً من أن يروا وراء الواقع المحسوس الذي تراه البهائم وتحسه – شيئاً ! وإذا رأوا شيئاً من عالم الغيب لم يتفطنوا إلى سنة الله الجارية وفق المشيئة الطليقة ، وإنما نسبوه إلى المصادفات العابرة ، التي لا علاقة لها بنواميس الوجود الدائرة .

وكذلك لم ينتبه آل فرعون إلى اللمسة الموقظة الدالة على رحمة الله بعباده – حتى وهم يكفرون ويفجرون – كانت الوثنية وخرافاتها قد أفسدت فطرتهم وقطعت مابينهم وبين إدراك النواميس الدقيقة الصحيحة التي تصرف هذا الكون كما تصرف حياة الناس والتي لايراها ولا يدركها على حقيقتها إلا المؤمنون بالله إيماناً صحيحاً ... الذين يدركون أن هذا الوجود لم يخلق سدىً ولا يمضي عبثاً ، إنما تحكمه قوانين صارمة صادقة .. وهذه هي « العقلية العلمية » الحقيقية وهي عقلية لاتنكر « غيب الله » لأنه لا تعارض بين « العلمية » الحقيقية و « الغيبية » ولا تنكر العلاقة بين القيم الإيمانية وواقعيات الحياة لأن وراءها الله الفعّال لما يريد الذي يريد من عباده الإيمان وهو يريد منهم الخلافة في الأرض والذي يسن لهم من شريعته مايتناسق مع القوانين الكونية ليقع التناسق بين حركة قلوبهم وحركتهم في الأرض ..

لم ينتبه آل فرعون إلى العلاقة بين كفرهم وفسقهم عن دين الله وبغيهم وظلمهم لعباد الله ... وبين أخذهم بالجدب ونقص الثمرات .. في مصر التي تفيض بالخصب والعطاء ولا تنقص غلتها عن إعالة أهلها إلا لفسوق أهلها وأخذهم بالابتلاء لعلهم يتذكرون ! .

لم ينتبهوا لهذه الظاهرة التي شاءت رحمة الله بعباده أن تبرزها لأعينهم . ولكنهم كانوا إذا أصابتهم الحسنة والرخاء حسبوها حقاً طبيعياً لهم وإذا أصابتهم السيئة والجدب نسبوا هذا إلى شؤم موسىٰ ومن معه عليهم . ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسىٰ ومن معه** ﴾ .. وحين تنحرف الفطرة عن الإيمان بالله ، فإنها لاترىٰ يده - سبحانه - في تصريف هذا الوجود ولا ترىٰ قدره الذي تنشأ به الأشياء والأحداث وعندئذ تفقد إدراكها وحساسيتها بالنواميس الكونية الثابتة النافذة فتفسر الحوادث تفسيرات منفصلة منعزلة لاصلة بينها ولا قاعدة ترابط ، وتهيم مع الخرافة في دروب ملتوية متفرقة لاتلتقي عند قاعدة ولاتجتمع وفق نظام - وذلك كالذي قاله خروشوف صاحب الاشتراكية « العلمية » عن معاكسة « الطبيعة » لهم في تعليل نقص الثمرات والغلات - وكما يقول الذين يمضون مع هذه « العلمية » المدّعاة في تعليل مثل هذه الأحداث .. وهم ينكرون قدر الله .. وفيهم من يدعي بعد استنكار غيب الله وقدر الله أنه « مسلم » وهو ينكر أصول الإيمان بالله ! .

وهكذا مضىٰ فرعون وآله يعللون الأحداث .. الحسنة التي تصيبهم هي من حسن حظهم وهم يستحقونها والسيئة التي تصيبهم هي بشؤم موسىٰ ومن معه عليهم ومن تحت رأسهم ، وأصل التطير في لغة العرب ماكان الجاهليون في وثنيتهم وشركهم وبُعْدِهم عن إدراك سنن الله وقدره يزاولونه .. فقد كان الرجل منهم إذا أراد أمراً جاء إلىٰ عش طائر فهيجه عنه فإذا طار عن يمينه - وهو السانح - استبشر بذلك ومضىٰ في الأمر الذي يريده . وإذا طار الطائر عن شماله - وهو البارح - تشاءم به ورجع عما عزم عليه ! فأبطل الإسلام هذا التفكير الخرافي وأحل محله التفكير « العلمي » - العلمي الصحيح - وأرجع الأمور إلى سنن الله الثابتة في الوجود وإلى قدر الله الذي يحقق هذه السنن في كل مرة تتحقق فيها وأقام الأمور على أسس « علمية » يحسب فيها نية الإنسان وعمله وحركته وجهده وتوضع في موضعها الصحيح ، في إطار المشيئة الإلهية الطليقة وقدره النافذ المحيط : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ ..

إن مايقع لهم مصدره كله واحد .. إنه من أمر الله .. ومن هذا المصدر تصيبهم الحسنة للابتلاء وتصيبهم السيئة للابتلاء : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾ ويصيبهم النكال للجزاء .. ولكن أكثرهم لايعلمون .. كالذين ينكرون غيب الله وقدره في هذه الأيام باسم « العقلية العلمية » وكالذين ينسبون إلى الطبيعة

المعاكسة باسم « الاشتراكية العلمية » كذلك !!! وكلهم جهال .. وكلهم لايعلمون !

ويمضي آل فرعون في عتوهم ، تأخذهم العزة بالإثم ، ويزيدهم الابتلاء شماساً وعناداً : ﴿ **وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ .

فهو الجموح الذي لاتروضه تذكرة ولا يرده برهان ، ولا يريد أن ينظر ولا أن يتدبر لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان – قطعاً للطريق على البرهان – وهي حالة نفسية تصيب المتجبرين حين يدفعهم الحق وتجبههم البينة ويطاردهم الدليل ... بينما هواهم ومصلحتهم وملكهم وسلطانهم .. كله في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل .) .

فوائـــد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض** ﴾ يذكر النسفي هذه القصة : وعن عمرو بن عبيد أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان . وطلب المنصور زيادة لعمرو فلم توجد ، فقرأ عمرو هذه الآية . ثم دخل عليه بعدما استخلف فذكر له ذلك : وقال : قد بقي ﴿ **فينظر كيف تعملون** ﴾.

٢ – في الإصحاح الثاني عشر في سفر الخروج : وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة .

٣ – يذكر المفسرون عند آيات كثيرة من هذا المقطع كلاماً منقولًا عن أهل الكتاب ليس فيه شيء عن رسولنا ﷺ – في الغالب – وبعضه غريب جداً وقد رأينا التفسير الحرفي للمقطع واحتمالاته ، ولو رجعنا إلى ماعند أهل الكتاب في هذا الموضع فإننا نجد أن الإصحاحات: الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من سفر الخروج لها علاقة في هذا الموضوع ونحن ننقل من هذه الإصحاحات نقولًا ونختار منها اختيارات مع احتراساتنا التي نبديها دائماً أن هذه الكتب اختلط فيها الحق بالباطل فلا تصلح أساساً للاعتماد بل يصلح بعضها للاستئناس :

ففي الإصحاح الخامس : (وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليُعبّدوا لي في البرية (قالوا) أي بنو إسرائيل (لهما) لموسى وهارون أنتما انتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً في

أيديهم ليقتلونا) .

وفي الإصحاح السادس : (أنا الرب وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة ... وأدخلكم إلى الأرض التي رَفَعْتُ يدي أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب وأعطيكم إياها ميراثاً أنا الرب ...)

وفي الإصحاح السابع : (فدخل موسى وهارون إلى فرعون ، وفعلا هكذا كما أمر الرب . طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً . فدعا فرعون أيضاً الحكماء والسحرة . ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كذلك طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين . ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم ، فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب) . لاحظ أن الطارح في النص هو هارون وهو كذب وافتراء ويتناقض مع عامة الروايات والتصرفات في الإصحاحات نفسها فضلًا عن تناقضه مع الوحي الصادق .

(ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده . فتحول كل الماء الذي في النهر دماً ، ومات السمك الذي في النهر وأنتن النهر . فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم في كل أرض مصر) ... (وحفر جميع المصريين حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا . لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر) .

وفي الإصحاح الثامن: (ولما كملت سبعة أيام بعد ما ضرب الرب النهر قال الرب لموسى : ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني . وإن كنت تأبى أن تطلقهم منها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع فيفيض النهر ضفادع . فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك . عليك وعلى شعبك وعبيدك تصدع الضفادع) . (فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عني وعن الشعب ليذبحوا للرب) .

(ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى إلى الرب من أجل الضفادع التي جعلها على فرعون . ففعل الرب كقول موسى . فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول . وجمعوها كوماً كثيرة حتى أنتنت الأرض . فلما رأى فرعون

أنه قد حصل الفرج أغلظ قلبه ولم يسمع لهما كما تكلم الرب) .

(وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم . كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر) . (وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدوني فإنه إن كنت لاتطلق شعبي ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان فتمتلىء بيوت المصريين ذباناً . وأيضاً الأرض التي هم عليها . ولكن أميز في ذلك اليوم أرض جاسان حيث شعبي مقيم حتى لايكون هناك ذبان . لكي تعلم أني أنا الرب في الأرض . وأجعل فرقاً بين شعبي وشعبك . غداً تكون هذه الآية . ففعل الرب هكذا فدخلت ذبان كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده . وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذبان) .

(فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية . ولكن لاتذهبوا بعيداً . صليا لأجلي . فقال : موسى ها أنا أخرج من لدنك وأصلي إلى الرب . فترتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه غداً . ولكن لا يعد فرعون يخاتل حتى لايطلق الشعب ليذبح للرب . فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب . ففعل الرب كقول موسى . فارتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه . لم تبق واحدة ولكن أغلظ فرعون قلبه هذه المرة أيضاً فلم يطلق الشعب) .

وفي الإصحاح التاسع : (ثم قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني فإنه إن كنت تأبى أن تطلقهم وكنت تمسكهم بعد فها يد الرب تكون على مواشيك التي في الحقل على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباءً ثقيلًا جداً . ويميز الرب بين مواشي إسرائيل ومواشي المصريين فلا يموت من كل ما لبني إسرائيل شيء . وعيّن الرب وقتاً قائلًا غدا يفعل الرب هذا الأمر في الأرض . ففعل الرب هذا الأمر في الغد . فماتت جميع مواشي المصريين . وأما مواشي بني إسرائيل فلم يمت منها أحد وأرسل فرعون وإذا مواشي إسرائيل لم يمت منها ولا واحد . ولكن غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب) .

(ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء أيديكما من رماد الأتون . وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غباراً على كل أرض مصر فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر . فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء . فصار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم) .

(وها أنا غداً مثل الآن أمطر برداً عظيماً جداً ، لم يكن مثله في مصر منذ يوم تأسيسها إلى الآن ، فالآن أرسل أهم مواشيك وكل مالك في الحقل . جميع الناس والبهائم الذين يوجدون في الحقل ولا يجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البرد فيموتون . فالذي خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ومواشيه إلى البيت . وأما الذي لم يوجه قلبه إلى كلمة الرب فترك عبيده ومواشيه في الحقل .

ثم قال الرب لموسى مديدك نحو السماء ليكون برد في كل أرض مصر على الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر . فمد موسى عصاه نحو السماء . فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نار على الأرض وأمطر الرب برداً على أرض مصر . فكان برد ونار متواصلة في وسط البرد ، شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمة . فضرب البرد في كل أرض مصر جميع مافي الحقل من الناس والبهائم . وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد . فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون فقال لهما أخطأت في هذه المرة . الرب هو البار وأنا وشعبي الأشرار . صليا إلى الرب وكفى حدوث رعود الله والبرد فأطلقكم ولاتعودون تلبثون . فقال له موسى عند خروجي في المدينة أبسط يدي إلى الرب فتنقطع الرعود ولا يكون البرد أيضاً لكي تعرف أن للرب الأرض . وأما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرب الإله . فالكتان والشعير ضربا . لأن الشعير كان مسبلا والكتان مبزراً وأما الحنطة والقطاني فلم تضرب لأنها كانت متأخرة . فخرج موسى في المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فانقطعت الرعود والبرق ولم ينصب المطر على الأرض . ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد والرعود انقطعت عاد يخطيء وأغلظ قلبه هو وعبيده فاشتد قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل كما تكلم الرب عن يد موسى) .

وفي الإصحاح العاشر : (فدخل موسى وهارون وقالا له هكذا يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبى أن تخضع لي أطلق شعبي ليعبدوني . فإنه إن كنت تأبى أن تطلق شعبي ها أنا أفاجيء غداً بجراد على تخومك فيغطي وجه الأرض حتى لايستطاع نظر الأرض . ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد . ويأكل جميع الشجر النابت لكم في الحقل ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين . الأمر الذي لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ يوم وجدوا على الأرض إلى هذا اليوم . ثم تحول وخرج من لدن فرعون) .

(ثم قال الرب لموسى مديدك على أرض مصر لأجل الجراد . ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ماتركه البرد . فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب على الأرض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد . فصعد الجراد على كل أرض مصر وحلّ في جميع تخوم مصر شيء ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض . وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد . حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر .

فدعا فرعون موسى وهارون مسرعاً وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإليكما . والآن اصفحا عني خطيئتي هذه المرة فقط . وصليا إلى الرب إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب فرد الرب ريحاً غربية شديدة جداً . فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف . لم تبق جرادة واحدة في كل تخوم مصر . ولكن شدّد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل) .

(ثم قال الرب لموسى مديدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . حتى يلمس الظلام . فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام . لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام . ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم) .

وفي الإصحاح الحادي عشر : (قال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر . فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى ، وكل بكر بهيمة . ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً) .

وفي الإصحاح الرابع عشر : (فدفع الرب المصريين في وسط البحر . فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر . لم يبق منهم ولا واحدة . وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم . فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطىء البحر) .

ملاحظات على هذه النقول :

١ - لاحظنا في الآيات القرآنية أن الله عز وجل أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات وقد رأينا فيما نقلناه من نصوص سفر الخروج تسليط البرد والجراد ، ورأينا هلاك الماشية والزروع والثمار ، فهل المراد بالنص القرآني هذا المذكور في سفر الخروج ، أو المراد معنى أوسع لم يذكر ؟ ليس عندنا نص عن رسولنا ﷺ في هذا الموضوع فالمسألة تحتمل وتحتمل .

٢ - لاحظنا أن الله عز وجل ذكر في القرآن أنه أرسل على فرعون وقومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع وقد رأينا فيما نقلناه موضوع الجراد والضفادع ، أما الطوفان فقد رأينا البرد والمطر الكثير الذي لم يسبق أن نزل في مصر فهل هو الطوفان المذكور في القرآن ؟ لاحظنا بأن كلام علماء التفسير أن الطوفان هنا يحتمل أن يكون الطاعون ، ويحتمل أن يكون الموت ، وقد رأينا أنه قد سلط على المصريين موت البكور ، والبرد ، والمطر ، والطاعون ، فهل هذه كلها دخلت تحت كلمة الطوفان ويكون المراد بالطوفان معناه اللغوي ، وهو كل ما طاف وأحاط ، هذا محتمل وعلى هذا الاحتمال تكون آية الظلام - في حالة صحة وقوعها - داخلة في هذا المعنى .

ولاحظنا أن المفسرين مختلفون في تفسير القمل في الآية هل هو صغار الجراد أو هو صغار القراد ، وقد لاحظنا أنه قد ذكر في سفر الخروج تسليط البعوض والذباب ولم يذكر سفر الخروج كيف رفع البعوض ، ولكنهم ذكروا كيف رفع الذباب فهل الآية واحدة عبروا عنها مرة بلفظ البعوض ومرة بلفظ الذبان ، والملاحظ أنه أثناء الكلام عن البعوض قال السفر (وكان البعوض على الناس وعلى البهائم) فهل المراد بالقمَّل المذكور في القرآن هو البعوض والذبان أو هل المترجمون توسعوا في الترجمة . أو ليس المراد هذا أو هذا ، والمراد شيء آخر وكتبة هذه الأسفار أخطأوا في النقل ؟ ولولا أن المفسرين المسلمين ذكروا أكثر من معنى لكلمة القمل ، ولولا أن اللغة العربية تحتمل ، ما توقفنا في تحديد موقف مما ذكره سفر الخروج لأن الخلل واضح في كثير من مواطن هذا السفر وأظهر ماترى الخلل في الإصحاحات التي نقلناها عندما يتحدث عن موقف العرافين من الآيات التي يظهرها الله على يد موسى :

فمثلًا : أثناء الكلام عن آية الدم يقول الإصحاح السابع : (وفعل عرّافو مصر كذلك بسحرهم) ، فهل فعلوا مثل آية الدم ، أو أنهم عجزوا ـــ كما هو العادة - في

عدم مقابلة السحر للمعجزة ؟ وفي الإصحاح الثامن يقول السفر أثناء الكلام عن آية البعوض (وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا) فههنا نجد نفس التعبير السابق مع زيادة (ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا) ولا شك أن منطق المسألة أن يكون المذكور الأخير هو نفسه الذي حدث أولًا فلماذا كان التعبير قاصراً ؟ لاشك أنه الخلل .

وقد كررنا أكثر من مرة : أننا لانعطي الثقة لِنَقَلَةِ هذه الأسفار ولا لطريقة وصولها إلينا وبعد هذا الذي نقلناه . نقول : إنه يمكن أن يدخل في تعبير القمّل البعوض والذباب .

فهذه ست آيات أو سبع ، ثم الضفادع والدم والجراد ، فمجموع هذه الآيات التي ذكرت في سفر الخروج قد استوعبها النص القرآني بكلماته القليلة ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن الذي أحاطت كلماته بكل شيء ، واستوعبت كل شيء بمثل هذا البيان والتفصيل ، وهذا العدد المحدود من الكلمات .

٣ - نحن لم نعتبر ولا نعتبر أن شيئاً من كتب أهل الكتاب صالحاً لأن يُفسّر به كتاب الله إلا حيث يحتمل اللفظ القرآني ذلك فعندئذ يستأنس به استئناساً . ومن ثم لم نعتبر كلام سفر الخروج الذي نقلناه مفسراً لكتاب الله ؛ والسرّ في ذلك يعود إلى عدم ثقتنا - كما قلنا - بنَقَلة هذه الأسفار ، ولا بطريقة نقلها ، وعدم الثقة هذا دليلنا فيه واضح حتى من هذه الأسفار ولنأت بشيء من هذا الدليل وهو موضوع سنطرقه فيما بعد : إن الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم يسمونها التوراة ، والمفروض أن تكون التوراة منقولة نقلًا صحيحاً ومتواتراً ، ومميزة عن غيرها ، فاقرأ معي هذا النص في آخر صفحة من صفحات هذه التي يسمونها التوراة في الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية : (فمات هناك موسى عبد الرب في أرض موآب حسب قول الرب ، ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم) .

ماذا نستطيع أن نستنتجه من هذا النص ؟ .

١ - أن هذا النص ليس من التوراة لأن التوراة نزلت على موسى قبل وفاته فوجود هذا النص يدل حتماً على أن هذه الأسفار ليست هي التوراة بل التوراة جزء منها .

٢ - أن هذه الأسفار كتبت بعد أزمان متطاولة إذ كاتبها يقول : (ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم ، أي يوم ؟ اليوم الذي جمع فيه جامع هذه الأسفار أسفاره وحتماً

كان ذلك اليوم متأخراً جداً ، إذ الجيل الأول المعاصر لموسى ماكان لينسى قبر موسى ، ولا مكانه ، ولا الجيل الثاني ولا الثالث . فمتى كانت هذه الكتابة لهذه الأسفار ؟ حتماً بعد المئات الكثيرة من السنين كما سنرى ومن الروايات الشفهية ، فكُتب هذا شأنها لاتصلح أن تكون حاكمة على الكتاب الذي أنزله الله رب العالمين ، العليم بكل شيء ، المحيط بكل شيء .

وإذا كان الأمر كذلك فإننا سنحتاط في النقل عنه ونحترس ولولا أن المفسرين القدامى ملأوا كتبهم بما مرجعه كتب أهل الكتاب ، والقصاصون زادوا واختلقوا من عند أنفسهم الكثير ، ولولا أن رسول الله ﷺ سمح لنا بالتحديث عن أهل الكتاب ما تجشمنا مشقة البحث في هذه الكتب ولكنّا بين أمرين : إما أن ننقل عن الأصل مباشرة أو نسكت ،وسكوننا لايلغي ما كتبه المفسرون ، ورجوعنا إلى الأصل يُعرِّف القارىء على أصل ما نقله المفسرون ، نفعل هذا مع التذكير بالقيمة الحقيقية لهذه النقول .

ونحب هنا أن نذكّر بأن ماذكره القرآن هو الحكم الفصل في كل قضية من القضايا التي تحدث عنها في أمر الزمان والمكان والخلق والتاريخ ، والاجتماع والسياسة وغير ذلك ، فإذا استقر هذا نقول : إن المقطع الذي مر معنا وهو جزء من سورة الأعراف ذات المحور الذي بين فرضية اتباع الهدىٰ المنزل وعاقبة ذلك سلباً أو إيجابياً ، هذا المقطع عرض لقصة فرعون مع موسى ، وكيف كان موقفه من الهدى المنزل ، وعاقبة ذلك بما هو الحكم الفصل في كل قضية يتعرض لها والقلب المؤمن والمستضعفون ، وحملة الحق ، يعطيهم هذا السياق نفحات لاتنتهي ، وكون المقطع مرتبطاً بمحور السورة وضمن سياقها العام لايحتاج إلى إيضاح ، ولذلك فإننا لانحتاج أن نقف عند ذلك .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث من القسم الثاني

انصب الكلام في المقطع الثاني على المجابهة بين موسى وفرعون ، وعلى عاقبة فرعون وقومه بما خالفوا أمر الله ورسله ، وينصب الكلام في هذا المقطع عن بني إسرائيل في حياة موسى . فههنا أمة استجابت لدعوة الله .

فما هي الأخطاء الكبرى التي وقعت بها وكيف قوَّم موسى عليه الصلاة والسلام هذه الأخطاء ؟ .

وههنا أمة فعل الله من أجلها مافعل فكيف كان موقفها من هدى الله الذي أنزل عليها ؟ .

وههنا أمة بُعث لها رسول واستجابت لهذا الرسول ومع ذلك والرسول لازال بين الأظهر ، يتسلل الشرك مرة بعد مرة إليها ، والمقطع ينتهي بإعلام بني إسرائيل بأن أعلام الرسالة ستنتقل منهم إلى أمة أخرى ، ومن ثم يأمر الله رسوله ﷺ بأن يعلن في ختام المقطع عن رسالته إلى الناس جميعاً .

هذا المقطع يمتد من الآية (١٣٨) إلى نهاية الآية (١٥٩) وهذا هو :

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ

مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا

قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا
تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي
وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ
عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ
أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ
وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي
وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي
ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

كلمة في السياق :

يأتي هذا المقطع ليحدثنا عن الأمة التي فعل الله من أجلها ما فعل ، كيف كان موقفها من الهدى المنزل إليها ، وإذ كان السياق عن بني إسرائيل في هذا المقطع قد انتهى بالبشارة بالنبي الأمي عليه الصلاة والسلام فإن السياق يتوجه لرسول الله ﷺ من أجل أن يعلن أنه رسول الله إلى الناس جميعاً ، وبعد هذا الإعلان يعود السياق إلى الكلام عن بني إسرائيل ، وإذ قد أرانا السياق في المقطع مظاهر من مواقفهم الظالمة فإن الآية الأخيرة تذكر أن هناك من بني إسرائيل أمة يهدون بالحق وبه يعدلون حتى لايفهم فاهم أن كل بني إسرائيل كانوا على وتيرة واحدة ، وليعرف العارفون أن من أجل أمثال هؤلاء يفعل الله الكثير ويعطي الكثير .

قال صاحب الظلال بين يدي هذا الدرس وامتداداته :

(في هذا الدرس تمضي قصة موسى - عليه السلام - في حلقة أخرى .. مع قومه بني إسرائيل ، بعد إذ أنجاهم الله من عدوهم ، وأغرق فرعون وملأه ، ودمر ما كانوا يصنعون وما كانوا يعرشون .. إن موسى عليه السلام لايواجه اليوم طاغوت فرعون وملئه ، فقد انتهت المعركة مع الطاغوت .. ولكنه يواجه معركة أخرى - لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً - إنه يواجه المعركة مع « النفس البشرية » يواجهها مع رواسب

الجاهلية في هذه النفس ، ويواجهها مع رواسب الذل الذي أفسد طبيعة بني إسرائيل ، وملأها بالالتواء من ناحية وبالقسوة من ناحية ، وبالجبن من ناحية ، وبالضعف عن حمل التبعات من ناحية . وتركها مهلهلة بين هذه النزعات جميعاً . فليس أفسد للنفس البشرية من الذل ، والخضوع للطغيان طويلًا ، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب والحركة في الظلام ، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء .

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلًا ، عاشوا في ظل الإرهاب وفي ظل الوثنية الفرعونية كذلك . عاشوا يقتل فرعون أبناءهم ويستحيي نساءهم . فإذا فتر هذا النوع البشع من الإرهاب الوحشي عاشوا حياة الذل والسخرة والمطاردة على كل حال .

وفسدت نفوسهم ، وفسدت طبيعتهم ، والتوت فطرتهم وانحرفت تصوراتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذل من جانب وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر .. وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية حيثما تعرضت طويلًا للإرهاب والطغيان .. لقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ينظر بنور الله ، فيرى حقيقة تركيب النفس البشرية وطبيعتها ، وهو يقول لعمّاله على الأمصار موصياً لهم بالناس : « ولا تضربوا أبشارهم فتذلوهم » .. كان يعلم أن ضرب البشرة يذل الناس . وكان الإسلام في قلبه يريد منه ألا يذل الناس في حكومة الإسلام وفي مملكة الله . فالناس في مملكة الله أعزاء ، ويجب أن يكونوا أعزاء ، وألا يضربهم الحكام فيذلوهم ، لأنهم ليسوا عبيداً للحكام . إنما هم عبيد لله أعزاء على غير الله ..

ولقد ضربت أبشار بني إسرائيل في طاغوت الفرعونية حتى ذلوا . بل كان ضرب الأبشار هو أخف ما يتعرضون له من الأذى في فترات الرخاء! ولقد ضربت أبشار المصريين كذلك حتى ذلوا هم الآخرون واستخفهم فرعون ! ضربت أبشارهم في عهود الطاغوت الروماني .. ولم يستنقذهم من هذا الذل إلا الإسلام ، يوم جاءهم بالحرية فأطلقهم من العبودية للبشر بالعبودية لرب البشر .. فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص - فاتح مصر وحاكمها المسلم - ظهر ابن قبطي من أهل مصر - لعل سياط الرومان كانت آثارها على ظهره ماتزال - غضب القبطي لسوط واحد يصيب ابنه . من ابن فاتح مصر وحاكمها وسافر شهراً على ظهر ناقة ، ليشكو إلى عمر بن الخطاب - الخليفة المسلم - هذا السوط الواحد الذي نال ابنه ، وكان هو يصبر على السياط منذ

سنوات قلائل في عهد الرومان . وكانت هذه هي معجزة البعث الإسلامي لنفوس الأقباط في مصر وللنفوس في كل مكان – حتى لمن لم يعتنقوا الإسلام – كانت هذه هي معجزة هذا البعث الذي يستنقذ الأرواح من ركام الآف السنين من الذل القديم ، فتنتفض هكذا انتفاضة الكرامة التي أطلقها الإسلام في أرواحهم ، وما كان غير الإسلام ليطلقها في مثل هذه الأرواح .

عملية استصلاح نفوس بني إسرائيل من ذل الطاغوت الفرعوني هي التي سيواجهها موسى عليه السلام في هذه الحلقة – بعد خروجه ببني إسرائيل من مصر وتجاوزه بهم البحر – وسنرى من خلال القصص القرآني هذه النفوس ، وهي تواجه الحرية بكل رواسب الذل ، وتواجه الرسالة بكل رواسب الجاهلية ، وتواجه موسى عليه السلام بكل الالتواءات والانحرافات والانحلالات والجهالات التي ترسبت فيها على مر الزمن الطويل .

وسنرى من خلال متاعب موسى عليه السلام متاعب كل صاحب دعوة ، يواجه نفوساً طال عليها الأمد ، وهي تستمرىء حياة الذل تحت قهر الطاغوت وبخاصة إذا كانت هذه النفوس قد عرفت العقيدة التي يدعوها إليها ، ثم طال عليها الأمد ، فبهتت صورتها ، وعادت شكلًا لاروح فيه .

إن جهد صاحب الدعوة – في مثل هذه الحال – لهو جهد مضاعف . ومن ثم يجب أن يكون صبره مضاعفاً كذلك .. يجب أن يصبر على الالتواءات والانحرافات ، وثقل الطبائع وتفاهة الاهتمامات ، ويجب أن يصبر على الانتكاس الذي يفاجئه في هذه النفوس بعد كل مرحلة ، والاندفاع إلى الجاهلية عند أول بادرة .

ولعل هذا جانب من حكمة الله في عرض قصة بني إسرائيل على الأمة المسلمة ، في هذه الصورة المفصلة المكررة – لترى فيها هذه التجربة . كما قلنا من قبل – وإن فيها زاداً لأصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل » .

المعنى العام :

يبدأ المقطع بالإخبار عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه مارأوا ، عندما مروا على عبّاد أصنام إذ طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها كما يعبد هؤلاء أصنامهم ، فردّ عليهم

واصفاً إياهم بالجهل . وأي جهل أفظع من الجهل بعظمة الله وجلاله ، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل . ثم بين لهم أن هذا الذي عليه هؤلاء هالك وعملهم باطل . ثم ذكرهم موسى بنعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاستعلاء على عدوهم ، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره . وما أكرمهم به من تفضيل على عالَمي زمانهم ، فكيف يطلب لهم رباً غير الله ، وقد فعل لهم كل هذا ؟ ذكرهم بأقرب الأشياء إليهم لأنها أقرب الحجج عليهم . وإلا فمثل موسى لا يطلب رباً سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله . فضّلهم أو لم يفضلهم . أنجاهم من ظلم فرعون . أو أبقاهم . فله الأمر من قبل ومن بعد . ومن بداية المقطع نشعر كيف يتسرب الانحراف ، وكيف يبدأ وكيف يكون . فها هي أمة ترى المعجزات التي رأتها ، ومع ذلك فإنها تطلب أن يكون لها أصنام تعبدها من دون الله . ورسولها بين أظهرها ، وأرجلها لم تكد تجاوز البحر الذي رأت في سيرها فيه وانشقاقه لها أعظم معجزة .

ثم يقص الله عز وجل علينا ما أتمّ به النعمة على موسى وقومه ، إذ أنزل عليهم الألواح في خلوة موسى مع ربه على الطور . وماذا فعلوه من الانحراف الجديد خلال غيبته .

فذكر تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية ، بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه الألواح ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم . فذكر أنه واعد موسى ثلاثين ليلة . ثم أمره تعالى أن يكمل بعشرٍ أربعين . فلما عزم موسى على الذهاب إلى الطور ، استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون ، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد ، من باب تحقيق التواصي ، وإلا فإن هارون رسول ونبي شأنه الإصلاح وعدم الإفساد . فلما جاء موسى لميقات الله وحصل له التكليم من الله ، سأل الله تعالى أن ينظر إليه . فبين الله له أنه لايمكن أن يراه في الدنيا ، وعوضه عن الرؤية بأن أمره أن ينظر إلى الجبل فإذا رأى الجبل مستقرا عند تجلي الله على الجبل فعندئذ يمكن أن يراه ، فلما تجلى الله للجبل ساخ الجبل وانهد ، وخر موسى مغشياً عليه من هول ما رأى ، فلما أفاق من صعقه بدأ يسبح الله وينزهه ، والتسبيح في هذا المقام يفيد تنزيه الله عن أن يراه أحد في الدنيا . ثم ثنى بالتوبة مما سأل . وثلث بالإعلان عن نفسه أنه أول المؤمنين من قومه ، أو أول المؤمنين بأنه لايرى الله أحد من خلقه . فقال الله لموسى في هذا المقام مذكراً إياه بنعمه عليه إذ اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، آمراً إياه أن يأخذ ماآتاه الله من الكلام والوحي والمناجاة ، وأن يكون من الشاكرين على ذلك ، وألا يطلب ما

لاطاقة له به .

ثم أخبر تعالى بعد أن أمره بأخذ ما آتاه بأنه قد أعطاه الألواح التي كتب له فيها من كل شيء موعظة وتفصيلًا لكل شيء . وهناك اتجاهان للمفسرين المسلمين في هذه الألواح : الاتجاه الأول الذي يقول : إن هذه الألواح هي التوراة . فالتوراة متضمنة فيها ، والاتجاه الثاني : أن الألواح أوتيها موسى قبل التوراة ، وعلى كل فإنها كانت كالتعويض له عما سأله من الرؤية ومنع منه . وبعد أن أعطاه إياها أمره أن يأخذها بعزم على الطاعة ، فيأخذ نفسه بأشد ما يأمر به قومه . وأمره أن يأمر قومه أن يعملوا بها . وبعد ذلك قال له : ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ التي تحتمل وعيداً ، كما يقول الواعظ لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى مايصير إليه حال من خالف أمري، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. فيكون المعنى: سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب . وتحتمل أن تكون وعداً بإعطائهم أرض الشام وهو أقوى ماتحمل عليه الآية . ثم بين الله عز وجل سنته في أنه يحول بين قلوب أهل الكبر وبين آياته فلا يرونها ، بأن يمنع قلوب هؤلاء أن تفهم الحجج ، والأدلة الدالة على عظمته وشريعته وأحكامه ؛ بسبب كبرهم عن طاعة الله وتكبرهم على الناس بغير حق . فبسبب ذلك يعاقب الله هؤلاء بصرفهم عن فهم أسراره حتى إنهم لو رأوا كل آية لايؤمنون ، وإن يظهر لهم سبيل الرشد - سبيل النجاة - لايسلكونها . وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلًا . تلك سنته تعالى في المتكبرين في كل عصر ومصر أن يصرفهم عن رؤية آياته . وما ذلك إلا بسبب تكذيبهم لهذه الآيات وغفلتهم عنها ، ثم بين تعالى جزاء من كذب بآياته واستمر على ذلك حتى الممات ، كيف أن الله يحبط عمله وذلك جزاؤه على ما أسلفه من كفر .

وبينما موسى عليه السلام يتلقى هداية ربه ويناجيه ، كان قومه يسيرون في طريق الكفر . ومن ثم أخبرنا الله في هذا السياق عما فعلوه في حال غيبته ، إذ أخبرنا عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلًا بالغاً حد الروعة في الصنعة ، حتى إنه ليصوّت إذا دخلت فيه الريح كالبقر فافتتنوا به ، ورقصوا حوله ، وجعلوه إلهاً ، ذاهلين عن خالق السمٰوات والأرض ، ورب كل شيء ومليكه ، بأن عبدوا معه عجلًا جسداً له خوار لايكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال وقد أدركوا فيما بعد عظيم خطئهم ، وندموا على مافعلوا ، وعرفوا أنه

إن لم يتداركهم الله برحمته ومغفرته فإنهم سيكونون من الهالكين .

ثم قص الله عز وجل علينا ماكان من موسى مع قومه عندما رجع إليهم ، فأخبرنا تعالى أنه رجع إلى قومه وهو في أشد حالات الغضب ، فلمّا قابلهم خاطبهم بأنه بئس ماصنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم ، ثم أنكر عليهم استبطاءهم له ، واستعجالهم مجيئه ، وهو في أمر الله وقدره ، فسارعوا إلى ارتكاب ما ارتكبوه ، ولم ينتظروا موسى ، ثم أخبرنا تعالى كيف أنه حمي الغضب بموسى لما رأى ما رأى منهم ؛ فألقى الألواح التي أعطاه الله إياها ، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه ، خوفاً أن يكون قد قصّر في نهيهم ، فاعتذر هارون وخاطبه بأرق الخطاب ، ألا يسوقه مساقهم ، ولا يخلطه معهم ، وأنه ما قصّر في نصحهم ، وإنما أخرّ مفارقتهم حتى عودة موسى ، فلما علم موسى عدم تقصير أخيه استغفر لنفسه واستغفر لأخيه ، وسأل الله أن يدخله وأخاه في رحمته ، مثنياً على الله بأنه أرحم الراحمين . ثم بين لقومه أن الذين عبدوا العجل منهم سيصيبهم غضب من الله ، وذلة في الحياة الدنيا ، وذلك جزاء من يفتري على الله . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان ، حتى لو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ، فإنه تعالى من بعد الفعل والتوبة غفور رحيم . ولكن الذنب لايمر بلا نوع عقوبة ، ومن ثَم فقد عوقب من عبد العجل بأن أمرهم الله أن يقتل بعضهم بعضاً . كما مرّ في سورة البقرة ، وعاقبهم بذلة قريبة وهم في الصحراء في أكثر من موطن .

ثم أخبر تعالى أن موسى قد اختار من قومه سبعين رجلًا ليعتذروا عن عبادة العجل ويدعوه فأخذتهم الرجفة ، فأخذ موسى يستغيث الله ، ألّا يهلكهم بذنوب السفهاء ، داعياً الله عز وجل أن يرحم ويغفر وأن يعطي ، سأله دفع المحذور ، ثم سأله العطاء في الدنيا والآخرة له ولقومه ، معلناً توبته وتوبة قومه ، وفي هذا المقام بين الله لموسى سنته وطلاقة مشيئته بتعذيب من يشاء ، ورحمة من يشاء ، وبين له سعة رحمته ، وأنه خصّ أمة محمد ﷺ بالخصوصيات العظمى والرحمة التامة ، بما اجتمع لهم من التقوى ، وإيتاء الزكاة ، والإيمان ، واتباع رسولهم النبي الأمي الذي سجل صفته في التوراة والإنجيل ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، محلًا للطيبات ، محرماً للخبائث ، آتياً بالحنيفية السمحة ، وبالدين اليسر ، يرفع فيه عن الأمم أثقالها وأغلالها ، ثم بين تعالى أن من آمن بهذا الرسول ، وعظّمه ، ووقّره ، واتبع الوحي الذي أنزله معه فهو المفلح ، والتبشير بمحمد ﷺ في هذا المقام الذي ظهرت به إساءة بني إسرائيل وانحرافهم بعبادة العجل

فيه من الحكمة مافيه ، وفيه وضع الأساس للمستقبل في امتحان بني إسرائيل باتباع وحي الله ، سواء نزل على رسول منهم أو من غيرهم . وفي هذا المقطع بيان لموقف أمة موسى من التوحيد وعبادة الله ، وهو ما طالب به كل رسول قومه وكيف أنهم انحرفوا أول مرة بالمطالبة باعتماد الشرك ، ثم انحرفوا ثانياً بممارسة الشرك . فالمقطع قرر كيف كان موقف أمة من الهدى المنزل عليها ، وكيف عالج رسولها هذا الانحراف أول مرة وثاني مرة . وخلال ذلك أخبرنا الله بما أنزل من هدى على موسى . وبما بشر به بأنه سينزله على محمد ﷺ ، وكيف أن ما أنزله واجب الاتباع ، كما بين لنا بعض سننه في الهداية والإضلال ، والعقوبة والمكافأة ، كما عرّفنا على ذاته بمزيد من المعرفة ، وكل ذلك سائر على سنن السورة ومحورها العام ، وسنرى في المعنى الحرفي والفوائد والنقول التي سننقلها من أسفار موسى من كتب العهد القديم والملاحظات عليها ، والكلمة الأخيرة في السياق ، ما يزيدنا تعرفاً على هذا المقطع وصلته بالسياق العام .

وبعد أن استقر المقطع على التبشير بالرسالة الخاتمة ، والأمة الأخيرة ، والدعوة الكاملة . أمر الله رسوله ﷺ ، صاحب هذه الرسالة ، وإمام هذه الأمة ، وقائد هذه الدعوة ، أن يعلن للناس ، أحمرهم وأسودهم ، وعربهم وعجمهم ، أنه رسول الله إليهم جميعاً . الله مالك السموات والأرض . الإله الأوحد ، الذي بيده الحياة والموت . وإذا كان الأمر كذلك فإن الله يأمرهم باتباعه والإيمان به . كيف وهو النبي الأمي الذي وُعِدُوا به ، وبُشروا في الكتب المتقدمة ، فإنه منعوت بذلك في كتبهم . هذا النبي الذي يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه . فاسلكوا طريقه أيها الناس ، واقتفوا أثره لعلكم تهتدون إلى الصراط المستقيم .

وإذ كان اليهود هم أصحاب الكتاب الأول ، وهم الذين بشر الله في كتابهم برسول هذه الأمة ، فهم مدعوون للدخول بهذا الدين . ومن ثم اتجه السياق للكلام عنهم . فبين تعالى أن بني إسرائيل طائفتان : طائفة منهم عندها استعداد للحق وقبوله واتباعه والعمل به ، ويفهم من ذلك ، أن الطائفة الأخرى وهي الأكبر والأعظم ليست كذلك . ومجيء هذه الآية في نهاية المقطع يشير إلى شيء آخر ، وهو أن بني إسرائيل الذين مرّ معنا شيء عن انحرافاتهم لم ينحرفوا جميعاً . ولم يكونوا على سواء .

المعنى الحرفي :

﴿ **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم** ﴾ أي فمروا بهم . ﴿ **يعكفون على**

أصنام لهم ﴾ أي يواظبون على عبادتها ﴿ **قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً** ﴾ أي صنماً نعكف عليه ﴿ **كما لهم آلهة** ﴾ أي أصنام يعكفون عليها . ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون** ﴾ لما كان هذا عجيباً منهم بعد ما رأوا من الآيات العظمى ، وصفهم بالجهل المطلق وأكده ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ أي : عبدة تلك التماثيل ﴿ **مُتبَّر** ﴾ أي مهلك من التبار ﴿ **ماهم فيه** ﴾ أي ماهم فيه هالك ومهدوم وأنا أول من يريد إهلاكه فكيف أقلدهم فيه ﴿ **وباطل ماكانوا يعملون** ﴾ أي ماعملوه من عبادة الأصنام باطل مضمحل ﴿ **قال أغير الله أبغيكم إلهاً** ﴾ أي أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ﴿ **وهو فضّلكم على العالمين** ﴾ أي على عالمي زمانهم ﴿ **وإذ أنجيناكم من آل فرعون** ﴾ أي واذكروا إنجاء الله إياكم من فرعون وقومه فكيف تشركون معه غيره ﴿ **يسومونكم سوء العذاب** ﴾ أي يبغونكم شدة العذاب من سام السلعة إذا طلبها ﴿ **يقتّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم** ﴾ أي : في الإنجاء أو في العذاب ﴿ **بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أي نعْمة أو محنة ، لأن كلمة بلاء من أسماء الأضداد ، فإذا أعدنا الإشارة على الإنجاء كان المراد بها النعمة ، وإذا أعدناها على العذاب كان المراد بها المحنة .

فوائـد :

١ - روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت : يانبي الله اجعل لنا هذه ذات أنواط ، كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون (أي يعلقون) سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها . فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من قبلكم » .

٢ - وبمناسبة هذه الآية يذكر النسفي أن يهودياً قال لعلي رضي الله عنه : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه (يظهر أن المراد ماء القبر الذي يرش عليه حين الدفن لتسويته) فقال رداً عليه : قلتم : اجعل لنا إلهاً ولم تجف أقدامكم .

﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه** ﴾ أي ماوقّت له من الوقت وضرب له ﴿ **أربعين ليلة** ﴾ أي تم بالغاً هذا العدد ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون** ﴾ أي عندما ذهب لميقات ربه ﴿ **اخلفني في قومي** ﴾ أي كن خليفتي فيهم ﴿ **وأصلح** ﴾ أي مايجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل ﴿ **ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ أي ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه .

قال صاحب الظلال تعليقاً على هذه الآية :

« لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل لها انتهت مرحلة تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه ، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة ، في طريقهم إلى الأرض المقدسة .. ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى .. مهمة الخلافة في الأرض بدين الله .. ولقد رأينا كيف اشرأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم . ولم يمض إلا القليل ! فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم ، وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتلقى عنه . وكانت هذه المواعدة إعداداً لموسى لنفسه ، كي يتهيأ في هذه الليالي للموقف الهائل العظيم ، ويستعد لتلقيه .

وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة ، أضيفت إليها عشر ، فبلغت عدتها أربعين ليلة ، يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود ، وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء ، ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل ، وتصفو روحه وتشرق وتستضيء ، وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة .

وألقى موسى إلى أخيه هارون قبل مغادرته لقومه واعتزاله واعتكافه - بوصيته تلك : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾ ذلك وموسى يعلم أن هارون نبي مرسل من ربه معه ، ولكن المسلم للمسلم ناصح . والنصيحة حق وواجب للمسلم على المسلم ، ثم إن موسى يقدر ثقل التبعة ، وهو يعرف طبيعة قومه بني إسرائيل .. وقد تلقى هارون النصيحة لم تثقل على نفسه ، فالنصيحة إنما تثقل على نفوس الأشرار لأنها تقيدهم بما يريدون أن ينطلقوا منه ، وتثقل على نفوس المتكبرين الصغار الذين يحسون في النصيحة تنقصاً لأقدارهم ... إن الصغير هو الذي يبعد عنه يدك التي تمتد لتسانده ليظهر أنه كبير !!!

فأما قصة الليالي الثلاثين وإتمامها بالعشر الليالي فقال عنها ابن كثير في التفسير: « فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون . فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله تعالى أن يكمل العشرة أربعين » .

ولنعد إلى استعراض المعنى الحرفي :

﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا** ﴾ أي لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا ، فالكلام عن المجيء المخصوص بميقات الله ﴿ **وكلمه ربه** ﴾ أي بلا واسطة ولا كيفية . فكلام الله الأزلي ليس كمثله شيء . وقال بعضهم إنه كان يسمع الكلام من كل جهاته . قال النسفي : وذكر الشيخ في التأويلات أن موسى عليه السلام سمع صوتاً دالًا على كلام الله تعالى وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتاً تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق .

﴿ **قال رب أرني أنظر إليك** ﴾ قال النسفي لما سمع كلامه طمع في رؤيته لغلبة شوقه فسأل الرؤية والمعنى أرني ذاتك أنظر إليك أي : مكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك . قال النسفي : وهو دليل لأهل السنة (أي ضد المعتزلة) على جواز الرؤية (أي لله تعالى) فإن موسى (وهو الأعلم بالله) اعتقد أن الله تعالى يُرى حتى سأله ، واعتقاد جواز مالا يجوز على الله كفر . ﴿ **قال لن تراني** ﴾ أي بالعين الفانية في هذه الدنيا الفانية بل بعين باقية في الدار الباقية قال النسفي : وهو دليل لنا أيضاً (أي لأهل السنة على المعتزلة في موضع رؤية الله في الدار الآخرة) لأنه لم يقل لن أرى ليكون نفياً للجواز ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئى إذ الحالة حالة الحاجة إلى البيان ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه** ﴾ أي فإن بقي على حاله ﴿ **فسوف تراني** ﴾ قال النسفي : وهو دليل لنا أيضاً لأنه علق الرؤية باستقرار الجبل وهو ممكن . وتعليق الشيء بما هو ممكن يدل على إمكانه كالتعليق بالممتنع يدل على امتناعه . والدليل على أنه ممكن قوله ﴿ **جعله دكاً** ﴾ ولم يقل اندك ، وما أوجده تعالى كان جائزاً أن لايوجد لو لم يوجده لأنه مختار في فعله ، ولأنه تعالى ما آيسه عن ذلك ولا عاتبه عليه . ولو كان ذلك محالًا لعاتبه كما عاتب نوحاً عليه السلام بقوله : ﴿ **إني أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ حين سأل إنجاء ابنه من الغرق .

﴿ **فلما تجلى ربه للجبل** ﴾ قال النسفي : أي ظهر وبان ظهوراً بلا كيف، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله معنى التجلي للجبل ماقاله الأشعري : إنه تعالى خلق في الجبل حياة وعلماً ورؤية حتى رأى به . وهذا نص في إثبات كونه مرئياً . وبهذه الوجوه يتبين جهل منكري الرؤية ، وقولهم بأن موسى عليه السلام كان عالماً بأنه لايرى ، ولكن طلب قومه أن يريهم ربه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ فطلب الرؤية ليبين الله تعالى أنه ليس بمرئي ، باطل ، إذ لو كان كما زعموا لقال : أرهم

ينظروا إليك ، ثم يقول له : لن يروني ، لأنها لو لم تكن جائزة لما أخّر موسى عليه السلام الرد عليهم . بل كان يرد عليهم وقت قرع كلامهم سمعه - لما فيه من التقرير على الكفر ، وهو عليه السلام بعث لتغييره لا لتقريره ألا ترى أنهم لما قالوا له ﴿ **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة** ﴾ لم يمهلهم بل رد عليهم من ساعته بقوله : ﴿ **إنكم قوم تجهلون** ﴾ ﴿ **جعله دكا** ﴾ أي مدكوكاً : والدق والدك أخوان في المعنى ﴿ **وخر موسى صعقا** ﴾ أي وسقط مغشياً عليه ﴿ **فلما أفاق** ﴾ أي من صعقه ﴿ **قال سبحانك تبت إليك** ﴾ أي من سؤالي رؤيتك في الدنيا ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ أي بعظمتك وجلالك وبأنك لاتعطي الرؤية في الدنيا مع جوازها . قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك أنك لايراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة قال النسفي : وهذا قول حسن له اتجاه . ﴿ **قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس** ﴾ أي اخترتك على أهل زمانك ﴿ **برسالاتي** ﴾ أي بما أوحيه إليك لتبلغه عني كالتوراة ﴿ **وبكلامي** ﴾ أي وبتكليمي إياك ﴿ **فخذ ما آتيتك** ﴾ أي ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة أو من الكلام والمناجاة ﴿ **وكن من الشاكرين** ﴾ على النعمة في ذلك . فهي من أجل النعم ﴿ **وكتبنا له في الألواح** ﴾ هل المراد بها التوراة هنا أو ألواح أعطيها موسى قبل التوراة ؟ قولان للعلماء والراجح أنها التوراة لوصفها بما توصف به التوراة عادة ﴿ **من كل شيء** ﴾ أي كتبنا له في الألواح كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام ﴿ **موعظة وتفصيلًا لكل شيء فخذها بقوة** ﴾ أي فخذ الألواح بقوة أوخذ أحكامها بقوة . أي بجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل ﴿ **وأْمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ أي فيها ماهو حسن وأحسن ، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر والمعنى : فمرهم أن يأخذوا بما هو أدخل في الحسن وأكثر في الثواب ﴿**سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ أي دار من ظلم وهذا وعد لهم بأن ينزلهم منازل الظالمين في بلاد الشام التي وعدوها . وفي الوقت نفسه فيه طلب للاعتبار ، أي لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم .

قال صاحب الظلال :

« وتختلف الروايات والمفسرون في شأن الألواح ، ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة - نحسب أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير - ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ فنكتفي بالوقوف عند النص القرآني الصادق لانتعداه . وما تزيد تلك الأوصاف شيئاً أو تنقص من حقيقة هذه الألواح ، أما ماهي

وكيف كتبت ؟ فلا يعنينا هذا في شيء بما أنه لم يرد عنها من النصوص الصحيحة شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد سواء » .

وفي الآية التي مرت معنا أمر ووعد أما الأمر فهو قوله تعالى :

﴿ **فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ وأما الوعد فهو قوله تعالى ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ .

وقد قال صاحب الظلال في هذا وهذا :

قال عند قوله تعالى : ﴿ **فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها** ﴾ .

(والأمر الإلهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم ، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الشاقة بوصفه الأحسن لهم والأصلح لحالهم .. هذا الأمر على هذا النحو فضلًا على أنه يشي بضرورة هذا الأسلوب في أخذ هذه الطبيعة الإسرائيلية التي أفسدها الذل وطول الأمد ، بالعزم والجد ، لتحمل تكاليف الرسالة والخلافة ، فإنه كذلك يوحي بالمنهج الواجب في أخذ كل أمة لكل عقيدة تأتيها ..

إن العقيدة أمر كبير عند الله سبحانه وأمر هائل في حساب هذا الكون ، وقدر الله الذي يصرفه ، وأمر هائل في تاريخ « الإنسان » وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك .. والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله - سبحانه - وعبودية البشر لربوبيته وحده ، منهج يغير أسلوب الحياة البشرية بجملتها ، ويقيم هذه الحياة على أسلوب آخر غير الذي تجري عليه في الجاهلية ، حيث تقوم ربوبية غير ربوبية الله سبحانه ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة .

وأمر له هذه الخطورة عند الله ، وفي حساب الكون ، وفي طبيعة الحياة وفي تاريخ الإنسان . يجب أن يؤخذ بقوة ، وأن تكون له جديته في النفس ، وصراحته وحسمه ، ولاينبغي أن يؤخذ في رخاوة ، ولا في تميع ، ولا في ترخيص ، ذلك أنه أمر هائل في ذاته ، فضلًا على أن تكاليفه باهظة لايصبر عليها من طبيعته الرخاوة والتميع والترخص ، أو من يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر ..

وليس معنى هذا - بطبيعة الحال - هو التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض . فهذا ليس من طبيعة دين الله .. ولكن معناه الجد والهمة والحسم والصراحة .. وهي صفات

أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدد والتعنت والتعقيد والتقبض .

ولقد كانت طبيعة بني إسرائيل - بصفة خاصة - بعد ما أفسدها طول الذل والعبودية في مصر ، تحتاج إلى هذا التوجيه لذلك نلحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد ، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخاوية ، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة .. ومثل طبيعة بني إسرائيل كل طبيعة تعرضت لمثل ماتعرضوا له من طول العبودية والذل ، والخضوع للإرهاب والتعبد للطواغيت فبدت عليها أعراض الالتواء والاحتيال ، والأخذ بالأسهل تجنباً للمشقة .. كما هو الملحوظ في واقع كثير من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا ، والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها ، وتسير مع القطيع ، لأن السير مع القطيع لايكلفها شيئاً . » .

وقال عند قوله تعالى ﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ : (وفي مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يمكّن لهم في الأرض ، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه :

﴿ **سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت - في ذلك الزمان - في قبضة الوثنيين وإنها بشارة لهم بدخولها .. وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى - عليه السلام - لأن تربيتهم لم تكن قد استكملت ، وطبيعتهم تلك لم تكن قد قوّمت فوقفوا أمام الأرض المقدسة يقولون لنبيهم : ﴿ **يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون** ﴾ ... ثم لما ألحَّ عليهم الرجلان المؤمنان فيهم اللذان يخافان الله في الدخول والاقتحام . أجابوا موسى بتوقح الجبان - كالدابة التي ترفس سائقها : ﴿ **قالوا : إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ... مما يصور تلك الطبيعة الخائرة المفككة الملتوية التي كانت تعالجها العقيدة والشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام ، وأمر هذا الأمر الإلهي الجليل أن يأخذها بقوة ، وأن يأمر قومه بحمل تكاليفها الشاقة .) . ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ فهم بعضهم أن هذا الخطاب لهذه الأمة . وقال ابن كثير : ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطّرد في حق كل أمة ، ولافرق بين أحد وأحد في هذا ، وأقول : هو لبني إسرائيل كما أنه لكل إنسان فهي سنة من سنن الله عز وجل . والصرف عن الآيات المنع عن فهمها ،

والتكبر في الأرض معناه : التطاول على الخلق والأنفة عن قبول الحق ، وحقيقته التكلف للكبرياء التي اختصت بالباري عزت قدرته ، ومعنى قوله تعالى ﴿ **يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي يتكبرون غير محقين لأن التكبر للحق وحده . ﴿ **وإن يروا كل آية** ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿ **لا يؤمنوا بها** ﴾ ﴿ **وإن يروا سبيل الرشد** ﴾ أي طريق صلاح الأمر وطريق الهدى ﴿ **لايتخذوه سبيلاً** ﴾ أي طريقاً مع رؤيته أنه رشد ﴿ **وإن يروا سبيل الغي** ﴾ أي الضلال ﴿ **يتخذوه سبيلاً** ﴾ أي يسيرون فيه ﴿ **ذلك** ﴾ أي الصرف عن آيات الله ﴿ **بأنهم كذبوا بآياتنا** ﴾ أي بسبب تكذيبهم بآيات الله . ﴿ **وكانوا عنها غافلين** ﴾ غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة** ﴾ أي ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ فلا يقبل الله منهم عملاً ﴿ **هل يجزون إلا ماكانوا يعملون** ﴾ وعملهم الذي أحبط كل عمل هو تكذيب الرسل .

فوائـــد :

١ - قال بعض السلف « لا ينال العلم حيي ولا مستكبر » وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً . وقال ذو النون : (أبىٰ الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن).

٢ - قال السعدي عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ قال : ما تجلى منه إلا قدر الخنصر . وروى ابن جرير عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً** ﴾ قال هكذا بأصبعه ووضع النبي أصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر فساخ الجبل .

٣ - روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لُطم وجهه وقال : يامحمد إن رجلًا من أصحابك من الأنصار لطم وجهي ، قال : « ادعوه » فدعوه ، قال : « لم لطمت وجهه ؟ » قال : يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعته يقول : والذي اصطفى موسى على البشر ، قال : فقلت : وعلى محمد ؟ وأخذتني غضبة فلطمته فقال : « لاتخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق . فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي . أم جوزي بصعقة الطور » .

قال ابن كثير (والكلام في قوله عليه السلام : « لاتخيروني على موسى » كالكلام على

قوله « لاتفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى » . قيل من باب التواضع وقيل : قبل أن يعلم بذلك . وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب . وقيل على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي ، والله أعلم ، وقوله « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » . الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه ، والله أعلم به . وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان ، كما صعق موسى من تجلي الرب تبارك وتعالى ، ولهذا قال عليه السلام : « فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور » .

٤ - قال ابن كثير : عند قوله تعالى : ﴿ **لن تراني** ﴾ . وقد أشكل حرف « لن » هاهنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد ، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة ، كما سنوردها عند قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ وقوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ وقيل إنها لنفي التأبيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة ، وقيل إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده** ﴾ أي من بعد ذهابه إلى الطور ﴿ **من حليِّهم** ﴾ من الحلي التي كانوا استعاروها من المصريين ليلة هروبهم . قال النسفي:وفيه دليل على أن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها » والمتخذ هو السامري ولكنهم رضوا به . فأسند الفعل إليهم . والحُليُّ جمع حلى وهو اسم مايتحسن به من الذهب والفضة . . ﴿ **عجلًا جسداً** ﴾ أي بدناً كاملًا في صفته . ﴿ **له خوار** ﴾ . الخوار صوت البقر ويظهر أن صانعه كان متقناً لفن الصياغة . وهذا يدل على تقدم هذا الفن عند المصريين ، ثم عجب الله من عقولهم السخيفة حين اتخذوه إلهاً ﴿ **ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلًا** ﴾ أي ألم يروا أنه لايقدر على كلام ولا على هداية سبيل فكيف لايختارونه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته وهو الذي هدى الخلق إلى سبيل الحق بما ركز في العقول من الأدلة ، وبما أنزل في الكتب ﴿ **اتخذوه** ﴾ أي اتخذوه إلهاً فأقدموا على هذا المنكر ﴿ **وكانوا ظالمين** ﴾ وأي

ظلم أكبر من الشرك ﴿ **ولما سقط في أيديهم** ﴾ أي ولما اشتد ندمهم على عبادة العجل وذلك بعد مجيء موسى . وأصله أن من شأن من اشتد ندمه أن يعض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ؛ لأن ماناله وقع فيها . وقال الزجاج : معناه سقط الندم في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس ، بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا** ﴾ أي وتبينوا ضلالهم كأنهم أبصروه بعيونهم ﴿ **قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ أي من المغبونين في الدنيا والآخرة . ﴿ **ولما رجع موسى** ﴾ من الطور ﴿ **إلى قومه** ﴾ بني إسرائيل ﴿ **غضبان أسِفاً** ﴾ أي حزيناً ، وقيل الأسف أشد الغضب ﴿ **قال بئسما خلفتموني** ﴾ قال بئسما قمتم مقامي وكنتم خلفائي ، والخطاب إما لعبدة العجل من السامري وأشياعه ، أو لهارون ومن معه من المؤمنين ؛ والمعنى على الأول : بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله ، وعلى الثاني : بئسما خلفتموني حيث لم تكفوا مَنْ عبد غير الله .

والمعنى الدقيق : بئس خلافة خلفتموني فيها من بعدي خلافتكم ﴿ **من بعدي** ﴾ أي من بعد ذهابي أو من بعد ما رأيتم مني من توحيد الله ونفي الشركاء عنه ، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد وأكفهم عن عبادة غير الله ، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ أي أسبقتم بعبادة العجل أمر ربكم وهو إتياني لكم بالتوراة بعد أربعين ليلة ، فبدلًا من أن يكون استقبالكم لما آتيكم به وأنتم على أكمل حال تعجلتم أسوأ حال تستقبلون به أمر الله ، وقيل أعجلتم أمر ربكم معناها أتركتم أمر ربكم بالتوحيد ولكن مما يشهد للأول أن أصل العجلة طلب الشيء قبل حينه ﴿ **وألقى الألواح** ﴾ ضجراً عند استماعه حديث العجل غضباً لله . وكان في نفسه شديد الحدة ، شديد الغضب لله . وكان هارون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً لبني إسرائيل . ﴿ **وأخذ برأس أخيه** ﴾ أي بشعر رأس أخيه غضباً عليه حيث لم يمنعهم من عبادة العجل ﴿ **يجره إليه** ﴾ أي يشده نحوه ، وهو أخذ عتاب له لا هواناً عليه ﴿ **قال ابن أمّ** ﴾ وكان هارون ابن أمه وأبيه ، وإنما ذكر الأم لأن ذكرها أدعى إلى العطف ﴿ **إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني** ﴾ أي إني لم آل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار ولكنهم استضعفونني وهموا بقتلي ﴿ **فلا تُشمت بي الأعداء** ﴾ أي الذين عبدوا العجل ، أي لا تفعل بي ما هو أمنيّتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ ﴿ **ولا تجعلني مع القوم الظالمين** ﴾ أي قريناً لهم بغضبك علي ، فلما اتضح له عذر أخيه ﴿ **قال رب اغفر لي**

ولأخي ﴾ . أي اغفر لي مافرط مني في حق أخي ، ولأخي إن كان قد فرط في حسن الخلافة ، وفي هذا إرضاء لأخيه لينفي الشماتة عنه بإشراكه معه في الدعاء ﴿ **وأدخلنا في رحمتك** ﴾ أي في عصمتك في الدنيا وجنتك في الآخرة ﴿ **وأنت أرحم الراحمين** ﴾ فاعطنا رحمتك ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل** ﴾ إلهاً ﴿ **سينالهم غضب من ربهم** ﴾ وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم ليقبل توبتهم ، كما مر في سورة البقرة ﴿ **وذلة في الحياة الدنيا** ﴾ إما بمزيد التغرب وإما بمواقف ذلة في الأرض التي هم فيها ﴿ **وكذلك نجزي المفترين** ﴾ أي الكاذبين على الله ﴿ **والذين عملوا السيئات** ﴾ أي من الكفر والمعاصي ﴿ **ثم تابوا** ﴾ أي رجعوا إلى الله ﴿ **من بعدها** ﴾ أي من بعد فعل السيئات ﴿ **وآمنوا** ﴾ أي أخلصوا الإيمان لله ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ أي من بعد السيئات أو التوبة ﴿ **لغفور** ﴾ أي لستور عليهم محّاء لما كان منهم ﴿ **رحيم** ﴾ أي منعم عليهم بالجنة . وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل وغيرهم ، عظّم جناياتهم أولًا ثم أردفها بتعظيم رحمته ليعلم أن الذنوب وإن عظمت فعفوه أعظم ، ولما كان الغضب لشدته كأنه هو الآمر لموسى بما فعل جاءت الآية بعد ذلك تقول : ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب** ﴾ أي ولما سكن غضب موسى ﴿ **أخذ الألواح** ﴾ التي ألقاها . ﴿ **وفي نسختها** ﴾ أي وفيما نسخ منها وعنها أو في النسخة التي استبدلت بها ﴿ **هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ . أي يخشونه ويخضعون له وقد ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام .

فوائـــد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا أنه لايكلمهم** ﴾ يقول ابن كثير : ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حبك الشيء يعمي ويصم » .

٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح » .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين** ﴾ قال سفيان بن عيينة : « كل صاحب بدعة ذليل » قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات

وطقطقت بهم البراذين .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها . فتلا هذه الآية : ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ ، فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها . ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **واختار موسى قومه** ﴾ أي من قومه ﴿ **سبعين رجلا لميقاتنا** ﴾ من أجل أن يعتذروا عن عبادة العجل ﴿ **فلما أخذتهم الرجفة** ﴾ . أي الزلزلة الشديدة ﴿ **قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل** ﴾ بما كان منهم من عبادة العجل ﴿ **وإياي** ﴾ لقتلي القبطي ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ أي أتهلكنا عقوبة بما فعل الجهّال منا وهم أصحاب العجل ﴿ **إن هي إلا فتنتك** ﴾ قال ابن كثير : أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك . قال ابن عباس . وسعيد بن جبير ، وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ولا معنى له غير ذلك يقول : إنْ الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا حكمك . فما شئت كان . تضل من تشاء ، وتهدي من تشاء ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ؛ فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر ﴿ **تضل بها من تشاء** ﴾ أي تضل بالفتنة من تشاء . أي من علمت منهم اختيار الضلال ﴿ **وتهدي من تشاء** ﴾ أي وتهدي بالفتنة من تشاء مَنْ علمت منهم اختيار الهدى ﴿ **أنت ولينا** ﴾ . أي مولانا القائم بأمورنا ﴿ **فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا** ﴾ أي وأثبت لنا واقسم ﴿ **في هذه الدنيا حسنة** ﴾ . أي عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة ﴿ **وفي الآخرة** ﴾ الجنة ﴿ **إنا هُدْنا إليك** ﴾ أي تبنا إليك ﴿ **قال عذابي أصيب به من أشاء** ﴾ . ممن لا أريد العفو عنه ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ أي ومن صفة رحمتي أنها واسعة تبلغ كل شيء . فما من مسلم ولا كافر إلا وعليه أثر رحمة الله في الدنيا ﴿ **فسأكتبها** ﴾ أي هذه الرحمة ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الشرك من أمة محمد ﷺ بدليل مابعده ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ المفروضة ﴿ **والذين هم بآياتنا** ﴾ أي بجميع كتبنا ﴿ **يؤمنون** ﴾ فلا يكفرون بشيء منها . ﴿ **الذين يتّبعون الرسول** ﴾ الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ﴿ **النبي** ﴾ صاحب المعجزات ﴿ **الأمّي الذي يجدونه** ﴾ أي يجدون نَعْته ﴿ **مكتوباً**

عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ﴾ بخلع الأنداد وإنصاف العباد ﴿ **وينهاهم عن المنكر** ﴾ كعبادة الأصنام وقطيعة الأرحام ﴿ **ويحل لهم الطيبات** ﴾ مما طاب في الشريعة مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وما خلا كسبه من السحت وما حرم على بني إسرائيل من الأشياء الطيبة كالشحوم وغيرها .

﴿**ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ أي : مايستخبث كالدم والميتة ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، أو ما خبث في الحكم كالربا والرشوة ونحوهما من المكاسب الخبيثة ﴿ **ويضع عنهم إصرهم** ﴾ الإصر الثقل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه عن الحراك لثقله والمراد التكاليف الصعبة كقتل النفس في توبتهم ، والتعامل مع الحائض وطقوس البرص والحكم على صاحبه . وأشياء أخرى كثيرة موجودة في أسفار موسى وغيره ﴿ **والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به** ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿ **وعزّروه** ﴾ أي وعظّموه أو منعوه من العدو حتى لايقوى عليه عدو ، وأصل العزر المنع ومنه التعزير لأنه منع عن معاودة القبيح كالحد فهو المنع ﴿ **ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه** ﴾ أي القرآن فاجتمع لهم اتباع القرآن المنزّل مع اتباع النبي المرسل ، والعمل بسنته ﴿ **أولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون بكل خير والناجون من كل شر .

﴿ **قل ياأيها الناس** ﴾ جميعاً من عرب وعجم وأبيض وأسود وأصفر﴿ **إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ بلا استثناء ﴿ **الذي له ملك السموٰات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت** ﴾ هذا هو شأن الإله الحق فمن ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة ومن كان يقدر على الإحياء والإماتة كان هو الإله على الحقيقة ، وهذا الإله هو الذي أرسل محمداً ﷺ إلى الناس جميعاً ومن ثم أمر الله الناس جميعاً . بقوله : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي** ﴾ وذلك من أعظم أدلة رسالته أن يكون من لايقرأ ولا يكتب صاحب هذه الرسالة الجديدة وما فيها من الهدى والإعجاز ﴿ **الذي يؤمن بالله وكلماته** ﴾ أي النبي الذي يصدّق بالله وبكتبه المنزّلة وفي هذا الالتفات من الحاضر إلى الغائب كثير من دقائق البلاغة لايعرفها إلا العالمون ، فمثلًا لم يقل فآمنوا بالله وبي مع أن ماقبله ﴿ **إني رسول الله إليكم** ﴾ لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه ولما في الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أن الذي وجب الإيمان به هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمي ، الذي يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان أنا أو غيري ؛ إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه ﴿ **واتبعوه** ﴾ أي : اسلكوا طريقه واقتفوا أثره أي : اجمعوا مابين الإيمان به والاتباع له ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

فوائد حول الآية :

١ – إن من أظهر أدلة رسولنا – عليه الصلاة والسلام – كونه أمّياً ، ومع أميته رافق نبوته هذا القرآن الذي لا تنتهي عجائبه ، ورافق نبوته هذه السنة العظيمة التي لاتحصى جوانب الكمال فيها ، فإذا ما كانت هذه كلها مرافقة لأمّيته ، وإذا كان هذا يصدق الكتب السابقة – بل يستوعبها كلها ويزيد عليها – فإن إنساناً عاقلاً لايشك بعد ذلك أن محمداً ﷺ رسول الله ، وأن هذا كله ، مع مامكّن الله لرسوله ماكان ليكون لولا أن الله المحيط علماً بكل شيء ، والقادر على كل شيء ، هو الذي بعث هذا الرسول الكريم .

٢ – وبمناسبة هذه الآية يذكر ابن كثير بعض الأحاديث ننقل منها مايكفي عن مجموعها ، ننقلها بعد مقدمة من كلامه قال : وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، والآيات في هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم . قال البخاري رحمه الله في تفسير هذه الآية : عن أبي الدرداء : كانت بين أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما محاورة . فأغضب أبو بكر عمرَ . فانصرف عنه عمر مغضباً ، فأتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه . فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ – فقال أبو الدرداء ونحن عنده – فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر علي ماكان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ قال أبو الدرداء : وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول : والله يارسول الله لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل أنتم تاركولي صاحبي ؟ إني قلت : ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً فقلتم : كذبت . وقال أبو بكر : صدقت » وروى الإمام أحمد بإسناد قوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلي ، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه ، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم : « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي ، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامّة وكان مَنْ قبلي إنما يرسل إلى قومه ، ونُصرت على العدو بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملىء مني رعبا . وأحلت لي الغنائم آكلها . وكان من قبلي يعظمون أكلها ، كانوا يحرقونها ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت ، وكان من قبلي يعظمون ذلك ، إنما كانوا

يصلون في بيعهم وكنائسهم . والخامسة هي ماهي . قيل لي : سل فإن كل نبي قد سأل . فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أنْ لا إله إلا الله » وفي صحيح مسلم ... عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لايسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار . »

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **ومن قوم موسى** ﴾ أي من بني إسرائيل . ﴿ **أمة** ﴾ أي طائفة ﴿ **يهدون بالحق** ﴾ أي يهدون الناس محقين أو بسبب الحق الذي هم عليه ﴿ **وبه يعدلون** ﴾ أي وبالحق يعدلون بينهم في الحكم كعبد الله بن سلام وأضرابه . وبعض المفسرين يغربون في هذا المقام ، والحق ما ذكرناه في تفسيرها .

فوائد حول المقطع :

١ - التبشير برسول الله ﷺ ، وموسى والسبعون يعتذرون عن عبادة العجل إشعار لهم : بأن أمة خيراً منكم هي التي تستحق رحمته الشاملة ، وقد تم هذا التبليغ في موقف ليس فيه أمامهم مايرون أنهم جديرون بهذه الرحمة الشاملة بعد إذ انحرفوا هذا الانحراف الفظيع .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ يذكر ابن كثير مارواه الإمام أحمد عن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عَقَلَها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ، ثم نادى : اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً . فقال رسول الله ﷺ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا ما قال ؟ » قالوا : بلى قال : « لقد حَظَرْت رحمةً واسعة ، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق ، جنها وإنسها وبهائمها ، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويحرم عليهم الخبائث** ﴾ . قال ابن كثير : قال بعض العلماء : فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ماحرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين ، وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين ، وأجيب عن ذلك بما لايتسع هذا الموضع له ، وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع في حل المآكل التي لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى مااستطابته العرب في حال رفاهيتها . وكذا في جانب التحريم إلى ما استخبثته ، وفيه

كلام طويل أيضاً .

٤ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم** ﴾ قال ابن كثير : أي أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طُرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » . قال ﷺ لأميريه معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن : « بشِّراً ولا تنفِّرا ، ويسِّر ولا تعسِّرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » وقال صاحبه : أبو برزة الأسلمي : « إني صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره » ، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم ، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « وإن الله تجاوز لأمتي ماحدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل » . وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ يذكر ابن كثير كلاماً كثيراً ننقل منه مايحقق الغرض ، قال ابن كثير : وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشَّروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما قال الإمام أحمد .. عن أبي صخر العقيلي قال : حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جَلْوَبَةً إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعتي قلت لألقينَّ هذا الرجل فَلَأسمعن منه . قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ، ناشر التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟ » . فقال برأسه هكذا ، أي لا . فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم وَلي كفنه والصلاة عليه . هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس . وقال الحاكم صاحب المستدرك : عن هشام بن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة ــ يعني غوطة دمشق ــ فنزلنا على جَبلة بن الأيهم الغساني ، فدخلنا عليه ، فإذا هو على سرير له ، فأرسل إلينا برسوله نكلمه ، فقلنا : والله لانكلم رسولاً ، وإنما بعثنا إلى الملك ، فإذا أذن لنا كلمناه ، وإلَّا لم نكلم الرسول . فرجع إليه الرسول فأخبره بذلك ، قال : فأذن لنا فقال : تكلموا . فكلمة هشام بن العاص ، ودعاه إلى

الإسلام ، فإذا عليه ثياب سود ، فقال له هشام : وما هذه التي عليك ؟ فقال : لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام ، قلنا ومجلسك هذا ، والله لنأخذنه منك ، مُلك الملك الأعظم إن شاء الله . أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال : لستم بهم ، بل هم قوم يصومون بالنهار ، ويقومون بالليل ، فكيف صومكم ؟ فأخبرناه فملىء وجهه سواداً فقال : قوموا . وبعث معنا رسولاً إلى الملك ، فخرجنا حتى إذا كنا قريباً من المدينة ، قال لنا الذي معنا : إن دوابكم هذه لا تدخل مدينة الملك ، فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال . قلنا والله لا ندخل إلا عليها . فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلكَ فأمرهم أن ندخل على رواحلنا ، فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا ، حتى انتهينا إلى غرفة له ، فأنخنا في أصلها وهو ينظر إلينا ، فقلنا : لا إله إلا الله والله أكبر ، فالله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عِذق ، تصفّقه الرياح فأرسل إلينا : ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم . و أرسل إلينا أن ادخلوا . فدخلنا عليه وهو على فراش له ، وعنده بطارقته من الروم ، وكل شيء في مجلسه أحمر ، وماحوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة ، فدنونا منه فضحك ، فقال : ماكان عليكم لو حييتمونا بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام ، فقلنا : إن تحيتنا فيما بيننا لاتحل لك ، وتحيتك التي تحيّىٰ بها لاتحل لنا أن نحييك بها ، قال : كيف تحيتكم فيما بينك ؟ قلنا : السلام عليك . قال وكيف تحيون ملككم ؟ قلنا : بها قال : وكيف يرد عليكم ؟ قلنا : بها قال : فما أعظم كلامكم ؟ قلنا : لا إله إلا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها – والله يعلم – لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه إليها قال فهذه الكلمة التي قلتموها حيث انتفضت الغرفة كلما قلتموها في بيوتكم تنفضت عليكم غرفكم ؟ قلنا : لا ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك قال : لوددت أنكم كلما قلتم تنفض كل شيء عليكم ، وإني قد خرجت من نصف ملكي ، قلنا : لم ؟ قال لأنه أيسر لشأنها ، وأجدر أن لا تكون من أمر النبوة ، وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه . ثم قال كيف صلاتكم وصومكم ؟ فأخبرناه ، فقال : قوموا فقمنا فأمر لنا بمنزل حسن ونُزُل كثير ، فأقمنا ثلاثا ، فأرسل إلينا ليلاً فدخلنا عليه ، فاستعاد قولنا فأعدناه ، ثم دعا بشيء كهيئة الرَّبْعَة العظيمة مذهبة ، فيها بيوت صغار عليها أبواب ، ففتح بيتاً وقفلاً فاستخرج حريرة سوداء فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله ، فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا آدم عليه السلام ، وإذ هو أكثر الناس شعراً . ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، وإذا فيها

صورة بيضاء ، وإذا له شعر كشعر القطط ، أحمر العينين ، ضخم الهامة ، حسن اللحية ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا نوح عليه السلام ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج حريرة سوداء ، وإذا فيها رجل شديد البياض ، حسن العينين ، صَلْت الجبين أي واسع الجبين طويل الخد ، أبيض اللحية كأنه يبتسم ، فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فإذا فيه صورة بيضاء ، وإذا والله رسول الله ﷺ فقال : أتعرف هذا ؟ قلنا : نعم : هذا محمد رسول الله ﷺ قال وبكينا . قال : والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس وقال : والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم إنه لهو كأنك تنظر إليه ، فأمسك ساعة ينظر إليها ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عجَّلْته لكم لأنظر ما عندكم . ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فإذا فيها صورة أدماء سحماء ، وإذا رجل جعد قطط ، غائر العينين ، حديد النظر ، عابس متراكب الأسنان ، متقلص الشفة كأنه غضبان ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال : هذا موسى عليه السلام ، وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس أي : دهين الشعر عريض الجبين في عينيه قَبَل هو إقبال السواد على الأنف . فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال : هذا هارون بن عمران عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان . فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا لوط عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أبيض مُشْرَب حمرة ، أقنى [أي : طويل الأنف محدودب في وسطه] خفيف العارضين ، حسن الوجه فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا إسحاق عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خَال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ : قلنا : لا قال : هذا يعقوب عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة رجل أبيض ، حسن الوجه ، أقنى الأنف ، حسن القامة ، يعلو وجهه نور ، يعرف في وجهه الخشوع ، يضرب إلى الحمرة . قال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا إسماعيل جدّ نبيكم ﷺ ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة تشبه إسحاق إلا أنه على شفته خال ، فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا يعقوب عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا بها صورة كصورة آدم ، كأن وجهه الشمس فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا يونس عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فإذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين ،

أخفش العينين ، ضخم البطن ، ربعة متقلد سيفاً فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا داود عليه السلام ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة بيضاء ، فيها صورة رجل ضخم الأليتين ، طويل الرجلين ، راكب فرساً فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال هذا : سليمان بن داود عليهما السلام ، ثم فتح باباً آخر ، فاستخرج منه حريرة سوداء ، فيها صورة بيضاء ، وإذا شاب شديد سواد اللحية ، كثير الشعر ، حسن العينين ، حسن الوجه فقال : هل تعرفون هذا ؟ قلنا : لا قال : هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، قلنا : من أين لك هذه الصور ؟ لأنا نعلم أنها على ماصورت عليه الأنبياء عليهم السلام لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله ، فقال : إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده ، فأنزل عليه صورهم فكانت في خزانة آدم عليه السلام ، عند مغرب الشمس ، فاستخرجها ذو القرنين من مغرب الشمس ، فدفعها إلى دانيال ثم قال : أما والله إن نفسي طابت بالخروج من ملكي ، وإني كنت عبداً لأشرّكم ملكة ، حتى أموت ، ثم أجازنا فأحسن جائزتنا ، وسرّحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا ، قال : فبكى أبو بكر وقال : مسكين لو أراد الله به خيراً لفعل ثم قال : أخبرنا رسول الله ﷺ أنهم واليهود يجدون نعت محمد ﷺ عندهم . وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي رحمه الله في كتاب دلائل النبوة عن الحاكم إجازة فذكره ، وإسناده لا بأس به . وروى ابن جرير .. عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله ابن عمر فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال : أجل والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن ﴿ **يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً** ﴾ وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ، ليس بفظٍ ولا غليظ ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به قلوباً غلفاً ، وآذاناً صماً ، وأعيناً عمياً . قال عطاء : ثم لقيت كعباً (أي كعب الأحبار) فسألته عن ذلك فما اختلف حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته ، قلوباً غلوفياً ، وآذاناً صمومياً ، وأعيناً عمومياً . وقد رواه البخاري في صحيحه ، وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، وذكر حديث عبدالله بن عمرو ثم قال : ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب . وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا . والله أعلم .

٦ — علمنا من الآيات الأخيرة في المقطع صفة أمتنا التي استحقت بها الرحمة ، وصفة

رسولنا في التوراة والإنجيل ، فإذا ما أردنا أن ننال ما كتبه الله لنا من الرحمة ، فعلينا بالتقوىٰ والزكاة والإيمان والاتباع لرسول الله ﷺ وتعزيره ونصرته وتعظيمه وفي كتابنا الرسول في فصل البشارات ، نقلنا ما له علاقة في التبشير برسولنا في كتب أهل الكتاب فلا نعيده هنا .

نظرة في كتاب العهد القديم فيما يخص المقطع :

موضوعات هذا المقطع موجودة في سفر الخروج - تقريباً - هي في موضوع هذا المقطع الذي مر معنا مع زيادات حول بعض التعليمات وبعض التوصيات ، وخاصة في موضوع صناعة اللوازم الضرورية لإقامة الطقوس الدينية ، والتي تستغرق صفاتها كثيراً من إصحاحات سفر الخروج . وفي السفر كلام مضطرب جداً حول الموضوعات التي ذكرها المقطع القرآني ، والتحريف فيه والاضطراب واضحان ، ويكفيك لإدراك هذا الاضطراب دراسة هذين النصين منه :

في الإصحاح الرابع والعشرين في سفر الخروج :

(ثم أصعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا) . وفي الإصحاح الثالث والثلاثين أي بعد تسعة إصحاحات . هذا النص : (فقال - أي موسى - أرني مجدك فقال أُجيز كل جُودَتي قدامك وأنادي باسم الرب قدامك وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم وقال : لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش ، وقال الرب هو ذا عندي مكان فتقف على الصخرة ويكون متى اجتاز مجدي إني أضعك في نقرة في الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى) من هذين النصين ندرك التناقض السافر . ففي النص الأول تجد أن موسى وهارون ... قد رأوا الله ، وههنا يطلب موسى الرؤية ، فيقال له لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش .

فلم يبق في هذه الكتب مايستطيع الإنسان أن يعتمده كمرجع أو حتى يستأنس به إلا في أمور ، ومن فضل الله على البشرية كلها أن أنزل كتابه الحق ليبين للناس الحق ، وإن مما في هذا القرآن من إعجاز أنك ترى - تقريباً - كل أسفار موسى الخمسة ، وكل مافي العهد القديم تقريباً ، وكثيراً مما في العهد الجديد قد عرض القرآن الحق فيه . فعندما تقرأ

العهد القديم والجديد نادراً ما تجد غريباً عليك ، إذا كنت قد قرأت القرآن ، هذا مع البُعد عن التناقض، ومع العرض العظيم الذي لاتنتهي عجائبه ، مما يحقق مجموعة أهداف بآن واحد ، ومع كون القرآن هو الصيغة الكاملة للحق ، والصيغة الوحيدة للأحداث كما هي ، محررة مما طرأ عليها من عوادي التحريف . ذكر معجم لاروس في اللغة الفرنسية كلاماً كثيراً عما يُسمى الكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والعهد الجديد ، ومما يقوله عن العهد القديم أن أول ترجمة إلى الإغريقية كانت ترجمة اشترك فيها (٧٢) عالما عبريا ، وعرفت ترجمتهم باسم الترجمة السبعينية . ثم قال : وفي القرن الرابع الميلادي ترجم العهد القديم إلى اللاتينية من قبل القديس جيروم بعد أن صحح الترجمة السبعينية ، ثم قال عن ترجمة جيروم : أنها اعتُبرت مزيفة من قبل اليهود والبروتستانت ثم يقول : إن مصلحي القرن السادس عشر رفضوها مع ملاحظة أن هذه الترجمة هي الأصل المعتمد لدى الكنيسة خلال العصور حتى ظهور البروتستانت ، ولا زالت معتمدة لدى الكاثوليك حتى الآن ، فإذا عرفنا هذا ، وعرفنا أن مايعتمده يهود السامرة غير ما يعتمده بقية اليهود في التوراة وغيرها . وعرفنا أن هذه الأسفار كلها هي كتابة المتأخرين من اليهود ، وأن كثيراً من التوراة الأصلية قد ضاع من اليهود ، حتى في زمن دولتهم وسلطانهم . ثم عثروا عليها في زعمهم في أواخر دولتهم كما سنرى .

وإذا عرفنا أن هذه الأسفار كتبت من المحفوظات في أواخر أيام السبي البابلي ، أدركنا القيمة الحقيقية لهذه الكتب ، فإذا مارأينا هذا القرآن يقدّم لنا الحق الخالص ، بالوضوح الكامل لكل مايلزم الإنسان أن يعرفه من وحي الله القديم ، أو قصص السابقين ، أدركنا عظمة هذا القرآن ، وعرفنا كيف أن الله أغنانا بهذا القرآن ، وبما أوحاه لنا عن كل وحي سابق ، وعن كل كتاب سابق ، ولولا فتنة عصرنا ، وإذْن رسولنا أن نتحدث عن بني إسرائيل ، ولولا أننا نجد أحياناً بقايا من الحق في كتبهم لما سمحنا لأنفسنا أن ننظر أو أن نكتب أو أن ننقل .

ولنرجع إلى موضوع المقطع : إن أواخر سفر الخروج لها علاقة في مقطعنا : من خروج موسى إلى الجبل لميقات ربه ، وذهاب السبعين ، وأخذ الألواح ، وعبادة العجل ، وكسر الألواح أول مرة ، وكتابة نسخة ثانية بدلًا عنها ، وطلبه النظر إلى وجه الله . ولكن كل ذلك باضطراب ، وعدم وضوح ، وكذب كثير ، ونقص كثير ، ففي هذا السفر ينسبون إلى هارون - كذباً - أنه هو الذي صنع لهم عجل الذهب ، وعبده معهم ، ولكنهم يذكرون كيف أنهم قتلوا أنفسهم توبة ، والموقف الذي فيه ماحدث

للسبعين كله محذوف ههنا مع ذكر السبعين في مكان آخر ، وصعودهم إلى الجبل . ويظهر أنهم تعمّدوا حذف هذا الموقف وتغيير موقعه ؛ لأن فيه البشارة بالنبوة الأخيرة ، وما نقلناه من كلام كعب الأحبار ، وكلام عبد الله بن عمرو ، وقصة الغلام اليهودي ، وما نعرفه عن سبب قصة إسلام عبد الله بن سلام ، كل ذلك يدل على أنه كانت هناك نُسَخ من التوراة قديمة ليس فيها هذا الحذف ، ثم الملاحظ أن المكتوب على اللوحين لم تذكر ماهيته ولكن في فقرة سننقلها قريباً : (فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشر) فإذا صح هذا فهذا يرجّح الوجه الثاني مما ذهب إليه المفسرون : أن الألواح غير التوراة ، وأن التوراة نزلت متأخرة على نزول اللوحين ، فإذا كانت التوراة هي مانراه مبثوثاً خلال الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم . مما ذكر فيه أنه أوامر الله لموسى من أجل أن يبلغها بني إسرائيل ، مع ملاحظة ما حدث لها من تحريف ، فحتماً تكون الألواح غير التوراة والله أعلم .

وبعد ذكر هذه الملاحظات كلها أصبح باستطاعتنا أن ننقل بعض النقول من سفر الخروج مما له علاقة بغرضنا :

في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج :

(وقال الرب لموسى اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم . فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا حتى نرجع إليكم وهو ذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما . فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل . وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام ، وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب . وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل . ودخل موسى في وسط السحاب وصعد إلى الجبل . وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة) .

وفي الإصحاح الحادي والثلاثين : (ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي حجر مكتوبين بأصبع الله) .

وفي الإصحاح الثاني والثلاثين : (فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته في أرض مصر : زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلًا مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك في

أرض مصر . وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة) .

وفي الإصحاح نفسه : (فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة في يده . لوحان مكتوبان على جانبيهما . من هنا ومن هنا كانا مكتوبين . واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين . وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه . فقال لموسى صوت قتال في المحلة : فقال ليس صوت صياح النعرة ولا صوت صياح الكسرة . بل صوت غناء أنا سامع . وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص . فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذي صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعماً وذرّاه على وجه الماء وسقى بني إسرائيل) .

ثم يأتي في هذا الإصحاح كلام عن اعتراف هارون بصناعة العجل وحكمة ذلك ، وحاشا هارون الرسول أن يكون عابد عجل أو صانع عجل للعبادة ولكنه دأب اليهود عليهم اللعنة في تخليطهم على الأنبياء ، وعدم معرفة عصمتهم ثم في الإصحاح نفسه :

(وقف موسى في باب المحلة : وقال من للرب فإلي . فاجتمع إليه جميع بني لاوي : فقال لهم : هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب في المحلة واقتلوا كل واحد أخاه صاحبه وكل واحد قريبه ، ففعل بنولاوي بحسب قول موسى . ووقع من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل . وقال موسى املؤوا أيديكم اليوم للرب . حتى كل واحد بابنه وبأخيه ، فيعطيكم اليوم بركة .

وكان في الغد أن موسى قال للشعب أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . فاصعد الآن إلى الرب لعلي أكفّر خطيئتكم .

وفي هذا المقام يأتي دور السبعين الذين ذكروا في موقف سابق كذباً وزوراً ولكنه الاضطراب في النقل والكذب فيه . ثم في الإصحاح الثالث والثلاثين يذكر فيه طلب موسى من الله أن يراه مع أن الطلب كان قبل ذلك في اللقاء الذي دام أربعين يوماً وليلة وقد نقلنا النص من قبل .

وفي الإصحاح الرابع والثلاثين : (ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التي كانت على اللوحين الأولين اللذين

كسرتهما) ، فهل هذا هو المراد بنسخة الألواح التي ذكرها القرآن ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ يمكن أن تكون المسألة كذلك .

وفي الإصحاح نفسه : (وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات .لأنني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء . فكتب على اللوح كلمات العهد الكلمات العشر . وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع في كلامه معه . فنظر هارون وجميع بني إسرائيل . وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى فرجع إليه هارون وجميع الرؤساء في الجماعة ، فكلمهم موسى . وبعد ذلك اقترب جميع بني إسرائيل فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعاً . وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج . ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصي . فإذا رأى بنو إسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع كان يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه) .

ومن تتبع كتب أهل الكتاب يجد أن مايرد في كتبهم إنما هو خليط ومضطرب ومتناقض ، ولا ينم عن صدق النقلة ، ولا عن صحة المنقول ، وستأتيك وثائق ذلك شيئاً فشيئاً في هذا الكتاب . وإنما ننقل بعض النقول عنهم إما للردّ وإما للاستئناس .

فصل : في البشارة برسول الله ﷺ :

رأينا في المقطع الذي مرّ معنا أن البشارة برسولنا عليه الصلاة والسلام قد جاءت على الجبل ، وموسى والسبعون في موقف الاعتذار ، وقد وردت قصة السبعين في أكثر من مكان من الأسفار الخمسة التي يدّعى أنها توراة موسى ، وفي مكان واحد ، تذكر البشارة بالرسول القادم . وإن هذا وحده لمعجزة .

فإذ تجد الأسفار الخمسة تغفل هذا المعنى أحياناً ، وتذكره أحياناً في ذلك المقام ، فذلك حجة على أن هذا القرآن من عند الله ، فالمقطع السابق استقر على التبشير بمحمد ﷺ وأمته وأن هذا التبشير كان في جبل سيناء ، إذ كان موسى مع السبعين من قومه في موقف الاعتذار عن عبادة العجل . والملاحظ أن سفر الخروج لم يتعرض لهذا الموضوع إطلاقاً ، وإنما الذي تعرض لذلك هو سفر التثنية ، فقد ذكر البشارة بالرسول القادم ،

وذكر أن هذه البشارة كانت على جبل سيناء . أي في حوريب . وهذه هي البشارة التي وردت في سفر التثنية في الإصحاح الثامن عشر .

(يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من أخوتك مثلي . له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلًا لأعود أسمع صوت الرب إلهي ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت . قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به بأنني أنا أطالبه . وأما النبي الذي يطغى فيتكلم كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي . وإن قلت في قلبك كيف تعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب . فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه .) .

هذه البشارة حتماً قد تلوعب بها كثيراً . ومع كثرة التلاعب بها فإنها لا تنطبق إلا على رسولنا عليه الصلاة والسلام فهو الذي جعل الله كلامه في فمه وهو القرآن . وهو الذي كان من إخوة بني إسرائيل . أي من أبناء إسماعيل ، وهو الذي كان مثل موسى ، ذا شريعة مستقلة . وكتاب مستقل . وهو الذي أخبر عن غيوب كثيرة . ووقعت كما أخبر ، وهي علامة الرسول الصادق بحسب هذه البشارة . وفي كتابنا (الرسول) التفصيلات الكافية فليراجع . ونكتفي هنا بالقول : إن ذكر القرآن أن التبشير بالرسول القادم وأمته كان على جبل الطور بمثل هذه الدقة نموذج يدلك على أن هذا الإعجاز في هذا القرآن لا يتناهى . فمن أين نظرت إليه وجدت معجزة وإعجازاً .

كلمة في السياق :

في هذا المقطع نرى أمة من الأمم ، فعل الله لها ما لم يفعل لغيرها ، ومع ذلك فإنها تسارع إلى الشرك الذي هو الانحراف الأعظم عن الهدىٰ المنزل .

وفي هذا المقطع نرى البشارة بالرسالة الخاتمة التي ستأتي بالصيغة النهائية للحق الذي سينزله الله على محمد ﷺ وأمته . وفي هذا المقطع بيان أن الفلاح بعد بعثة محمد ﷺ معلّق باتّباعه ونصرته . وكل ذلك ماض على سنن السورة في تفصيل محورها .

﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ومحلّ المقطع في سياق السورة الخاص ومحلّه في السياق القرآني العام لا يكاد يخفى فلننتقل إلى المقطع الرابع وهو الأخير من القسم الثاني من سورة الاعراف .

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع في القسم الثاني

يمتد هذا المقطع من الآية (١٦٠) إلى نهاية (١٧١) حيث ينتهي القسم الثاني في السورة ليأتي القسم الثالث وهذا هو المقطع :

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ * وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

كلمة في سياق المقطع :

يبدأ المقطع بفقرة بدايتها ﴿ **وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطاً** ﴾ وينتهي بفقرة بدايتها ﴿ **وقطّعناهم في الأرض أمماً** .. ﴾ وقد سبق هذا المقطع بآية هي : ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ وهي تأتي بعد البشارة برسول الله ﷺ ، وبعد دعوة الناس للإيمان برسول الله ﷺ لتعيد السياق إلى موضوعه الرئيسي عن بني إسرائيل ،

فالمقطع هنا بمثابة الاستمرار للكلام عن بني إسرائيل في عهد موسى ، وفيما بعد موسى ، وكيف أن الانحراف قد استقر في النهاية عند بني إسرائيل حتى استحقوا العقوبة الدائمة ، هذا مع أنّه أخذت عليهم أغلظ المواثيق في أشد الحالات ، ومن أول آية في الكلام عن بني إسرائيل في السورة رأينا قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ وفي المقطع الثاني رأينا قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس** ﴾ وفي هذا المقطع نرى قوله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر** .. ﴾ مما يفيد أن عرض قصة بني إسرائيل يهدف إلى إعطاء دروس لهذه الأمة .

وهذا المقطع كغيره من المقاطع يرينا أمّة أنزل عليها وحي ، فانحرفت ، فعوقبت ، وارتباط ذلك بمحور السورة واضح .

المعنى العام :

يخبر تعالى عن بني إسرائيل أنّه قطّعهم اثنتي عشرة سبطاً ، وأمر موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً . لكل سبط عين ، وأكرمهم بتظليل الغمام عليهم ، وأكرمهم بإنزال المنّ وإرسال السلوى ليأكلوا حلوى ولحماً من فضله ، ومع ذلك ظلموا أنفسهم بالشرك وغيره . ثم فتح لهم البلاد التي وعدهم إياها ، وبدلاً من أن يشكروا الله بطاعته على الفتح ، حرّفوا وبدّلوا فعُذّبوا . فناس هذا شأنهم يرون المعجزات ، ويعيشون بالنعم ، ويتقلبون بالعناية والرعاية ، ثم لا يكون من الكثير منهم إلا الظلم . أمة هذا شأنها لا يستغرب ألا تستجيب لرسول الله ﷺ كما أنه لا يستغرب أن تعَذّب .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يسألهم عن قرية من قراهم ، كيف كانت تحتال على أمر الله لتحرِّفه ، متظاهرة بالطاعة صورة ، ومخالفة معنى ، كيف فعل الله ، بالظالمين منهم والساكتين عن المنكر فيهم . وفي ذلك توكيد أن هذه الأمة قسمان : قسم مهتد ، وقسم ضال . فلا عجب أن يكفر الكثير منهم بالدعوة الجديدة ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يذكرهم بما هدّدهم به إن انحرفوا أن يسلّط عليهم من يعذبهم إلى يوم القيامة ، وقد انحرفوا وقد فعل ، وهذا تذكير لهم بأن عليهم أن يدخلوا في دين محمد ﷺ . ثم أخبر تعالى كيف أنه فرَّقهم في الأرض كلها طوائف مشتتة ممزعة ، وكيف أنه اختبرهم بالرخاء ، والشدة ، والرغبة ، والرهبة ، والعافية ، والبلاء من أجل أن يرجعوا إلى الله . وأنه خلف من بعد ذلك الجيل الذي فيهم الصالح والطالح خَلْف آخر ، لا خير فيهم ، قد ورثوا دراسة الكتاب ، ومع ذلك فهم يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعَرَض الحياة

الدنيا ويسوِّفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم عرض دنيوي تراموا عليه ، فلا يتاح لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالًا كان أو حراماً ، يتمنون المغفرة ، ولا يتوبون التوبة النصوح مع أن الله أخذ عليهم الميثاق ليُبيننَّ الحق للناس ولا يكتمونه ، ولكنهم لاعقل لهم . ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، مع إقام الصلاة ، فهذا هو المصلح الحقيقي ومن هذه الجولة ندرك أن أمة هذا شأنها في كونها تغلّب أمر الدنيا على الآخرة شيء عادي أن ترفض الدعوة الجديدة .

ثم أمرهم تعالى أن يتذكروا إذ رفع فوقهم الجبل من أجل أن يأخذوا بأحكام التوراة ويعملوا بما فيها ليكونوا من المتقين . وفي هذا التذكير دعوة للدخول في الدين الجديد وتهديد لهم إن لم يفعلوا .

وهذا المقطع بسياقه هذا يحقق ثلاثة أهداف . الهدف الأول : أنه يتمم الكلام عن بني إسرائيل ، ومواقفهم من الهدى المنزَّل عليهم ، وانحرافهم عنه ، وما عوقبوا به نتيجة لذلك . وفي هذا درس لهذه الأمة من هذه الحيثية .

والهدف الثاني : أن هذه المعاني عرضت في سياق الأمر لرسول الله ﷺ أن يدعو الناس لدينه واليهود من المدعوين وفي الكلام عنهم بهذا العرض لا يستغرب رفضهم للدعوة الجديدة ، وهذا مهم جداً ، إذ إن اليهود هم شهود على صدق هذه الرسالة ، فموقف الرفض منهم قد يؤثر على مواقف الناس ، فأن يذكر من أخلاقهم ما لا يستغرب معه كفرهم بالدعوة الجديدة ، فذلك شيء مهم في التمكين لهذه الدعوة .

والهدف الآخر هو الهدف المباشر من هذا النص وهو هذه الأمة أن تترفّع عما وقعت فيه الأمم من انحراف وأن يرتفع أفراد هذه الأمة عما وقع فيه أفراد من أمم أخرى .

المعنى الحرفي :

﴿ وقطّعناهم ﴾ أي وصيرناهم مميزين بعضهم عن بعض **﴿ اثنتي عشْرةَ أسباطاً ﴾** كقولك اثنتي عشرة قبيلة والأسباط : أولاد الولد والمراد هنا وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط فوضع أسباط موضع قبيلة **﴿ أمما ﴾** أي وقطعناهم أمما لأن كل سبط كان أمة عظيمة وكل واحدة كانت تؤم خلاف ماتؤمه الأخرى **﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقٰهُ قومه أنْ اضرب بعصاك الحجر فانبجست ﴾** أي فانفجرت **﴿ منه**

اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم ﴾ أي لكل سبط مشربه ﴿ **وظللنا عليهم الغمام** ﴾ أي وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه ﴿ **وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى** ﴾ المن : حلوى . والسلوى : طير وسيأتي الكلام عن ذلك ﴿ **كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾ أي قلنا لهم ذلك ﴿ **وما ظلمونا** ﴾ أي وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي ولكن كانوا يضرون أنفسهم ويرجع وبال ظلمهم إليهم ، دل ذلك على أنهم قابلوا نعم الله عليهم بالكفران ، وقوم هذا شأنهم - حتى مع رسولهم ومع كثرة الآيات أمامهم - هل يستغرب أن يرفضوا الدعوة الجديدة ، والدين الجديد ، ويظلموا أنفسهم بالكفر بالرسول الجديد للإنسانية كلها ، فياأيتها الأمة لاتستغربي مواقفهم ، وإياك أن تظلمي مثل ظلمهم .

فوائـد :

— في سفر العدد - وهو السفر الرابع من أسفار العهد القديم - في الإصحاح الأول منه . أمر الله لموسى (أحصوا كل جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء كل ذكر برأسه .. ويكون معكما رجل لكل سبط رجل هو رأس لبيت آبائه ...) وفي الإصحاح الثاني (وكلم الرب موسى وهارون قائلا ينزل بنو إسرائيل كل عند رايته) ثم يحدد الإصحاح موقف كل سبط ، فلعل هذا ماذكرته الآية بتقطيع بني إسرائيل إلى اثني عشر سبطا . وفي سفر العدد في الإصحاح العشرين منه كلام عن ضرب موسى الصخرة وانفجار الماء منها .

وفي سفر الخروج الإصحاح الخامس عشر :

(ثم جاء إلى إيليم وهناك اثنتا عشرة عين ماء ، وسبعون نخلة فنزلوا هناك عند الماء) ، وفي الإصحاح السابع عشر : (وعطش هناك الشعب إلى الماء وتذمّر الشعب على موسى ... فقال الرب لموسى مرّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ بني إسرائيل وعصاك التي ضربت بها خذها في يدك واذهب ها أنا أقف أمامك هنال على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ بني إسرائيل ...) .

وفي الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج كلام عن المنّ والسلوى .

(وفي الصباح كان سقيط النّدى حول المحلة ولما ارتفع سقيط النّدى إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور دقيق كالجليد على الأرض ودعا بيت إسرائيل اسمه منًّا وهو

كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كرقاق بعسل وكانوا يلتقطونه صباحاً فصباحاً كل واحد على حسب أكله وإذا حميت الشمس كان يذوب) وأما السلوى فقد ذكرت الإصحاح نفسه (فكلّم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بني إسرائيل كلمهم قائلًا في العشية تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً .... فكان في المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة) وليس في الأسفار وصف للسلوى والمعروف أن السلوى طير صغير أكبر من العصفور قليلًا وقد مرّ الكلام عنه (في سورة البقرة) بأنه السماني . وفي الإصحاح السادس عشر (وأكل بنو إسرائيل المنَّ أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة) . والقرآن يذكر هذه الحوادث في هذا السياق للتدليل على أن هذا الشعب كان يرى الآيات ، وتتوالى عليه النعم المباشرة من الله ، ومع ذلك كان يظلم ، من أجل ألّا تستغرب هذه الأمة كفر اليهود بدعوة الله الجديدة . وهي في الوقت إقامة حجة على هؤلاء ، ودعوة لهم وموعظة ، كي لا يسلكوا الطريق الخاطىء طريق آبائهم . ثم هي درس للمسلمين في ألا يسلكوا طريق هؤلاء .

﴿ **وإذ قيل لهم** ﴾ أي واذكر إذ قيل لهم . ﴿ **اسكنوا هذه القرية** ﴾ مر معنا في سورة البقرة الخلاف في المراد بهذه القرية ، لأن الله قد فتح لهم بلاداً كثيرة ، والراجح أنها بيت المقدس ﴿ **وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة** ﴾ أثناء الدخول ﴿ **وادخلوا الباب سجداً** ﴾ أي خاضعين راكعين ﴿ **نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين** ﴾ هذان وعدان وعد للجميع بالغفران إن أطاعوا ، ووعد للمحسنين خاصة بالزيادة ﴿ **فبدّل الذين ظلموا منهم قولًا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً** ﴾ أي عذاباً ﴿ **من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ . أي بسبب ظلمهم ، وفي هذا كذلك إشعار لهذه الأمة بألّا تستغرب رفض اليهود لدعوة الله ، وفي هاتين الآيتين وما قبلهما تذكير لهذه الأمة بألا تظلم نفسها بمعصية ربها ، وترك شكره ، وعدم تنفيذ أوامره . وفي هذه الآيات كلها نماذج على مواقف فاسدة من الهدى الرباني المنزل على أمة من الأمم .

فائـدة :

يبدو أن الأمر بدخول البلدة التي أمروا بالدخول إليها كان في زمن يشوع خليفة موسى عليهما السلام ، وسفر يشوع الذي بين أيدينا الآن لانستطيع الاعتماد على ما فيه كغيره ، لأن فيه العبارة التقليدية التي تفيد أن هذه الأسفار كتبت متأخرة وهي – إلى هذا اليوم – ففي الإصحاح السابع منه (فقال يشوع كيف كدّرتنا يكدرك الرب في

هذا اليوم فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوه بالنار ورموه بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم فرجع الرب عن حمو غضبه) . وأبرز مايركز عليه هذا السفر ويوضحه فتح أريحا وقد رأينا الاختلاف في القرية التي ذكرها النص القرآني . هل هي أريحا أو القدس ولو كان في تعيينها فائدة عملية لذكرها الله .

والحكمة في ذكر هذه البلدة هي العبرة في أن الله أنعم على أمة بنعمة عظيمة ، باستخلافها والفتح عليها . وكيف أنها تقابل ذلك بالمعصية بدل الشكر . وعلى كل حال فإن سفر يشوع يحدثنا : أن يشوع بعد أن سيطر على الأرض التي وعدها الله بني إسرائيل قسمها بين بني إسرائيل حسب أسباطهم ، وأمرهم أن يسكن كل سبط في المكان المحدد له . ويظهر أن وباءً ما قد أصاب بني إسرائيل عقب فتح أريحا . يدل على ذلك ماورد في الإصحاح الثاني والعشرين في سفر يشوع (أقليل لنا إثم فغور الذي لم نتطهر منه إلى هذا اليوم وكان الوباء في جماعة الرب) وإثم فغور إثم حدث بسبب غلول غله بعض بني إسرائيل بعد فتح أريحا وعاقب يشوع أصحابه ولكن الوباء لم ينزل بهذا السبب حتماً وإنما لشيء آخر ارتكبته الجماعة كلها والله أعلم .

ولنعد إلى السياق :

﴿ **واسألهم** ﴾ أي واسأل اليهود وهذا السؤال للتقريع والتذكير فهو تقريع لهم وتذكير بعقاب الله لمن خالف أمره . وتذكير لهذه الأمة بألا تتحايل على أمر الله فتستحل محارمه بحيلة ما ، وهو تذكير عام بعاقبة من يخالف أمر الله ، ويتنكر لهداه . ﴿ **عن القرية التي كانت حاضرة البحر** ﴾ أي قريبة منه أو على ساحله وأكثر المفسرين على أنها أيلة على خليج العقبة . وقد أحيا اليهود اسمها حالياً فسموا مدينتهم على خليج العقبة إيلات ﴿ **إذ يعدون في السبت** ﴾ أي يتجاوزون حدّ الله فيه وهو اصطيادهم في يوم السبت وقد نهوا عن العمل فيه فهتكوا حرمته . والمراد بالقرية أهلها . والمعنى واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت ﴿ **إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً** ﴾ أي ظاهرة على وجه الماء وذلك امتحان من الله لهم والمراد بيوم سبتهم يوم السبت الذي كلفهم الله بتعظيمه بترك الصيد والعمل ، وبالاشتغال بالتعبد حيث يظهر لهم السمك على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، ويختفي عنهم في اليوم المحلل لهم صيده ﴿ **ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم** ﴾ أي : مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي : بسبب فسقهم ﴿ **وإذ قالت أمة منهم** ﴾ أي : جماعة

من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما ركبوا الصعب والذلول في موعظتهم ، الآخرين لايقلعون عن وعظهم ﴿ **لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً** ﴾ وإنما قالوا ذلك لعلمهم أن الوعظ لاينفع فيهم ﴿ **قالوا معذرة إلى ربكم** ﴾ أي نحن نفعل ذلك تقديماً للعذر إلى الله لئلا ننسب في النهي عن المنكر إلى التفريط أي وعظناهم ليعذرنا الله ﴿ **ولعلهم يتقون** ﴾ أي ولطمعنا في أن يتقوا ﴿ **فلما نسوا ماذكروا به** ﴾ أي أهل القرية لما تركوا ماذكرهم به الصالحون ترك الناسي لما ينساه ﴿ **أنجينا الذين ينهون عن السوء** ﴾ أي من العذاب الشديد والذين قالوا (لم تعظون) من الناجين . فعن الحسن نجت فرقتان ، وهلكت فرقة ، وهم الذين أخذوا الحيتان ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا** ﴾ أي الراكبين للمنكر ﴿ **بعذاب بئيس** ﴾ أي شديد ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ أي بخروجهم عن طاعة الله وأمره ﴿ **فلما عتوا** ﴾ أي تمردوا ﴿ **عن مانهوا عنه** ﴾ عن الاعتداء في السبت ﴿ **قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ أي جعلناهم قردة أذلاء مبعدين . فهذا هو العذاب البئيس الذي أخذوا به وهو المسخ .

فوائـــد :

١ ـــ روى الإمام ابن بطة عن أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد جيد : أن رسول الله ﷺ قال : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيَل » .

٢ - عن ابن عباس روايتان في هلاك الساكتين إحداهما : قال : « كانوا أثلاثاً ثلث نهوا وثلث قالوا ﴿ **لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم . قال ابن كثير هذا إسناد جيد عن ابن عباس ، ولكن رجوعه إلى رأي عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك .

٣ - أمر الله رسوله ﷺ أن يسأل بني إسرائيل عن هذه القرية كما قلنا للتقريع والتذكير وإلا فقد أعلم الله رسوله بحالهم ، ويبدو أن القصة مشهورة متداولة عند اليهود ، ولذلك كان التذكير بها يؤدي غرضه في قلوبهم ، إن كان لهم قلوب وليس في أسفار العهد القديم الموجودة بين أيدينا إشارة إلى هذه الحادثة . فلعل شهرتها عندهم ترجع إما لأنها متوارثة فيهم ، أو لأنها مذكورة في كتبهم الأخرى . وقد ذكرنا في سورة البقرة النصوص التي تدل على أن من مسخ منهم مات بعد ثلاثة أيام . ولنذكر هنا ماروأه عبد الرزاق عن عكرمة عن ابن عباس في شأن هذه القرية . قال عكرمة : جئت

ابن عباس يوماً وهو يبكي ، وإذا المصحف في حجره ، فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت : مايبكيك ياابن عباس جعلني الله فداك ؟ قال : فقال . هؤلاء الورقات . قال : وإذا هو في سورة الأعراف . قال : تعرف أيلة ؟ قلت : نعم . قال . فإنه كان بها حي من اليهود ، وسبقت الحيتان إليهم يوم السبت ، ثم غاصت لايقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كدٍّ ومؤنة شديدة ، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم . فكانوا كذلك برهة من الدهر إذ الشيطان أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ، فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام . فقالت ذلك طائفة منهم ، وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت ، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها ، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت ، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون : ويلكم الله نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون : ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً** ﴾ قال الأيمنون ﴿ **معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ أي ينتهون فهو أحب إلينا أن لايصابوا ولا يهلكوا ، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم . فمضوا على الخطيئة ، وقال الأيمنون فقد فعلتم ياأعداء الله ، والله لنأتينكم الليلة في مدينتكم ، والله مانراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ماعنده من العذاب . فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا ، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلًا فالتفت إليهم فقال : أي عباد الله قردة ، والله تعاوى لها أذناب قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة ، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي فيقول : ألم ننهكم عن كذا فتقول برأسها أي نعم ، ثم قرأ ابن عباس ﴿ **فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** ﴾ قال : فأرى الذين نهوا قد نجوا ، ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها . قال : قلت : جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم فقالوا ﴿ **لم تعظون قوماً الله مهلكهم** ﴾ قال فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين . وكذا روى مجاهد عنه .

٤ - مجيء هذه القصة هنا درس لمن خالف أمر الله بحيلة من الحيل فإذا فهمنا هذا الدرس على ضوء محور السورة نفهم أن هدى الله المنزل يجب أن يطبق بقوة . فليس الله كغيره . ولا أمر الله كأمر غيره .

٥ - يلاحظ في هذه القصة كيف أن الله كان مشدداً على بني إسرائيل في أمر تعظيم السبت وحرمة العمل فيه . وهذا الذي نراه في هذه القصة نجده في أسفار موسى الخمسة بشكل واضح وفي أكثر من مكان مع التهديد العظيم لمن خالف ذلك . ومن ذلك ما ورد في الإصحاح العشرين سفر الخروج (أذكر يوم السبت لتقدسه ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك . وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك لاتصنع عملًا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك) .

وفي الإصحاح التاسع عشر سفر اللاويين (وتحفظون سبوتي أنا الرب إلهكم) .

وفي الإصحاح الخامس عشر من سفر العدد (ولما كان بنو إسرائيل في البرية وجدوا رجلًا يحتطب حطباً في يوم السبت . فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهارون وكل الجماعة . فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى قتلًا يقتل الرجل . يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة . فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الربُ موسى) .

ولنعد إلى السياق :

﴿ **وإذ تأذَّن ربك** ﴾ أي أعلم قال ابن كثير وفي قوة الكلام مايفيد معنى القسم من هذه اللفظة ﴿ **ليبعثن عليهم إلي يوم القيامة** ﴾ أي ليسلطن على اليهود ﴿ **من يسومهم سوء العذاب** ﴾ أي إذا عصوا وخالفوا أوامره وشرعه وقد فعلوا ﴿ **إن ربك لسريع العقاب** ﴾ أي للكفار ﴿ **وإنه لغفور رحيم** ﴾ أي للمؤمنين . ومع عذاب التسليط عليهم فقد عُذبوا بالتشتيت ﴿ **وقطّعناهم في الأرض** ﴾ كلها ﴿ **أمما** ﴾ أي فرقاً أي وفرّقناهم فيها فلا تخلو بلد عن فرقة ﴿ **منهم الصالحون** ﴾ أي في التفريق الأول ، أما بعد بعثة عيسى فلا صالح إلا من اتبعه ، وبعد بعثة محمد ﷺ فلا صالح إلا من اتبعه ﴿ **ومنهم دون ذلك** ﴾ أي ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه ، وهم الفَسَقَة . أي ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ﴿ **وبلوناهم بالحسنات والسيئات** ﴾ أي بالنعم والنقم والخصب والجدب كَسُنَّتنا في كل أمة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أي ينتهون عن المعصية فينيبون إلى الله بالطاعة ﴿ **فخلف من بعدهم** ﴾ أي من بعد ذلك الجيل الذي تمت عليه عقوبة التشتيت والتسليط ﴿ **خلف** ﴾ أي : جيل آخر ، أو أجيال أخرى ، والخلْف بدل السوء بخلاف الخَلَف فهو الصالح ﴿ **ورِثوا الكتاب** ﴾ أي التوراة ودققوا على مافيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم ولم يعملوا بها

مع إقامة شعائر العبادة لإصلاح قلوب الناس . فهما طرفان للمنهج الذي تصلح به الحياة والنفوس ﴿ **إنا لانضيع أجر المصلحين** ﴾ .

يشير إلى هذه الحقيقة .. حقيقة أن الاستمساك الجاد بالكتاب عملًا وإقامة الشعائر عبادة هما أداة الإصلاح الذي لايضيع الله أجره على المصلحين .

وماتفسد الحياة كلها إلا بترك طرفي المنهج الرباني .. ترك الاستمساك الجادّ بالكتاب وتحكيمه في حياة الناس وترك العبادة التي تصلح القلوب فتطبق الشرائع دون احتيال على النصوص كالذي يصنعه أهل الكتاب وكالذي يصنعه أهل كل كتاب حين تفتر القلوب عن العبادة فتفتر عن تقوىٰ الله ..

إنه منهج متكامل . يقيم الحكم على أساس الكتاب ويقيم القلب على أساس العبادة ومن ثم تتوافى القلوب مع الكتاب ، فتصلح القلوب وتصلح الحياة .

إنه منهج الله لايعدل عنه ولا يستبدل به منهجاً آخر ، إلا الذين كتبت عليهم الشقوة وحق عليهم العذاب) .

فوائـد :

١ - عرفنا من هذه الآيات عقوبة من عقوبات الانحراف عن أمر الله وهديه المنزل أن يسلط على الأمة التي تنحرف عن أمره غيرها يسومها سوء العذاب ويشتتها ويفرّقها . وهذا ماحدث لليهود ، مامرّ جيل إلا وقد سلط الله عليه من يسومه سوء العذاب ، وما جرى على يد هتلر لهم ليس بعيداً وما سيجري لهم على أرض فلسطين بإذن الله ، سيكون استمراراً لهذه السنة وهذه بشارة عظيمة لنا إذا أقمنا أمر الله . ولم نكن مثلهم بالانحراف عن أمر الله . وما سلطوا علينا الآن إلا لأننا ماثلناهم في الانحراف عن أمر الله .

٢ - ومن قوله تعالى ﴿ **وإذ تأذّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ نفهم أن هذا العقاب لهم كان معلوماً لديهم بإعلام الله لهم ، ومن مراجعة الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم - أسفار موسى - نجد هذا الإعلام واضحاً في أكثر من مكان ، ومن ذلك ماورد في الإصحاح السادس والعشرين من سفر اللاويين ، وتكاد الآيات التي مرت معنا أن تحصي الكثير منه وهذا هو (لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا .

وإن رفضتم فرائضي وكرهَت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي . فإني أعمل هذه بكم ، أسلط عليكم رعباً وسلًا وحمّى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلًا زرعكم فيأكله أعداؤكم ، وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم . وإن كنتم مع ذلك لاتسمعون لي أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطّم فخار عزكم ، وأصيّر سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم ولا تعطي غلتها وأشجار الأرض لاتعطي أثمارها وإن سلكتم معي بالخلاف ولم تشاؤوا أن تسمعوا لي أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرقكم .

وإن لم تتأدبوا مني بذلك بل سلكتم معي بالخلاف . فإني أنا أسلك معكم بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . أجلب عليكم سيفاً ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون إلى مدنكم وأرسل في وسطكم الوباء فتدفعون بيد العدو . بكسري لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد ويرْدُدن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون . وإن كنتم بذلك لاتسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطاً وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم ، وأقطع شمساتكم وألقي جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسي . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتَم رائحة سروركم . وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة . حينئذ تستوفي الأرض سبوتها كل أيام وحشتها وأنتم في أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الأرض وتستوفي سبوتها . كل أيام وحشتها تسبت مالم تسبته من سبوتكم في سكنكم عليها . والباقون منكم ألقي الجبانة في قلوبهم في أراضي أعدائهم ، فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد ، ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنون بذنوبهم في أراضي أعدائكم . وأيضاً بذنوب آبائهم معهم يفنون . لكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم في خيانتهم التي خانوني بها وسلوكهم معي الذي سلكوا بالخلاف . وإني أيضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم . أذكر

ميثاقي مع يعقوب وأذكر أيضاً ميثاقي مع إسحاق وميثاقي مع إبراهيم وأذكر الأرض . والأرض تترك منهم وتستوفي سبوتها في وحشتها منهم ، وهم يستوفون عن ذنوبهم لأنهم قد أبوا أحكامي وكرهت أنفسهم فرائضي . ولكن مع ذلك أيضاً متى كانوا في أرض أعدائهم ما أبيتهم ولاكرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاقي معهم ، لأني أنا الرب إلههم . بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلهاً . أنا الرب » .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم** ﴾ أي واذكروا إذ قلعناه ورفعناه كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **ورفعنا فوقكم الطور** ﴾ ﴿ **كأنه ظلّة** ﴾ الظلة : كل ماأظلك من سقيفة أو سحاب ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ أي أنه ساقط عليهم . قال المفسرون المسلمون : وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لغلظها وثقلها فرفع الله الطور على رؤوسهم وقيل لهم إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه فلذلك لانرى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هي السجدة التي رفعت عنابها العقوبة ﴿ **خذوا ما آتيناكم** ﴾ من الكتاب ﴿ **بقوة** ﴾ أي بجد وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه . ﴿ **واذكروا مافيه** ﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أي لعلكم تتحققون بالتقوى . وإذن فقد أخذت عليهم المواثيق ووضعوا في كل الظروف التي كان ينبغي - بناءً عليها - ألا ينحرفوا ومع ذلك انحرفوا ، وكان المفروض في الأصل ألا ينحرفوا لما ركب الله في فِطَرهم كغيرهم من العبودية له وهذا الذي قررته الآية اللاحقة في أول القسم اللاحق .

كلمة في السياق :

بالآية التي مرّت معنا ينتهي المقطع الرابع من القسم الثاني وبانتهائه ينتهي الحديث عن بني إسرائيل كما ينتهي القسم الثاني الذي قصّ الله علينا به قصص أقوام خالفت شرعه ووحيه فأصابها بسبب ذلك ما أصابها وصلة ذلك بمحور السورة في سورة البقرة لاتخفى .

وقد بقي عندنا من السورة القسم الثالث ويبدأ بالحديث عن أخذ الله العهد على بني آدم بالعبودية وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة وهو القاعدة التي ختمت بها

قصة آدم عليه السلام لاتخفى .

إن صلة أقسام السورة ببعضها واضحة ، وصلة السورة بمحورها واضحة ، كذلك فلننتقل إلى القسم الثالث .

☆ ☆ ☆

القسم الثالث من سورة الأعراف

بعد أن تنتهي قصة موسى وقصة قومه بذكر أخذ الله الميثاق منهم يأتي القسم الأخير في السورة وهو مبدوء بذكر الميثاق المأخوذ على البشرية كلها بالعبودية لله رب العالمين .

﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ .

وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبِّحونه وله يسجدون** ﴾ ومن بداية القسم ونهايته ندرك مضمونه وأنه في موضوع الربوبية والتوحيد ، والعبودية والشرك ، وصلة ذلك بمحور السورة من سورة البقرة الذي هو قصة آدم والقاعدة التي ختمت بها لاتخفى .

....

يتألف القسم من مقطعين :

المقطع الأول يبدأ بالآية (١٧٢) وينتهي بالآية (١٨٨) ﴿ **قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً** ﴾

المقطع الثاني ويبدأ بالآية (١٨٩) ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ وينتهي بنهاية السورة (٢٠٦) ﴿ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته** ﴾ .

ولتلاحم القسم في مقطعيه فسنعرضه كله مع بعضه وكأنه مقطع واحد : وهذا هو القسم :

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ

نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ
إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ
فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا
يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ
كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ
فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾
أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۢ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ

مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ
إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ
وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا
أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا
صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا
يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ
﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا
شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا

أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩

استعراض لمعاني القسم :

يأتي هذا القسم بعد قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم . خذوا ماآتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون** ﴾

فبعد هذا المشهد مباشرة يأتي هذا القسم الذي يبدأ بالتذكير بأخذ الله العهد على بني آدم . قال صاحب الظلال في ذلك وهو يستعرض معاني هذا القسم من السورة :

لذلك أعقب هذا المشهد مشهد أخذ الميثاق على فطرة البشر كافة : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا :**

إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ ﴾ .

وأعقب هذا المشهد مشهد الذي ينسلخ من هذا العهد ، كما ينسلخ من العلم بآيات الله بعد إذ أراه إياها .. وهو مشهد مثير .. وفيه لمسات قوية للتنفير من هذا الانسلاخ والتحذير من مآله المنظور : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه . فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث * ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا . فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ، وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾** .

ثم بيان لطبيعة الهدى وطبيعة الكفر . يكشف عن أن الكفر إذا تعطّل في أجهزة الفطرة يحول دون تلقي هدى الله ، وينتهي بالخسارة المطلقة : ﴿ **من يهد الله فهو المهتدي ، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون * ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ﴾** .

تعقب هذا البيان لفتة إلى المشركين الذين كانوا يواجهون دعوة الإسلام في مكة بالتكذيب ، ويلحدون في أسماء الله فيشتقون منها أسماء الآلهة المفتراة . وتهديد لهم باستدراج الله . ودعوة لهم كذلك أن يتفكروا تفكراً عميقاً بعيداً عن الهوى في أمر صاحبهم الذي يدعوهم إلى الهدى ﷺ فينبزونه بأن به جِنّة ! وإلى أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ومافي صفحات الوجود من موحيات الهدى ؛ ولمسة لهم بالموت الذى يترقبهم وهم عنه غافلون :

﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه . سيجزون ماكانوا يعملون * وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين * أولم يتفكروا مابصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين * أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ، وماخلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأي حديث بعده يؤمنون * من يضلل الله فلاهادي له ، ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾** .

ومواجهة كذلك لهؤلاء المشركين في تكذيبهم بالساعة ، وسؤالهم عن موعدها ..

مواجهة بضخامة هذا الشأن الذي يسألون عنه مستهينين ، وهول هذا الأمر الذي يتناولونه مستخفين . وجلاء كذلك لطبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وتقرير لحقيقة الألوهية وتفرد الله سبحانه بكل خصائصها . ومنها علم الغيب ؛ وتجلية الساعة ؛ ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي ، لايجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السماوات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفي عنها قل : إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون * قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً . إلا ماشاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخيرِ ومامسنِيَ السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ .

وفي سياق مواجهة المشركين يجيء بيان عن طبيعة الشرك وقصة الانحراف عن عهد الفطرة بتوحيد الله ، وكيف يقع في النفس هذا الانحراف وكأنما هو تصوير لانحراف جيل المشركين بعد أن كان أسلافهم الأولون على دين إبراهيم الحنيف : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، فلما تغشاها حملت حملًا خفيفاً فمرت به . فلما أثقلت دعوا الله ربهما : لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما . فتعالى الله عما يشركون أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولايستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ .. إنه تمثيل للأجيال المتلاحقة بصورة الحالات المتتابعة في النفس الواحدة وهو تصوير ذو دلالات عجيبة في صدقها وفي جمالها جميعاً .

ولأن المقصود هو تمثيل حالة المشركين الذين كان هذا القرآن يواجههم فإن السياق ينتقل مباشرة من المثل إلى مخاطبتهم مواجهة ، ويوجه الرسول ﷺ إلى تحديهم وآلهتهم : ﴿ **وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون * إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تُنظِرون * إن وليِّيَ الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون** ﴾ .

وفي نهاية السورة يتجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ وإلى الأمة المسلمة . يوجهه إلى

خلق من شيء فيهما ، ليتدبّروا ذلك ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لانظير له ولاشبيه . ومَن فَعَله لاينبغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له . فيجب أن يؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان . ويعترفوا بالله وآياته وحاكميته ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت ، فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله ، وأليم عقابه ، فإذا لم يهدهم التفكر والنظر إلى هذا وهذا ، ولم يهدهم هذا القرآن إلى الإيمان فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد هذا التحذير وهذا الترهيب الذي جاءهم من عند الله يؤمنون؟ وبأي كتاب يصدقون إذا لم يصدقوا بهذا الحديث ، وهذا القرآن الذي جاءهم به محمد ﷺ من عند الله ؟ ولما كان من مثار العجب أن يبقى إنسان كافراً مع وضوح أن محمداً رسول الله ، ومع وضوح الآيات التي تدل على الله في هذا الكون ، فقد بيّن الله عز وجل أن الأمر أمره ، فإن من كتب عليه الضلالة فإنه لايهديه أحد ، ولايضل الله إلا من يستحق الضلال ، فذلك الذي يتركه الله متخبطاً في ظلمات الضلال ، ثم بين الله لنا سخف هؤلاء إذ يتركون التفكير فيما ينبغي ، ويتركون العمل فيما ينبغي ، ويسألون عما لاتقدّم أو تؤخر معرفته ، فهم يسألون عن الساعة ، عن وقت وقوعها ، وهم في الأصل مكذبون ، فسؤالهم في الحقيقة استبعاد لوقوعها وتكذيب بوجودها ، ومع أنهم مستبعدون ومكذبون فهم يتساءلون عن محطها ، وأول وقتها ، يسألون رسول الله ﷺ عن ذلك كأنه هو من المتكلفين لمعرفة مالم يرد الله أن يُعرِّفه عليه ،وهنا يأمر الله رسوله ﷺ أن يجيبهم جوابين : الجواب الأول : أن الساعة لايعرف علمها أحد إلا الله ، والجواب الثاني أنه لايملك لنفسه ضراً ولانفعاً بل هو مفوِّض أموره كلها إلى الله ، وهو تحت مشيئته ، وأنه لايعلم المستقبل ولا اطّلاع له على شيء منه ، إلا بما أطلعه الله عليه ، وأنه لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير ، فإذا اشترى شيئاً لايشتري إلا مايربح به ، ولايبيع إلا في ذروة الربح . ولأعدَّ للسَّنة المجدبة من الخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص ، ولأجتنب مايكون من الشر قبل أن يكون واتقاه، فإذا لم يكن كذلك فذلك دليل على أنه لا يعلم الغيب. ثم أمره أن يخبر أنما هو نذير للكافرين من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات ، وهذا الإعلان في هذا المقام دليل على أن محمداً رسول الله ، وهو الذي فات الكافرين التفكر فيه للوصول إليه .

لفت نظرهم إلى التفكر في وضع رسول الله ﷺ . ثم أعطاهم دليلاً من خلال إعلاناته عن نفسه بما يدل على أنه رسول الله ﷺ .

وكما لفت نظرهم إلى التفكر في ملكوت السموات والأرض ، مما يوصل إلى التوحيد فكذلك يلفت نظرهم مرة أخرى إلى مايوصل إلى التوحيد ، وكيف أن مايوصل إلى التوحيد وصل ببعض الناس إلى الشرك . فذكر أنه هو الذي خلق جميع الناس من آدم ، وأنه خلق منه زوجه حواء . وأنه خلق منهما كل الأزواج . وأن هؤلاء الأزواج إذا مارسوا ما خلقه الله فيهم وماهيأهم له مما فيه بقاء الجنس أنهم في شوقهم إلى الولد ، وفي حالة رهبهم من مسخه أو حظره ، كانوا يطلبون من الله ويعدون الله من أنفسهم الشكر ، فإذا ماأعطاهما الله ماأرادا قابلاه بالشرك . وتعالى الله أن يكون له شريك في ملكه وسلطانه وفي ألوهيته وربوبيته .

ومن خلال مامر ويمر نلاحظ أن هذا القسم يعرض قضية الضلال والهداية بلغة العزة وجبروت الجلال ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن ، أنك تشعر أن هذا القرآن يعرض مايعرض ويظهر لك في كل مايعرض آثار عزة الذات العلية القاهرة ، فلا تحس فيه آثار الضعف البشري لافي الدفاع ولافي الهجوم .

ولنعد إلى عرض معاني القسم : فبعد أن بيّن الله عز وجل أن الإنسان يشرك مع وجود مايستدعي منه التوحيد ، يناقش هؤلاء المشركين وينكر عليهم أن يشركوا معه غيره من مخلوقاته المربوبة له ، المصنوعة بقدرته ، التي لاتملك شيئاً من الأمر ،ولاتضر ولاتنفع ولاتبصر ولاتنتصر لعابديها ، بل هي جماد لاتتحرك ولاتسمع ولاتبصر . وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، سواء في ذلك الأصنام آلهة الوثنيين القدامى ،وكثير من المعاصرين ، أو الطبيعة كلها آلهة الملحدين ، ثم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتحدى هؤلاء المشركين بأن تستطيع آلهتهم أن تكيده شيئاً ، ثم أمره أن يعلن أن الله الذي أنزل عليه الكتاب هو يتولاه ، ويتولى الصالحين ، ومن تولاه الله فإن كل الخليقة لاتستطيع ضره إلا إذا شاء الله شيئاً من ذلك ؛ لحكمة هو يعلمها ، ومن كان هذا شأنه في الغلبة والقهر والنصر فهو الإله الحق ، لاهذه الآلهة المزعومة التي لاتستطيع نصراً لأنفسها ولا لعابديها ، ولا تعي ولاتسمع ولاتبصر ، وبعد هذا النقاش للمشركين ، وإقامة الحجة عليهم يأمر الله رسوله ﷺ وأتباعه أربعة أوامر : الأمر الأول بالعفو ، والثاني فعل المعروف ، والأمر الثالث الإعراض عن الجاهلين ، والأمر الرابع الاستعاذة من الشيطان الرجيم ، وذكر الشيطان في آخر السورة تذكير ببدايتها . ثم بين الله تعالى أنه من رحمته بعباده المؤمنين المتقين ، أنه إذا وسوس لهم الشيطان شيئاً فإنه

يجعلهم يتذكرون ماكانوا عنه غافلين ، فمهما وسوس الشيطان للمتقين فإن ذلك يذوب أمام رعاية الله لهم . فبينما المشركون في عماهم يقترحون الآيات استهزاءً وكبراً ، فإن المتقين على بصيرة من نور الله ، وهذا القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة للمؤمنين ، فالمؤمنون على بصيرة في قلوبهم من الله ، وعلى بصيرة من ربهم بهذا القرآن ، ومن اجتمعت له بصيرتان فأنّى يضل . أما المشركون فلابصيرة لهم ، وقياماً بالشكر على نعمة الله بهذا القرآن فإن الله يأمر عباده أن يستمعوا إلى كتابه إذا تُليَ عليهم وهم في صلاتهم من أجل أن تصيبهم رحمة ربهم ، ثم يأمر الله رسوله والمؤمنين أن يذكروا الله ربهم في أول نهارهم وآخره ، مع الخشوع والإخلاص بالإسرار بذلك ، ونهاهم أن يكونوا من الغافلين ، وذكرهم بالملائكة في دوام عبادتهم لله ، وخضوعهم له ، وتسبيحهم له ،وسجودهم للاقتداء بهم في هذا المقام . وبهذا المعنى ينتهي القسم وتنتهى السورة .

هذه هي المعاني العامة للقسم وفيها :

توضيح لقضية الهدى والضلال ، ومناقشة للضالين ، ومناقشة أهل الشرك الذي هو البداية لكل ضلال ، وتحديد معالم البداية للهداية ، من معرفة لله ،وتفكر في شأن رسوله ، ونظر في خلقه ، وشكر له لايخالطه شرك ، ومعرفة ، بسخافة الشرك ، وتخلق بمكارم الأخلاق ، واستعاذة من الشيطان ، وأدب مع القرآن . وذكر دائم للرحمن ، وتخلّق بأخلاق الملائكة . ومابين بداية السورة ونهايتها ترابط . فالسورة تبدأ بالتحذير من الشيطان ، وتنتهي بالمعاني الأولية التي ينبغي أن يراعيها أو يرفضها المسلم ، كما تحدد معالم الطريق للسير إلى الله ، وتحدد معالم أدب الدعاة ، بهذا كانت السورة كلها تفصيلاً لقوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منهاجميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ومن ثم فإن سالكي الطريق إلى الله عليهم أن يتأملوا هذه السورة ويعملوا بما فيها ، وأن يرجوا ، وأن يحذروا ، وأن يتحققوا .

المعنى الحرفي :

﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ أي وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم ذريتهم ، ومعني أخذ ذريتهم من ظهورهم : إخراجهم من أصلاب آبائهم كما سنرى ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾ للمفسرين في تفسير هذا النص اتجاهان :

الاتجاه الأول : أن هذا من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم التي ركّبها فيهم وجعلها مميزة بين الهدى والضلالة ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرّرهم وقال لهم : ﴿ **ألست بربكم** ﴾ وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك .

الاتجاه الثاني : أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من ظهر آدم مثل الذر ، وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله . ﴿ **ألست بربكم** ﴾ فأجابوه ببلى قالوا : وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وقال النسفي والحجة للأولين أنه قال ﴿**من بني آدم من ظهورهم**﴾ ولم يقل من ظهر آدم، ولأنا لانتذكر ذلك فأنى يصير حجة؟ ﴿**أن تقولوا**﴾ أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقولُ ، وأخذ شهادة الأرواح كراهة أن تقولوا ﴿ **يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ أي لم نُنبه عليه ﴿ **أو تقولوا** ﴾ أي : أو كراهة أن تقولوا ﴿ **إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم** ﴾ . أي فاقتدينا بهم فذلك لا حجة فيه لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه ، والاقتداء بالآباء ، كما لا عذر لآبائهم في الشرك ، وأدلة التوحيد منصوبة لهم ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ أي لولا ماقامت عليهم به الحجة لقالوا هذا الكلام محتجين به على الله . والمعنى أنهم لولا ذاك لقالوا إن آباءنا كانوا السبب في شركنا . لتأسيسهم الشرك وتركه سنة لنا . ومن ثم أخذ الله من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على ربوبيته وعبوديتهم ﴿ **وكذلك** ﴾ **أي** ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ **نُفصّل الآيات ولعلهم يرجعون** ﴾ **أي** هذا التفصيل البليغ من أجل أن يرجعوا إلى مقامهم الأصيل مقام العبودية لله . ومن هاتين الآيتين نفهم أن الله لم يترك لأحد حجة عليه في الفرار من عبوديته ، والعبودية إنما تكون باتباع وحيه ورسله .

فوائد :

رأينا أن للمفسرين اتجاهين في تفسير قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ وابن كثير لم ير أن أياً من التفسيرين يعارض الآخر من حيث المبدأ : فقد جبل الله الفطرة على التوحيد ، كما استخرج ذرية آدم من ظهورهم

الآثار كلها والله المستعان ، فهذه الأحاديث دالة على أن الله ــ عز وجل ــ استخرج ذرية آدم من صلبه ، وميّز بين أهل الجنة وأهل النار ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وفي حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بينا أنهما موقوفان لامرفوعان كما تقدم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن عمار المجاشعي ، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود ابن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك ، قالوا : ولهذا قال : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم** ﴾ . ولم يقل من آدم . وقال ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل من ظهره وقال ﴿ **ذريتهم** ﴾ . أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن .»

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **واتل عليهم** ﴾ . على اليهود أو على الناس ﴿ **نبأ الذي آتيناه آياتنا** ﴾ . أي أعطيناه كرامات وفتحنا عليه في فهم آياتنا ﴿ **فانسلخ منها** ﴾ . أي فخرج من الآيات بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ . أي فلحقه الشيطان وصار قريناً له ﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ . أي فصار من الضالين الكافرين ﴿ **ولو شئنا لرفعناه** ﴾ . إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿ **بها** ﴾ أي بالآيات ﴿ **ولكنه أخلد إلى الأرض** ﴾ . أي : مال إلى الدنيا ورغب فيها ﴿ **واتّبع هواه** ﴾ . أي : فى إيثار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه** ﴾ أي إن تزجره وتطرده ﴿ **يلهث** ﴾ ﴿ **أو تتركه** ﴾ غير مطرود ﴿ **يلهث** ﴾ . والمعنى فصفته التي هي مثل في الخسة ، هي صفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام اللهث به سواء حمل عليه أي شد عليه وهيج فطرد ، أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه ، وذلك أن سائر الحيوان لايكون منه اللهث إلا إذا حرّك ، أما الكلب فيلهث فى الحالين . وسياق الكلام يفهم منه أنه قد حط أبلغ حط حتى أصبح كمثل الكلب ذليلاً دائم الذلة لاهثاً في الحالين ﴿ **ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ . أي من الكافرين ﴿ **فاقصص القصص** ﴾ . أي هذه القصة وغيرها مما فيه العظة ﴿ **لعلهم يتفكرون** ﴾ فيحذرون مثل عاقبته إذا ساروا نحو سيرته ﴿ **ساء مثلاً** ﴾ أي ساء المثل مثلاً ﴿ **القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ . أي الذين جمعوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم أو المعنى: أنهم بتكذيب الآيات خصوا أنفسهم بالظلم ﴿ **من يهد الله فهو**

المهتدي ﴾ فلا هداية إلا بتوفيق الله وخلقه ﴿ **ومن يضلل** ﴾ أي ومن يضلله ﴿ **فأولئك هم الخاسرون** ﴾ والآية ردّ على ماذهب إليه المعتزلة من كون الهدى هو البيان ، لأن البيان يستوي به الكافر والمؤمن ، إذ البيان ثابت في حق الفريقين ، فدل هذا على أن الهدى من الله يراد به توفيقه وعصمته ومعونته ، ولو كان ذلك للكافر لاهتدى كما اهتدى المؤمن .

فوائد :

١ - أكثر المفسرين ــ ومن ذلك عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ــ على أن المراد بهذا الرجل النموذج بلعام بن باعوراء ، وهو رجل من غير بني إسرائيل ، كان مجاب الدعوة ، فطالبه قومه أن يدعو على موسى فرفض أولاً ، ثم استجاب لهم فدعا فعوقب . وفي عرض هذا النموذج هنا تحذير وتذكير . فهو تذكير لبني إسرائيل ألا يكونوا مع محمد ﷺ كما كان بلعام بن باعوراء مع موسى ، كما هو تحذير لكل إنسان أن يكون كهذا الرجل المنحرف ، وهو نموذج يقتضيه السياق الخاص ، والسياق العام في سورة تفصل موضوع الهدى المنزل ، وموقف الناس منه ، فهو نموذج لعالم كان مهتدياً ثمّ زلّ وكفر فعوقب .

٢ - وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مما أتخوّف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ماشاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك » قال : قلت : يانبي الله أيهماأولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال : « بل الرامي» . وإسناد هذا الحديث جيد .

٣ - وقصة بلعام بن باعوراء واردة في سفر العدد الإصحاح الثاني والعشرين . والثالث والعشرين والرابع والعشرين ثم تنقطع القصة ، ثم يرد ذكر بلعام بن باعور في الإصحاح الحادي والثلاثين إذ يقال فيه (وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف) . ويرد ذكر قتله كذلك في سفر يشوع في الإصحاح الثالث عشر (وبلعام بن بعور العراف قتله بنو إسرائيل بالسيف مع قتلاهم) . وإذا اقتصر الإنسان على رواية سفر العدد في قصة بلعام لايجد مبرراً لقتل بلعام . ومارواه علماء المسلمين في هذا الموضوع - ويبدو أن روايتهم منقولة عن نسخة قديمة لهذه الأسفار - هو الذي يعطي التصور الأكمل في هذا الموضوع ، وهو الذي يوجد الربط مابين الإصحاح الرابع والعشرين والإصحاح الخامس والعشرين

في سفر العدد كما سنرى ، وأجود ماننقله من روايات علماء المسلمين في هذا الباب ماذكره محمد بن إسحق عن سالم أبي النضر : أنه حدّث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل ، وإنّا قومك ،وليس لنا منزل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله عليهم قال : ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ماأعلم ؟ قالوا له مالنا من منزل ، فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن ، فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل ، وهو جبل حسبان : فلما سار عليها غير كثير ربضت به ، فنزل عنها فضربها ، حتى إذا أزلقها قامت فركبها ،فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به ، فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة ؟ أما تردني عن وجهي هذا ؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم ؟؟ فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك ، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبني إسرائيل ، جعل يدعو عليهم ،ولايدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل . فقال له قومه : أتدري يابلعم ماتصنع ؟ إنما تدعوهم ، وتدعو علينا ، قال : فهذا مالا أملك . هذا شيء قد غلب الله عليه ، قال : واندلع لسانه فوقع على صدره ، فقال لهم : قد ذهب مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة ، فسأمكر لكم وأحتال ، جَمِّلُوا النساء وأعطوهن من السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ، وَمُرُوهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنهم إذا زنى رجل واحد منهم كُفيتموهم ، ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرّت امرأة من الكنعانيين اسمها : كسبتي - ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماء بني إسرائيل وهو : زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، فلما رآها أعجبته ، فقام ، فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لاتقربها . قال : أجل هذا حرام عليك . قال : فوالله لا أطيعك في هذا . فدخل بها قبته فوقع عليها ، وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل ، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى ، وكان غائباً حين صنع زمري بن شلوم ماصنع ، فجاء والطاعون يجوس فيهم ، فأُخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ، ثم دخل القبة وهما متضاجعان ، فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء ،

والحربة قد أخذها بذراعه ، واعتمد بمرفقه على خاصرته ، وأسند الحربة إلى لحيته ، وكان بكر العيزار ، وجعل يقول : اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ، ورفع الطاعون ، فحُسِبَ مَنْ هلك من بني إسرائيل في الطاعون – فيما بين أنْ أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص – فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً . والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة النهار ، فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى ، والبكر من كل أموالهم وأنفَسها ، لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعنٰه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ .

فإذا استوعبنا هذه الرواية مع تحفظنا على بعض ما ورد فيها فلننظر بعض ماورد في الإصحاحات المذكورة لتكتمل في أذهاننا القصة ورواية ابن إسحٰق هي التي تفسر ماورد بعد من قتل بلعام ، كما أنها تخلص من التناقضات الكثيرة الموجودة في الأسفار ، فهي تارة تزعم أن الله سمح لبلعام أن ينطلق مع وفد الملك ، وتارة تزعم أن الله غضب لأنه انطلق معهم ، في الإصحاح الثاني والعشرين (فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له إن أتى الرجال ليدعوك فقم اذهب معهم إنما تعمل الأمر الذي أكلمك به فقط . فقام بلعام صباحاً وشد على أتانه وانطلق مع رؤساء موآب فحمي غضب الله لأنه منطلق) فكيف يأمره الله بالذهاب ثم يغضب لذهابه ، وفي الإصحاحات نجد أن الله لايجري على لسان بلعام إلا الدعاء لموسى ومن معه ، والتبشير بانتصاره ، فلماذا يُقتل إذن من قِبَل موسى وجنده بعد ذلك . إن رواية ابن إسحق – وهي حتماً مأخوذة عن نسخ قديمة للأسفار – هي التي تعطي تعليلاً لمقتل بلعام ،لولا أن فيها مبالغة أن فنحاص قد رفع الزانية والزاني على رمحه ،هذا مع ملاحظة أن ما ذكره ابن إسحاق هو تلخيص واقعي للإصحاحات ، ولنكتف بنقل رواية الإصحاح الخامس والعشرين من سفر العدد لأنها تؤيد رواية ابن إسحاق .

وندلل على أن نقل ابن إسحق كان من نسخة أخرى لهذه الأسفار للمطابقة بين ما فيه وفيها دون الربط بين قصة بلعام وانتشار الزنى ، الذي تمتاز به رواية ابن إسحاق ، ومجريات الحوادث بعد ذلك تؤكد رواية ابن إسحق وتصدقها .

قال الإصحاح الخامس والعشرون : وأقام إسرائيل في شطيم وابتدأ الشعب يزنون مع

بنات موآب ، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن : فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلق إسرائيل ببعل فغور . فحمي غضب الرب على إسرائيل . فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد فوق المتعلقين ببعل فغور ، وإذا رجل من بني إسرائيل جاء فقدم إلى إخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل ، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع . فلما رأى ذلك فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن ، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي ، إلى القبة وطعن كليهما الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها ، فامتنع الوباء عن بني إسرائيل . وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرون ألفاً . فكلم الرب موسى قائلاً : فينحاس بن ألعازار بن هارون الكاهن قد ردّ سخطي عن بني إسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم أفن بني إسرائيل بغيرتي لذلك قل هاأنذا أعطيه ميثاقي . ميثاق السلام . فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي ، لأجل أنه غار لله ، وكفّر عن بني إسرائيل . وكان اسم الرجل الإسرائيلي المقتول الذي قتل مع المديانية زمري بن سالو رئيس بيت آب من الشمعونيين . واسم المرأة المديانية المقتولة كزبي بنت صور . هو رئيس قبائل بيت آب في مديان . ثم كلم الرب موسى قائلاً : ضايقوا المديانيين واضربوهم ، لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التي كادوكم بها في أمر فغور وأمر كزبي أختهم بنت رئيس لمديان التي قتلت يوم الوباء بسبب فغور .

٤ — تشبيه المنسلخ عن آيات الله بالكلب وذمّ ذلك يعطيك معنى سنوضحه فيما بعد وهو أن الإسلام تطهير للإنسان من الأخلاق الحيوانية كلها ، وصبغه بالأخلاق الربانية ومن ذلك ماورد في الحديث الصحيح « ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه »

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **ولقد ذرأنا** ﴾ أي خلقنا وجعلنا ﴿ **لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾ . هم الكفار من الفريقين المعرضون عن تدبر آيات الله ، والله تعالى علم منهم اختيار الكفر ، فشاء منهم الكفر ، وخلق فيهم ذلك ، وجعل مصيرهم جهنم لذلك ﴿ **لهم قلوب لايفقهون بها** ﴾ أي لايعقلون بها الحق ولايتفكرون فيه ﴿ **ولهم أعين لايبصرون بها** ﴾

الرشد وآيات الله ﴿ **ولهم آذان لايسمعون بها** ﴾ الوعظ ﴿ **أولئك كالأنعام** ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتفكر ﴿ **بل هم أضل** ﴾ أي من الأنعام لأنهم كابروا العقول ، وعاندوا الرسول ، وارتكبوا الفضول ، فالأنعام تطلب منافعها وتهرب عن مضارها ، وهم لايعلمون مضارهم حيث اختاروا النار . قال النسفي : كيف يستوي المكلف المأمور والمخلى المعذور ، فالآدمي روحاني شهواني ،سماوي أرضي ، فإن غلب روحه هواه فاق ملائكة السموات . وإن غلب هواه روحه فاقته بهائم الأرض ﴿ **أولئك هم الغافلون** ﴾ أي الكاملون في الغفلة عن الله وآياته وشريعته ،وعما أعد لأهل طاعته ومعصيته وفي هذا السياق ـــ سياق الكلام عن خلق الكافرين للنار والكلام عن غفلة هؤلاء -يذكرنا الله عز وجل بأسمائه ﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾ أي التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة ﴿ **فادعوه بها** ﴾ أي فسمّوه بتلك الأسماء ﴿ **وذروا الذين يلحدون في أسمائه** ﴾ أي واتركوا الذين يكذبون في أسمائه ﴿ **سيجزون ماكانوا يعملون** ﴾ هذا تهديد لهم على إلحادهم وفي مقابلة من خلق لجهنم ﴿ **وممن خلقنا** ﴾ أي للجنة فكما خلق للنار أهلها فقد خلق للجنة أهلها ﴿ **أمة يهدون بالحق** ﴾ أي يدعون إليه ﴿ **وبه يعدلون** ﴾ أي وبالحق يحكمون فيعدلون في أحكامهم ، ولاشك أنه يدخل في هؤلاء العلماء العاملون ، والدعاة المخلصون . قال النسفي : وفيه دلالة على أن إجماع كل عصر حجة .

وبمناسبة هذه الآيتين التاليتين يقول صاحب الظلال :

(وما كانت البشرية لتستحق التكريم لو لم تكن فيها دائما - وفي أحلك الظروف - تلك الجماعة التي يسميها الله « أمة » بالمصطلح الإسلامي للأمة ... **فهذه** الأمة الثابتة على الحق ، العاملة به في كل حين ، هي الحارسة لأمانة الله في الأرض ، الشاهدة بعهده على الناس ، التي تقوم بها حجة الله على الضالين المتنكرين لعهده في كل جيل .

ونقف لحظة أمام صفة هذه الأمة : ﴿ **يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ ..

إن صفة هذه الأمة التي لاينقطع وجودها من الأرض ـــ أيا كان عددها - أنهم ﴿ **يهدون بالحق**﴾ فهم دعاة إلى الحق لايسكتون عن الدعوة به وإليه ، ولايتقوقعون على أنفسهم ، ولاينزوون بالحق الذي يعرفونه ، ولكنهم يهدون به غيرهم ، من الضالين عن هذا الحق ، المتنكرين لذلك العهد ، ولهم عمل إيجابي لايقتصر عل معرفة الحق إنما

يتجاوزه إلى الهداية والدعوة إليه ..
باسمه .

﴿ وبه يعدلون ﴾ .. فيتجاوزون معرفة الحق والهداية به إلى تحقيق هذا الحق في حياة الناس والحكم به بينهم تحقيقاً للعدل الذي لايقوم إلا بالحكم بهذا الحق .. فما جاء هذا الحق ليكون مجرد علم يعرف ويدرس . ولامجرد وعظ يُهدىٰ به ويعرَّف ! إنما جاء هذا الحق ليحكم أمر الناس كله . يحكم تصوراتهم الاعتقادية فيصححها ويقيمها على وفقه . ويحكم شعائرهم التعبدية فيجعلها ترجمة عنه في صلة العبد بربه . ويحكم حياتهم الواقعية فيقيم نظامها وأوضاعها وفق منهجه ومبادئه ، ويقضي فيها بشريعته وقوانينه المستمدة من هذه الشريعة ، ويحكم عاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم وسلوكهم فيقيمها كلها على التصورات الصحيحة المستمدة منه . ويحكم مناهج تفكيرهم وعلومهم وثقافاتهم كلها ويضبطها بموازينه ... وبهذا كله يوجد هذا الحق في حياة الناس ، ويقوم العدل الذي لايقوم إلا بهذا الحق .. وهذا ماتزاوله تلك الأمة بعد التعريف بالحق والهداية به ..

إن طبيعة هذا الدين واضحة لاتحتمل التلبيس . صلبة لاتقبل التمييع . والذين يلحدون في هذا الدين يجدون مشقة في تحويله عن طبيعته هذه الواضحة الصلبة .. وهم من أجل ذلك يوجهون إليه جهوداً لاتكل وحملات لاتنقطع ويستخدمون في تحريفه عن وجهته وفي تمييع طبيعته ، كل الوسائل وكل الأجهزة وكل التجارب .. هم يسحقون سحقاً وحشياً كل طلائع البعث والحيوية الصلبة الصامدة في كل مكان على وجه الأرض ، عن طريق الأوضاع التي يقيمونها ويكفلونها في كل بقاع الأرض ، وهم يسلطون المحترفين من علماء هذا الدين عليه ، يحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويحلون ماحرم الله ، ويميعون ما شرعه ، ويباركون الفجور والفاحشة ، ويرفعون عليها رايات الدين وعناوينه ، وهم يزحلقون المخدوعين في الحضارات المادية المأخوذين بنظرياتها وأوضاعها ليحاولوا زحلقة الإسلام في التشبه بهذه النظريات وهذه الأوضاع ، ورفع شعاراتها أو الاقتباس من نظرياتها وشرائعها ومناهجها ، وهم يصورون الإسلام الذي يحكم الحياة حادثاً تاريخياً مضى ولايمكن إعادته ، ويشيدون بعظمة هذا الماضي ليخدّروا مشاعر المسلمين ثم ليقولوا لهم — في ظل هذا التخدير - إن الإسلام اليوم يجب أن يعيش في نفوس أهله عقيدة وعبادة لاشريعة ونظاماً ، وحسبه وحسبهم ذلك المجد التاريخي القديم هذا وإلا فإن على هذا الدين أن « يتطور » فيصبح محكوماً بواقع البشر يبصم لهم على كل مايقدمونه له من تصورات وقوانين ، وهم يضعون للأوضاع التي يقيمونها في العالم - الذي كان

إسلامياً - نظريات تأخذ شكل العقيدة والدين ، لتحل محل ذلك الدين القديم - كما يحاولون تغيير طبيعة هذا الدين كوسيلة أخيرة حتى لايجد هذا الدين قلوباً تصلح للهداية به فيحولون المجتمعات إلى فئات غارقة في وحل الجنس والفاحشة والفجور مشغولة بلقمة العيش لا تجدها إلا بالكد والعسر والجهد كي لاتفيق بعد اللقمة والجنس لتستمع إلىٰ هدىٰ ، أو يفيء إلى دين .

إن المعركة الضارية مع هذا الدين والأمة التي تهدي به وتحاول أن تعدل به .. المعركة التي تستخدم فيها جميع الأسلحة بلا تحرج وجميع الوسائل بلا حساب والتي تجند لها القوىٰ والكفايات وأجهزة الإعلام العالمية والتي تسخر لها الأجهزة والتشكيلات الدولية ، والتي توجد من أجلها أوضاع ماكانت لتبقى يوماً واحداً لولا هذه الكفالة العالمية ؟

ولكن طبيعة هذا الدين الواضحة الصلبة ماتزال صامدة لهذه المعركة الضارية . والأمة المسلمة القائمة على هذا الحق - على قلة العدد وضعف العدة - ماتزال صامدة لعمليات السحق الوحشية .. والله غالب على أمره .

﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون * وأملي لهم إن كيدي متين** ﴾ . وهذه هي القوة التي لايحسبون حسابها وهم يشنون هذه المعركة الضارية ضد هذا الدين وضد الأمة المستمسكة به الملتقية عليه المتجمعة على آصرته .. هذه هي القوة التي يغفلها المكذبون بآيات الله .. إنهم لايتصورون أبداً إنه استدراج الله لهم من حيث لايعلمون ، ولايحسبون أنه إملاء الله لهم إلى حين .. فهم لايؤمنون بأن كيد الله متين ، إنهم يتولىٰ بعضهم بعضاً ويرون قوة أوليائهم ظاهرة في الأرض فينسون القوة الكبرىٰ .. إنها سنة الله مع المكذبين .. يرخي لهم العنان ويملي لهم في المعصية والطغيان استدراجاً لهم في طريق الهلكة وإمعانافي الكيد لهم والتدبير . ومن الذي يكيد ؟ إنه الجبار ذو القوة المتين . ولكنهم غافلون والعاقبة للمتقين . والذين يهدون بالحق وبه يعدلون) .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم** ﴾أي سنستدرجهم قليلاً قليلاً وذلك بأن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم في الفحشاء ، فكلما جدّد الله عليهم نعمه ازدادوا بطراً وجدّدوا معصيته فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ظانين أن ترادف النعم

أثرة من الله وتقريب وإنما هو خذلان وتبعيد ، وصيغة الاستدراج في اللغة مشتقة من الدرجة وتفيد إما الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة ﴿ **من حيث لايعلمون** ﴾ أي ما يرادبهم ﴿ **وأملي لهم** ﴾ أي وأمهلهم ﴿ **إن كيدي متين** ﴾ أي أخذي قوي شديد سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان ﴿ **أوَ لم يتفكروا** ﴾ في شأن محمد ﷺ فإنه ليس مجنوناً حاشاه ﴿ **ما بصاحبهم من جِنَّة** ﴾ أي ليس رسول الله ﷺ بمجنون وما به جنون ﴿ **إن هو إلا نذير** ﴾ أي منذر من الله ﴿ **مبين** ﴾ أي موضح إنذاره ﴿ **أوَلم ينظروا** ﴾ نظرا استدلال ﴿ **في ملكوت السمٰوات والأرض** ﴾ أي في هذا الملك العظيم ﴿ **وما خلق الله من شيء** ﴾ أي وفيما خلق الله ومايقع عليه اسم الشيء من أجناس لايحصرها العدد ﴿ **وأن عسى** ﴾ أي وأنه عسى ﴿ **أن يكون قد اقترب أجلهم** ﴾ أي أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ولعلهم يموتون عما قريب فليسارعوا إلى النظر وطلب الحق وماينجيهم قبل مفاجأة الأجل وحلول العقاب ﴿ **فبأي حديث بعده** ﴾ أي بعد القرآن ﴿ **يؤمنون** ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي شيء يمكن أن يؤمنوا والقرآن هو الغاية فى الهداية والمعنى : لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لايبادرون إلي الإيمان بالقرآن قبل الفوت ؟ وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به ؟ ﴿ **من يضلل الله** ﴾ أي من يضلله ﴿ **فلاهادي له** ﴾ أي لايهديه أحد ﴿ **ويذرهم** ﴾ أي وهو يتركهم ﴿ **في طغيانهم** ﴾ أي في كفرهم ﴿ **يعمهون** ﴾ أي يتحيرون ﴿ **يسألونك** ﴾ السائلون هم اليهود أو قريش ﴿ **عن الساعة** ﴾ أي القيامة وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لسرعة ما يجزى فيها ، أو لأنها عند الله على بعدها كساعة من الساعات عندالخلق ﴿ **أيان مرساها** ﴾ أي وقت إرسائها أي متى إثباتها والمعنى متى يرسيها الله ﴿ **قل إنما علمها عند ربي** ﴾ أي علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به لم يخبر به أحداً من مَلَك مقرّب ولانبي مرسل ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك ﴿ **لايجلّيها لوقتها إلا هو** ﴾ أي لايظهر أمرها ولايكشف خفاء علمها إلا هو وحده ﴿ **ثقلت في السمٰوات والأرض** ﴾ أي كل من أهلهما من الملائكة والثقلين أهمّه شأن الساعة ويتمنى أن يتجلى له علمها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه ، أو ثقلت فيهما لأن أهلهما يخافون شدائدها ، وأهوالها ﴿ **لاتأتيكم إلا بغتة** ﴾ أي فجأة على غفلة منكم ﴿ **يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله** ﴾ كرر (يسألونك وعلمها

عند الله) للتأكيد ولزيادة : ﴿ **كأنك حفي عنها** ﴾ وهذا أصل في تكرير العلماء في كتبهم لايُخلون المكرّر من فائدة ، ومعنى (**كأنك حفي عنها**) أي كأنك مبالغ في السؤال عنها لأن من بالغ في المسألة عن الشيء أو التنفير عنه استحكم علمه فيه ، وأصل هذا التركيب المبالغة . ومنه إحفاء الشارب . والمعنى الدقيق يسألونك عنها كأنك حفي أي عالم بها . وما كان للرسول ﷺ أن يتكلّف وهو في ذروة الأدب مع الله في شيء لايعلمه إلا الله ، واقتضت حكمته ألا يطلع عليه أحداً ﴿ **ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ أنه المختص بالعلم بها ﴿ **قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله** ﴾ هذا أمر لرسول الله أن يظهر العبودية والبراءة عن دعوى ما يختص بالذات الإلهية من علم الغيب . والمعنى قل أنا عبد ضعيف لاأملك لنفسي اجتلاب نفع ولادفع ضرر كالمماليك إلا ماشاء الله مالكي من النفع لي والدفع عني ﴿ **ولو كنت أعلم الغيب** ﴾ أي المستقبل ﴿ **لاستكثرت من الخير ومامسَّنِيَ السوء** ﴾ أي لكانت حالي على خلاف ماهي عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار حتى لايمسني شيء منها ، ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ، ولأعددت من الخصب إلى الجدب وأمثال ذلك ﴿ **إن أنا إلا نذير وبشير** ﴾ أي إنْ أنا إلا عبد أرسلت نذيراً وبشيراً وما من شأني أن أعلم الغيب فأنا بشير ونذير ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ فإنهم وحدهم تنفع فيهم النذارة والبشارة ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة** ﴾ هي نفس آدم عليه السلام ﴿ **وجعل منها زوجها** ﴾ حواء خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ أي ليطمئن ويميل لأن الجنس إلى الجنس أميل خصوصاً إذا كان بعضاً منه ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه ﴿ **فلما تغشاها** ﴾ أي جامعها ﴿ **حملت حملاً خفيفاً** ﴾ أي خف عليها ولم تلق منه مايلقى بعض الحبالى من الكرب والأذى ولم تستثقله كما يستثقلنه ﴿ **فمرّت به** ﴾ أي فمضت به واستمرت إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إجهاض . ويمكن أن يكون المراد بالحمل الخفيف النطفة ، وبمرورها به قيامها وقعودها ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ أي فلما حان وقت ثقل حملها ﴿ **دعوا الله ربهما** ﴾ أي دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه ﴿ **لئن آتيتنا صالحاً** ﴾ أي لئن وهبت لنا ولداً سوياً قد صلح بدنه ، أو ولداً ذكراً ، أو ولداً متصفاً بصفة الصلاح ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾ لك نحن وهو ومن يتناسل من ذرياتنا ﴿ **فلما آتاهما صالحاً** ﴾ أي أعطاهما ما طلباه من الولد الصالح السوي ﴿ **جعلا له شركاء** ﴾ الكلام هنا انتقل عن آدم وزوجه إلى ذريتهما رجلاً وامرأة والمعنى

جعلَ أولادُهما له شركاء ﴿ **فيما آتاهما** ﴾ أي فيما آتى أولادهما ، وآدمُ وحواء بريئان من الشرك ، وهذا المكان من القرآن مما تدور حول تفسيره معارك كلامية كثيرة وللكلام تتمة ، ويمكن أن يكون الخطاب من ابتداء الآيةلقريش الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ وهم آل قصي ، أي هو الذي خلقكم من نفس واحدة قصي ، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاهما ماطلبا من الولد الصالح جعلا له شركاء فيما آتاهما حيث سميا أولادهما الأربعة : بعبد مناف ، وعبد العزّى ، وعبد قصي ، وعبد الدار ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ أن تعاظم وتنزه أن يكون له شريك ﴿ **أيشركون مالايخلق شيئاً** ﴾ كالأصنام والطبيعة أو أجزائها ﴿ **وهم يُخْلقون** ﴾ أي هذه الآلهة المزعومة هي نفسها مخلوقة . والمعنى أيشركون مالا يقدر على خلق شيء وهم يخلَقون لأن الله خالقهم . أو أيشركون مالايخلق شيئاً وهم مخلوقو الله فليعبدوا خالقهم ، أو أيشركون مالا يخلق شيئاً ، والجميع من عابدين ومعبودين مخلوقون لله فأين عقولهم ؟ ﴿ **ولايستطيعون لهم نصراً** ﴾ أي لعَبَدتهم ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ فيدفعون عنها ماينوبها من الحوادث كالكسر وغيره ، بل عبدتهم الذين يدفعون عنهم ﴿ **وإن تدعوهم** ﴾ أي وإنْ تدعوا هذه الأصنام ﴿ **إلى الهدى** ﴾ أي إلى ماهو هدى ورشاد ، أو إلى أن يهدوكم أي وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى ﴿ **لايتبعوكم** ﴾ أي إلى مرادكم وطلبتكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ﴿ **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** ﴾ عن دعائهم ، فدعوتكم وصمتكم سواء في أنه لا فلاح معهم ولايجيبونكم . ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله** ﴾ أي تعبدونهم وتسمّونهم آلهة ﴿ **عباد أمثالكم** ﴾ أي مخلوقون مملوكون أمثالكم ﴿ **فادعوهم** ﴾ لجلب نفع أو دفع ضر ﴿ **فليستجيبوا لكم** ﴾ أي فليجيبوا ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أي في زعمكم أنهم آلهة ، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فضلاً عن أن يكونوا آلهة فقال ﴿ **ألهم أرجل يمشون بها** ﴾ أي مثل مشيكم ﴿ **أم لهم أيدٍ يبطشون بها** ﴾ أي يتناولون بها مثل تناولكم ﴿ **أم لهم أعين يبصرون بها** ﴾ مثل إبصاركم ﴿ **أم لهم آذان يسمعون بها** ﴾ مثل سمعكم فلم تعبدون ماهو دونكم ﴿ **قل ادعوا شركاءكم** ﴾ أي واستعينوا بهم في عدواني فإني لاأبالي بكم ﴿ **ثم كيدون فلا تنظرون** ﴾ أي ابذلوا جهدكم في الكيد لي أنتم وشركاؤكم جميعاً دون أن تعطوني أي مهلة ﴿ **إن وليِّيَ الله** ﴾ أي إن ناصري عليكم هو الله ﴿ **الذي نَزّل الكتاب** ﴾ أي الذي أوحى إلي وأعزني برسالته ﴿ **وهو يتولى الصالحين** ﴾ أي ومن سنته أن ينصر الصالحين من عبادة ولايخذلهم ﴿ **والذين تدعون**

من دونه ﴾ أي والذين تعبدون من دون الله ﴿ **لايستطيعون نصركم ولاأنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا** ﴾ أي لانصرة عندهم لا لأنفسهم ولا لعبَّادهم ولا استجابة لهدى ، لأنهم لاعقل عندهم ولاحياة ﴿ **وتراهم ينظرون إليك** ﴾ أي وترى هذه الأصنام ناظرة إليك أي يشبهون من ينظر لأنهم صَوروا أصنامهم بصورة من يحدد نظره إلى الشيء ﴿ **وهم لايبصرون** ﴾ أي المرئيات ﴿ **خذ العفو** ﴾ أي ماعفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ولاتطلب منهم الجهد ومايشق عليهم ، أوضُم العفو كله إليك ، وأنفق منه على الناس بالعفو عنهم ﴿ **وأمر بالعرف** ﴾ أي بالمعروف والجميل من الأفعال . أو وأمر بكل فعلة يرتضيها العقل ويقبلها الشرع ﴿ **وأعرض عن الجاهلين** ﴾ أي ولاتكافىء السفهاء بمثل سفههم ولاتمارهم واحلم عليهم

﴿ **وإما ينزَغَنَّك من الشيطان نزغ** ﴾ أي وإما ينخسنك منه نخس أي فإن يحملك بوسوسته على خلاف ماأمرت به فالنزغ النخس كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي ، ويدخل في نزغ الشيطان اعتراء الغضب ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ أي فاستَجِربه بذكر الاستعاذة ﴿ **إنه سميع** ﴾ لنزغه ﴿ **عليم** ﴾ بدفعه فإذا التجأت إليه فاستعذت علم ذلك وفعل كرماً منه واستجاب ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مَسَّهم طائف من الشيطان** ﴾ أي لمسة ووسوسة ﴿ **تذكروا** ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه﴿ **فإذا هم مبصرون** ﴾ أي فأبصروا السداد ودفعوا وسوسته . بأن يفروا منه إلى الله فيزدادوا بصيرة من الله بالله ﴿ **وإخوانهم يمدونهم في الغي** ﴾ أي وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس فإن الشياطين يمدونهم في الغي أي يكونون مدداً لهم فيه ويعضونهم ، وجاز أن يكون المراد والشياطين يمدون الجاهلين ﴿ **ثم لا يقصرون** ﴾ أي ثم لايمسكون عن إغوائهم ليصروا ولايرجعوا ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية** ﴾ من الآيات التي يقترحونها ﴿ **قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ أي لولا اجتمعتها أي اختلقتها كما اختلقت ماقبلها ﴿ **قل إنما أتبع مايوحى إليَّ من ربي**﴾ فأنا متَّبع ولست متكلفاً ولاأقتراح على ربي شيئا ﴿**هذا بصائر من ربكم**﴾ أي هذا القرآن دلائل وآيات تبصركم وجوه الحق ﴿**وهدى ورحمة لقوم يؤمنون**﴾ أي بهذا القرآن ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا**﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ، وذهب بعضهم أن المعنى أنه إذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له ، وجمهور الصحابة رضي الله عنهم على أنه في استماع المؤتم في الصلاة ، وحملها بعضهم على استماع خطبة الجمعة ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾أي من أجل أن تنالكم الرحمة ﴿ **واذكر ربك في نفسك** ﴾ هو عام في

الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك ﴿ **تضرُّعاً وخيفة** ﴾ أي متضرعاً وخائفاً ﴿ **ودون الجهر من القول** ﴾ أي ومتكلماً كلاماً دون الجهر لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكر ﴿ **بالغدو والآصال** ﴾ أي بالصباح والمساء لفضل هذين الوقتين . ومعنى بالغدو أي بأوقات الغدو وهو الصباح ، والآصال جمع أُصُل والأُصُل جمع أصيل وهو العشي ﴿ **ولاتكن من الغافلين** ﴾ أي من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه ﴿ **إن الذين عند ربك** ﴾ أي الملائكة ﴿ **لايستكبرون عن عبادته** ﴾ أي لا يتعظمون عنها ﴿ **ويسبحونه** ﴾ أي وينزهونه عما لايليق به ﴿ **وله يسجدون** ﴾ أي ويختصونه بالعبادة لايشركون به غيره .

نُقول :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .
قال صاحب الظلال :

«إنه هذا القرآن .. بصائر تهدي ، ورحمة تفيض .. لمن يؤمن به ، ويغتنم هذا الخير العميم .. إنه هذا القرآن الذي كان الجاهلون من العرب - في جاهليتهم - يعرضون عنه ، ويطلبون خارقة من الخوارق المادية مثل التي جرت على أيدي الرسل من قبل ، في طفولة البشرية ، وفي الرسالات المحلية غير العالمية والتي لاتصلح إلا لزمانها ومكانها ، ولاتواجه إلا الذين يشاهدونها ، فكيف بمن بعدهم من الأجيال ، وكيف بمن وراءهم من الأقوام الذين لم يروا هذه الخارقة .

إنه هذا القرآن الذي لاتبلغ خارقة مادية من الإعجاز مايبلغه .. من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان .. لايستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان .

فهذا جانبه التعبيري .. ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني ، ويتفاخرون به في أسواقهم ! - هاهو ذا كان ومايزال إلى اليوم معجزاً لايتطاول إليه أحد من البشر . تحدّاهم الله به ومايزال هذا التحدي قائماً . والذين يزاولون فن التعبير من البشر ، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه ، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز معجز .. سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أولا يؤمنون .. فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس

موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون .. وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم - مالا قِبل لهم بدفعه عن أنفسهم . وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغداً كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون .

ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد .. يبقى ذلك السلطان الذي له على الفطرة - متى خُلي بينها وبينه لحظة - وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب ، وثقل فوقها الركام ، تنتفض قلوبهم أحياناً ؛ وهم يستمعون إلى هذا القرآن .

إن الذين يقولون كثيرون .. وقد يقولون كلاماً يحتوي مبادىء ومذاهب وأفكاراً واتجاهات .. ولكن هذا القرآن يتفرد في إيقاعاته على فطرة البشر وقلوبهم فيما يقول ! إنه قاهر غلَّاب بذلك السلطان الغلاب ! .. ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم ويقولون لأنفسهم في الحقيقة ..﴿ **لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ .. لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لايقاوم ومايزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب ! غير أن هذا القرآن يظل - مع ذلك كله - غلاباً .. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر ، حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها وتستولي على الحس الداخلي للسامعين ، وتنحى ماعداها من قول البشر المحبر الذي تعب فيه القائلون .

ثم يبقى وراء ذلك مادة هذا القرآن وموضوعه .. وماتتسع صفحات عابرة - في ظلال القرآن - للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه .. فالقول لاينتهي والمجال لايحد ! وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات ؟!

منهج هذا القرآن العجيب ، في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود .. وهو منهج يواجه هذه الكينونة بجملتها ، لايدع جانباً واحداً منها لايخاطبه في السياق الواحد . ولايدع نافذة واحدة من نوافذها لايدخل منها إليها ؛ ولايدع خاطراً فيها لايجاوبه ولايدع هاتفاً فيها لايلبيه .

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يتناول قضايا هذا الوجود ، فيكشف منها ماتتلقاه فطرة الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق . والتجاوب الحي والرؤية الواضحة . ومايطابق كذلك حاجات هذه الفطرة ، ويوقظ فيها طاقاتها المكنونة ، ويوجهها الوجهة الصحيحة . منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، ويصعد بها - في هينة ورفق ، وفي حيوية كذلك وحرارة ،

وفي وضوح وعلى بصيرة – درجات السلم في المرتقى الصاعد ، إلى القمة السامقة .. في المعرفة والرؤية ، وفي الانفعال والاستجابة ، وفي التكيف والاستقامة ، وفي اليقين والثقة ، وفي الراحة والطمأنينة ... إلى حقائق هذا الوجود الصغيرة والكبيرة .

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يلمس الفطرة الإنسانية ، من حيث لايحتسب أحد من البشر أن يكون هذا موضع لمسة ، أو أن يكون هذا وتر استجابة فإذا الفطرة تنتفض وتصوت وتستجيب . ذلك أن منزل هذا القرآن هو خالق هذا الإنسان الذي يعلم من خلق وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

ذلك المنهج ؟.. أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج وهنا ذلك الانفساح الذي لايبلغ منه القول شيئاً ..﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ ..﴿ **ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحُرٍ ما نفدت كلمات الله** ﴾ .

إن الذي يكتب هذه الكلمات ، قضى .. – ولله الحمد والمنة – في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عاماً . يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب . في شتى حقول المعرفة الإنسانية – ماطرقته معارف البشر ومالم تطرقه – ويقرأ في الوقت ذاته مايحاوله البشر من بعض هذه الجوانب .. ويرى .. يرى ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في هذا القرآن ؛ وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة ، وتلك النقرة الصغيرة .. وتلك المستنقعات الآسنة أيضاً :

في النظرة الكلية في هذا الوجود ، وطبيعته ، وحقيقته ، وجوانبه ، وأصله ، ونشأته ، وماوراءه من أسرار ؛ ومافي كيانه من خبايا ومكنونات ، ومايضمه من أحياء وأشياء .. الموضوعات التي تطرق جوانب منها « فلسفة » البشر .

في النظرة الكلية إلى « الإنسان» ونفسه ، وأصله ، ونشأته ، ومكنونات طاقته ، ومجالات نشاطه ، وطبيعة تركيبه ، وانفعالاته ، واستجاباته ، وأحواله ، وأسراره ،. الموضوعات التي تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع والعقائد والأديان .

في النظرة إلى نظام الحياة الإنسانية وجوانب النشاط الواقعي فيها ، ومجالات الارتباط والاحتكاك ، والحاجات المتجددة وتنظيم هذه الحاجات ، الموضوعات التي تطرق

جوانب منها النظريات والمذاهب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ..

وفي كل حقل من هذه الحقول يجد الدارس الواعي لهذا القرآن وفرة من النصوص والتوجيهات يحار في كثرتها ووفرتها ، فوق ما في هذه الوفرة من أصالة وصدق وعمق وإحاطة ونفاسة .

إنني لم أجد نفسي مرة واحدة – في مواجهة هذه الموضوعات الأساسية – في حاجة إلى نص واحد من خارج هذا القرآن . فيما عدا قول رسول الله ﷺ – وهو من آثار هذا القرآن – بل إن أي قول آخر ليبدو هزيلاً – حتى لو كان صحيحاً – إلى جانب ما يجده الباحث في هذا الكتاب العجيب .

إنها الممارسة الفعلية التي تنطق بهذه التقريرات ؛ والصحبة الطويلة في ظل حاجات الرؤية والبحث والنظر في هذه الموضوعات .. وما بي أن أثني على هذا الكتاب .. ومن أنا ومن هؤلاء البشر جميعاً ليضيفوا إلى كتاب الله شيئاً بما يملكون من هذا الثناء .

لقد كان هذا الكتاب هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد .. جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية – لا من قبل ولا من بعد – جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق الممجد ، الذي لم يُدرَس حق دراسته إلى الآن .

لقد كان هذا المصدر هو الذي أنشأ – بمشيئة الله وقدره – هذه المعجزة المجسمة في عالم البشر . وهي المعجزة التي لا تطاولها جميع المعجزات والخوارق التي صحبت الرسالات جميعاً .. وهي معجزة واقعة مشهودة .. أن كان ذلك الجيل الفريد ظاهرة تاريخية فريدة .

ولقد كان المجتمع الذي تألف من ذلك الجيل أول مرة ، والذي ظل امتداده أكثر من ألف عام ، تحكمه الشريعة التي جاء بها هذا الكتاب ، ويقوم على قاعدة من قيمه وموازينه وتوجيهاته وإيحاءاته كان هذا المجتمع معجزة أخرى في تاريخ البشرية . حين تقارن إليه صور المجتمعات البشرية ، التي تفوقه في الامكانيات المادية – بحكم نمو التجربة البشرية في عالم المادة – ولكنها لا تطاوله في « الحضارة الإنسانية » .

إن الناس اليوم ، – في الجاهلية الحديثة – يطلبون حاجات نفوسهم ومجتمعاتهم وحياتهم خارج هذا القرآن كما كان الناس في الجاهلية العربية يطلبون خوارق غير هذا

القرآن ! ..

فأما هؤلاء فقد كانت تحول جاهليتهم الساذجة وجهالتهم العميقة – كما تحول أهواؤهم ومصالحهم الذاتية كذلك – دون رؤية الخارقة الهائلة في هذا الكتاب العجيب ! ..

فأما أهل الجاهلية الحاضرة فيحول بينهم وبين هذا القرآن غرور « العلم البشري » الذي فتحه الله عليهم في عالم المادة . وغرور التنظيمات والتشكيلات المعقّدة بتعقيد الحياة البشرية اليوم ونموها ونضجها من ناحية التنظيم والتشكيل . وهو أمر طبيعي مع امتداد الحياة وتراكم التجارب وتجدد الحاجات – وتعقدها كذلك – كما يحول بينهم وبين هذا القرآن كيد أربعة عشر قرناً من الحقد اليهودي ، والصليبي ، الذي لم يكفّ لحظة واحدة عن حرب هذا الدين وكتابه القويم وعن محاولة إلهاء أهله عنه وإبعادهم عن توجيهه المباشر بعد ما علم اليهود والصليبيون من تجاربهم الطويلة : أن لا طاقة لهم بأهل هذا الدين ما ظلوا عاكفين على هذا الكتاب عكوف الجيل الأول لا عكوف التغني بآياته وحياتهم كلها بعيدة عن توجيهاته ، هو كيد مطرد مصرٌّ لئيم خبيث .. ثمرته النهائية هذه الأوضاع التي يعيش فيها الناس الذين يُسمَّوْن اليوم بالمسلمين – وهذه المحاولات الأخرى في كل مكان ، للتعفية على آثار هذا الدين ولتدارس قرآن غير قرآنه يرجع إليه في تنظيم الحياة كلها ، ويرد إليه كل اختلاف وكل نزاع في التشريع والتقنين لهذه الحياة كما كان المسلمون يرجعون إلى كتاب الله في هذه الشؤون !!! .

إنه هذا القرآن الذى يجهله أهله اليوم لأنهم لايعرفونه إلا تراتيل وترانيم وتعاويذ وتهاويم بعد ماصرفتهم عنه قرون من الكيد اللئيم ومن الجهل المزري ومن التعالم المغرور ومن الفساد الشامل للفكر والقلب والواقع النكد الخبيث .

إنه هذا القرآن الذي كان الجاهليون القدامى يصرفون عنه الجماهير بطلب الخوارق المادية والذي يصرف عنه الجاهليون المحدثون الجماهير بالقرآن الجديد الذي يفترونه وبشتى وسائل الإعلام والتوجيه إنه هذا القرآن الذي يقول عنه العليم الخبير : ﴿ **هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ . بصائر تكشف وتنير وهدىً يرشد ويهدي ورحمة تغمر وتفيض ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ فهم الذين يجدون هذا كله في هذا القرآن الكريم » .

٢ – .. وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم**

ترحمون ﴾ . قال الألوسي وهو من الحنفية : ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أي لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أقصى ثمراته ، والآية دليل لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه في أن المأموم لايقرأ في سرية ولا جهرية ؛ لأنها تقتضي وجوب الاستماع عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ؛ وقد قام الدليل في غيرها على جواز الاستماع وتركه فبقي فيها على حاله في الإنصات للجهر وكذا في الإخفاء لعلمنا بأنه يقرأ ، ويؤيد ذلك أخبار جمة ، فقد أخرج عبد بن حميد . وابن أبي حاتم . والبيهقي في سننه عن مجاهد قال : قرأ رجل من الأنصار خلف رسول الله ﷺ في الصلاة فنزلت وإذا قرىء القرآن الخ .

وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه صلى بأصحابه فسمع أناساً يقرأون خلفه فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ كما أمركم الله تعالى .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زيد بن ثابت قال : لاقراءة خلف الإمام . وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما جُعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » وهذا الحديث إذا صح وجب أن يخص عموم قوله تعالى : ﴿ **فاقرءوا ما تيسر منه** ﴾ . وقوله ﷺ : « لاصلاة إلا بقراءة » على طريقة الخصم مطلقاً فيخرج المقتدي ، وعلى طريقتنا أيضاً ، لأن ذلك العموم قد خص منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعاً فجاز التخصيص بعده بالمقتدي بالحديث المذكور ، وكذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام للمسيء صلاته : « فكبر ثم اقرأ مامعك من القرآن » على غير حالة الاقتداء جمعاً بين الأدلة ، بل قد يقال : إن القراءة ثابتة من المقتدي شرعاً فإن قراءة الإمام قراءة له فلو قرأ لكان له قراءتان في صلاة واحدة وهو غير مشروع . بقي الكلام في تصحيح الخبر ، وقد روي من طرق عديدة مرفوعاً عن جابر رضي الله عنه ، عنه عليه الصلاة والسلام وقد ضعف . واعترف المضعفون لرفعه كالدارقطني . والبيهقي . وابن عدي بأن الصحيح أنه مرسل لأن الحفاظ كالسفيانين . وأبي الأحوص وشعبة . وإسرائيل . وشريك . وجرير . وأبي الزبير . وعبد بن حميد وخلق آخرين رووه عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن النبي ﷺ فأرسلوه ، وقد أرسله مرة أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه : وحينئذ لنا أن نقول المرسل حجة عند أكثر أهل العلم فيكفينا فيما يرجع إلى العمل على رأينا وعلى طريق الإلزام أيضاً بإقامة الدليل على حجية المرسل أيضاً ، وعلى تقدير التنزل عن حجيته فقد رفعه الإمام بسند صحيح .

روى محمد بن الحسن في موطئه قال : أنبأنا أبو حنيفة حدثنا أبو الحسن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « من صلى خلف إمام فإن قراءة الإمام له قراءة » . وقولهم : إن الحفاظ الذين عدوهم لم يرفعوه غير صحيح . فقد قال أحمد بن منيع في مسنده : أخبرنا إسحاق الأزرق حدثنا سفيان . وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن رسول الله ﷺ : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة » . ثم قال : وحدثنا جرير عن موسى عن عبد الله عن النبي ﷺ - فذكره ولم يذكر جابراً - ورواه عبد بن حميد قال : حدثنا أبو نعيم حدثنا الحسن بن صالح عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ فذكره ، وإسناد حديث جابر الأول على شرط الشيخين والثاني على شرط مسلم ، فهؤلاء سفيان وشريك . وجرير . وأبو الزبير رفعوه بالطرق الصحيحة فبطل عدهم فيمن لم يرفعه ، ولو تفرّد الثقة وجب قبوله لأن الرفع زيادة وزيادة الثقة مقبولة فكيف ولم ينفرد ، والثقة قد يسند الحديث تارة ويرسله أخرى . وأخرجه ابن عدي عن الإمام رضي الله تعالى عنه في ترجمته وذكر فيها قصة وبها أخرجه أبو عبد الله الحاكم قال : حدثنا أبو محمد بن بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي حدثنا عبد الصمد بن الفضل البلخي حدثنا مكي بن إبراهيم عن أبي حنيفة عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن جابر ابن عبد الله « أن النبي ﷺ صلى ورجل خلفه يقرأ فجعل رجل من أصحاب النبي ﷺ ينهاه عن القراءة في الصلاة فلما انصرف أقبل عليه الرجل قال : أتنهاني عن القراءة خلف رسول الله ﷺ فتنازعا حتى ذكرا ذلك للنبي ﷺ فقال ﷺ : « من صلى خلف إمام فإن قراءة الإمام له قراءة » وفي رواية لأبي حنيفة : « إن ذلك كان في الظهر أو العصر » وهي أن رجلاً قرأ خلف رسول الله ﷺ في الظهر أو العصر فأومأ إليه رجل فنهاه فلما انصرف قال : أتنهاني الحديث . نعم إن جابراً روى منه محل الحكم فقط تارة والمجموع تارة ويتضمن رد القراءة خلف الإمام لأنه خرج تأييداً لنهي ذلك الصحابي عنها مطلقاً في السرية والجهرية خصوصا في رواية أبي حنيفة أن القصة كانت في السرية لا إباحة فعلها وتركها فيعارض بما روي في بعض روايات حديث « مالي أنازع في القرآن » أنه قال : أنه لابد ففي الفاتحة ، وكذا مارواه أبو داود . والترمذي عن عبادة بن الصامت قال : كنا خلف رسول الله ﷺ في صلاة الفجر فقرأ رسول الله ﷺ فثقلت عليه القراءة فلما فرغ قال : لعلكم تقرءون خلف إمامكم ؟ قلنا : نعم هذا ، قال : لاتفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لاصلاة لمن لايقرأ بها ؛ ويقدم لتقدم المنع على الإطلاق عند التعارض

ولقوة السند فإن حديث المنع أصح فبطل رد المتعصبين ، وتضعيف بعضهم لمثل الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه مع تضييقه في الرواية إلى الغاية حتى أنه شرط التذكر لجوازها بعد علم الراوي أن ذلك المروي خطه ، ولم يشترط الحفاظ هذا ولم يوافقه صاحباه ، على أن الخبر قد عضد بروايات كثيرة عن جابر غير هذه وإن ضعفت وبمذاهب الصحابة أيضاً كابن عباس ، وابن عمر ، وزيد بن ثابت وابن مسعود .

وأخرج محمد عن داود بن قيس بن عجلان أن عمر رضي الله عنه قال : ليت في فم الذي يقرأ خلف الإمام حجراً ، وروي مثل ذلك عن سعد بن أبي وقاص وروي عن علي كرم الله وجهه إلا أن فيه مقالاً أنه قال : من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة ، وقال الشعبي : أدركت سبعين بدرياً كلهم يمنعون المقتدي عن القراءة خلف الإمام ، وقد ادّعى بعض أصحابنا إجماع الصحابة رضي الله عنهم على ذلك ، ولعل مراده بذلك إجماع كثير من كبارهم ، وإلا ففيه نظر وكون مراده الإجماع السكوتي ليس بشيء أيضاً .» .

أقول : نقلت هذا النقل الطويل في مناقشة هذا الموضوع الفرعي من باب التعريف على مناقشات الفقهاء ومن باب التعويد على أسلوبهم .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾ قال النسفي : (ولاتنافي بين هذا وبين قوله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ لأنه إنما خلق منهم للعبادة مَن علم أنه يعبده ، وأما مَن علم أنه يكفر به فإنما خلقه لما علم أنه يكون منه فالحاصل أن من علم منه في الأزل أنه يكون منه العبادة خلقه للعبادة . ومن علم منه أنه يكون منه الكفر خلقه لذلك .

وبمناسبة هذه الآية يقول ابن كثير : فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق على ما هم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » . وفي صحيح مسلم أيضاً .. عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : دُعيَ النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يارسول الله

طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك ياعائشة . إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم » . وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد » . وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » . والأحاديث في هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها .

أقول : إن قوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾ الآية التي بعد الآية السابقة هي التي تبين الحكمة من الآية السابقة عليها وذلك أن مظاهر الكون بما فيه هي التي تدل على أسماء الله الحسنى ، وأسماؤه تدل على صفاته ثم على ذاته ، وكون الكون فيه ذنب وفيه خطيئة وفيه كفر وفيه وفيه . فإنه بذلك تعرف أسماء الله ، ويعرف الله ، فمن أين يعرف أن الله صبور لولا كفر الكافرين ؟ ومن أين يعلم أنه غفور لولا توبة التائبين ؟ وهكذا فخلق الخلق على ما هم عليه ، به نتعرف على ذاته حق المعرفة ومن عرف الله حق المعرفة عبده حق العبادة على أن وجود الكفر والذنب من الخلق باختيارهم وكون الله أراده وأبرزه بقدرته ، فليس ذلك ظلماً لهم ينفي اختيارهم بل إنه عَلِم مَاهم فاعلون فأراده فأبرزه .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون** ﴾ ننقل مايلي :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً . مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين وأخرجه الترمذي في جامعه . وزاد بعد قوله : « يحب الوتر :**هو الله الذي لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، العليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ،**

الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، الغفور ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » . ثم قال الترمذي هذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ولانعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء . إلا في هذا الحديث . والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه . ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسع وتسعين ، بدليل مارواه الإمام أحمد في مسنده .. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أصاب أحداً قط هَمّ ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً » فقيل يارسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بل ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها » . وذكر الفقيه الإمام أبو بكر ابن العربي أحدأئمة المالكية في كتابه الأحوذي في شرح الترمذي أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ يقول ابن كثير : وقد جاء في الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة في الآية هي هذه الأمة المحمدية ، قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية : « هذه لكم وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى مانزل » . وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم ولامن خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى رواية « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» . وفي رواية « بالشام » .

وبهذه المناسبة أقول : إن من اجتمع له الدعوة إلى الله ودينه ، وإذا حَكَم في أمر

صغيراً كان أو كبيراً في القضايا العادية وغير العادية في أهله وأولاده وجيرانه وأسرته حكم بالعدل الذي هو حكم الله دون تحيّز فذلك من هذه الأمة فلنحرص على ذلك .

٤ - وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **أَوَ لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِنة** ﴾ يقول قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يابني فلان يابني فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح - أو حتى أصبح - فأنزل الله تعالى ﴿ **أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين** ﴾ .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿**يسألونك عن الساعة**﴾ نقول: إن رسولنا عليه الصلاة والسلام كان يُسأل عن الساعة من كافر ومؤمن وكان إذا سأله المؤمنون عن ذلك ينفي علمه أو يلفت نظر السائل إلى ساعته أي موته ، أو موت جيله . ويروي ابن كثير بمناسبة هذه الآية أحاديث كثيرة ويعلق على بعضها فلننقل من كلامه بما يتفق مع عادتنا في التصرف ضمن مالايخل بالمعني :

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون . فذلك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، ولتقومّن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولايطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . ولما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلّم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان ثم قال : فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » . أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ . الآية . وفي رواية : فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة ، ثم قال : « في خمسة لايعلمهن إلا الله » وقرأ هذه الآية ، وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت . ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدّقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . وفي رواية قال : « وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » . ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال يامحمد . قال

رسول الله ﷺ « هاؤم » على نحو من صوته قال : يامحمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله ﷺ « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها ؟ » قال : ماأعددت لها كبير صلاة ولاصيام ولكني أحب الله ورسوله : فقال له رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . ففي هذا الحديث أنه عليه الصلاة السلام كان إذا سئل عن هذا الذي لايحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ماهو الأهم في حقهم ، وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله ، وإن لم يعرفوا تعيين وقته ولهذا قال مسلم في صحيحة وحدثنا .... عن عائشة رضي الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول :« إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم » . يعني بذلك موتهم الذي يفضي بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة . وروى ابن جريج مارواه مسلم .... أن جابر بن عبد الله سمع رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : « تسألوني عن الساعة ، وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ماعلى ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتي عليها مائة عام » . وفي الصحيحين عن ابن عمر مثله . قال ابن عمر : وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة » قال فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لاعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى فقال لاعلم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى . فقال عيسى : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلي ربي عز وجل أن الدجال خارج . وقال . فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال فيهلكه الله عز وجل إذا رآني ، حتى إن الشجر والحجر يقول : يامسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله . قال : « فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون . فيطؤون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولايمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم فأدعو الله عز وجل فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم (أي تنتن) قال : فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، ثم قال : ففيما عهد إلي ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لايدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً ، فهؤلاء أكابر أولي العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه

ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج ببركة دعائه ، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به ، وروى الإمام أحمد ... عن حذيفة قال : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : « علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ، ولكن سأخبركم بمشاريطها ومايكون بين يديها : إن بين يديها فتنة وهرجاً » قالوا يارسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج ؟ قال : « بلسان الحبشة القتل » قال « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً » . وروى وكيع بإسناد جيد قوي .... عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ لايزال يذكر « من شأن الساعة حتى نزلت ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها** ﴾ قال ابن كثير : فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، نبي الرحمة ، ونبي التوبة ونبي الملحمة ، والعاقب والمقفي والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها ، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها ، فقال : ﴿ **قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون** ﴾ .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم من نفس واحدة ....** ﴾ . يرد ابن كثير كل اتجاه يزعم أن الشرك قد وقع من آدم عليه السلام وزوجه لأن ذلك يتنافى مع العصمة ، ويعتبر أن كل ماورد في ذلك - حتى مما ظنه الناس حديثاً إنما هو مروي عن أهل الكتاب ، ويطعن في صحة الحديث المروي في ذلك ثم يقول كلاماً من أنفس الكلام ينتظم مجموعة موضوعات كلها نفيس منها الموقف من روايات أهل الكتاب وهذا هو كلامه . قال :

(وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولاتكذبوهم » ، ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ماعلمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ماعلمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ماهو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام : « حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج » . وهو الذي لايصدَّق ولايكذَّب لقوله : « فلاتصدقوهم ولا تكذبوهم » . وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر . فأما من حدّث به

من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا ، وأنه ليس المراد في هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد في ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال الله ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ ثم قال : فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها ، وإنما استطرد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظائر في القرآن . والله أعلم) .

ونقول تعليقاً على الجزء من كلام ابن كثير الذي له علاقة في الإسرائيليات : أن ماذكره يدل على جواز دراسة كتبهم لنقدها ، من قِبل مَن عنده علم يميز بين ماهو حق وماهو باطل وماهو محتمل ، كما جاز النقل عن كتبهم مع البيان وهذا الذي درجنا عليه في هذا الكتاب .

٧ – وبمناسبة قوله تعالى عن الأصنام ﴿ **ولا أنفسهم ينصرون** ﴾ يذكر ابن كثير هذه القصة (وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما ــ وكانا شابين ، قد أسلما ــ لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتأوا لأنفسهم ، فكان لعمروبن الجموح – وكان سيداً في قومه ــ صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان في الليل فينكّسانه على رأسه ، ويلطّخانه بالعذرة ، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ماصُنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر . ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه في حبل في بئر هناك . فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ماكان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت إلها مستــــدن　　لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه .

٨ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ نذكر هذه الروايات . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة عن أبيّ قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال رسول الله ﷺ: «ماهذا ياجبريل؟» قال: «إن الله أمرك أن تعفو عمن

ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » وقد رواه ابن أبي حاتم أيضاً . كما روي له شواهد من وجوه أخر ، وقد رواه ابن مردويه مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد ابن عبادة عن النبي ﷺ . وروى الإمام أحمد ... عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته ، فأخذت بيده . فقلت : يارسول الله أخبرني بفواضل الأعمال . فقال : « ياعقبة صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك » وروى الترمذي نحوه وقال حسن صحيح . وروى البخاري ... أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس — وكان من النفر الذين يدنيهم عمر — وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه . قال : سأستأذن لك عليه قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر . فلما دخل عليه ، قال هي يا ابن الخطاب فو الله ماتعطينا الجزل ولاتحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ وإن هذا من الجاهلين . والله ماجاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وَقَّافاً عند كتاب الله عز وجل . وقال بعض العلماء : الناس رجلان ، فرجل محسن فخذ ماعفالك من إحسانه ، ولاتكلفه فوق طاقته ولا مايحرجه ، وإما سُيء فمره بالمعروف فإن تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمرَّ في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده .

٩ — بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ...** ﴾ يلاحظ ابن كثير أنه ما من مرّة ورد الأمر بالاستعاذة من شيطان الجن إلاّ وكان في سياقها الإرشاد ، إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف أي بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى . ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجن فإنه لايكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ؛ فإنه عدو لك ولأبيك من قبلك . ويذكر ابن كثير بهذه المناسبة ما ذكره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما نزلت ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال يارب كيف بالغضب فأنزل الله ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾ ثم ذكر حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضباً فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له فقال : مابي من جنون .

١٠ - وبمناسبة قوله تعالي : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا** .. ﴾ أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ها هنا حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف ، فقالت يارسول ادع الله أن يشفيني فقال : « إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت فاصبري ولاحساب عليك » فقالت بل أصبر ولاحساب علي . ورواه غير واحد من أهل السنن . وعندهم قالت : يارسول الله إني أصرع وأتكشّف فادع الله أن يشفيني فقال : « إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة » فقالت : بل أصبر ولي الجنة . ولكن ادع الله أن لاأتكشَّف . فدعا لها فكانت لاتتكشف . وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها فمازالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ فخر مغشياً عليه ثم أفاق فأعادها فمات ، فجاء عمرو فعزى فيه أباه وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمرو فقال يافتى ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فأجابه الفتى من داخل القبر ياعمرو قد أعطانيهما ربي عز وجل في الجنة مرتين . » ذكر هذه القصة ابن كثير فإن صحت فهي كرامة لعمرو أن يسمع صوت ميت

١١ - وعند قوله تعالى : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ يدور نقاش كثير بين العلماء حول مانصَّت عليه ، إذ استدل بها الحنفية على ماذهبوا إليه أنه يكره للمأموم أن يقرأ وراء الإمام مطلقاً . واستدل من ذهب إلى أن المأموم لايقرأ وراء الإمام في الجهرية ويقرأ في السرية . وقد عرض ابن كثير وهو شافعي المذهب هذه الاتجاهات وغيرها في فهم الآية وأشعر بما يفيد أنه يرجّح مذهب الشافعية في هذا الموضوع ولكل من الأئمة وجهة نظره التي تقوم عليها الأدلة ، والأمر فيه سعة ، وهذا كلام ابن كثير وهو شافعي ننقله مع حذف الأسانيد وكنا من قبل نقلنا كلام الألوسي من الحنفية : (لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قولهم ﴿ **لاتسمعوا لهذا القرآن والغوافيه** ﴾ الآية ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا اقرأ

فأنصتوا » وكذا رواه أهل السنن .

وروى إبراهيم بن مسلم الهجري عن أبي هريرة قال : كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات . وروى ابن جرير ... أن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ وروى ابن جرير أيضاً ... عن بشير بن جابر قال : صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ كما أمركم الله . وروى أيضاً ... عن الزهري قال : نزلت هذه الآية في فتى من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأه فنزلت ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن ... عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من « صلاة جَهَر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معي آنفاً ؟ » قال رجل نعم يارسول الله . قال :« إني أقول مالي أنازع القرآن » قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ . وقال الترمذي هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازي وروى عبد الله بن المبارك .... عن الزهري قال : لايقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام ، وإن لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرؤون فيما لايجهر به سراً في أنفسهم ، ولايصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية فإن الله تعالى قال ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ قلت:- القائل ابن كثير- هذا مذهب طائفة من العلماء، أن المأموم لايجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر به الإمام الفاتحة ولاغيرها . وهو أحد قولي الشافعي ، وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل كما ذكرناه من الأدلة المتقدمة . وقال في الجديد : يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لايجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث : « من كان له إمام فقراءته قراءة له » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً ، وهو في موطأ مالك عن جابر موقوفاً ، وهذا أصح . وهذه المسألة مبسوطة في غير هذا الموضع ، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً والله أعلم . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قوله

﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ يعني في الصلاة المفروضة . وكذا روي عن عبد الله بن المفضل . وروى ابن جرير .... عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبي رباح يتحدثان والقاص يقص . فقلت ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال فنظرا إلي ثم أقبلا على حديثهما . قال : فأعدت فنظرا إلي وأقبلا على حديثهما ، قال : فأعدت الثالثة . قال : فنظرا إلي فقالا : إنما ذلك في الصلاة ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ . وكذا روى سفيان الثوري ... عن مجاهد في قوله ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ قال : في الصلاة . وكذا رواه غير واحد عن مجاهد ، وروى عبد الرزاق ... عن مجاهد قال : لابأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم . وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وإبراهيم النخعي وقتادة والشعبي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بذلك في الصلاة ، وروى شعبة ... أن مجاهداً كان يقول في هذه الآية ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾قال : في الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جرير عن عطاء مثله ، وروى هشيم ... عن الحسن قال : في الصلاة وعند الذكر ، وروى ابن المبارك ... أن سعيد بن جبير كان يقول في قوله ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا** ﴾ قال : الإنصات يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، ويوم الجمعة ، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة . وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة كما جاء في الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة . وروى عبد الرزاق ... عن مجاهد أنه كره إذا مَرّ الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً . قال : السكوت . وروى مبارك بن فضالة عن الحسن : إذا جلست إلى القرآن فأنصت له . وروى الإمام أحمد .... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة » .

١٢ – ومن كلام ابن كثير عند الآية قبل الأخيرة في هذه السورة ﴿ **واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ....** ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر لايكون نداء وجهراً بليغاً ، لهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعانِ** ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال لهم النبي ﷺ : « يأأيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم

لاتدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلي أحدكم من عنق راحلته » . وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى ﴿ **ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً** ﴾ فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبّوه وسبّوا من أنزله وسبّوا من جاء به ، فأمره الله تعالى أن لايجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولايخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم وليتخذ بين الجهر والإسرار ، وكذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ **ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ ثم قال ابن كثير في تبيان المراد من الآية : بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ؛ لئلا يكونوا من الغافلين . ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لايفترون . فقال : ﴿ **إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته** ﴾ الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتَدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون في الصف » وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع ، وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه عدها في سجدات القرآن .

كلمة في سياق هذا القسم :

اتضح لنا من خلال عرض المعنى العام ارتباط هذا القسم ببقية السورة في سياقها الخاص وضمن محورها العام والشيء الذي يمكن أن نذكره هنا . هو أن هذا القسم وضّح أن موضوع الهداية والضلال مرتبط بمشيئة الله ، فالضلال بإرادته والهداية بإرادته . غير إن للهداية سُنناً وللضلال سُنناً . فنقطة البداية في الضلال ترك النظر والتدبر والتفكر والاعتبار والإعراض عن الاستماع للحق والخير . وأن الشرك هو مرتكز الضلال . وأن منطلقات الهداية معرفة الله بأسمائه الحسنى والإعراض عن الكافرين به ، والتوكل عليه ، والتخلق بمكارم الأخلاق والالتجاء إليه ، والفرار إليه من كيد الشيطان والإنصات إلى كتابه ، وكثرة ذكره وعبادته .

كما أن القسم بين أنه لاحجة لكفر كما لا حجة لشرك ، بل الحجة قائمة على الكافرين بأنواعهم .

كما أن القسم أعطانا نموذجاً على أنواع من الضلال والضالين . وعرفنا على أن الهدى

مستقر في الفطرة وأن رسالة الرسل مستجمعة لأسباب الهدى مع ما أودعه الله عز وجل في أصل الفطرة وهكذا انطلقت سورة الأعراف آمرة باتباع الكتاب ، ووصلت إلى أن بينت أن هذا هو أصل الفطرة ، ودلتنا على البدايات والنهايات في السير إلى الله .

كلمة في سورة الأعراف :

رأينا أن محور سورة الأعراف هو قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وقد رأينا أن سورة الأعراف تفصيل لهذا المحور : فقد جاءت السورة مفصلة للأمر من بدايته . ضاربة في أعماق التاريخ حتى الرسالة الخاتمة . عارضة أصل المسألة وقاعدتها بداية القصة والتعليقات عليها ، والتطبيقات لها ، والنماذج عليها حتى أوصلت إلى الرسالة الخاتمة ، فحذّرت وأنذرت ، ثم قَبَّحَت الغفلة وأهلها ، وأقامت الحجة على المعرضين . وحددت معالم الطريق لأهل الهداية . والآية اللاحقة فيها تكمّل السابقة ، وجميع الآيات تبني صرح اليقين برسالة محمد ﷺ ، ووجوب اتباعه ، واتباع الهدى المنزَّل عليه ، واتباع دعوته ودينه وشريعته . ولنلاحظ الصلات مابين أول السورة وخاتمها: في أول السورة كلام عن اتباع القرآن والتحذير من الشيطان ، ووصف ملائكة الرحمن بالطاعة المطلقة . وفي آخر السورة أمر بالاستماع للقرآن ، وأمر بالاستعاذة من الشيطان ، وثناء على ملائكة الرحمن لترتفع الهمم للعودة إلى الجنان ، فيارب العرش العظيم : أكرمنا بالفردوس الأعلى ، واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم ، من النبيّن والصدّيقين والشهداء والصالحين .

☆ ☆ ☆

سورتا الأنفال وبراءة

وهما السورتان الثامنة والتاسعة بحسب رسم القرآن
وهما بمثابة السورة الواحدة ولذلك فقد اعتبرهما
بعضهم أنهما السورة السابعة من قسم السبع الطوال

كلمة في محل السورتين ضمن السياق القرآني العام

تحدث الألوسي عن وجه مناسبة سورة الأنفال للأعراف فقال : « ووجه مناسبتها لسورة الأعراف أن فيها « وأمر بالعرف » وفي هذه كثير من أفراد المأموربه ، وفي تلك ذكر قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم ، وفي هذه ذكر النبي ﷺ وذكر ما جرىٰ بينه وبين قومه ، وقد فصّل سبحانه وتعالىٰ في تلك قصص آل فرعون وأضرابهم وماحل بهم ، وأجمل في هذه ذلك فقال سبحانه وتعالىٰ ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب** ﴾ وأشار هناك إلى سوء زعم الكفرة في القرآن بقوله تعالىٰ ﴿ **وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها** ﴾ وصرح سبحانه وتعالى بذلك هنا بقوله جل وعلا ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ ، وبين جلَّ شأنه فيما تقدم أن القرآن هدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون ، وأردف سبحانه وتعالىٰ ذلك بالأمر بالاستماع له ، والأمر بذكره تعالىٰ ، وهنا بيَّن جلَّ وعلا حال المؤمنين عند تلاوته ، وحالهم إذا ذكر الله تبارك اسمه بقوله عز من قائل : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ إلى غير ذلك من المناسبات ، والظاهر أن وضعها هنا توقيفي وكذا وضع براءة بعدها وهما من هذه الحيثية كسائر السور وإلى ذلك ذهب غير واحد كما مرّ في المقدمات) .

وتحدث الألوسي كذلك عن وجه مناسبة سورة [براءة] للأنفال فقال : (ووجه مناسبتها للأنفال أن في الأولى قسمة الغنائم وجعل خمسها لخمسة أصناف - على ماعلمت - وفي هذه قسمة الصدقات وجعلها لثمانية أصناف - على ماستعلم إن شاء الله تعالىٰ - وفي الأولى أيضا ذكر العهود ، وهنا نبذها ، وأنه تعالى أمر في الأولى بالإعداد فقال سبحانه : ﴿ **وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة** ﴾ ونعى هنا على المنافقين عدم الإعداد بقوله عز وجل : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة** ﴾ . وأنه سبحانه ختم الأولى بإيجاب أن يوالي المؤمنين بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، وصرّح جل شأنه في هذه بهذا المعنى بقوله تبارك وتعالى : ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ الخ إلى غير ذلك من وجوه المناسبة) .

وقال الألوسي : في الأنفال وبراءة : « وعن قتادة ، وغيره أنها (سورة التوبة) مع الأنفال سورة واحدة ولهذا لم تكتب بينهما البسملة وقيل : في وجه عدم كتابتها أن

الصحابة رضي الله تعالى عنهم اختلفوا في كونها سورة أو بعض سورة ، ففصلوا بينها وبين الأنفال رعاية لمن يقول هما سورتان ، ولم يكتبوا البسملة رعاية لمن يقول هما سورة واحدة ، والحق أنهما سورتان إلا أنهم لم يكتبوا البسملة بينهما لما رواه أبو الشيخ . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عليّ كرم الله وجهه من أن البسملة أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ، ومثله عن محمد بن الحنفية وسفيان بن عيينة ، ومرجع ذلك إلى أنها لم تنزل في هذه السورة كأخواتها لما ذكر ، ويؤيد القول بالاستقلال تسميتها بما مر . »

أقول : إن الأنفال وبراءة سورتان ولكنهما في حكم السورة الواحدة ، فالأنفال تفصيل لفرضية القتال ومايحيط به ، والثانية هي منشور القتال في الإسلام .

فبعد إذ تستقر أحكام القتال ولوازمه وأسبابه ومايترتب عليه ومايحتاجه في سورة الأنفال ، تأتي سورة التوبة وكأنها منشور مبني علي ذلك .

وقد لاحظنا من خلال كلام الألوسي عن وجه مناسبة سورة الأنفال والأعراف ، وعن وجه سورة براءة للأنفال أنّه نظر إلى الصلة بين السور من خلال ماعبّر عنه في عصرنا بالوحدة الموضوعية للقرآن ، فقد رأى أن مواضيع طرقتها السورة السابقة أكملتها السورة اللاحقة . ونحن نضيف إلى ذلك ماله صلة بما فتح الله به من نظريتنا في الوحدة القرآنية .

فنقول عارضين الأمر من بدايته :

رأينا أن سورة آل عمران كانت تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة . أي للعشرين آية الأولى فيها ، وأن سور : النساء والمائدة والأنعام كانت تفصيلاً للتسع الآيات التالية . وأن سورة الأعراف كانت تفصيلاً للقاعدة التي استقرت عليها قصة آدم التي جاءت في سورة البقرة بعد الآيات التسع السابقة ، ثم نجد في سورتي الأنفال وبراءة تفصيلاً لموضوع طرقته سورة البقرة في آياتها (٢١٦) ــ (٢١٧) - (٢١٨) . فكأن مابين ذلك كان تفصيلاً يقتضيه سياق سورة البقرة ، وكأنه امتداد لمعاني الآيات التي جاءت من قبل ، ففصلت في السور السابقة ، ولم تعد تحتاج إلى تفصيل في القسم الأول من أقسام القرآن ، ومثل ذلك الآيات التي تأتي بعد هذه الآيات الثلاث ، ولذلك فبانتهاء سورتي الأنفال وبراءة يأتي القسم الثاني من أقسام القرآن ليفصّل ماأجمل في سورة البقرة تفصيلاً جديداً ، على نفس النسق والتسلسل الوارد في سورة البقرة ، مما يدل على

أن مايأتي ثانياً مبني على ماجاء أولاً ، ومايأتي ثالثاً مبني على ماورد ثانياً ، كما يدل على أهمية التفصيل المتجدد والجديد . والمهم أن نعرف هنا أن التفصيل الأول لسورة البقرة يتم بانتهاء سورتي الأنفال وبراءة .

في عصرنا هذا تعتمد الدول ذات العقائد الخاصة نظرية غسيل المخ ، وتعتمد وسائل التربية ومدارسها فكرة الإجمال ، ثم التفصيل ، وتقديم البدهيات على غيرها ، والتدرج في التربية والتعليم ، وكلها معان أوصلت إليها التجربة والاستقراء ، فأن تجد القرآن يصنع النفس البشرية بالحق ، من خلال البناء المتدرج تدرك شيئاً من عظمة هذا القرآن ، وشيئاً من كماله وإعجازه .

....

في الدول الديكتاتورية ذات العقائد الخاصة تقوم عملية غسيل المخ على وضع الإنسان أو الشعب في ظروف صعبة تجعل عنده استعداداً لتقبل مايلقى إليه ، ثم تبدأ عملية الإلقاء المتكرر المتجدد ، حتى تصاغ نفسية الفرد أو الشعب بالشكل الذي يريده الحاكم ، وفي نظم التربية المعاصرة ينقل الإنسان من طور إلى طور أوسع منه حتى يكمل وفي الصورة الأولى تجد باطلاً يربى عليه الإنسان ، وفي الصورة الثانية نجد خطأ أو قصوراً في تربية الإنسان ، والقرآن وضع الإنسان في الظرف الذي ينبغي أن يكون فيه ، ظرف العبودية لله ، ثم أجمل وفصَّل وعرض الموضوع الواحد على طرائق شتى من العرض ، وكررّ الموضوع الواحد بشكل متجدد ، وكل ذلك بما لايشبه شيئاً مما ألفه النّاس وعرفوه ، وكلّ ذلك بمستوى رفيع من البيان والإحاطة ، فإذا ماوسع هذا القرآن مع هذا كل شيء . وإذا كان كل شيء فيه حقاً ، فإن هذا كله يدلنا على أن هذا القرآن لايمكن أن يكون كما هو عليه إلا إذا كان منزله رب السموات والأرض ومن فيهن .

* * *

إن سورتي الأنفال وبراءة تكملان بعضهما ، ومن ثَم نلاحظ أنه لم يفْصل الصحابة بين السورتين ببسم الله الرحمن الرحيم . والسورتان موضوعهما القتال والجهاد ومايتعلق به . وسنرى بأكثر من دليل أنهما تفصيل للآيات الثلاثة التي ذكرنا أرقامها من سورة البقرة .

فلنر الآيات الثلاثة :

﴿ كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون * يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

فههنا أمر بالقتال وإعلام بفرضيته وسؤال عن حالة من حالاته ، ثم تقرير لما يرجو أهله من مغفرة الله ورحمته .

الآية الأولى : ﴿ **كتب** . . ﴾ .
الآية الثانية : ﴿ **يسألونك** ... ﴾
الآية الثالثة : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا** ... ﴾

ولاشك أن فرضية القتال ترتبط بها موضوعات متعددة ، منها النفسي ، ومنها المادي ،ومنها غير ذلك ، ومن ثَم نلاحظ أن سورة الأنفال تبدأ بـ ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ... ﴾ تبدأ بنفس الكلمة التي صدرت بها الآية التي جاءت بعد آية القتال مباشرة من سورة البقرة ، ثم تستمر سورة الأنفال في تفصيل قضايا متعلقة بالقتال ، ثم تأتي سورة براءة في نفس الاتجاه ، وعلى نفس المحور ، فهما تفصيل لهذا الجزء من سورة البقرة ، ولكنه ليس تفصيل المناطقة ، ولاتفصيل القانونيين ، ولاتفصيل الشعراء ، وإنما تفصيل العليم الخبير المحيط علماً بكل شيء ، يفصِّل مايحتاج إلى تفصيل بما يستوعب التربية والتشريع والتعليم ، وحالات النفس وحاجاتها ، وغير ذلك ، مما لايحيط به إلا الله .

وسنحاول أثناء عرض السورتين أن نبرهن على أنّ السورتين تفصيل للآيات الثلاثة التي ذكرناها ولكننا هنا نكتفي بإشارات سريعة :

أول الآيات الثلاث هي قوله تعالى : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾
وبعد مقدمة سورة الأنفال مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك**

بالحق .. وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ **وهو كُرْه لكم** ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ .

ويأتي في الآيات الثلاث قوله تعالى : ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾

وفي وسط سورة الأنفال يأتي قوله تعالى . ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ لاحظ كلمة الفتنة في الآيتين ثم إن الآية الثانية تبدأ بكلمة « **يسألونك** » وسورة الأنفال تبدأ بكلمة « **يسألونك** » .

وثالث الآيات في سورة البقرة هي : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾

وآخر صفحة في سورة الأنفال تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا ...** ﴾

والآيتان الأخيرتان في السورة هما : ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم * والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم** ﴾

ألاترى أن سورة الأنفال تفصيل للآيات الثلاث بشكل واضح

وبعد أن تفصل سورة الأنفال الآيات الثلاث ، وموضوعات القتال ومايحيط به ، تأتي سورة براءة كمنشور قتال ، وإن على كل مسلم أن يعرف سورة الأنفال لمعرفة فرضية القتال وأن يعرف سورة براءة لاستيعاب منشور القتال

ولإدراك الصلة بين سورة براءة والآيات الثلاث التي ذكرناها يكفي : أن نذكر أنّ في الآيات الثلاث يرد قوله تعالى ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كُرْه لكم** ﴾ وفي سورة براءة يرد قوله تعالى : ﴿ **مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله آثَّاقَلْتم إلى الأرض** ﴾ وفي الآيات الثلاث يرد قوله تعالى ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام** ﴾ وفي سورة براءة يرد قوله تعالى : ﴿ **إن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله منها أربعة حرم** ﴾ وفي الآيات الثلاث يرد قوله تعالى : ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ وفي سورة براءة يرد قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام ...** ﴾

....

إن هذه الاختيارات كافية للإشارة إلى ماذكرنا من كون سورتي الأنفال وبراءة تفصيلاً للآيات الثلاث من سورة البقرة ، وسيأتي مزيد بيان أثناء عرضنا للسورتين .

....

إن هذا القرآن يتألف من أربعة أقسام ـــ كما نص على ذلك الحديث ـــ والقسم الأول ينتهي بنهاية سورة براءة ، وإن كل سورة جاءت بعد سورة البقرة لها محورها في سورة البقرة ، وهي إذ تفصّل في هذا المحور ، تفصّل فيه ، وفي امتداداته ، وفي ارتباطاته ، وهكذا فإن كلّ سورة من السور السبع التي جاءت بعد سورة البقرة من هذا القسم فصّلت في أكثر من المحور ، فكأن كل محور جذب إليه المعاني الأكثر لصوقاً ، ثمّ جاءت سورة تفصّل في ذلك كله ، وبهذا الذي قلناه ندرك لِمَ كان تباعد بين محور سورتي الأنفال وبراءة ، وبين محور سورة الأعراف ، كما ندرك لِمَ لِمْ تأت سورة بعد براءة سور تفصّل في محاور أخرى تأتي بعد الآيات الثلاث ، وماذلك - والله أعلم - إلا لأن معاني سورة البقرة قد فصّلت التفصيل الأول في سور القسم ، لأن كل سورة-كما قلنا-جذبت إلى محورها امتدادات هذا المحور وفصّلت فيه

وقد رأينا براهين ذلك ، وهذه واحدة لاينقضي منها العجب في شأن هذا القرآن ولكنها واحدة من كثير ، إن قلباً لايؤمن بهذا القرآن أعمى ، وإن قلباً لاينصت لهذا القرآن غافل ، وإن قلباً لايتدّبر معاني هذا القرآن مريض ، ولننتقل إلى عرض سورة الأنفال :

☆ ☆ ☆

سورة الأنفال

وهي السورة الثامنة بحسب الرسم القرآني
وهي مع سورة التوبة تعتبران السورة
السابعة من قسم الطوال
وآياتها خمس وسبعون
وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ

سورة الأنفال مدنية ، آياتها خمس وسبعون ، وكلماتها ألف وستمائة وإحدى وثلاثون كلمة ، وحروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً ، وقد رأينا في الصفحات السابقة محلّ السورة في السياق القرآني العام ومحورها .

وككل سورة في القرآن فإن لسورة الأنفال سياقها الخاص ، ووحدتها الخاصة ، زيادة على ارتباطها في السياق العام للقرآن ، ولذلك فإننا نلاحظ أن مقدمة السورة تقول :﴿ **إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ لاحظ قوله تعالى : ﴿ **هم المؤمنون حقاً** ﴾ ثم تسير السورة لنرى في خاتمتها ـــ وذلك قبل الآية الأخيرة ـــ قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ لاحظ كذلك قوله تعالى : ﴿ **هم المؤمنون حقاً** ﴾ من هذا وأمثاله ندرك وحدة السورة ، وترابط آياتها ، وترابط فقراتها ومقاطعها ، وترابط مقدماتها مع خاتمتها ، وهذا كله سيتضح لنا أثناء العرض .

ولقد قدّم صاحب الظلال لهذه السّورة بعشرات الصفحات ، ونجد أنفسنا أسرى كلماته ولذلك فسننقل مقتطفات من كلامه الذي قدّم فيه لهذه السورة ، مع نقل عنه من مكان آخر نرى أنه من المناسب أن ندخله في هذه المقتطفات :

قال رحمه الله : « نزلت سورة الأنفال التي نعرض لها هنا بعد سورة البقرة .. نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة على الأرجح .. ولكن القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة البقرة لايمثل حقيقة نهائية . فسورة البقرة لم تنزل دفعة واحدة ، بل إن منها مانزل في أوائل العهد بالمدينة ، ومنها مانزل في أواخر هذا العهد . وبين هذه الأوائل وهذه الأواخر نحو تسع سنوات ! ومن المؤكد أن سورة الأنفال نزلت بين هذين الموعدين ؛ وأن سورة البقرة قبلها وبعدها ظلت مفتوحة ؛ تنزل الآيات ذوات العدد منها بين هذين الموعدين ، وتضم إليها وفق الأمر النبوي التوقيفي . »

« هذه السورة نزلت في غزوة بدر الكبرى .. وغزوة بدر - بملابساتها وبما ترتب عليها في تاريخ الحركة الإسلامية وفي التاريخ البشري جملة ـــ تقوم معلماً في طريق تلك الحركة وفي طريق هذا التاريخ .

وقد سمّى الله سبحانه.. يومها ﴿**يوم الفرقان يوم التقى الجمعان**﴾.. كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس في الآخرة كذلك ، لافي هذه الأرض وحدها ؛ ولا في التاريخ البشري على هذه الأرض في الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه : ﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم : فالذين كفروا قطّعت لهم ثياب من نار ، يصبُّ من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به مافي بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها .. من غم .. أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق * إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وهُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ .. الحج (١٩ - ٢٤) وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في الفريقين اللذين التقيا يوم بدر .. يوم الفرقان .. لافي الدنيا وحدها ولافي التاريخ البشري على الأرض وحدها ؛ ولكن كذلك في الآخرة وفي الأبد الطويل .. وتكفي هذه الشهادة من الجليل - سبحانه ـــ لتصوير ذلك اليوم وتقديره ..

« لم تكن غزوة بدر الكبرى هي أولى حركات الجهاد الإسلامي فقد سبقتها عدة سرايا ، لم يقع قتال إلا في واحدة منها ، هي سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة .. وكانت كلها تمشياً مع القاعدة التي يقوم عليها الجهاد في الإسلام .. نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التي أخرجت رسول الله ﷺ . والمسلمين الكرام ؛ ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة في الجاهلية وفي الإسلام . ولكن هذا ليس الأصل في انطلاقة الجهاد الإسلامي . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله وبتقرير ألوهية الله في الأرض ؛ وتحطيم الطواغيت التي تُعبِّد الناس ، وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده .. وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ؛ والدخول في سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت ، تمشياً مع خطته العامة ؛ وانتصافاً ـــ في الوقت ذاته ـــ من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ؛ ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينة من الغزو والعدوان .. وإن كان ينبغي دائماً ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر - ولاننسى - طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التي تحتِّمها طبيعته هذه . وهي ألا يترك في الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان الله ؛ ويعبّد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال »

« في هذه الغزوة .. نزلت سورة الأنفال نزلت تعرض وقائع الغزوة الظاهرة ، وتعرض وراءها فعل القدرة المدبّرة ، وتكشف عن قدر الله وتدبيره في وقائع الغزوة ، وفيما وراءها من خط سير التاريخ البشري كله ؛ وتحدث عن هذا كله بلغة القرآن الفريدة وبأسلوب القرآن المعجز . »

أقول : وفي هذه الغزوة ينكشف للإنسان أن هناك قوانين وسنناً أوسع مما يظنه الجاهلون وأن لله قدراً وأن لله تدبيراً فوق كل تدبير .

يقول صاحب الظلال : « ولقد ظلت الجاهلية « العلمية » الحديثة تلج فيما تسميه « حتمية القوانين الطبيعية » . وذلك لتنفي « قدر الله» وتنفي « غيب الله » . حتى وقفت في النهاية - عن طريق وسائلها وتجاربها ذاتها - أمام غيب الله وقدر الله وقفة العاجز عن التنبؤ الحتمي ! ولجأت إلى نظرية « الاحتمالات » في عالم المادة . فكل ماكان حتمياً صار احتمالياً . وبقي « الغيب » سراً محترماً . وبقي قدر الله هو الحقيقة الوحيدة المستيقنة ، وبقي قول الله - سبحانه - ﴿ **لاتدري لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ هو القانون الحتمي الوحيد ، الذي يتحدث بصدق عن طلاقة المشيئة الإلهية من وراء القوانين الكونية التي يدبر الله بها هذا الكون ، بقدره النافذ الطليق .

يقول سير جيمس جينز الإنجليزي الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات . « لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لاتستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً ، وهو الطريق الذي رسم من قبل لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وأن لا مناص من أن الحالة (ا) تتبعها الحالة (ب) .. أما العلم الحديث فكل مايستطيع أن يقوله حتى الآن ، هو أن الحالة (ا) يحتمل أن تتبعها الحالة (ب) أو (ج) أو (د) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة (ب) أكثر احتمالاً من حدوث الحالة (ج) وإن الحالة (ج) أكثر احتمالاً من (د) وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات (ب) و (ج) و(د) بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لايستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما مايجب أن يحدث ، فأمره موكول إلى الأقدار ، مهما تكن حقيقة هذه الأقدار » .

وقال صاحب الظلال : « ولأن المعركة - كل معركة - يخوضها المؤمنون .. من صنع الله وتدبيره . بقيادته وتوجيهه . بعونه ومدده . وقدره . له وفي سبيله . تتكرر الدعوة

في السورة إلى الثبات فيها ، والمضي معها ، والاستعداد لها ، والاطمئنان إلى تولي الله فيها ، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال والأولاد ، والاستمساك بآدابها ، وعدم الخروج لها بطراً ورئاء الناس . ويؤمر رسول الله ﷺ .. بتحريض المؤمنين عليها » .

« وفي ذات الوقت الذي تتكرر الأوامر بالتثبيت في المعركة يتجه السياق إلى توضيح معالم العقيدة وتعميقها ورد كل أمر وكل حكم وكل توجيه إليها . فلا تبقى الأوامر معلقة في الفراغ ، وإنما ترتكز على ذلك الأصل الواضح الثابت العميق :

« ا » في مسألة الأنفال يردون إلى تقوى الله ، والوجل عند ذكره ، وتعلق الإيمان بطاعة الله وطاعة رسوله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين * إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾ .

«ب» وفي خطة المعركة يردون إلى قدرة الله وتدبيره ، وتصريفه لمراحلها جميعاً : ﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** .. ﴾

«ج» وفي أحداثها ونتائجها يردون إلى قيادة الله لها ، ومدده وعونه فيها : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً** ... ﴾ .

« د » وفي الأمر بالثبات فيها يردون إلى مايريده الله لهم بها من حياة ، وإلى قدرته على الحيلولة بينهم وبين قلوبهم ، وإلى تكفُّله بنصر من يتوكل عليه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون** ..﴾ . ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** ﴾ .

«هـ» وفي تحديد الهدف من وراء المعركة يقرر : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ..﴿ **ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض** ﴾ ..﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون**

لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ﴾ .

« و » وفي تنظيم العلاقات في المجتمع المسلم بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى تبرز العقيدة قاعدة للتجمع وللتميز ، وتجعل القيم العقيدية هي التي تقدم في الصف أو تؤخر .. **﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير * والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير * والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم ﴾** ...

....

« ويبرز في سياق السورة بصفة خاصة – إلى جانب العقيدة – خط آخر وهو خط الجهاد ، وبيان قيمته الإيمانية والحركية . وتجريده كذلك من كل شائبة شخصية ، وإعطاؤه مبرراته الذاتية العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثقة وطمأنينة واستعلاء إلى آخر الزمان . »

« وأخيراً فإن السورة تنظم ارتباطات الجماعة المسلمة على أساس العقيدة كما أسلفنا ؛ وبيان الأحكام التي تتعامل بها مع غيرها من الجماعات الأخرى في الحرب والسلم وأحكام الغنائم والمعاهدات ، وتضع خطوطاً أصلية في تنظيم تلك الروابط وهذه الأحكام . »

....

« هذا مجمل لخطوط السورة الرئيسية .. فإذا كانت السورة بجملتها إنما نزلت في غزوة بدر ، وفي التعقيب عليها ، فإننا ندرك من هذا طرفاً من منهج القرآن في تربية الجماعة المسلمة ، وإعدادها لقيادة البشرية وجانباً من نظرة هذا الدين إلى حقيقة مايجرى في الأرض وفي حياة البشرية ؛ مما يقوم منه تصور صحيح لهذه الحقيقة :

لقد كانت هذه الغزوة هي أول وقعة كبيرة لقي فيها المسلمون أعداءهم من المشركين ، فهزموهم تلك الهزيمة الكبيرة .. ولكن المسلمين لم يكونوا قد خرجوا لهذه الغاية .. لقد كانوا إنما خرجوا ليأخذوا الطريق على قافلة قريش الذين أخرجوا المهاجرين من ديارهم وأموالهم فأراد الله للعصبة المسلمة غير ما أرادت لنفسها من الغنيمة .. أراد لها أن تنفلت منها القافلة وأن تلقى عدوها من عتاة قريش الذين جَمّدوا الدعوة في مكة ومكروا مكرهم لقتل رسول الله ﷺ ؛ بعد مابلغوا بأصحابه الذين تابعوه على الهدى غاية التعذيب والتنكيل والأذى .

لقد أراد الله سبحانه أن تكون هذه الوقعة فرقاناً بين الحق والباطل ؛ وفرقاناً في خط سير التاريخ الإسلامي . ومن ثم فرقاناً في خط سير التاريخ الإنساني .. وأراد أن يظهر فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم . وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه في أول الأمر . كما أراد أن تتعلم العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة ، وتتلقاها مباشرة من يدرِبّها ، وهي في ميدان المعركة وأمام مشاهدها .

وتضمّنت السورة التوجيهات الموحية إلى هذه المعاني الكبيرة ؛ وإلى هذه الحقائق الضخمة الخطيرة . كما تضمّنت الكثير من دستور السلم والحرب والغنائم والأسرى ، والمعاهدات والمواثيق ، وعوامل النصر وعوامل الهزيمة كلها مصنوعة في أسلوب التوجيه المربي ، الذي ينشىء التصور الاعتقادي ويجعله هو المحرك الأول والأكبر في النشاط الإنساني .. وهذه هي سمة المنهج القرآني في عرض الأحداث وتوجيهها .

ثم إنّها تضمّنت مشاهد من الموقعة ، ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفي ثناياها وبعدها .. مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن قارىء القرآن يراها فيتجاوب معها تجاوباً عميقاً .

واستطرد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول . ﷺ .. وحياة أصحابه في مكة ، وهم قلة مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس . ذلك ليذكروا فضل الله عليهم في ساعة النصر ، ويعلموا أنهم إنما سينصرون بنصر الله ، وبهذا الدين الذي آثروه على المال والحياة . وإلى صور من حياة المشركين قبل هجرة رسول الله ﷺ . وبعدها . وإلى أمثلة من مصائر الكافرين من قبل كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، لتقرير سنة الله التي لاتتخلف في الانتصار لأوليائه والتدمير على أعدائه »

أقول : وهذه الإشارات التي أشارت إليها السورة ممّا له صلة بالعهد المكي جعلت بعض العلماء يتجهون إلى أن بعض آيات السورة مكية وقد رد هذا الاتجاه صاحب الظلال مستدلاً ومبرهناً فقال :

(وقد ذكر ابن إسحاق . عن عبد الله بن أبي نجيح . عن مجاهد . عن ابن عباس - وعنه كذلك من طريق آخر - حديثاً طويلاً عن تبييت قريش ومكرهم هذا ، جاء في نهايته قوله : « .. وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، وأنزل عليه - بعد قدومه المدينة - « الأنفال » يذكره نعمه عليه ، وبلاءه عنده : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

وهذه الرواية عن ابن عباس . رضي الله عنهما . هي التي تتفق مع السياق القرآني قبل هذه الآيات وبعدها . من تذكير الله سبحانه لنبيه - ﷺ - وللمؤمنين بما أسلف إليهم من فضله ؛ في معرض تحريضهم على الجهاد في سبيل الله والاستجابة لما يدعوهم إليه منه ، والثبات يوم الزحف .. إلى آخر ماتعالجه السورة من هذا الأمر كما سنبين .. والقول بأن هذه الآيات مدنية كالسورة كلها هو الأولى ...)

وقد آن الأوان للبدء في عرض السورة :

تتألف سورة الأنفال من قسمين رئيسيين : القسم الأول : ويتألف من مقدمة السورة ومقطعين ، القسم الثاني : ويتألف من مقطعين ، وخاتمة للسورة ، وتتألف مقدمة السورة من أربع آيات ، ثم يأتي المقطع الأول فيعرض علينا صفحة من غزوة بدر ، ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ وبعد أن يعرض علينا المقطع الأول صفحة من صفحات بدر ، يأتي المقطع الثاني وفيه خمسة نداءات للمؤمنين كل منها بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ثم يأتي القسم الثاني : ويبدأ المقطع الأول منه بخطاب رسول الله ﷺ - كما بدأ المقطع الأول في القسم الأول - ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا** ... ﴾ وكما عرض علينا القسم الأول صفحة من صفحات بدر ، وكما كان في القسم الأول كلام عن الغنائم ، فإن المقطع الأول من القسم الثاني يحدثنا عن أفعال الكافرين برسول الله ﷺ قبل بدر ، وينتهي بالكلام عن بدر ، ثم يأتي المقطع الثاني في القسم الثاني وهو يشبه المقطع الثاني في القسم الأول ، إذ فيه مجموعة نداءات ولكنها في

هذه المرة متنوعة ، فمنها ماهو بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ومنها ما هو بصيغة ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ثم تأتي الخاتمة وفيها مجموعة تقريرات ولنبدأ بعرض مقدمة السورة .

☆ ☆ ☆

مقدمة السورة

وهي أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)

المعنى العام :

تبدأ السورة بتبيان حكم أثر من آثار القتال وهو الغنائم ، فتبين أن المرجع في هذه الغنائم لله والرسول ، فالله هو مالك كل شيء ، ورسوله هو خليفته ، ثم أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر: بالتقوى ، وإصلاح ذات البين ، والطاعة لله والرسول ﷺ ، وهي أوامر مهمة جداً في موضوع الجهاد . فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً ، والجهاد يحتاج إلى وحدة صف ، ومن ثَم فلابد من إصلاح ذات البين ، والانضباط هو الأساس في الجهاد . إذ لاجهاد بلا انضباط . ثم بَيَّن الله عز وجل أن الطاعة لله والرسول ﷺ علامة الإيمان .

ثم حدّد الله عز وجل صفات المؤمنين الحقيقيين ، وهذا الوصف والتحديد مهمان في موضوع الجهاد الإسلامي ، لأن الإيمان الحقيقي هو الذي يقوم به الجهاد الإسلامي ، لقد حدّد الله عز وجل صفات المؤمنين ، بأنهم الذين إذا ذكر الله فزعت قلوبهم ،

وخافت وفرقت . وإذا قرىء عليهم القرآن ازداد إيمانهم ونما . والصفة الثالثة : هي التوكل على الله ، فلا يرجون سواه ، ولايقصدون إلا إياه ، ولايلوذون إلا بجنابه ، ولايطلبون الحوائج إلا منه ، ولايرغبون إلا إليه ، ويعلمون أن ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرِّف في الخلق وحده لاشريك له ، ولامعقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، ولهذا قال سعيد بن جبير : التوكل على الله جماع الإيمان . والصفة الرابعة : إقامة الصلاة ، بالمحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، ومن ذلك إسباغ الطهور فيها ، وتمام ركوعها وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ . والصفة الخامسة : الإنفاق مما رزقهم الله ، وذلك يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب ، والخلق كلهم عباد الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه ، ثم بين الله عز وجل أن المتصفين بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان ، وأن لهم عند الله منازل ومقامات ودرجات في الجنات ، وأن الله سيغفر لهم السيئات ، ويشكر الحسنات ،وسيجزيهم على الخيرات . وبهذا تنتهي مقدمة السورة بعد أن رفعت الهمم لكل لوازم الجهاد ، ونفت كل عوامل الخذلان ، من اختلافٍ على غنائم ، أو خلاف بسبب شيء . داعية إلى الطاعة ، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل .

المعنى الحرفي :

﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ أي عن الغنائم ، فالنفل : الغنيمة لأنها من فضل الله وعطائه ، ﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أي قل حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ماتقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر في قسمتها مفوَّضاً إلى رأي أحد ﴿ **فاتقوا الله** ﴾ في تنفيذ أوامره واجتناب مناهيه ، ومن ذلك الاختلاف والتخاصم والتدابر والطمع والجشع والغول ﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ أي وأصلحوا بينكم . أي وأصلحوا حقيقة وصلكم حتى تكون مابينكم من الأحوال ، أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، والمعنى فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ماأمر الله ورسوله ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ أي في كل مايأمر به الله ورسوله ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ إذ كمال الإيمان ومقتضاه كمال الطاعة لله ورسوله ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ أي الكاملون في إيمانهم ﴿ **الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أي فزعت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزّه وسلطانه ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته** ﴾ أي القرآن ﴿ **زادتهم إيماناً** ﴾ أي ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة لأن تظاهر الأدلة أقوى للاستشعار بالمدلول عليه ﴿ **وعلى ربهم**

يتوكلون ﴾ أي يعتمدون عليه ولايفوضون أمورهم إلى غير ربهم ولا يخشون ولايرجون إلا إياه ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ أي يجمعون بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكل وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ أي أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً . أو أولئك هم المؤمنون إيماناً لاشك فيه ولاتردد ﴿ **لهم درجات** ﴾ أي مراتب بعضها فوق بعض على قدر الأعمال ﴿ **عند ربهم ومغفرة** ﴾ أي وتجاوز لسيئاتهم ﴿ **ورزق كريم** ﴾ في الجنة صافٍ عن كدّ الاكتساب وخوف الحساب

فوائد :

١ – عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال . قال : نزلت في بدر ، رواه البخاري . وقد حدّث كثير من الصحابة عن واقعة حدثت له أو لغيره في موضوع الغنائم يوم بدر وكل ذلك له علاقة في سبب نزول الآية الأولى من سورة الأنفال . وهذه مجموعة من الآثار في هذا الموضوع

ا – قال مجاهد في سبب نزولها إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت ﴿**يسألونك عن الأنفال** ... ﴾

ب – روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه ، وكان يسمّى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبي ﷺ فقال : « اذهب فاطرحه في القبض » قال : فرجعت وبي مالايعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي ، قال فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال . فقال لي رسول الله ﷺ : « اذهب فخذ سلبك » وروى الإمام أحمد ... عن سعيد بن مالك قال : قلت يارسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين فهب لي هذا السيف . فقال : « إن هذا السيف لا لك ولالي ، ضعه » قال : فوضعته فقلت عسى أن يعطى هذا السيف من لايبلى بلائي قال : فإذا رجل يدعوني من ورائي قال : قلت قد أنزل الله فيّ شيئاً ؟ قال كنت سألتني السيف وليس هو لي وإنه قد وهب لي فهو لك ، قال : وأنزل الله هذه الآية ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ ورواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح . وروى الإمام أحمد ... عن أبي أمامة قال : سألت عبادة عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه

أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء (يقول عن سواء) . وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لايصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض . قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق بها منا ؛ نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به . فنزلت ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث . وكان يكره الأنفال . ورواه الترمذي وقال: حديث صحيح، وابن ماجه، وابن حبان ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم . وروى أبو داود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له . وابن حبان والحاكم ... عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جُعل لهم فقال الشيوخ لاتستأثروا علينا فإنا كنا رِدْءًا لكم لو انكشفتم لفئتم إلينا ، فتنازعوا . فأنزل الله تعالى ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ إلى قوله ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾ وروى الثوري ... عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال يارسول الله صلى الله عليك أنت وعدتنا ، فقام سعد بن عبادة فقال : يارسول الله إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ولاجبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك ، فتشاجروا ونزل القرآن ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ﴾ قال : ونزل القرآن ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه** ﴾ إلى آخر الآية .

قال صاحب الظلال تعليقاً على ماحدث من خلاف بسبب الغنائم يوم بدر :

« ولقد يدهش الإنسان حين يرى أهل بدر يتكلمون في الغنائم ؛ وهم إما من

المهاجرين السابقين الذين تركوا وراءهم كل شيء، وهاجروا إلى الله بعقيدتهم، لايلوون على شيء من أعراض هذه الحياة الدنيا؛ وإما من الأنصار الذين آووا المهاجرين، وشاركوهم ديارهم وأموالهم، لايبخلون بشيء من أعراض هذه الحياة الدنيا أو كما قال فيهم ربهم ﴿ **يحبون من هاجر إليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾. ولكننا نجد بعض التفسير لهذه الظاهرة في الروايات نفسها لقد كانت الأنفال مرتبطة في الوقت ذاته بحسن لبلاء في المعركة وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء؛ وكان الناس - يومئذ - حريصين على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ - ومن الله سبحانه وتعالى في أول وقعة يشفي الله فيها صدورهم من المشركين! .. ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا في الأنفال حتى ذكّرهم الله سبحانه به، وردهم إليه .. ذلك هو ضرورة السماحة فيما بينهم في التعامل، والصلاح بين قلوبهم في المشاعر؛ حتى أحسوا ذلك في مثل ماقاله عبادة بن الصامت - رضي الله عنه .. « فينا أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ .. » .

ولقد أخذهم الله سبحانه بالتربية الربانية قولاً وعملاً .. نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ - حتى أنزل حكمه في قسمة الغنائم بجملتها، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه؛ إنما أصبح فضلاً من الله عليهم، يقسمه رسول الله بينهم كما علمه ربه ...» .

أقول: وصف الله النفس البشرية بقوله: ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ وهو وصف معجز فالنفس البشرية شحها حاضر عند كل تصرف من تصرفاتها، والمسلم الذي أخذ حظه من التزكية يتغلب على شحّه بمجاهدته نفسه وبحملها على الحق، ولم يكن الحقّ في شأن الغنائم واضحاً، وإنّ أصحاب رسول الله ﷺ هم أكثر خلق الله فيئة فبمجرد أن وضح الله لهم من هو صاحب الحق في الغنائم فاؤوا .

٢ - رأينا أن الأنفال في الآية فُسِّرت بالغنائم، إلا أن كلمة نفل تستعمل في هذا الباب أكثر من استعمال وقد نقل ابن كثير عن أبي عبيد في كتاب الأموال (...والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على مانزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً** ﴾ قال ابن كثير – وهو شافعي –:(وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب ، كما هو مذهب جمهور الأمة ، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد) .

وقال النسفي وهو حنفي: (وعن الحسن رحمه الله أن رجلًا سأله أمؤمن أنت؟ قال إن كنت تسألني عن الإيمان بالله ، وملائكته ، ورسله ، واليوم الآخر ،والجنة ، والنار ، والبعث ، والحساب ، فأنا مؤمن . وإن كنت تسألني عن قوله ﴿ **إنما المؤمنون** ﴾ الآية فلا أدري أنا منهم أم لا . وعن الثوري : من زعم أنه مؤمن بالله حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية . أي كما لايقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً ، وبهذا يتشبث من يقول أنا مؤمن إن شاء الله ، وكان أبو حنيفة رحمه الله لايقول ذلك . وقال لقتادة لم تستثني في إيمانك ؟ قال اتباعاً لإبراهيم في قوله والذي أطمع أن يغفرلي خطيئتي يوم الدين . فقال هلا اقتديت به في قوله ﴿ **أوَ لم تؤمن قال بلى** ﴾ وعن إبراهيم التيمي : قل أنا مؤمن حقاً فإن صدقت أثبت عليه ، وإن كذبت فكفرك أشد من كذبك . وعن ابن عباس رضي اللهعنهما : من لم يكن منافقاً فهو مؤمن حقاً . وقد احتج عبد الله على أحمد فقال : أيش اسمك ؟ فقال : أحمد ، فقال : أتقول أنا أحمد حقا ؟ أو أنا أحمد إن شاء الله ؟ فقال : أنا أحمد حقا . فقال : حيث سماك والداك لاتستثني وقد سماك الله في القرآن مؤمناً تستثني !) .

ومن خلال هذين النقلين نعرف وجهة نظر المتجادلين في القضيتين اللتين ذكرناهما .

٦ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً رواه الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مَرّ برسول الله ﷺ فقال : « كيف أصبحت ياحارث ؟ » قال أصبحت مؤمناً حقاً . قال : « انظر ماتقول فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « ياحارث عرفت فالزم » ثلاثاً .

٧ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ قال ابن كثير : وقال الضحاك في قوله ﴿ **لهم درجات عند ربهم** ﴾ أهل الجنة بعضهم فوق بعض ، فيرى الذي هو فوق فضلَه على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فُضّل عليه أحد ،

ولهذا جاء في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء » قالوا : يارسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقواالمرسلين » . وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن ... عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغابر في أفق السماء . وإن أبا بكر وعمر منهما »

٨ - من المهم جداً فقه قضية الأنفال والغنائم في القتال ، وقضية التربية الإيمانية ، إن فقه الغنائم وفقه التصرف فيها ، والترغيب في الجهاد من خلالها ، قضية مهمة في عملية الجهاد واستمراريته . فالجهاد والتفرغ له ، والاستمرارية فيه ، يحتاج إلى مال . وفقه الأمير ، والقائد ، والإمام للحدود المستطاعة له ، والتي يستطيع على ضوئها أن يتصرف في أموال الكافرين شيء رئيسى لاستمرار عملية الجهاد ، كما أن التربية الإيمانية العالية هي الطريق الوحيد للقدرة على الجهاد وتحمل تبعاته ، واستسهال آثاره ، واحتسابه . ومن ثم نلاحظ أن هذه السورة - وهي سورة الجهاد - حوت مقدمتها هاتين القضيتين كما حوت غيرهما مما يحتاجه الجهاد في سبيل الله

كلمة في السياق :

لاحظنا أن سورة الأنفال تأتي تفصيلاً لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون * يسألونك عن الشهر الحرام** ...﴾ فكما جاءت بعد آية فريضة القتال سؤال حول موضوع من مواضيع القتال فإن سورة الأنفال بدأت هذه البداءة التي رأيناها في ذكر مجموعة قضايا رئيسية لها علاقة في القتال ، فإذا ما استقرت هذه القضايا الرئيسية فإنه يأتينا الآن مقطع . هذا المقطع يعطينا نموذجاً عملياً واقعياً لكراهة المؤمنين للقتال ، وكيف أن الخير كان فيه ، ومن تأمل هذا المقطع أدرك إدراكاً تاماً صلة سورة الأنفال بمحورها الذي ذكرناه من سورة البقرة . واستأنس بهذا على صحة ماذهبنا إليه في موضوع الوحدة القرآنية : التي لاندرك منها إلا القليل ، ولكنه قليل كاف ليرى الإنسان آيات الله في هذا القرآن ، بما يشبه آيات الله في هذا الكون من حيث إن آيات الله في هذا الكون تربط بينها وحدة كبرى وارتباط واضح . يدرك أبعاده العلماء على قدر علومهم . وهكذا كتاب الله ولله المثل الأعلى ولكتابه

كذلك . ولنر المقطع الأول ولنقف بعد ذلك عنده وقفات

المقطع الأول من القسم الأول

ويمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (١٤) وهذا هو :

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾

ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

فائدة : هناك خلاف حول الكاف في قوله تعالى ﴿ **كما أخرجك** ﴾ ونقدم بين يدي المعني العام نقلين عن الألوسي في هذه الكاف كمقدمة للدخول إلى معاني المقطع .

قال الألوسي : (والكاف يستدعي مشبهاً وهو غير مصرَّح به في الآية وفيه خفاء ، ومن هنا اختلفوا في بيانه ، وكذا في إعرابه على وجوه ، فاختار بعضهم أنه خبر مبتدأ محذوف هو المشبه ، أي حالهم هذه في كراهة ماوقع في أمر الأنفال كحال إخراجك من بيتك في كراهتهم له ، وإلىٰ هذا يشير كلام الفراء حيث قال : الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجه ﷺ من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال وكراهتهم لما وقع فيها مع أنه أولىٰ بحالهم ، أو أنه صفة مصدر الفعل المقدر في « لله والرسول » أي الأنفال ثبتت لله تعالى وللرسول عليه الصلاة والسلام مع كراهتهم ثباتاً كثبات إخراجك وضعّف هذا ابن الشجري » .

« وقال أبو حيان : خطر لي في المنام أن هنا محذوفاً وهو نَصَرك ، والكاف فيها معنىٰ التعليل أي لأجل أن خرجت لإعزاز دين الله تعالىٰ نصرك وأمدك بالملائكة ، ودلَ على هذا المحذوف قوله سبحانه بعد : ﴿ **إذ تستغيثون ربكم** ﴾ الآيات ولو قيل : إن هذا مرتبط بقوله سبحانه ﴿ **رزق كريم** ﴾ على معنىٰ رزق حسن كحسن إخراجك من بيتك لم يكن بأبعد من كثير من هذه الوجوه) .

المعنى العام :

يذكر الله عزّ وجل في هذا المقطع نموذجاً لكيفية كون القتال فيه الخير للمسلمين ، وإن كانت الأنفس في الأصل تكرهُ القتال ، هذا النموذج هو ماحدث يوم بدر ؛ إذْكَرِه بعض المسلمين الخروج لقتال الأعداء أصحاب الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصرة الكفر وإحراز عيرهم ، فكان أن قدّر الله القتال ، وجمع به بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، فكان عاقبة ذلك رشداً وهدى ، ونصراً وفتحاً ، وآثاراً قريبة لصالح الإسلام والمسلمين ، وآثاراً بعيدة فيها صالح الإسلام والمسلمين ، وذلك أن المسلمين بعد بدر كانت بدر هي قدوتهم ، وهي التي تجرؤهم على القتال ، وإن قل العَدَد وقلت العُدَد .

بدأ المقطع بالتذكير بكراهية المؤمنين للقتال قُبيل بدر ؛ لأنهم كانوا يطمعون بعير قريش فلما فاتتهم العير ، وأيقنوا القتال مع الجيش المشرك الذي جاء لإنقاذ قافلة قريش ، وتيقن المسلمون القتال ، كرهوا ذلك وأخذوا يجادلون رسول الله ﷺ في موضوع القتال ، محتجين أنّهم ليسوا على استعداد له ، وهالهم القتال لدرجة أنّهم ظنوا القتال هو الموت بعينه ، وإذا بالمسألة خلاف ذلك ، فكان قتال وكان نصر ، وكانت هزيمة للمشركين . وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون ، ولم يقتل من المسلمين إلا القليل على قلة العَدَد والعُدَد ، وكان في ذلك عزّ الإسلام والمسلمين والانطلاقة الأولى لمجد الإسلام والمسلمين .

وفي هذا السياق نفسه ذكّر الله عز وجل المسلمين كيف أنّه وعد رسوله ﷺ والجماعة المؤمنة أحد شيئين في خروجهم ذلك ، إما أن يعطيهم قافلة المشركين بما فيها ، وإما أن ينصرهم على جيش المشركين ، وقد رغبت أنفس المسلمين بالقافلة إذ لاقتال ولامشقة ولامخاطرة ، فهم يحبون إذن أن يكون لقاؤهم مع الطائفة التي لاحول لها ولامنعة ولاقتال ، وهي القافلة التي فيها عير قريش وتجارتها ، ولكنّ مراد الله كان غير ذلك ، فالله أراد أن يجمع بينهم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال لينصر المسلمين عليهم ، فيظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام ، ويجعله عالياً على الأديان . وهو أعلم بعواقب الأمور . وهو الذي يدبّر للمسلمين فيحسن التدبير . وإن كان العباد يحبون السلامة فيما يظهر لهم ؛ وكان أن تحقق بمراد الله إلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وتحصيل الهيبة للمسلمين ، وتشجيع المسلمين على خوض غمار كل حرب ، واستئصال شوكة الشرك ، وقتل زعمائه ، وفتح الطريق للفتوحات العسكرية الكبرى فيما بعد .
فهل الخير كان في القتال يوم بدر أو في غيره ؟ هل الخير كان فيما أحبوه أو كرهوه ؟ إذن فالقتال في سبيل الله هو الذي يجب أن يألفه المسلمون ، وأن يحملوا أنفسهم عليه . ثم ذكّر الله المسلمين بموقف من مواقف بدر ، كيف أنه استجاب دعاء المسلمين وأمدّهم بالملائكة ، وأنزل عليهم النعاس ليلة المعركة ، وأنزل المطر صبيحة المعركة ، وكان ذلك لصالحهم . وألقى في قلوب الكافرين الرعب بسبب حربهم لله ورسوله ، وكان من آثار ذلك كله النصر للمؤمنين ، والهزيمة للكافرين ؛ عقوبة لهم ، ولَعقوبة الله يوم القيامة أكبر . وبالتذكير بهذه المعاني تظهر حكمة أخرى من حِكَم فرضية القتال ، وهي تحقيق النصر للإسلام والمسلمين ، وإنزال الهزيمة بالكفر والكافرين ، وتعذيب الكافرين بأيدي

المؤمنين ؛جزاء لهم على مواقفهم من دعوة الله ودينه ، وفي كل ذلك خير لايحصل بدون القتال ، فأنت ترى أنه من خلال استعراض هذه المعاني المرتبطة بقضية بدر تظهر حكمة فرضية القتال ، وكيف أن الخير فيها رغم كراهية الأنفس للقتال ، لما فيه من مخاطرة ومغامرة . وفي المقطع معان أخرى ستظهر من خلال مايأتي من أسباب نزول ، أو تفسير حرفي ، أو فوائد ، وقبل أن نبدأ بذكر المعنى الحرفي نحب أن نذكر رواية ابن إسحق في الكلام عن المرحلة التي سبقت موقعة بدر .

رواية ابن إسحق : لمّا سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ، فانتدب الناس ، فخف بعضهم ، وثقل بعضهم . وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً ، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فحذر عند ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهله مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة ، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران ، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل ، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن . ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذي بعثك بالحق لوسرت بنا إلى برك الغماد ، (مدينة في الحبشة) لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اشيروا علي أيها الناس » . وإنما يريد الأنصار . وذلك أنهم كانوا عدد الناس ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال

رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : « أجل » فقال : لقد أمنّا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك علي ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،فامض يارسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . مايتخلف منارجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ عند الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقرّبه عينك ، فسِر بنا على بركة الله ، فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشّطه ذلك ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » ..

المعنى الحرفي :

﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك** ﴾ أي من دارك في المدينة ، أو من المدينة نفسها لأنها مهاجرة ومسكنه فهي في اختصاصها كاختصاص البيت بساكنه ﴿ **بالحق** ﴾ أي إخراجاملتبساً بالحكمة والصواب ﴿ **وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ أي : أخرجك في حال كراهتهم ، وإنما كانت كراهتهم كراهة طبع ، لأنهم غير مستعدين نفسياً ، وهم ظاهر حجة ، وهي أنهم غير متأهبين ﴿ **يجادلونك في الحق** ﴾ الحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقي الجيش لإيثارهم عليه تلقي العير والقافلة ، وجدالهم من مثل قولهم ما كان خروجنا إلا للعير ، وهلاّ قلت لنا لنستعد ، وذلك لكراهتهم للقتال ﴿ **بعد ما تبين** ﴾ أي يجادلونك بعد إعلامك إياهم بأنهم ينصرون ، أي بعد ما تبيّن لهم الحق في القتال ، ووعدوا النصرة فيه بقوا يجادلون ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ شبّه حالهم في فرط فزعهم وهم يُسار بهم إلى الظفر والغنيمة ، بحال من يُحمل إلى القتل ويُساق على الصّغار إلى الموت ، وهو مشاهد لأسبابه ناظر إليه لا يشك فيها ، وإنما كان خوفهم لقلة العدد ، وأنّهم كانوا رجّالة ، وما كان فيهم إلا فارسان ، فهذه حالة كره فيها المسلمون القتال ، وكان في القتال كل الخير للإسلام والمسلمين .

فوائد :

١ - كنا ألقينا في المدينة المنورة محاضرة تحت عنوان « عبرة بدر » بينا فيها قوانين النصر المادي ، وقوانين النصر الرباني ، ورأينا كيف أن الله ينصر المؤمنين إذا شاء على تخلف بعض أسباب النصر المادية ، من تكافؤ بالعدة والعدد ، وكيف أن معركة بدر هي

النموذج على النصر الرباني ، ولو تخلفت بعض أسباب النصر المادية ، كما بينّا كيف أن معركة بدر قد تركت آثارها البعيدة على عقلية المسلمين القتالية من يومها حتى هذه اللحظة ، فمن يومها لم يعد المسلمون يكترثون بعُدَّة أو عدد ، مع بذلهم الجهد لتحصيل العُدَّة والعدد ؛ ثقة بنصر الله ، فانظر أي خير للإسلام والمسلمين تولد عن هذه الغزوة ، مع كراهة المسلمين يومها لدخولها .

٢ - في فن الحرب يقال : أنك إذا أردت أن ترفع معنويات الجند ، فاجعلهم أول معركة يدخلونها يحققون نصراً ، ولو كان نصراً بسيطاً ، فإن ذلك يرفع معنوياتهم ، والملاحظ أن الله قد رزق المسلمين نصراً عظيماً في أول معاركهم ، وكان في ذلك ارتفاع لمعنويات هذه الأمّة ، ليس فقط في جيلها الأول ، بل في كل أجيالها ، فليلاحظ المجاهدون هذا المعنى .

٣ - وكنموذج على الجدال الدالّ على كراهة القتال يوم بدر يروي ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة « إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعلّ الله يغنمناها ؟ » فقلنا : نعم ، فخرج وخرجنا ، فلمّا سرنا يوماً أو يومين قال لنا : « ما ترون في قتال القوم ؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ فقلنا : لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكننا أردنا العير ، ثمّ قال ماترون في قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو : إنا لا نقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هٰهنا قاعدون** ﴾ قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم . قال : فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ وذكر تمام الحديث .

كلمة في السياق :

من أعظم ما يدل على صواب ما اتجهنا إليه في سيرنا هذا في ربط القرآن بعضه ببعض ، وإظهار وحدته الكبرى مجيء الكاف في قوله تعالى : ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون** ﴾ وبيان ما قلناه : أن ننظر ما قاله المفسرون عند هذه الكاف وما نقوله .

قال ابن جرير - كما نقله ابن كثير - : اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق** ﴾ فقال بعضهم شبّه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم ، وإصلاحهم ذات بينهم ، وطاعتهم لله ورسوله ، ثم روى عن عكرمة نحو هذا . قال ابن كثير : ومعنى هذا أن الله تعالى يقول : كما أنكم لما اختلفتم في المغانم ، وتشاححتم فيها ، فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمة رسول الله ﷺ ، فقسمها على العدل والتسوية ، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة - وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم - فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدرّه ، لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ؛ رشداً وهدى ، ونصراً وفتحاً ، كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **كُتب عليكم القتال وهو كُرْه لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

وقال النسفي في تقدير هذه الكاف : والتقدير قل الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون .

وذكر ابن كثير عن ابن جرير أقوالاً أخرى لتخريج هذه الكاف .

وأقول : لو أنك قرأت الآيات هكذا :

﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ...** ﴾ ألا ترى الربط على أتمه وأحكمه ، فهذه الآيات مثل على ما يُحبُّ وهو شر ، وعلى ما يُكره وهو خير ، وفي شأن القتال بالذات ، وعلى هذا الاتجاه أقول : إن المحذوف الذي ترتبط به الكاف في الآية هو ما تتعلق به الكاف لو أن آية البقرة قد سبقتها .

إن من أبغض الأمور إلى نفسي أن أتكلف أو أتعسف في فهم القرآن ، أو أن أحمّل كتاب الله ما لا يحتمل ، وهذا الذي اتجهت إليه في إبراز الوحدة في السورة الواحدة ، وإبراز الوحدة ما بين سور القرآن كلها على نسق واحد ، ونظام واحد ، وإن لم أُسبق إليه فإني أسأل الله ألا أكون متعسِّفاً أو متكلفاً .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين** ﴾ أي العير أو النفير ، القافلة أو الجيش ، الكسب المادي أو النصر العسكري وما يستتبعه ﴿ **أنها لكم** ﴾ التقدير واذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم ﴿ **وتودّون** ﴾ أي وترغبون وتريدون ﴿ **أنّ غير ذات الشوكة** ﴾ أي غير ذات السلاح أي العير أي القافلة ﴿ **تكون لكم** ﴾ أي تتمنون أن تكون لكم العير لأنها الطائفة التي لا سلاح لها ، ولاتريدون الطائفة الأخرى ذات الشوكة ، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق** ﴾ أي يثبّته ويعليه ﴿ **بكلماته** ﴾ أي بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى من قتل المشركين ﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أي آخرهم وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال ، يعني إنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفساف الأمور والله تعالى يريد معالي الأمور ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة . وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وأعزكم وأذلهم ﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل** ﴾ أي يريد قطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ، أو ما فعل الله ذلك إلا لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإحقاق الحق إثبات الإسلام وإظهاره ، وإبطال الباطل إبطال الكفر ومَحْقه ، ميّز في الآية السابقة بين إرادته تعالى وإرادتهم ، وبيّن في هذه الآية حكمته فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرهم عليها ﴿ **ولو كره المجرمون** ﴾ أي ولو كره المشركون والكافرون ، إحقاق الحق وإبطال الباطل.

فوائد :

١ - في سياق الكلام عن غزوة بدر ومواقفها بيّن الله تعالى حكمته في فرضية القتال على المسلمين ، وكون الخير كله في ذلك ، إذ أن الحق لا يثبت بلا قتال ، وأن الباطل لا يضمحل بلا قتال . وأن الكافرين لا يُستأصلون ولا يذلون إلا بجهاد ، وإذ كان الأمر كذلك فالخير كل الخير في القتال ، والشر كل الشر في النكوص عما فرضه الله من جهاد ، وما أسخف الذين يتعللون في عصرنا لترك القتال بدلاً من أن يرتفعوا ويرفعوا أممهم إلى مستوى القتال على مستوى العصر .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين** .. ﴾ يذكر ابن كثير ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس بإسناد جيد قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب - قال عبد الرزاق - وهو أسير في وثاقه -: إنه لا يصلح لك ، قال : « ولم ؟ » قال : لأن الله عزّ وجلّ إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك .

ويظهر أن الرسول ﷺ حدّث عمّه بما وعده الله ، أو أن عمه عرف بطريقة ما فاستبق القوم إلى تبيان هذا المعنى ، وهو جدير به أليس من آل هاشم في حدة ذكائهم وجودة رأيهم .

ولنعد إلى السياق

﴿ **إذ تستغيثون ربكم** ﴾ الإستغاثة : طلب الغوث ، وهو التخلص من المكروه لمّا علموا أنه لابد من القتال استغاثوا لعلمهم بضعفهم وقوة خصمهم . وهو أدب المسلم في كل حال ، ولكن السياق يبين من خلال هذا العرض أنه مع كونهم في منتهى الضعف كان النصر ، فالخير في القتال ، فإن الله الذي شرع القتال لعباده لا يخذلهم إذا لم يرتكبوا أسباب الخذلان ﴿ **فاستجاب لكم** ﴾ أي استغثتموه فأجاب . ومن استجابته ما أمدّهم به من الملائكة كما ذكر ذلك بقوله ﴿ **أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ أي لكم ، أي نجدة لكم ، أو بعضهم على أثر بعض متتابعين ﴿ **وما جعله الله إلا بشرىٰ** ﴾ أي وما جعل الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر ﴿ **ولتطمئن به قلوبكم** ﴾ أي ولتسكن قلوبكم . والمعنى : إنكم استغثتم وتضرعّتم لقلتكم ، فكان الإمداد بشارة لكم بالنصر ، وتسكيناً لكم وربطاً على قلوبكم ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ أي لاتحسبوا النصر بعدّة أو عدد ، ولاتحسبوا النّصر من الملائكة أو غيرهم ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة ، أو ما النصر الذي أيدكم به بسبب الملائكة وغيرها إلاّ من عند الله ، فإن المنصور من نصره هو جل جلاله ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ ينصر أولياءه ﴿ **حكيم** ﴾ إذ شرع الجهاد لقهر أعدائه .

فوائد :

١ - من خلال هذه الآيات نفهم أن علينا أن نقاتل ، وأن النصر من عند الله ، وأن من أدب القتال الدعاء ، وأن الله يستجيب . ولكن ما أكثر الذين يتركون القتال ، ويهملون الجهاد ، وهو مفروض عليهم ، ويكتفون بالدعاء ، ألا ما أجهل هؤلاء ولو ظهروا بغير مظهر الجهل .

٢ - روى الإمام أحمد وغيره حديثاً طويلاً فيه ذكر استغاثة الرسول عليه الصلاة والسلام ربه يوم بدر وهذه هي القطعة من الحديث في ذلك :

عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف ، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال ، « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض أبداً » . قال : فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال : يانبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ماوعدك . فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾ فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر منهم سبعون رجلاً » .

وجاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ مبتسماً فقال : أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى ﴿ **سيهزَمُ الجمعُ ويولُّون الدبر** ﴾ .

٣ - وفي شأن حضور الملائكة يوم بدر قال ابن كثير :

(والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : « وأمدّ الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مُجنِّبة ، وميكائيل في خمسمائة مُجنِّبة » وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير ومسلم .. عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم ثم قال أبو زُمَيل (أحد رجال سند الحديث) : حدثني ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط

فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقيا . قال : فنظر إليه فإذا هو قد خُطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضرّ ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال : « صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة » . فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وروى البخاري في باب شهود الملائكة بدراً .. عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه – وكان أبوه من أهل بدر – قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدّون أهل بدر فيكم ؟ فقال : « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة) .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **إذ يُغشيِّكم النعاس أَمَنةً منه** ﴾ النعاس : النوم . والأمنة : الأمن ، يذكّرهم الله تعالى بما أنعم عليهم من إلقائه عليهم أماناً ، وأمّنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوّهم وقلة عددهم ، فالنوم يزيح الرعب ويريح النفس إذا لم يؤد إلى غرة . وإذا قام المقاتل ليلة المعركة فإن ذلك أقوى له ، وأنشط وأروح وأكثر إعانة على الجلاد في المعركة ، إذ لم يكن تفريط من قبل الحرس والمراقبين ، بحيث يؤخذ الجيش على غرة ، روى أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **ليطهركم به** ﴾ أي ليطهركم بالماء من الحدث والجنابة ﴿ **ويذهب عنكم رجز الشيطان** ﴾ أي وسوسته إليهم ، وتخويفه إياهم من العطش ، ويمكن أن يراد بالرجز الجنابة من الاحتلام لأنه من الشيطان ﴿ **وليربط على قلوبكم** ﴾ أي بالصبر ﴿ **ويثبّت به الأقدام** ﴾ أي ويثبت بالماء الأقدام لأن الأقدام تسوخ في الرمل ، أو يثبت بالربط الأقدام ، لأن القلب إذا تمكن فيه الصبر يثبت القدم في مواطن القتال ، قد كان هذا كله لمن دخل معركة بدر ، وفي هذا تذكير للمسلمين الذين فرض الله عليهم القتال بما يمكن أن يفعله الله لهم إن قاتلوا فليقاتلوا في سبيله ، وليتوكلوا عليه .

فائدة :

روى ابن إسحق عن عروة في وصف ما حدث قبيل معركة بدر . قال بعث الله السماء ، وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه مالبّد لهم الأرض ، ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه . وقال مجاهد : أنزل

الله عليهم المطر قبيل النعاس ، فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدَّت به الأرض ، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم . وروى ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : أصابنا من الليل طش من المطر – يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ، فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر ، وبات رسول الله ﷺ وحرّض على القتال .

وبعد أن ذكر الله عز وجل ما فعل للمسلمين قبيل المعركة ذكّرهم بنعمة أخرى خفية أظهرها الله لهم ليشكروه عليها ، ولتتذكرها الأجيال ، فيتقاتلوا ويتوكلوا على الله ، واثقين بنصره وتأييده .

﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم** ﴾ أي بالتأييد والنصرة ﴿ **فثبتوا الذين آمنوا** ﴾ إما بتقوية قلوبهم بما يلقونه فيها ، وإما بتكثير سوادهم ، وإما بتبشيرهم بأن يتمثّل المَلك للصحابي رجلاً يقول له ما يثبت به فؤاده ﴿ **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب** ﴾ الرعب هو : امتلاء القلب من الخوف ، ولا شيء أقتل للجيوش من الرعب ، إذ لا سلاح ولا عتاد ولا كثرة تنفع معه ، وما من سلاح أقوى من هذا السلاح في نصرة الله عباده ، إذ يقذفه في قلوب أعدائهم ، ولذلك كان رسولنا عليه السلام يقول : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ﴾ أي ضربوا الهام فَفَلّوقها واحتزوا الرقاب فقطّعوها ﴿ **واضربوا منهم كل بنان** ﴾ البنان الإصبع ، والمراد هنا الأطراف ، ويضرب الأطراف يشل المقاتل ، وبشله يضعف صفه ، وهل هذا الأمر للمؤمنين ، أو للملائكة . قولان ، والراجح أنه للملائكة لأنهم قاتلوا يوم بدر . قال الربيع بن أنس كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم ، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ﴿ **ذلك** ﴾ أي ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل ﴿ **بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب** ﴾ أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاقتهم أي مخالفتهم ومعاداتهم ومخاصمتهم لله ورسوله ﴿ **ذلكم فذوقوه** ﴾ أي ذوقوا هذا العذاب العاجل ﴿ **وأن للكافرين عذاب النار** ﴾ في الآخرة . وبهذا ينتهي المقطع بعد أن بين الله عز وجل فيه أن الخير في القتال ولو كرهته الأنفس ، وبعد أن بين حكمته في تشريع القتال ، وبعد أن بين سبب تسليط الله جنده على الكافرين ، فالمقطع تفصيل لشؤون لها علاقة بالقتال الذي هو الموضوع الرئيسي في سورتي الأنفال وبراءة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **فاضربوا فوق الأعناق** ... ﴾ ينقل ابن كثير عن مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول :

نفلق هاماً .. فيقول أبو بكر مكمّلاً البيت :

من رجـــال أعـــزة علينـــا وهـم كانـوا أعـقّ وأظلمـــا

٢ - ذكر ابن كثير أن ما عوقب به المشركون يوم بدر هو من نوع عقوبات الله للمكذبين بل هو أشفى : كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاداً الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف ، والقلب ، وحجارة السجيل ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ، ثم أنزل على موسى التوراة ، وشرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر** ﴾ وقتلُ المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان . فَقَتْل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك . كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة[1] بحيث لم يقربه أحد من أقاربه وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد ورجموه حتى دفنوه .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور هذه السورة آية القتال في البقرة والآيتين بعدها ، وكما رأينا في كل سورة من قبل من أن لها سياقها الخاص ، فهذه السورة كذلك . فها نحن رأينا مقدمة السورة ترفع همَمَ المؤمنين إلى الكمال ، ثم رأينا هذا المقطع يرفع همم المؤمنين إلى القتال من خلال تذكيرهم بما فعل لهم في غزوة بدر ، ومن خلال إثارة البغضاء في قلوبهم لأعدائه ، ومن خلال استجاشة حب الموت من أجل إحقاق الحق وغير ذلك . وهذه المعاني وغيرها مما مر معنا يخدم السياق العام للقرآن ؛ إذ تفصل هذه السورة بمقدمتها

---

١ - العدسة : بثرة تشبه العدسة ، تخرج في مواضع من الجسد ، تقتل صاحبها غالبا .

وبمقطعها هذا وبمقاطعها الآتية ما له علاقة بالقتال في سبيل الله ، وإذ بيّنت المقدمة صفات المؤمنين ، وعرف المؤمنون ضرورة القتال ، واستوثقوا من نصر الله إذا أدوا ثمنه ، فإن المقطع الثاني يوجّه المؤمنين توجيهات مباشرة بنداءات مباشرة نحو ما ينبغي أن يعلموه ، وأن يلتزموه ، ويعملوه ليحققوا فريضة القتال وهكذا يأتي المقطع الثاني .

ولقد جاءت مقدمة السورة لتبين حقيقة الإيمان ، ثم جاء المقطع الأول ليعرض علينا صفحة عما حدث يوم بدر ، ثم يأتي المقطع الثاني وفيه خمسة نداءات لأهل الإيمان بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ آخرها نداء فيه معنى الوعد بأن يجعل الله لنا في كلّ مرة بدراً جديدة إذا اتقينا .

إنه مقطع ذو نداءات توجيهية لأهل الإيمان ، تستند إلى أرضية دروس بدر ، ولكنها في الوقت نفسه تضع دستور الحركة الجهادية المفروضة على المسلمين ، وتضع دستور النجاح في هذه الحركة ، وتحدد الأساسيات التي تحتاجها إقامة فريضة الجهاد : الثبات في المعركة ، الطاعة ، الاستجابة المباشرة للأمر ، الحذر من الخيانة ، التقوى .

ولنر المقطع :

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني من القسم الأول :

ويمتد من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٢٩) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ

جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

المعنى العام :

بعد أن استقر معنا في المقطع السابق ضرورة القتال ، وأن فيه الخير ، وتبينت لنا حكمته من خلال ما حدث في غزوة بدر . بدأ المقطع الثاني بتوجيه الذين آمنوا أولاً إلى عدم الفرار من الزحف ، وتوعّد الفارين من الزحف بغضب الله ، ونار جهنم ، ولا

يرخِّص في الفرار إلا في حالتين : الفرار الذي تقتضيه حيلة القتال ، والفرار الذي يلتحق به المسلم بفئته وجيشه ، ومما يشجّع على الثبات ، وترك الفرار أن يعلم الإنسان أن الله هو الفاعل ، وأن من سننه أن ينعم على المؤمنين ، وأن من سننه أن يوهن كيد الكافرين . فإذا علم المسلم هذا ثبت في القتال ثقةً بالله ، وانتظاراً لموعوده . وقد عرض الله عز وجل هذه المعاني الثلاثة من خلال قصة بدر ، إذ بيّن في آيتين أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ؛ لأنه هو الذي وفّقهم لذلك وأعانهم عليه ، ومن ذلك ما حدث من رمي رسول الله ﷺ التراب يوم بدر ، وما كان من آثار ذلك ، ومن ذلك قتل المشركين يوم بدر ، فإنه ليس بحول المسلمين ولا قوتهم قتلوا أعداءهم مع كثرة عددهم ، بل هو الله الذي أظفرهم عليهم ليعرّف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم ، مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته . ثم بشّر الله المؤمنين بأنه مُضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، ومصغّر أمرهم ، وأنهم إلى تبار ودمار ، ولزيادة تمتين الثقة عند المسلمين ليثبتوا ، خاطب الله الكافرين مبيّناً لهم أنهم إن يستنصروا الله ويطلبوا قضاءه وحكمه أن يفصل بينهم وبين أعدائهم المؤمنين فقد حكم الله ، بأنْ نصرَ المؤمنين وهزم الكافرين . ثم بين للكافرين أنهم إن ينتهوا عن الكفر فإن ذلك خير لهم في الدنيا والآخرة ، وأنهم إن عادوا إلى كفرهم وضلالتهم ، يعود الله عليهم بالخذلان والهزيمة ، وعلى المؤمنين بالنصر . وهذا الخطاب من الله للكافرين في هذا المقام بيان للمؤمنين ألا يؤثّر في معنوياتهم دعاء الكافرين الله ، فإن الله ليس مع الكافرين بل هو خاذلهم ، ولو جمعوا من الجموع ما عسى أن يجمعوا ؛ فإن من كان الله معه فلا غالب له ، والله مع المؤمنين فهم حزبه وأهله .

ثم يأتي التوجيه الثاني في هذا المقطع ، وفيه يأمر الله عز وجل المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته ، والتشبه بالكافرين المعاندين له ، ثم ينهاهم أن يتركوا طاعته ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وهم يعلمونها ويسمعونها وتصلهم ، ثم نهاهم أن يكونوا كالمنافقين الذين يتظاهرون بالسماع والاستجابة وليسوا كذلك . ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من الناس هم شر الخلق والخليقة ؛ لأنهم صمٌّ عن سماع الحق ، بكمٌ عن فهمه غير عقلاء ، فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولذلك عاقبهم الله بصرف قلوبهم وأسماعهم عن

الحق؛ لأنه لا خير فيهم . ولذلك فلم يرزقهم بفهم لأنه تعالى يعلم منهم أنه لو أسمعهم وأفهمهم لتولوا عن الحق قصداً وعناداً . وهذا التوجيه الثاني في هذا المقطع له أهميته الخاصة في موضوع الجهاد والقتال ، فقتال المسلمين إنما هو طاعة لله ورسوله . فإذا لم يكن المسلم مطيعاً لله ورسوله لم يعد للقتال صفته الإسلامية ، والانضباط والطاعة في القتال شرطان رئيسيان لدخول معركة منتصرة ، كما رأينا ذلك في عبرة أحد من سورة آل عمران ، وهذا شيء يجمع عليه كل عسكريي العالم ، فلا جيش ولا قتال إلا بطاعة وانضباط ، ومن ثم ركز الله في هذا التوجيه على الطاعة له ولرسوله ، وصوّر الذين لا يسمعون بأنهم شر دواب الأرض ، ولم يذكر هنا إلا طاعة الله ورسوله ، مع أن طاعة الأمير المسلم في كل قتال ضرورية ، لأن المهم هو طاعة الله ورسوله من قِبَل الجميع ، وطاعة المسلمين لأمرائهم جزء من طاعة الله والرسول ، عندما يكون الجميع مطيعين لله والرسول . في التوجيه الأول طالب بالثبات ، وفي التوجيه الثاني طالب بالطاعة ، وكلاهما ضروري للقتال ، ثم يجيء التوجيه الثالث في هذا المقطع ، وفيه الأمر للمؤمنين بالاستجابة لله والرسول ، لأن الاستجابة لله والرسول فيها حياة هذه الأمة ، ومما دعانا إليه الله والرسول وفيه حياتنا: الإسلام والقتال . فلا حياة إلا بإسلام ، ولا حياة للإسلام والمسلمين إلا بقتال . ثم أمرهم أن يعلموا أن القلوب بيد الله . وأن المرجع إليه فليحذروا أن يتركوا الاستجابة لله والرسول ؛ حذراً من أن يُفتَنُوا ؛ وخشية أن يصيبهم العذاب يوم القيامة ، ثم يحذّر الله عز وجل المؤمنين جميعاً أن ينزل بهم فتنة أي : اختباراً ومحنة ، يعم بها المسيء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تُدفع المعاصي ولم تُرفع . وأمرهم أن يعلموا أن الله شديد العقاب . وهذه المعاني في هذا السياق يفهم منها أنه لابد من تطبيق الإسلام كله بالاستجابة لله ورسوله ، ولابد من قتال ، وإذ لا يكون استجابة ولا أمر بمعروف ، ولانهي عن منكر ، ولاقتال من أجل الإسلام فإن المسلمين جميعاً معرّضون لكارثة ، ثم يأمر الله عز وجل عباده المؤمنين أن يتذكروا نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثّرهم ، ومستضعفين خائفين فقوّاهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات . وطالبهم بالشكر فأطاعوه ، وامتثلوا جميع ما أمرهم ؛ فكافأهم ، ومجيء هذه الآية فيه تذكير لهذه الأمة بأن طريقها هو الاستجابة لله والرسول ، ففيه القوة ، وفيه الرزق والرفاه ، فإذا فكّرت هذه الأمة في غير هذا فقد انحرفت وهذا حال الناس اليوم ، وفي هذا التوجيه ما يشعر بضرورة التجاوب السريع مع الأمر القتالي .

ثم يأتي التوجيه الرابع في هذا المقطع ؛ وفيه نهي المؤمنين عن أن يخونوا الله والرسول ، ويخونوا ما ائتُمنوا عليه ، وخيانة الله والرسول تكون بمعصيتهما بالذنوب الصغيرة والكبيرة ، وخيانة الأمانة تكون بإفشاء الأسرار . وقد أمر الله المسلم أن يعلم في هذا المقام أن المال والأولاد فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم . والتذكير في هذا المقام بهذا المعنى ، لأنه في الغالب لا يدفع الإنسان إلى ترك القتال ، أو إلى المعصية ، أو إلى إفشاء السر إلا رجاء مال ، أو خشية على العيال ، أو حباً للأولاد ، أو نسياناً لما عند الله ، وهكذا ذكر المقطع حتى التوجيه الرابع أربعة معان تحتاجها المعركة . ١ - الثبات في المعركة ٢ - السمع والطاعة ٣ - الاستجابة لداعي الله في تطبيق الإسلام كله وفي القتال ٤ - كتمان السر .

وقد جاء كل ذلك ضمن سياق حوى معاني كثيرة كلها تخدم هذه المعاني . ثم يأتي التوجيه الخامس : وفيه أمر بالتقوى ، ووعد للمؤمنين إذا اتقوا الله فإن الله سيجعل لهم مخرجاً ونجاة ونصراً ، وفصلاً بين الحق والباطل ، ووعدهم مع هذا أن يعطيهم من فضله العظيم ، فالمهم إذن أن يتحقق المسلمون بالتقوى ، والله عز وجل هو الذي يأخذ بيدهم في مسارب الطريق ، ولكنها التقوى في مفهومها القرآني ، وليست في مفهومها العامي الذي عليه الكثيرون من الناس ، ولقد كان الوعد بصيغة ﴿ **يجعل لكم فرقاناً** ﴾ ولقد سميت معركة بدر في القرآن بيوم الفرقان ، ومن ثَمّ فهمنا أنه يدخل في الوعد أن يجعل الله لنا كل زمن بدراً إذا ما اتقينا .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً** ﴾ أي متزاحفين أنتم وهم ، أو المعنى إذا لقيتم الذين كفروا وهم زاحفون ، والزحف : الجيش الذي يُرىٰ لكثرته كأنه يزحف أي يدب دبيباً . فصار المعنى إذا لقيتم الكافرين للقتال وهم كثير وأنتم قليل فلا تفروا ، فكيف إذا كنتم مثلهم أو أكثر منهم ﴿ **فلا تولوهم الأدبار** ﴾ أي فلا تنصرفوا عنهم منهزمين بإعطائكم إياهم ظهوركم ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً** ﴾ أي مائلا ﴿ **لقتال** ﴾ كأن يَكِر ليفر ؛ ليخيل لعدوه أنه منهزم ، ثم يعطف عليه ، وغير ذلك من خدع الحرب ﴿ **أو متحيّزاً إلى فئة** ﴾ أي أو منضما إلى جماعة من المسلمين ، فئته أو فئة أخرى ﴿ **فقد باء بغضب من الله** ﴾ أي رجع بغضب من ربه ﴿ **ومأواه**

جهنم ﴾ أي هي منقلبه ومصيره يوم معاده ﴿ **وبئس المصير** ﴾ هذا المصير الذي صار إليه بسبب توليه يوم الزحف ، وإذ استقر وجوب عدم الفرار إلا في حالتين : حالة المخادعة . وحالة الالتحاق . فقد بين الله بعد ذلك أنه هو الفاعل من خلال ما حدث يوم بدر ، ليعطي المسلم ثقة وطمأنينة بالثبات فقال ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت** ﴾ رميتك التي فعلت ما فعلت ﴿ **ولكن الله رمىٰ** ﴾ وفي هذا والذي قبله في هذه الآية دليل لأهل السنة والجماعة على أن كل شيء بقدرة الله وفعله كما هو بإرادته وعلمه ﴿ **وليبلي المؤمنين منه** ﴾ أي وليعطيهم منه ﴿ **بلاءً حسناً** ﴾ أي عطاء جميلا والمعنى : وللإحسان إلى المؤمنين فَعل ما فَعل ، وما فَعل ما فَعل إلّا لذلك ﴿ **إن الله سميع** ﴾ أي لدعاء المؤمنين وشكرهم ﴿ **عليم** ﴾ بما عليه الخلق أجمعون ، ثم بشّر الله عز وجل المؤمنين بقوله ﴿ **ذلكم** ﴾ أي البلاء الحسن للمؤمنين ﴿ **وأن الله موهن** ﴾ أي مضعف ﴿ **كيد الكافرين** ﴾ أي حقدهم وتخطيطهم ، دل هذا والذي قبله على أن سنة الله عز وجل إبلاء المؤمنين أي إعطاؤهم ، وتوهين كيد الكافرين ، ولترتفع معنويات المؤمنين فيثبتوا ،خاطب الله الكافرين لِيُعلم المؤمنين ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر عليكم ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ عن عداوة الإسلام وأهله ﴿ **فهو خير لكم** ﴾ أي فالانتهاء خيرلكم وأسلم ﴿ **وإن تعودوا** ﴾ لمحاربة الإسلام وأهله ﴿ **نَعُد** ﴾ أي لنصرة الإسلام وأهله عليكم ﴿ **ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً** ﴾ أي جمعكم مهما جمعتم شيئاً ﴿ **ولو كثرت** ﴾ أي عدداً ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ أي ولأن الله مع المؤمنين بالنصر كان ذلك .

مسألة مهمة :

من المسائل التي ينبغي أن يعرفها كل مسلم مسألة « متى يجوز للمسلم أن يولي الكافرين ظهره » فالآية ذكرت حالتين : حالة التحرُّف للقتال من باب خديعة العدو ، وحالة التحيّز إلى فئة ، وهذه الحالة من أكثر القضايا غموضاً ، ولذلك فإننا سنذكر في شأنها مختصراً ثمّ ننقل مانقله صاحب الظلال عن الجصاص ثم نكرّ على هذا الموضوع في الفوائد ليتضح :

لنفرض أن للمسلمين دولة وإماماً ، وأن لهم عاصمة ، ولنفرض أن جيشاً للمسلمين لا يبلغ اثني عشر ألفاً ، ووُجه بما لا طاقة له به ، كأن كان عدده خمسة آلاف ، وكان عدد الخصم أحد عشر ألفاً ، وكان القتال يدور بعيداً عن عاصمة المسلمين ، ففي هذه

الحالة يجوز للجيش المسلم أن ينسحب ؛ لأن عاصمة المسلمين تعتبر في حقه فئة ، يجوز له أن يتحيّز إليها ، أما إذا أصبحت العاصمة نفسها مستهدفة ، ولم يعد وراءها معقل يتحيّز إليه الإمام ، أو أصبح المسلمون في المعقل الأخير ، فعليهم أن يقاتلوا حتى الشهادة ، ولا يصح لأحد منهم أن يفرّ ، لأنه يفر إلى غير فئة ، وهناك اتجاه يقول : إذا بلغ الجيش المسلم اثني عشر ألفاً فلا يجوز له الفرار مهما كثر عدد المقاتلين . وفيما يلي كلام للجصاص نقله صاحب الظلال نرى من خلاله بعض فهوم الفقهاء لآية : ﴿ **ومن يُوَلهم يومئذ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ..** ﴾ .

قال الجصاص عند قوله تعالى :

﴿ **ومن يُوَلهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة** ﴾ (روى أبو نضرة عن أبي سعيد أن ذلك إنما كان يوم بدر . قال أبو نضرة : لأنهم لو انحازوا يومئذ لانحازوا إلى المشركين ، ولم يكن يومئذ مسلم غيرهم .. وهذا الذي قاله أبو نضرة ليس بسديد ، لأنه قد كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار ، ولم يأمرهم النبي عليه الصلاة والسلام بالخروج ، ولم يكونوا يرون أنه يكون قتال ، وإنما ظنوا أنها العير ، فخرج رسول الله ﷺ فيمن خفّ معه . فقول أبي نضرة إنه لم يكن هناك مسلم غيرهم ، وإنهم لو انحازوا لانحازوا إلى المشركين ، غلط لما وصفنا .. وقد قيل : إنه لم يكن جائزاً لهم الانحياز يومئذ لأنهم كانوا مع رسول الله ﷺ ولم يكن الانحياز جائزاً لهم عنه ، قال الله تعالى : ﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه** ﴾ : فلم يكن يجوز لهم أن يخذلوا نبيهم ﷺ وينصرفوا عنه ويسلموه ، وإن كان الله قد تكفّل بنصره وعصمه من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ وكان ذلك فرضاً عليهم ، قلّت أعداؤهم أو كثروا ، وأيضاً فإن النبي ﷺ كان فئة المسلمين يومئذ ، ومن كان ينحاز عن القتال فإنما كان يجوز له الانحياز على شرط أن يكون انحيازه إلى فئة ، وكان النبي ﷺ فئتهم يومئذ ، ولم تكن فئة غيره ، قال ابن عمر : كنت في جيش فحاص الناس حيصة واحدة ورجعنا إلى المدينة ، فقلنا : نحن الفرارون . فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « أنا فئتكم » . فمن كان بالبعد من النبي ﷺ إذا انحاز عن الكفار فإنما كان يجوز له الانحياز إلى فئة النبي ﷺ وإذا كان معهم في القتال لم يكن هناك فئة غيره ينحازون إليه ، فلم يكن يجوز لهم الفرار . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **ومن يولهم يومئذ دبره** ﴾ . قال : شدّدت على أهل بدر وقال الله تعالى : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم**

الشيطان ببعض ماكسبوا﴾ وذلك لأنهم فروا عن النبي ﷺ ، وكذلك يوم حنين فروا عن النبي ﷺ فعاتبهم الله على ذلك في قوله تعالى : ﴿ **ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ﴾ . فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبي ﷺ قَلَّ العدو أو كثر ، وقال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ **يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا**﴾ وهذا – والله أعلم – في الحال التي لم يكن النبي ﷺ حاضراً معهم ، فكان على العشرين أن يقاتلوا المئتين لا يهربوا عنهم ، فإذا كان عدد العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين فيهم نصرة لمعاودة القتال ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعَلِم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله** ﴾ فروي عن ابن عباس أنه قال : كتب عليكم ألا يفر واحد من عشرة : ثم قلّت : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً** ﴾ .. الآية . فكتب عليكم ألا يفر مائة من مائتين . وقال ابن عباس : إن فر رجل من رجلين فقد فرّ ، وإن فرّ من ثلاثة فلم يفرّ – قال الشيخ يعني بقوله : ففد فرّ . الفرار من الزحف المراد بالآية ، والذي في الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار ، فإن زاد عدد الكفار على اثنين فجائز حينئذ للواحد التحيّز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة ، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم فهو من أهل الوعيد المذكور في قوله تعالى ﴿ **ومن يُوَلّهم يومئذ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله** ﴾ ولذلك قال النبي ﷺ : « أنا فئة كل مسلم » . وقال عمر بن الخطاب لما بلغه أن أبا عبيد بن مسعود استقتل يوم الحشر حتى قتل ولم ينهزم : « رحم الله أبا عبيد ! لو انحاز إليّ لكنت له فئة » . فلما رجع إليه أصحاب أبي عبيدة قال : « أنا فئة لكم » . ولم يعنّفهم ... وهذا الحكم عندنا (يعني عند الحنفية) ثابت ، ما لم يبلغ عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً ، لا يجوز لهم أن ينهزموا عن مثليهم إلا متحرفين لقتال : وهو أن يصيروا من موضع إلى غيره مكايدين لعدوهم ، ونحو ذلك ، مما لا يكون فيه انصراف عن الحرب ، أو متحيزين إلى فئة من المسلمين يقاتلونهم معهم . فإذا بلغوا اثني عشر ألفاً فإن محمداً بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم ، وإن كثر عددهم ، ولم يذكر خلافاً بين أصحابنا فيه (يعني الحنفية) واحتج بحديث الزهري عن عبيد الله بن عبدالله أن ابن

عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الأصحاب أربعة . وخير السرايا أربع مئة . وخير الجيوش أربعة آلاف . ولن يؤتى اثنا عشر ألفاً من قلة ولن يغلبوا » . وفي بعضها « ماغُلب قوم يبلغون اثني عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم » . وذكر الطحاوي أن مالكاً سئل فقيل له : أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها ؟ فقال مالك : إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف : وإلا فأنت في سعة من التخلف ، وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبدالعزيز بن عبدالله بن عمر وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن . والذي روي عن النبي ﷺ في اثني عشر ألفاً فهو أصل في هذا الباب ، وإن كثر عدد المشركين فغير جائز لهم أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم لقوله : « إذا اجتمعت كلمتهم » . وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم) . انتهى .

ذكرنا هذا الكلام هنا لتعرف بعض اتجاهات الفقهاء في هذا الشأن ، ونحب هنا أن نلفت النظر إلى كلمة الإمام مالك مجيباً على السؤال « أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيره ؟ » إن هذا السؤال الذي وجّه للإمام مالك من قرون هو واقعة عصرنا ، ففي كل قطر من أقطار هذه الأمة تقريباً يُحكَم بغير ما أنزل الله ، ولذلك فإن السؤال مهم ، والجواب عليه مهم كذلك ، فماذا كان جواب الإمام مالك ؟ قال : « إن كان معك اثنا عشر ألفاً مثلك لم يسعك التخلف » وهذا هو الأصل الذي اعتمده الأستاذ البنا رحمه الله ، أنه متى وجد هذا العدد فلابد من إقامة حكم الله ، ومنابذة كل من يقف في وجه ذلك ، ولننتقل إلى ذكر بعض الفوائد حول التوجيه الذي مر معنا وهو التوجيه الأول في المقطع الثاني .

فوائد :

١ - هذا هو التوجيه الأول في هذا المقطع في شأن القتال ، وهذا التوجيه يقتضي أن لا نَفرّ إلا لخدعة أو لالتحاق بفئة . وقد ذكر الله عز وجل في هذا التوجيه المعاني التي تساعد على الثبات وتبعد عن الفرار .

أ - حذّر من الفرار حذار سخط الله في الآخرة .

ب - ثم بين أنه هو الفاعل لا غيره ، وأن سنته نصر المؤمنين وتوهين الكافرين ، فليثبت المؤمن ليحقق الله به سنته ، ثم بين أنه هازم الكافرين ولو دَعَوه ، وأنه سيعود عليهم

بالهزيمة كلما عادوا للكيد لأوليائه ، وفي ذلك ما يثبّت المؤمنين ، ويستدعي منهم الثبات انتظاراً لتحقيق الله موعوده فيهم وفي الكافرين .

٢ - روي البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقد استدل ابن كثير بهذا الحديث على أن قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار** ﴾ عامة في بدر وغيرها ؛ دفعاً لمن قال إنها في أهل بدر خاصة . قال بعد ذكر كل الأقوال . وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دلّ عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير .

٣ - إن التحيّز إلى فئة يختلف باختلاف الأحوال ، فهناك حالات الاضطرار ، وقد يصل الاضطرار إلى درجة يعتبر فيها التحيّز إلى الإمام الأعظم - أي إلى عاصمة المسلمين - تحيزاً إلى فئة ، وبَعْده ليس تحيزاً ، إلا إلى حيث يكون الإمام ، أو يأمر به ، فإذا ما أصبحت المسألة كذلك لم يعد إلا القتال حتى الموت ، والدليل أن التحيز إذا كان هناك اضطرار يمكن أن يكون بالتراجع إلى حيث يكون أميره أو الإمام الأعظم مايلي :

روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة ، فكنت فيمن حاص فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم تبنا : ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كان لنا توبة ، وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : « من القوم ؟ » فقلنا : نحن الفرارون فقال : « لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين » . قال : فأتيناه حتى قبّلنا يده . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن ورواه ابن أبي حاتم وزاد في آخره وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **أو متحيزاً إلى فئة** ﴾ قال أهل العلم : معنى قوله « العكارون » أي العرّافون ، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس؛ لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو تحيّز إليّ لكنت له فئة . هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر ، وفي رواية أبي عثمان النّهدي عن

عمر قال : لما قتل أبو عبيد : قال عمر : أيها الناس أنا فئتكم . وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم .

٤ - وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ** ﴾ قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : رفع رسول الله ﷺ يديه - يعني يوم بدر - فقال : يارب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في أرض أبداً » . فقال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم . فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه وفمه تراب من تلك القبضة ؛ فولوا مدبرين . وقال السدي . قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم بدر : « أعطني حصباً من الأرض » فناوله حصباً عليه تراب ، فرمى به في وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء . ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ** ﴾ وروى أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض ، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال : « شاهت الوجوه » فدخلت في أعينهم كلهم . وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ** ﴾ . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ** ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات ، فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات في ميسرة القوم ، وحصبات بين أظهرهم وقال : « شاهت الوجوه » ، فانهزموا . وقد روي في هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً .

أقول : وقد كان لرسول الله ﷺ أكثر من رمية فيها معجزة ، ولكن الآية نزلت في حادثة بدر . وقد غلط من ظن أن هذا لم يكن إلا يوم حنين .

٥ - وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ نذكر ما يلي :

روى الإمام أحمد .. عن عبدالله بن ثعلبة : أن أبا جهل قال حين التقى القوم : اللهم أقطعنا الرحم ، وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة . فكان المستفتح . وأخرجه النسائي

وكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين . وقال السدي : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة ، فاستنصروا الله وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال الله : ﴿ **إن تستفحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ يقول : قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله** ﴾ في كل شيء ومن ذلك القتال ﴿ **ولا تَوَلَّوْا عنه** ﴾ ولا تتولوا عنه أي ولا تُعرضوا عن طاعته ﴿ **وأنتم تسمعون** ﴾ أي وأنتم تسمعونه ﴿ **ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا** ﴾ أي ادَّعوا السمع والطاعة ﴿ **وهم لا يسمعون** ﴾ ولا يطيعون في الحقيقة كالمنافقين والمعنى : أنكم أيها المؤمنون تصدّقون بالقرآن والنبوة، فإذا توليتم عن طاعة الرسول - وخاصة في القتال الذي هو موضوع السورة أشبه سماعكم سماع من لا يؤمن ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البُكم الذين لا يعقلون** ﴾ أي إن شر من يدب على وجه الأرض البهائم ، وإن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، خرس عن الحق لا ينطقون به ، ولا يتكلمون فيه ، ولايدعون إليه ، جَعَلهم من جنس البهائم ثم جعلهم شرها لأنهم عاندوا بعد الفهم وكابروا بعد العقل ﴿ **ولو علم الله فيهم** ﴾ أي في هؤلاء الصمّ البكم ﴿ **خيراً** ﴾ أي صدقاً ورغبة ﴿ **لأسمعهم** ﴾ أي لجعلهم سامعين حتى يسمعوا سماع المصدقين ﴿ **ولو أسمعهم لتولَّوْا** ﴾ أي ولو أسمعهم وصدّقوا لارتدوا بعد ذلك ولم يستقيموا ﴿ **وهم معرضون** ﴾ أي عن الإيمان .

فائدة :

هذا هو التوجيه الثاني في هذا المقطع . وهو أمر بالطاعة المطلقة لله والرسول ، وأمر بالسماع الدقيق لرسول الله ﷺ في شأن القتال وغيره في الظاهر والباطن . وبدون ذلك لا يكون نصره رباني . فالنصر الرباني مفتاحه ، وشرطه وسببه الطاعة الكاملة لله والرسول ﷺ ، وقد كان هذا في حياة رسول الله ﷺ واضحاً ، وأما بعد وفاته عليه الصلاة السلام ، فالطاعة لله ورسوله تكون بالتزام كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من قِبَل المسلمين أمراء وجندٍ ، ومن ثم طاعة الأمراء في الله ، وبدون ذلك لا يقوم قتال ولا جهاد رباني .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم** ﴾ الاستجابة : الطاعة والامتثال ، والدعوة : البعث والتحريض ﴿ **لما يحييكم** ﴾ اختلف المفسرون في المراد بما يحيي هنا هل هو كل ما أنزل الله من وحي ، أو هو الجهاد ، لأنه بدون جهاد يتغلب الكافرون فيقتلون المسلمين ويذلونهم ويحرفونهم ، ولأن الجهاد هو طريق الشهادة التي هي طريق الحياة ؟ والذي أرجّحه أن المراد بذلك الاستجابة المطلقة ، ومنها الاستجابة إلى الحرب خاصة ، وما الفارق بين هذا التوجيه والتوجيه السابق ؟ الذي يبدو أن الاستجابة تدخل فيها حالات خاصة فهي جزء من الطاعة ، ولكن لها مضمونها ، فالاستجابة تفيد قوة التجاوب مع الاستنفار للحرب وغيره ، ومما يؤكد أن الاستجابة في الآية يدخل فيها الاستجابة لأمر الحرب ما رواه محمد بن إسحق عن عروة بن الزبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ **استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ قال أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل ، وقوّاكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم . اهـ . وإذن فالآية تحضّ حضًّا خاصاً على الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ في شأن القتال ، مع ملاحظة وجوب الاستجابة لله والرسول في كل شيء ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ إما بتقليب قلبه عقوبة له ، وإما بفرار قلبه عن المعاني الإيمانية الصالحة لعدم استقامة الجوارح ، وإما بتفويت الفرصة على الإنسان حتى يصل إلى التمكن من إخلاص القلب لله بالموت أو بالصوارف ، ومن ثم فعليكم بالاستجابة لله والرسول ليوفق قلوبكم إلى الخير ﴿ **وأنه إليه تحشرون** ﴾ أي : واعلموا أنكم تحشرون إليه فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة ، وكما يترتب على عدم الاستجابة لله والرسول صرف القلب عن الخير أو الإيمان فإنه يترتب على ذلك نزول عذاب ﴿ **واتقوا فتنة** ﴾ أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره ، ولا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع المعاصي وترفع ﴿ **لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ أي إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم ﴿ **واعلموا أن الله شديد العقاب** ﴾ إذا عاقب ، ولكي تكون الاستجابة كاملة لله ولرسوله ﷺ بالقتال وما يشبهه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك ، ذكّرهم بحالهم قبل بدر وحالهم بعده ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل** ﴾ أي واذكروا وقت كونكم قلة أذلة ﴿ **مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس** ﴾ لأن الناس كلهم كانوا لهم أعداءً مضادّين ﴿ **فآواكم** ﴾ أي في المدينة ﴿ **وأيّدكم بنصره** ﴾ يوم بدر ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ كالغنائم ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ هذه النعم فتستجيبون لله

وللرسول في كل شيء ، وصف الله حالهم الأول - حال مقامهم بمكة - قليلين مستخفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسي ورومي ، وكلهم أعداء لهم لِقلّتهم وعدم قوّتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها ، وقيض لهم أهلها أووا ونصروا يوم بدر وغيره ، وواسوا بأموالهم ، وبذلوا مُهَجَهم في طاعة الله ، وطاعة رسوله ﷺ . قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض** ﴾ قال : (كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ، وأجوعه بطوناً ، وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم ردي في النار . يؤكلون ولا يأكلون . والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كان أشر منزلاً منهم ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكّن به في البلاد . ووسّع به في الرزق . وجعل به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر . وأهل الشكر في مزيد من الله » يفهم من هذا أن قتادة اعتبر هذا الخطاب خطاباً عاماً للعرب ، وهو اتجاه طيب إذا أريد به العرب المؤمنون يوم لم يكن غيرهم يحمل هذا الإسلام ، على أن الخطاب فيما يبدو لأهل الإيمان بعد بدر ، وهو خطاب يشمل كل حالة مشابهة إلى قيام الساعة .

فوائد :

١ - الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيهما حياة الإسلام وحياة المسلمين . وقد جاء هذا التوجيه حاضّاً على الجهاد ، مخوّفاً من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مذكّراً بحال المؤمنين قبل القتال ، وحالهم بعده ، والإشارة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ يشير إلى أن مما يكمل الأمر بالقتال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) بيان هذا وتفصيله ، وفي هذا التوجيه - الذي هو التوجيه الثالث في هذا المقطع - رأينا كيف أن على المسلمين أن يسارعوا إذا دُعوا للقتال من قِبَل رسول الله ﷺ ، وكذلك إذا دُعوا من قِبَل الأئمة من بعده ، أو الأمراء ، وبهذا نكون قد أدركنا محلّ هذا التوجيه ضمن هذا المقطع بما يتفق مع السياق ، ولكننا كنا ذكرنا أن وجوب الاستجابة لله والرسول ﷺ ليس في هذا الشأن فقط . بل هو في كل شيء ، وإن كنا فهمنا من السياق خصوصية هذا النداء في شأن القتال ، ولذلك نلاحظ أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد استشهد بهذه الآية في مقام آخر كدليل على

وجوب الاستجابة له في كل شيء ، كما في هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته ، فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ ألم يقل الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ ثم قال : « لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له ..

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** ﴾ يذكر ابن كثير مجموعة أحاديث كلها تدور حول معنى واحد نجتزىء منها ثلاثة أحاديث :

أ - روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : « يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك » . قال : فقلنا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها » . وهكذا رواه الترمذي في كتاب (القدر) من جامعه ثم قال : حسن .

ب - وروى الإمام أحمد أيضاً ... أن أم سلمة كانت تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول : «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قالت : فقلت : يارسول الله أو إن القلوب لتقلّب ؟ قال : « نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب » قالت : فقلت : يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ؟ قال : « بلى قولي : اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني » .

جـ - وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن عبدالله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » . ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك » .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **واتقوا فتنة لا تُصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة** ﴾ ننقل هذه الأحاديث والآثار :

روى الإمام أحمد عن مطرف قال : « قلنا للزبير : يا أبا عبدالله ما جاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصّة** ﴾ لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت » . وقد رواه البزار وروى النسائي نحوه .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : « أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب » . قال ابن كثير : وهذا تفسير حسن جداً . ثم قال ابن كثير : ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه.. ثم ذكر مجموعة روايات وأحاديث نكتفي منها بما لا يؤدي إلى التكرار :

روى الإمام أحمد .. عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال « والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنَّه فلا يستجيب لكم » . ورواه عن أبي سعيد عن إسماعيل بن جعفر وقال : « أو ليبعثن عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يستجيب لكم » . وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن أبي الرقاد قال : « خرجت مع مولاي فدفعت إلى حذيفة وهو يقول : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً ، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات ، لتأمرن بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتحاضّن على الخير ، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب ، أو لَيؤمِرنَّ عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم . وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن عامر رضي الله عنه قال : سمعت النعمان ابن بشير رضي الله عنه يخطب يقول - وأومأ بأصبعين إلى إذنه يقول : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها - والمدهن فيها - كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم ؛ فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً » . انفرد بإخراجه البخاري والترمذي . وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمّهم الله بعذاب من عنده » فقلت يارسول الله أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : « بلى » قالت : فكيف يصنع أولئكم ؟ قال : « يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .. وروى الإمام أحمد إيضاً .. عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال

رسول الله ﷺ : « ما من قوم يعملون بالمعاصي ، وفيهم رجل أعزُّ منهم وأمنع ، لا يغيّره ، إلا عمّهم الله بعقاب ، أو أصابهم العقاب » . رواه أبو داود أيضاً . وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن عبيد الله بن جرير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزُّ وأكثر فمن يعملون ، ثم لم يغيّروه ، إلا عمّهم الله بعقاب » . وأخرجه ابن ماجه أيضاً .

ولنلاحظ أن الحديث الأخير جعل استحقاق العذاب للجميع إذا وجدت القدرة في العزة والكثرة عند أهل الخير ثم لا يمنعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا شك أنه في كل زمان ومكان إذا كان بالإمكان أن يجتمع أهل الحق على حقهم ، ويتغلبوا على الباطل وأهله فعليهم أن يفعلوا .ولننتقل إلى التوجيه الرابع :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول** ﴾ بترك الطاعة وارتكاب المعصية ﴿ **وتخونوا أماناتكم** ﴾ بإفشاء أسرار المؤمنين للكافرين والمنافقين . قال السدي في هذه الآية : كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين أي : فهذه خيانة فلا ترتكبوها ، وهذه قضية مهمة جداً في موضوع القتال . فمن المعروف أن العدو يستفيد من أي كلمة تقال ، فعلى المسلم أن يعتبر كل أسرار المؤمنين ، ودولتهم ، وجماعتهم أمانة عنده ، فلا يفشيها ، ولا ينقلها ، ولا يحدّث بها ﴿ **وأنتم تعلمون** ﴾ أي تبعة ذلك الإفشاء ووباله ، أو وأنتم تعلمون أنكم تخونون ، يعني : أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو ، أو وأنتم علماء تعلمون حُسْنَ الحسَن ، وقبح القبيح ، والخيانة لله والرسول ، وخيانة الأمانة ، كل ذلك قبيح تعرفونه ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ أي سبب الوقوع في الفتنة : وهي الإثم والعذاب ، أو محنة من الله ليبلوكم كيف تحافظون فيهم على حدوده ، فاعلموا هذا حتى لا يستجركم مال ، أو ولد ، إلى خيانة لله والرسول ، والأمانة ﴿ **وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾ أي اعلموا ذلك من أجل أن تحرصوا على طلب ذلك ، وتزهدوا في الدنيا ، ولا تحرصوا على جمع المال ، وحب الولد ، فيخرجكم ذلكم عن الأمانة إلى الخيانة . فإن ثواب الله وعطاءه وجَنّاته خير لكم من الأموال والأولاد ، فإنه قد يوجد منهم عدو وأكثرهم لا يغني عنكم من الله شيئاً ..

فوائد :

١ - لاحظنا أن هذا التوجيه الذي هو التوجيه الرابع في سياقه ينصب على قضية رئيسية

في شؤون القتال ، وهي عدم الخيانة لله ورسوله ، وعدم الخيانة لأسرار المسلمين ولكنا كنا تحدثنا أن النص القرآني يعطينا من خلال سياقه الجزئي مدلولًا ، ومن خلال سياقه العام مدلولاً ، ومن خلال ما تحتمله ألفاظه مدلولاً ، كل منهم يكمل الآخر ولا يناقضه ، وهذا ما نجده في هذه الآيات ، فإذا كان السياق يفهمنا ألا نفشي أسرار المسلمين العسكرية ، فإن لفظ الأمانة أوسع من هذا ، ومن ثمّ فإن غيره يدخل فيه ، فكل سر ائتمنك عليه أخوك ما لم يكن في كتمانه إثم فهو أمانة ، وما ائتمنك عليه الله من تكليف أمانة وعليك ألا تخون .

٢ – القول الأقوى في سبب نزول هاتين الآيتين أنهما نزلتا في أبي لبابة بن عبدالمنذر هذا ما ذكره عبدالرزاق عن قتادة والزهري قالا : أنزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح . ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله ، فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه ، فمكث كذلك تسعة أيام ، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد ، حتى أنزل الله توبته على رسوله ﷺ ، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحلّه ، فقال : يارسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به » .

٣ – ومما يدل على أن الخيانة للأمانة يدخل فيها إفشاء أسرار المؤمنين ، الحوار الوارد في الصحيحين في قصة حاطب بن أبي بلتعة ، لما كتب إلى قريش يعلمها بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح ، فأطلع الله رسوله ﷺ على ذلك ، فبعث في إثر الكتاب ، فاسترجعه ، واستحضر حاطباً ، فأقر بما صنع ، وفيها : فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؛ فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال : « دعه فإنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر**

عظيم ﴾ قال ابن كثير : وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّكَ فَاتَكَ كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث مَن كُن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذا انقذه الله منه » . بل حب رسول الله ﷺ مقدّم على الأولاد والأموال والنفوس ، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين » .

ولننتقل إلى التوجيه الخامس :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ أي نصراً لأنه يفرق بين الحق والباطل ، وبين الكفر بإذلال حزبه ، والإسلام بإعزاز أهله ، أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم في أقطار الأرض ، أو مخرجاً من الشبهات ، وشرحاً للصدور ، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان ، وفضلاً ومزية في الدنيا والآخرة أو هذا كله ، ولوجود هذه الأقوال كلها فسرنا الآية بأنه وعد ببدر كل حين **﴿ ويكفّر عنكم سيئاتكم ﴾** أي يمحوها **﴿ ويغفر لكم ﴾** ذنوبكم فيسترها عن أعين الناس **﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾** على عباده .

كلمة في السياق :

لاحظنا أن السورة تفصيل لما له علاقة في فرضية القتال ، وفي هذا المقطع ذكرت مجموعة أمور كلها مهمة في شأن القتال لإحراز النصر : الثبات والانضباط والمسارعة إلى النفير والكتمان والتقوى ، في خمسة توجيهات كل منها مبدوء بقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾** . وكل منها شرط رئيسي لإحراز النصر . إذ أنك عندما تكون مكشوفاً لعدوك ما أسهل أن يكيدك عدوك ، وعندما لا تكون مسارعة للقتال ، ما أسرع أن يضربك عدوك ، وعندما لا يكون انضباط ما أسرع أن تنتهي معركتك بالفشل . وبدون صبر على القتال لا يكون إلاّ الاستسلام ، وعندما لا تكون تقوى فلا جهاد ربانياً موجود أصلاً . والدول في عصرنا تدرّب جندها تدريبا عالياً ، وتضعهم في الظروف الصعبة أثناء التدريب ليثبتوا في المعركة ، والدول الآن تركز في جيوشها على الإنضباط والطاعة ، واستحدثت لذلك النظام المنضم والرتب العسكرية ، والعقوبات

الزاجرة ومجموعة من الأنظمة ، لتحقيق هذا الغرض ، وتبذل الدول جهداً كبيراً في تحسين طرق الإدارة والتعبئة، للاستجابة السريعة للنفير ، لتضمن تعبئة سريعة بأسرع وقت ، وتحيط شعبها وعناصر جيشها بمجموعة من الأمور وقضايا الأمن ، لضمان عدم تسرّب أخبار أمنها ، وجيشها إلى عدوها ، وقد جمع هذا المقطع هذه المعاني مع معان أخرى كثيرة . فأين الصورة العملية لهذه التعليمات ؟ أين الجيش المسلم ، والدولة المسلمة ، والفرد المسلم .. ؟

وبهذا ننهي الكلام عن المقطع الثاني

وبانتهاء المقطع الثاني ينتهي القسم الأول من أقسام سورة الأنفال ، وقد تألف من مقدمة السورة ومقطعين ، المقطع الأول وقد بدأ بخطاب رسول الله ﷺ في شأن بدر ، ثم جاء المقطع الثاني وفيه نداءات للمؤمنين ، والآن يأتي القسم الثاني ويتألف من مقطعين ، وخاتمة هي خاتمة السورة . المقطع الأول ويبدأ بخطاب رسول الله ﷺ ، والمقطع الثاني وفيه نداءات للمؤمنين ولرسول الله ﷺ ، ثم تأتي الخاتمة وفيها مجموعة تقريرات فإلى المقطع الأول من القسم الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول من القسم الثاني

ويمتد من الآية (٣٠) إلى نهاية الآية (٤٤) وهذا هو :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ
إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ
مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى
جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا
قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ
فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن
تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَٱعْلَمُوٓاْ
أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ

القرآن ﴿ **هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء** ﴾ أي إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ﴿ **أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ أي بنوع آخر من جنس العذاب الأليم ، وهذا من كثرة جهلهم ، وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، فبدلاً من أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه قالوا ما قالوا ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ فيه دلالة على أن تعذيبهم ورسول الله بين أظهرهم غير مستقيم ، لأنه بعث رحمة للعالمين ، وسنته عز وجل ألا يعذب قوماً عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم ، وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ أي وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر ، وهم المسلمون بين أظهرهم ، ممّن تخلف عن رسول الله ﷺ من المستضعفين ، أو لو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم . أو معناه نفي الاستغفار عنهم ، ولذلك عذبهم فيما بعد بتسليط المؤمنين عليهم يوم بدر ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام** ﴾ أي وكيف لا يعذّبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام ، ومن ذلك إخراجهم رسول الله ﷺ والمؤمنين منه ، فذلك أعظم الصد ﴿ **وما كانوا أولياءه** ﴾ أي وما كان للمشركين مع إشراكهم وعداوتهم لدين الله ، أن يستحقوا أن يكونوا ولاة أمر الحرم ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ أي إن أولياء الحرم إلا المسلمون ، ويحتمل أن يكون المراد به وما كان المشركون أولياء الله ، إن أولياء الله إلا المتقون ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ ذلك أي من استحق ولاية الله ، أو ولاية الحرم ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً** ﴾ أي صفيراً ﴿ **وتصدية** ﴾ أي وتصفيقاً ﴿ **فذوقوا العذاب** ﴾ أي عذاب القتل والأسر ﴿ **بما كنتم تكفرون** ﴾ أي بسبب كفركم .

فوائد :

١ - يلاحظ أن هذه المجموعة قد عرضت نوعاً من أنواع الفرقان ، وذلك أن أمة كأهل مكة في سوء أدبها مع الله ومع كتبه ، وفي مثل كبرها وتعنّتها ومحاربتها للحق ، وفي مثل كيدها لرسول الله ﷺ وتخطيطها ضده كيف كان عاقبة أمرها ؟ إفساد كيدها وهزيمتها وقتل عظمائها وأسرهم ، كل ذلك أنواع من الفرقان الذي وعد الله المتقين به في نهاية المقطع السابق ، وفي المجموعة معان أخرى ، منها ما يفيد استحقاق الكافرين للعذاب والقتل ، ومنها ما يعرفنا على بعض سنن الله في موضوع العذاب وإنزاله ، وكل هذه

المعاني تمضي على نسق السياق العام للسورة ، فيما فيه تفصيل لفريضة القتال ، وأسبابها ، وحكمها ، وما تقتضيه ، وما يلزم لتنفيذها .

٢ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك** .. ﴾ يذكر ابن كثير عدة روايات يردّ بعضها ويثبت بعضاً فلنذكر ما أثبته :

روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي .. عن ابن عباس : أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل ، فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم ، فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم رأيي ونصحي ، قالوا : أجل أدخل ، فدخل معهم ، فقال : انظروا في شأن هذا الرجل ، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره ، فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ، زهير ، والنابغة ، إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ - عدو الله - الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأي . والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه ، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، قالوا : صدق الشيخ ، فانظروا في غير هذا . قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ؛ فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع ، وأين وقع ، إذا غاب عنكم أذاه ، واسترحتم ، وكان أمره في غيركم ، فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ، ويقتل أشرافكم قالوا : صدق والله ، فانظروا رأياً غير هذا ، قال أبو جهل - لعنه الله - : والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره ، قالوا : وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه ، قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأي ، القول ما قال الفتى لا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، أخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك

بالخروج ، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ (الأنفال : ٣٠) وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾ (الطور : ٣٠) فكان ذلك اليوم يسمى الزحمة للذي اجتمعوا من الرأي ، وعن السدي : نحو هذا السياق ، وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء : ٧٦) وكذا روى العوفي عن ابن عباس وروي عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك . وروى يونس بن بكير عن ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا ، أتاه جبريل عليه السلام ، فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه ، وخرج معه بحفنة من تراب ، فجعل يذرُّها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ : ﴿ **يسٓ والقرآن الحكيم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ . (يسٓ : ١ : ٩) وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عكرمة ما يؤكد هذا . وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه .. عن ابن عباس قال : دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي قال : « وما يبكيك يابنية ؟ » قالت : يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر ، يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عَرَفَ نصيبه من دمك ، فقال : « يا بنية ائتني بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا : ها هو ذا فطأطؤوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال : « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً » ثم قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وروى الإمام أحمد .. عن ابن عباس في قوله ﴿ **وإذ يمكر بك** ﴾ الآية قال : تشاورت قريش ليلة بمكة . فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق — يريدون النبي ﷺ — وقال بعضهم بل اقتلوه . وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول

الله ﷺ ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم . فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري . فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليالٍ » .

٣ – قص سعيد بن جبير والسدي وابن جريج وغيرهم أن القائل عن القرآن أنه أساطير الأولين ، وأنه قادر على أن يأتي بمثله ، هو النضر بن الحارث لعنه الله ، فإنه كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم وأسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلسٍ ، جلس فيه النضر ، فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ، ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ، فَفِعل ذلك ، ولله الحمد ، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه ، كما روى ابن جرير .. عن سعيد بن جبير قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً : عقبة بن أبي معيط ، وطعيمة بن عدي ، والنضر ابن الحارث ، وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله قال المقداد : يارسول الله أسيري ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول » فأمر رسول الله بقتله ، فقال المقداد : يارسول الله أسيري ؟ . فقال رسول الله ﷺ « اللهم اغن المقداد من فضلك » فقال المقداد : هذا الذي أردت ، قال : وفيه أنزلت هذه السورة ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ . (الأنفال : ٣١)

٤ – وأما الذين قالوا : ﴿ **إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء** ﴾ وأشباه ذلك فيبدو أنهم كثيرون ، منهم أبو جهل ، كما تذكر بعض الروايات ، ومنهم النضر كما تذكر روايات أخرى ، ومنهم عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ، وقد أسلم .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، فيقول النبي ﷺ : « قد

قد » ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ويقولون : غفرانك فأنزل الله ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم** ﴾ الآية ، قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي ﷺ والاستغفار ، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار ، وروى الترمذي .. عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة » . ويشهد لهذا مارواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه ... عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ، وروى الإمام أحمد .. عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال : « العبد آمن من عذاب الله ، ما استغفر الله عزّ وجلّ » .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ يذكر ابن كثير آثاراً وأحاديث ننقلها مع حذف الأسانيد :

روى ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال : « كل تقي » وتلا رسول الله ﷺ ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ . وروى الحاكم في مستدركه .. عن رفاعة قال : جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال : « هل فيكم من غيركم ؟ » فقالوا : فينا ابن أختنا ، وفينا حليفنا ، وفينا مولانا ، فقال : « حليفنا منا ، وابن أختنا منا ، ومولانا منا . إن أوليائي منكم المتقون » . ثم قال : هذا صحيح . وقال عروة والسدي . ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ : قال : هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ، وقال مجاهد : هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا .

٧ - وقد فسّر ابن عباس قوله تعالى : ﴿ **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية** ﴾ قال : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، تصفّر وتصفّق . وقال ابن عمر في تفسيرها : إنهم كانو يضعون خدودهم على الأرض ، ويصفّقون ويصفّرون . وحكى عطيّة فعل ابن عمر فصفّر ابن عمر وأمال خده وصفّق بيديه .

المعنى الحرفي للمجموعة الثانية :

﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي ليمنعوا الناس عن اتباع محمد ﷺ ودينه ﴿ **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة** ﴾ أي ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ، فكأن ذاتها تصير ندماً وتنقلب حسرة ﴿ **ثم يُغلبون** ﴾ أي آخر الأمر ، وهذه من معجزات القرآن ، لأنه أخبر عنها قبل وقوعها ، وكان كما أخبر ، والوعد دائم ، والموعود حاصل ﴿ **والذين كفروا** ﴾ أي منهم لأن منهم من أسلم وحسن إسلامه ﴿ **إلى جهنم يحشرون** ﴾ فاجتمع عليهم ضياع المال ، والغلبة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ،وكل ذلك لصالح المؤمنين ، وكل ذلك من الفرقان الذي وعد به المتقون ﴿ **ليميز الله الخبيث** ﴾ أي الفريق الخبيث وهم الكفار ﴿ **من الطيب** ﴾ أي من الفريق الطيب من المؤمنين . والمعنى أن هذا الحشر من أجل هذا ﴿ **ويجعل الخبيث** ﴾ أي الفريق الخبيث ﴿ **بعضه على بعض فيركمه جميعاً** ﴾ أي فيجمعه كله ﴿ **فيجعله** ﴾ أي الفريق الخبيث ﴿ **في جهنم أولئك** ﴾ أي جماعة الفريق الخبيث ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم . وفي هذه المجموعة من الآيات مظهر آخر من مظاهر الفرقان في الدنيا والآخرة لأهل الإيمان وحزب الرحمن على حزب الشيطان . كما أن فيها مبرّراً آخر من مبررات القتال الذي فرضه الله على أهل الإيمان ليذلوا أهل الكفر والطغيان .

فائدة :

يروي ابن إسحق سبب نزول هذه الآيات فيقول :

(لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبدالله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية في رجال من قريش ، أصيب آباؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة . فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم ، وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلّنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا . فقال : ففيهم – كما ذكر ابن عباس – أنزل الله عز وجل ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ وكذا روي عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والحكم بن عيينة ، وقتادة ، والسدي ،وابن أبزى ، أنها نزلت في أبي سفيان ، ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر . قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون

أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق . فسيفعلون ذلك . ثم تذهب أموالهم ، ثم تكون عليهم حسرة (أي ندامة) حيث لم يجد شيئاً ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق . والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلٍ كلمته ، ومظهر دينه على كل دين . فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسؤوه ، ومن قتل منهم ، أو مات فإلى الخزي الأبدي ، والعذاب السرمدي) .

المعنى الحرفي للمجموعة الثالثة :

﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا** ﴾ عن كفرهم وصدهم عن سبيل الله ﴿ **يُغفر لهم ما قد سلف** ﴾ من كفرهم وعملهم السيء ومن ذلك صدهم وقتالهم ﴿ **وإن يعودوا** ﴾ أي وإن يستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والصدّ والقتال ﴿ **فقد مضت سُنَّة الأولين** ﴾ أي سنة الله فيهم بالعذاب في الدنيا ، إما بأيدي المؤمنين ، أو بالإهلاك ثم بالعذاب في الآخرة . والآية تدل على أن الكفار إذا انتهوا عن الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصي ، وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة . ﴿ **وقاتِلوهم** ﴾ أي : وقاتلوا الكفار ﴿ **حتى لا تكون فتنة** ﴾ أي حتى لا يوجد مسلم يفتن عن دينه ، وذلك لا يكون إلا إذا أصبح السلطان للمسلمين في العالم كله ، فعلى المسلمين أن يفعلوا ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ أي ويضمحل عنهم كل دين باطل إما بانتهائه أو بخضوع أهله ويبقى فيهم دين الإسلام وحده له الكلمة العليا ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ أي عن الكفر وأسلموا ﴿ **فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ فيثيبهم على إسلامهم إن صدقوا فيه وأخلصوا ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أي : وإن أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا ﴿ **فاعلموا أن الله مولاكم** ﴾ أي ناصركم ومعينكم فثقوا بولايته ونصرته ﴿ **نعم المولى** ﴾ لأنه وحده لا يضيع من تولاه أبداً ﴿ **ونعم النصير** ﴾ الذي لا يُغلب مَنْ نصره . إن الأمر بهذا القول ، والقتال ، والعلم ، كل ذلك من لوازم التقوى التي جزاؤها الفرقان ، فأن تقول للكافرين ما أمرت به ، وأن تقاتل ، وأن تعلم أن الله هو المولى . كل ذلك من التقوى التي جزاؤها الفرقان ، ومن ذلك أيضاً ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء** ﴾ قليل أو كثير ﴿ **فأن لله خمسه** ﴾ أي فالحكم أن لله خمسه ﴿ **وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ هكذا كان الخمس يقسم على عهد رسول الله ﷺ يقسم على خمسة أسهم ، سهم لرسول الله ﷺ ، وسهم لذوي قرابته من بني هاشم ، وبني المطلب ، دون بني عبد شمس ،

وبني نوفل ، وثلاثة أسهم لليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وأما بعده ﷺ فقد أجرى أبو بكر وعمر وعثمان وعلي الخمس على ثلاثة . وسنرى الخلاف في هذا الموضوع ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان** ﴾ أي يوم بدر ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾ أي الفريقان من المسلمين والكفار ، وما أنزله الله عز وجل يوم التقى الجمعان هو الآيات ، كالفتح ، ومحاربة الملائكة ، والمعنى إن كنتم تؤمنون بالله وآياته ؛ فاعملوا بهذه القسمة ، وارضوا بها ، فالإيمان يوجب الرضا بالحكم والعمل بالعلم ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ومن ذلك قدرته على أن ينصر القليل على الكثير ، كما فعل بكم يوم بدر ، ثم فصل بعض ما كان يوم الفرقان ، يوم بدر ﴿ **إذ أنتم بالعُدْوة الدنيا** ﴾ العدوة : شط الوادي ، والدنيا : أي القربى إلى جهة المدينة ﴿ **وهم** ﴾ أي : المشركون ﴿ **بالعدوة القصوى** ﴾ أي البعدى عن المدينة ﴿ **والركب** ﴾ أي العير والقافلة ، وهو جمع راكب ﴿ **أسفل منكم** ﴾ أي في مكان أسفل من مكانكم ، وقد كانوا في أسفل الوادي بثلاثة أميال ﴿ **ولو تواعدتم** ﴾ أي أنتم وأهل مكة ، وتوافقتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ﴿ **لاختلفتم في الميعاد** ﴾ أي لخالف بعضكم بعضاً . إذ قد تثبطكم قلتكم ، أو تثبطهم سلامة قافلتهم أو غير ذلك ، فلا يتفق لكم من التلاقي ما وفقه الله وسَبَّبَ له ﴿ **ولكن** ﴾ جمع بينكم بلا ميعاد ﴿ **ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، أو ليقضي الله أمراً ينبغي أن يفعل ، وهو نصر أوليائه ، وقهر أعدائه ، أوليتم أمراً كان قد أراده ، وهو عز الإسلام وأهله ، وذل الكفر وحزبه ﴿ **ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيىٰ من حيّ عن بيّنة** ﴾ أي : ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة ، لا عن مخالجة شبهة ؛ حتى لا يبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم ، بأنه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به ﴿ **وإن الله لسميع** ﴾ للأقوال وغيرها ﴿ **عليم** ﴾ بكل شيء ومن ذلك كفر من كفر وعقابه ، وإيمان من آمن وثوابه ﴿ **إذ يريكهم الله في منامك** ﴾ أي في رؤياك ﴿ **قليلاً** ﴾ وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه ، فكان ذلك تشجيعاً لهم على عدوِّهم ﴿ **ولو أراكهم كثيراً لفشلتم** ﴾ أي لجبنتم وهبتم الإقدام ﴿ **ولَتنازعتم في الأمر** ﴾ أي في أمر القتال وترددتم بين الثبات والفرار ﴿ **ولكنّ الله سلّم** ﴾ أي عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن ، والصبر والجزع ﴿ **وإذ يريكموهم** ﴾ أي وإذ يبصرّكم إياهم ﴿ **إذ التقيتم** ﴾ أي وقت اللقاء ﴿ **في أعينكم**

قليلاً ﴾ قللهم في أعينهم ليثبتوا ﴿ **ويقللكم في أعينهم** ﴾ ليدفعهم إلى قتالكم ﴿ **ليقضي الله أمراً كان مفعولاً** ﴾ أي ليلقي بينكم وبينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه ، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر لينصر حزبه ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ فيحكم بما يريد وقد حكم لأهل الإيمان .

كلمة في السياق :

سُبق هذا المقطع بوعد من الله للمتقين أن يكافأهم ، بأن يجعل لهم فرقاناً ، وقد اختلف المفسرون في معنى كلمة الفرقان كما رأينا ، ولكن المقطع نفسه يوضح ماهية الفرقان ، وخاتمة المقطع توضح ماهية الفرقان ، وتسمية يوم بدر بأنه يوم الفرقان يوضح كذلك ماهية هذا الفرقان .

وقد رأينا في المجموعة الأولى نموذجا على الفرقان : وهو إفساد كيد الكافرين لرسوله ﷺ ، وقد رأينا في المجموعة الثانية نموذجاً على الفرقان بإضاعة مال الكافرين ، وغلبتهم ، وإدخالهم النار . وقد رأينا في المجموعة الثالثة نموذجاً على الفرقان ، بما فعل الله للمسلمين يوم بدر حتى أعطاهم الفرقان ، وفي هذا المقطع تأتي أربعة أوا ر .

الأمر الأول : أن يقول الرسول للكافرين ﴿ **إن ينتهوا يُغفَر لهم ما قد سلف** ﴾

الأمر الثاني : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** .. ﴾ وهو أعظم أوامر القتال في الإسلام وأبعدها غاية .

الأمر الثالث : أن يعلم المسلمون أن الله مولاهم .

والأمر الرابع : أن يعلم المسلمون حكم الله في الغنائم .

والأوامر الأربعة مهمة جداً في موضوع القتال ، وكلها تحتاج إلى تقوى ، وكلها تحتاج إلى معرفة بالله ، وثقة بوعده ، ومن ثم جاءت في خضم هذا المقطع المربي المهذب ، الذي أكثر الله فيه من ضرب الأمثلة .

الأمر الأول أمر بالتبليغ ، وللتبليغ مشقاته ، والأمر الثاني فيه تكليف بالسيطرة على العالم ولهذا مشقاته وعقباته ، والأمر الثالث أمر بالتوكل على الله ، والقلب فيه قد لا يواتي الإنسان ، والأمر الرابع في إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم في الغنيمة ، وهذا يحتاج إلى تقوى عظيمة ، ومن ثَم كان هذا المقطع يرفع الهمم إلى التقوى كما يذكّر

المسلمين بفعل الله لهم لتنفّذ هذه الأوامر بملء الثقة وبكامل الطاعة .

ولا شك أن الأمة الإسلامية فرَّطت كثيراً في شأن القوة العسكرية . ولكن هذا لا يعفي من البداية الصحيحة .

مما مرّ ندرك صلة المقطع بالآية التي قبله مباشرة ، ومن قبل عرضنا ما له صلة بوحدته ، فلقد انتهى المقطع بالكلام عمّا فعل الله للمسلمين في بدر ، وذلك بعد الآية التي أمرت المسلمين بتخميس الغنائم ، مما يشير إلى أن تخميس الغنائم مظهر من مظاهر شكر الله على فعله وإنعامه ، وقد جاء الأمر بتخميس الغنائم بعد الأمر بالقتال ، لأن الغنائم أثر من آثار الحركة الجهادية ، والأمر بالقتال قد جاء وفيه تعليل لسبب فرضية القتال ، وهي فتنة المؤمنين عن دين الله ، ومن قبل ذكر الله عز وجل مجموعة من أفعال الكافرين التي تقتضي قتالهم من مثل مكرهم بالمؤمنين ، وكبرهم وعنادهم ، ومن مثل صدهم عن سبيل الله ، وإنفاقهم الأموال من أجل ذلك ، وكلّ ذلك يسبب فتنة المؤمنين عن دينهم ، ولا تزول هذه الفتنة إلا بقتال ، وإلا إذا كانت كلمة الله هي العليا ، فالمقطع له وحدته ، وهو مرتبط بالآية التي قبله مباشرة ، وهو بمثابة المقدمة للمقطع اللاحق ، الذي يعود السياق فيه إلى طريقة الخطاب المباشر بصيغة ﴿ **يا أيها** ﴾ للمؤمنين ولرسول الله ﷺ

وأما محله في السياق القرآني العام فواضح :

فمحور السورة هو ما رأيناه من سورة البقرة ﴿ **كتب عليكم القتال... يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ...** ﴾ إن المقطع يعلّل لفرضية القتال ، ويبين الطريق لإزالة الفتنة التي هي أكبر من القتل ، ويبين أن المشركين ليسوا أصحاب الحق في المسجد الحرام .

فلنلاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل** ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ **وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية** ﴾ ثم مع قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله** ﴾ ثم قوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ إن المقطع شديد التلاحم مع بعضه ، شديد التلاحم مع الآية التي سبقته ، شديد التلاحم مع مقدمة السورة وقسمها الأول ، شديد التلاحم مع المحور .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ يذكر ابن كثير حديثين صحيحين :

الأول : عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » .

والثاني : أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجبُّ ما قبله ، والتوبة تجبُّ ما قبلها » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ نذكر هذين الحديثين : ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ،وحسابهم على الله عز وجل » . وعن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، أيُّ ذلك في سبيل الله عز وجل ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل » .

وهذا يفيد أن الهدف النهائي للقتال في الإسلام الوصول إلى وضع عالمي تكون فيه كلمة الله هي العليا ، والسلطان للمسلمين ، لا من أجل إكراه على دين . ولكن حتى لا تبقى سلطة أو وضع يحول بين إنسان وحرية الدخول في الإسلام ، وإقامة شعائره .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ ذكر ابن كثير هذا الحديث الصحيح . قال : وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إله إلا الله ، فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة : « أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » . فقال يارسول الله إنما قالها تعوذاً . قال : « هلاّ شققت عن قلبه ؟ » . وجعل يقول ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » قال أسامة حتي تمنّيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ .

٤ - وكنموذج على الفتنة ما حدث للمسلمين في ابتداء الإسلام كما روى ابن جرير عن عروة بسند صحيح أن عبدالملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء ، فكتب إليه عروة (وفيما كتب نموذج على ما ذكرنا قال) : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك كتبت إلي تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة . وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن خروج رسول الله ﷺ

من مكة أن الله أعطاه النبوة : فنعم النبي ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة . فجزاه الله خيراً ، وعرّفنا وجهه في الجنة ، وأحيانا على ملته ، وأماتنا وبعثنا عليها . وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانعطف عنه عامة الناس ، فتركوه إلا من حفظه الله منهم ، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث ، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتّبعه عن دين الله ، من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي ، لا يُظلم أحد بأرضه ، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك ، وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يتجرون فيها ، وكانت مساكن لتجّارهم ، يجدون فيها رفاغاً من الرزق وأمناً ، ومتجراً حسناً ، فأمرهم بها النبي ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ،وخافوا عليهم الفتن ، ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومَنَعَتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءة عن رسول الله ﷺ ، وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قِبَل أرض الحبشة ، مخافتها ، وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلما استرخي عنهم ، ودخل في الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخي عمّن كان منهم بمكة ، وأنهم لايفتنون ، فرجعوا إلى مكة ، وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون ، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير ، وفشا الإسلام بالمدينة ، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلما رأت قريش ذلك ، تآمروا على أن يفتنوهم ويشتدوا ، فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جَهْد شديد ، فكانت الفتنة الآخرة ، فكانت فتنتان : فتنة أخرجت من خرج إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها ، وأذن لهم في الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ، ثم أنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً ، رؤوس الذين أسلموا فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم ، على أنّا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا ، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم

قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، وخرج هو ، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** .. ﴾ .

٥ - وفي آية الغنائم كلام كثير نجتزىء منه الفقرات التالية :

أ - قال ابن كثير : والغنيمة : هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب . والفيء : ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ، ولا وارث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك ، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، وبالعكس أيضاً . ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى** ﴾ الآية . قال : فنسخت آية الأنفال تلك ،وجعلت الغنائم : أربعة أخماس للمجاهدين وخمساً منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذي قاله بعيد لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، وتلك نزلت في بني النضير ، ولا خلاف بين علماء السِيَر والمغازي قاطبة أن بني النضير بعد بدر ، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب ، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول : تلك نزلت في أموال الفيء ، وهذه في الغنائم ، ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعاً إلى رأي الإمام يقول : لا منافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم .

ب - اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه** .. ﴾ هل المراد بذكر لفظ الجلالة هنا أن يفرد سهم من الغنائم خاص للإنفاق على مثل الكعبة ، أو أن ذكر لفظ الجلالة هنا للتبرك ؟ الراجح أنه استفتاح كلام للتبرك ؛ لأن الخمس كله لله ، يشهد لذلك الحديث الصحيح الذي رواه البيهقي عن عبدالله بن شقيق عن رجل من بلقين قال : أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً فقلت : يارسول الله ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لله خمسها ، وأربعة أخماسها للجيش » قلت : فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لا ، ولا السهم تستخرجه من جنبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم » . واختلفوا في سهم رسول الله ﷺ بعد وفاته عليه الصلاة والسلام قال ابن كثير : قال قائلون : يكون لمن يلي الأمر من بعده ، وقال : آخرون يصرف في مصالح المسلمين ، وقال آخرون : بل هو مردود على بقية الأصناف ، ذوي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، وقال آخرون بل سهم النبي ﷺ ، وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . قال

الأعمش عن إبراهيم : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكُراع (أي الدواب المخصصة للحرب) والسلاح .

ج - روى الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندي أنه جلس مع عبادة بن الصامت ، وأبي الدرداء ، والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة : ياعبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأخماس فقال عبادة : إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم ، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتين فقال : « إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط ، وأكبر من ذلك وأصغر ، ولا تغلوا فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة ، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد ، ولا تبالوا في الله لومة لائم ، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر ، وجاهدوا في الله ؛ فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ، ينجي الله به من الهم والغم » . قال ابن كثير : هذا حديث عظيم .

د - بوّب البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان باباً سماه « باب أداء الخمس من الإيمان » ويشهد لهذا قوله تعالى في آخر آية الغنائم ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله** .. ﴾ وذكر البخاري دليلاً على ما بوّب له الحديث الذي رواه مسلم أيضاً عن عبدالله بن عباس في حديث وفد عبدالقيس ، أن رسول الله ﷺ قال لهم : « وآمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع ، آمركم بالإيمان بالله - ثم قال - : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم » .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ ننقل مايلي :

روى عبدالرزاق عن عروة في قوله ﴿ **يوم الفرقان** ﴾ يوم فرّق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ . وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو سبع عشرة - مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك . وقد روى الحاكم في مستدركه ... عن ابن مسعود قال في ليلة القدر : تحروها لإحدى عشر يبْقِين فإن في صبيحتها يوم بدر . وقال على شرطهما . وروى ابن

جرير .. أن الحسن بن علي قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان . إسناده جيد قوي . وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

٧ - وبمناسبة الكلام عن غزوة بدر في آخر هذا المقطع الذي مر معنا يذكر ابن كثير مجموعة روايات تفيد في فهم الآيات قال ابن كثير :

(وفي حديث كعب بن مالك قال : إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وروى ابن جرير .. عن عمير ابن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام ، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه ، فالتقوا ببدر ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقت السقاة ، ونَهَدَ الناس بعضهم لبعض . وروى محمد بن إسحاق في السيرة : ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من الصفراء ، بعث بَسْبَس ابن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء الجهنيين ، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان ، فانطلقا حتى إذا وردا بدراً ، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء ، فاستقيا في شن لهما من الماء ، فسمعا جاريتين تختصمان تقول إحداهما لصاحبتها اقضيني حقي ، وتقول الأخرى إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ؛ فأقضيك حقك ، فخلص بينهما مجدي بن عمر ؛ وقال : صدقت ، فسمع بذلك بسبس وعدي ، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر ، وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حَذِر ، فتقدم أمام عيره وقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال لا والله إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل ، فاستقيا من شن لهما ، ثم انطلقا ، فجاء أبو سفيان إلى مُناَخ بعيريهما ، فأخذ من أبعارهما ففتَّه ،فإذا به النوى فقال : هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره ، فانطلق بها للساحل ، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش ، فقال إن الله قد نجّى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نأتي بدراً - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً ، فنطعم بها الطعام ، وننحر بها الجزر ، ونسقي بها الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً ، فقال الأخنس بن شريق : يامعشر بني زهرة ، إن الله قد أنجى صاحبكم فارجعوا ، فأطاعوه فرجعت بنو زهرة ، فلم يشهدوها ولا بنوعدي . ثم روى محمد بن إسحاق ... عن عروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر على بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش

غلاماً لبني سعيد بن العاص ، وغلاماً لبني الحجاج ، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلي ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما ؟ فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما فلما أزلقوهما ، قالا : نحن لأبي سفيان ، فتركوهما وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين ثم سلم وقال : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله إنهما لقريش أخبراني عن قريش » قالا : هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى (والكثيب : العقنقل) فقال لهما رسول الله ﷺ : « كم القوم ؟ » : قالا : كثير ، قال ما عدَتّهم ؟ » قالا : ما ندري ، قال : « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . قال رسول الله ﷺ : « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة ابن الأسود. وأبو جهل بن هشام . وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل ابن عمرو ، وعمرو بن عَبْدوُدّ . فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » . ثم روى محمد بن إسحاق ... أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ لما التقى الناس يوم بدر : يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، وننيخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا ، فإن أظفرنا الله عليهم وأعزّنا فذاك ما نحب ، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك ، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ لك حباً منهم ، لو علموا أنك تلقى حرباً ، ما تخلفوا عنك ، ويوازرونك ، وينصرونك ، فأثنى عليهم رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به ، فَبُني له عريش ، فكان فيه رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ما معهما غيرهما . ثم قال ابن إسحاق : وارتحلت قريش حين أصبحت ، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل (وهو الكثيب) الذي جاؤوا منه إلى الوادي فقال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها ، وفخرها تحادّك وتكذب رسولك ، اللهم أحنهم الغداة » . ثم قال محمد ابن إسحاق في قوله تعالى ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة** ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحجة ، لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك . وهذا تفسير جيد) .

٨ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ﴾ . قال الألوسي : (وإنما قللهم سبحانه في أعين المسلمين حتى قال ابن

مسعود رضي الله عنه إلى من بجنبه أتراهم سبعين فقال : أراهم مائة) تثبيتاً لهم وتصديقاً لرسوله عليه الصلاة والسلام (ويقللكم في أعينهم) حتى قال أبو جهل : « إنما أصحاب محمد أكلة جزور » وكان هذا التقليل في ابتداء الأمر قبل التحام القتال ؛ ليجترؤا عليهم ، ويتركوا الاستعداد والاستمداد ، ثمّ كثرهم سبحانه ، حتى رأوهم مثليهم لتفاجئهم الكثرة ؛ فيبهتوا ويهابوا) .

وقال ابن كثير :(فلما التحم القتال ، وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين ، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى : ﴿ **قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلاً منهما حق وصدق) .

قضيتان مهمتان :

حدّد قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ الهدف النهائي للجهاد : وهو أن تنقطع فتنة المؤمنين عن دينهم ، وأن تكون كلمة الله هي العليا في العالم ، وكثيرون من الناس لا يعرفون المراد من كلمة الفتنة في هذا المقام ، حتى إن الذين يفتنون المسلمين عن دينهم يتهمون المؤمنين بالفتنة ، إذا ما طالبوا بإقامة شريعة الله ، ولو أننا تأملنا السياق الذي وردت فيه الآية ، لعرفنا أن المراد بالفتنة اضطهاد المسلمين ، وصدّ الناس عن دين الله ، بإنفاق الأموال ، ولكن فتنة المسلم عن دينه لا تكون في هذا فقط ، بل تكون كذلك عندما تكون الجاهلية لها السلطان والدولة ، فإنها في هذه الحالة تفتن بزخرفها الباطل الكثيرين عن دين الله ، ولذلك فإن هدف الجهاد النهائي ألا تبقى فتنة ، وأن يكون السلطان في هذا العالم للإسلام ، وفي هذا يقول صاحب الظلال إن قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .. يقرر حكماً دائماً للحركة الإسلامية في مواجهة الواقع الجاهلي الدائم ولقد جاء الإسلام ليكون إعلاناً عاماً لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من العبودية للعباد – ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد – وذلك بإعلان ألوهية الله وحده – سبحانه وربوبيته للعالمين .. وأن معنى هذا الإعلان : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض ، الحكم فيه للبشر في صورة من الصور .. الخ .

ولابد لتحقيق هذا الهدف الضخم من أمرين أساسيين :

أولهما : دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين ، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان ، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال .. وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمّع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه في عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه ...

وثانيهما : تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر – في صورة من الصور – وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها في الأرض كلها ، بحيث لا تكون هناك دينونة إلا لله وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله – وليس هو مجرد الاعتقاد . ولابد هنا من بيان الشبهة التي قد تحيك في الصدور من هذا القول ، على حين أن الله سبحانه يقول : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ .

ومع أن فيما سبق تقريره عن طبيعة الجهاد في الإسلام ، ما يكفي للبيان الواضح .. إلا أننا نزيد الأمر إيضاحاً ، وذلك لكثرة ما لبّس الملبسون ومكر الماكرون من أعداء هذا الدين أن الذي يعنيه هذا النص : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ هو إزالة الحواجز المادية ، المتمثلة في سلطان الطواغيت ، وفي الأوضاع القاهرة للأفراد ، فلا يكون هناك – حينئذ – سلطان في الأرض لغير الله ، ولا يدين العباد يومئذ لسلطان قاهر إلا سلطان الله .. فإذا أزيلت هذه الحواجز المادية ترك الناس أفراداً يختارون عقيدتهم أحراراً من كل ضغط . على ألا تتمثل العقيدة المخالفة للإسلام في تجمع له قوة مادية يضغط بها على الآخرين ، ويحول بها دون اهتداء من يرغبون في الهدى ، ويفتن بها الذين يتحررون فعلاً من كل سلطان إلا سلطان الله .. إن الناس أحرار في اختيار عقيدتهم ، على أن يعتنقوا هذه العقيدة أفراداً ، فلا يكونون سلطة قاهرة يدين لها العباد . فالعباد لا يدينون إلا لسلطان رب العباد .

ولن تنال البشرية الكرامة التي وهبها لها الله ، ولن يتحرر « الإنسان » في « الأرض » إلا حين يكون الدين كله لله ، فلا تكون هنالك دينونة لسلطان سواه .

ولهذه الغاية الكبرى تقاتل العصبة المؤمنة : ﴿ **حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾

فمن قَبِل هذا المبدأ أو أُعلن استسلامه له ، قَبِل منه المسلمون إعلانه هذا واستسلامه ، ولم يفتّشوا عن نيته وما يخفي صدره ، وتركوا هذا لله .

﴿ **فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ ..
ومن تولى وأصر على مقاومة سلطان الله قاتله المسلمون معتمدين على نصرة الله .
﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم . نعم المولى ونعم النصير** ﴾ .
هذه تكاليف هذا الدين ؛ وهذه هي جديته وواقعيته وإيجابيته وهو يتحرك لتحقيق ذاته في عالم الواقع ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده في دنيا الناس ..

إن هذا الدين ليس نظرية يتعلمها الناس في كتاب ؛ للترف الذهني والتكاثر بالعلم والمعرفة ؛ وليس كذلك عقيدة سلبية يعيش بها الناس بينهم وبين ربهم وكفى ! كما أنه ليس مجرد شعائر تعبدية يؤديها الناس لربهم فيما بينهم وبينه .

إن هذا الدين إعلان عام لتحرير الإنسان .. وهو منهج حركي واقعي يواجه واقع الناس بوسائل مكافئة ... يواجه حواجز الإدراك والرؤية بالتبليغ والبيان .. ويواجه حواجز الأوضاع والسلطة بالجهاد المادي لتحطيم سلطان الطواغيت وتقرير سلطان الله .

والحركة بهذا الدين حركة في واقع بشري . والصراع بينه وبين الجاهلية ليس مجرد صراع نظري يقابل بنظرية ! إن الجاهلية تتمثل في مجتمع ووضع وسلطة ، ولابد – كي يقابلها هذا الدين بوسائل مكافئة – أن يتمثل في مجتمع ووضع وسلطة . ولابد بعد ذلك أن يجاهد ليكون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونة لسواه .

هذا هو المنهج الواقعي الحركي الإيجابي لهذا الدين. لا ما يقوله المهزومون والمخدوعون. ولو كانوا من المخلصين الطيبين الذين يريدون أن يكونوا من « المسلمين » ، ولكن تغيم في عقولهم وفي قلوبهم صورة هذا الدين.

هذه هي القضية المهمة الأولى التي أردنا أن تكون واضحة قبل أن ننتقل من هذا المقطع .

وأما القضية الثانية فهي قضية الغنائم إن آية الغنائم في المقطع صدّرت بقوله تعالى : ﴿ **واعلموا** ﴾ مما يشير إلى أن موضوع الغنائم مما ينبغي علمه ، لما يترتب على ذلك من خيرات وبركات ، وإحقاق حق وإزهاق باطل ، إن المسلمين قد فرض عليهم الجهاد ، وأعطوا سلطاناً على أموال الكافرين ونسائهم وذراريهم هذا حق لهم ، وذلك في الوقت نفسه تحتاجه عملية الجهاد المستمرة ، وهذا يحتاج إلى فقه ، وذلك محلّه الكتب الفقهية

الموسّعة ، ولكننا نكتفي هنا بكلام الألوسي - وهو حنفي - أثناء عرضه للآية ليزداد إدراكنا للنص :

قال الألوسي :

(وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم . سهم له عليه الصلاة والسلام . وسهم للمذكورين من ذوي القربى . وثلاثة أسهم للأصناف الثلاثة الباقية ، وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، فسقط سهمه ﷺ ، كما سقط الصفي وهو ماكان يصطفيه لنفسه من الغنيمة ، مثل درع ، وسيف ، وجارية ، بموته ﷺ ، وكذا سقط سهم ذوي القربى ، وإنما يعطون بالفقر ، وتقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ، ولاحق للأغنياء لأن الخلفاء الأربعة الراشدين قسموه كذلك وكفى بهم قدوة ، وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه منع بني هاشم الخمس وقال : إنمّا لكم أن يعطى فقيركم ، ويزوّج أيمكم ، ويخدم مالا خادم له منكم ، فأما الغني منكم فهو لا يعطى من الصدقة شيئاً ، ولا يتيم موسر . وعن زيد بن علي كذلك قال : ليس لنا أن نبني منه القصور ، ولا أن نركب منه البراذين ، ولأن النبي ﷺ إنما أعطاهم للنصرة لا للقرابة ، كما يشير إليه جوابه لعثمان وجبير ، رضي الله عنهما ، وهو يدل على أن المراد بالقربى في النص قرب النصرة لا قرب القرابة ، وحيث انتهت النصرة انتهى الإعطاء ؛ لأن الحكم ينتهي بانتهاء علته ، واليتيم صغير لا أب له ، فيدخل فقراء اليتامى من ذوي القربى في سهم اليتامى المذكورين ، دون أغنيائهم ، والمسكين منهم في سهم المساكين ، وفائدة ذكر اليتيم مع كون استحقاقه بالفقر والمسكنة لا باليتم دفع توهم أن اليتيم لا يستحق من الغنيمة شيئاً ، لأن استحقاقها بالجهاد واليتيم صغير فلا يستحقها .

وفي التأويلات لعلم الهدى الشيخ أبي منصور أن ذوي القربى إنما يستحقون بالفقر أيضاً ، وفائدة ذكرهم دفع ما يتوهم أن الفقير منهم لايستحق ، لأنه من قبيل الصدقة ولا تحل لهم ، وفي الحاوي القدسي وعن أبي يوسف أن الخمس يصرف لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وبه نأخذ . انتهى ، وهو يقتضي أن الفتوى على الصرف إلى ذوي القرى الأغنياء فليحفظ ، وفي التحفة أن هذه الثلاثة مصارف الخمس عندنا لا على سبيل الاستحقاق ، حتى لو صرف إلى صنف واحد منهم جاز ، كما في الصدقات كذا في فتح القدير ، ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه أن الخمس لا يلزم تخميسه ،

وأنه مفوض إلى رأي الإمام ، كما يشعر به كلام خليل ، وبه صرّح ابن الحاجب فقال : ولا يخمس لزوماً ، بل يصرف منه لآله عليه الصلاة والسلام بالاجتهاد ، ومصالح المسلمين ، ويبدأون استحباباً – كما نقل التتائي عن السنباطي – بالصرف على غيرهم ، وذكر أنهم بنو هاشم ، وأنهم يوفر نصيبهم لمنعهم من الزكاة حسبما يرى من قلة المال وكثرته ، وكان عمر بن عبدالعزيز يخص ولد فاطمة رضي الله عنها كل عام باثني عشر ألف دينار سوى ما يعطي غيرهم من ذوي القربى ، وقيل يساوي بين الغني والفقير ، وهو فعل أبي بكر رضي الله عنه ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي حسب ما يراه ، وقيل : يخيرّ لأن فعل كل من الشيخين حجة .

وقال عبد الوهاب : إن الإمام يبدأ بنفقته ونفقة عياله بغير تقدير ، وظاهر كلام الجمهور أنه لا يبدأ بذلك ، وبه قال ابن عبد الحكم ، والمراد بذكر الله سبحانه عند هذا الإمام أن الخمس يصرف في وجوه القربات لله تعالى . والمذكور بعد ليس للتخصيص بل لتفضيله على غيره ، ولا يرفع حكم المعمول الأول بل هو قارّ على حاله ، وذلك كالعموم الثابت للملائكة ، وإن خص جبريل وميكائيل عليهما السلام بعد . ومذهب الشافعي رضي الله عنه في قسمة الغنيمة أن يقدم من أصل المال السَلَب ، ثم يخرج منه حيث لا متطوع مؤنة الحفظ والنقل وغيرهما ، من المؤن اللازمة للحاجة إليها ، ثم يخمس الباقي ، فيجعل خمسة أقسام متساوية ، ويكتب على رقعة لله تعالى ، أو للمصالح ، وعلى رقعة للغانمين ، وتدرج في بنادق ، فما خرج لله تعالى قسم على خمس مصالح المسلمين ، كالثغور والمشتغلين بعلوم الشرع وآلاتها ، ولو مبتدئين ، والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء ، وسأئر من يشتغل عن نحو كسبه بمصالح المسلمين ؛ لعموم نفعهم ، وألحق بهم العاجزون عن الكسب ، والعطاء إلى رأي الإمام معتبراً سعة المال وضيقه ، وهذا هو السهم الذي كان لرسول الله ﷺ في حياته ، وكان ينفق منه على نفسه وعياله ، ويدخر منه مؤنة سنة ، ويصرف الباقي في المصالح ، وهل كان عليه الصلاة والسلام مع هذا التصرف مالكاً لذلك أو غير مالك ؟ قولان : ذهب إلى الثاني الإمام الرافعي ، وسبقه إليه جمع متقدمون . قال : إنه عليه الصلاة والسلام مع تصرفه في الخمس المذكور لم يكن يملكه ، ولا ينتقل منه إلى غيره إرثاً . ورُدَّ بأن الصواب المنصوص أنه كان يملكه . وقد غلّط الشيخ أبو حامد من قال : لم يكن ﷺ يملك شيئاً ، وإن أبيح له ما يحتاج إليه . وقد يؤوّل كلام الرافعي بأنه لم ينف الملك المطلق بل الملك المقتضي للإرث عنه .

ويؤيد ذلك اقتضاء كلامه في الخصائص أنه يملك . وبنو هاشم والمطلب ، والعبرة بالانتساب للأباء دون الأمهات ، ويشترك فيه الغني والفقير لإطلاق الآية ، وإعطائه عليه الصلاة والسلام العباس – وكان غنياً – والنساء ، ويفضل الذكر كالإرث ، واليتامى ، ولا يمنع وجود جد ، ويدخل فيهم ولد الزنا والمنفى ، لا للقيط على الأوجه ، ويشترط فقره على المشهور ، ولابد في ثبوت اليتم والإسلام ، والفقر هنا من البينة ، وكذا في الهاشمي والمطلبي ، واشترط جمع فيهما معها استفاضة النسبة ، والمساكين وابن السبيل ، ولو بقولهم بلا يمين . نعم يظهر في مدعي تلف مال له عُرِف ، أو عيال أنه يكلف بينة . ويشترط الإسلام في الكل والفقر في ابن السبيل أيضاً وتمامه في كتبهم .

وتعلق أبو العالية بظاهر الآية الكريمة فقال : يقسم ستة أسهم ، ويصرف سهم الله تعالى لمصالح الكعبة ، أي إن كانت قريبة ، وإلا فإلى مسجد كل بلدة وقع فيها الخمس كما قاله ابن الهمام . وقد روى أبو داود في المراسيل وابن جرير عنه أنه عليه الصلاة والسلام كان يأخذ منه قبضة فيجعلها لمصالح الكعبة ثم يقسم ما بقى خمسة أسهم ، ومذهب الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم أيضاً كمذهب أبي العالية ، إلا أنهم قالوا : إن سهم الله تعالى ، وسهم الرسول ﷺ ، وسهم ذوي القربى للإمام القائم مقام الرسول عليه الصلاة والسلام . وسهم ليتامى آل محمد ﷺ ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم لا يشركهم في ذلك غيرهم ورووا ذلك عن زين العابدين . ومحمد بن علي الباقر رضي الله تعالى عنهم ، وقيل : سهم الله تعالى لبيت المال ، وقيل : هو مضموم لسهم الرسول ﷺ .

هذا ولم يبين سبحانه حال الأخماس الأربعة الباقية ، وحيث بين جل شأنه حكم الخمس ، ولم يبينها دل على أنها ملك الغانمين ، وقسمتها عند أبي حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم واحد . لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ فعل كذلك ، والفارس في السفينة يستحق سهمين أيضاً وإن لم يمكنه القتال عليها فيها للتأهب ، والمتأهب للشيء كالمباشر كما في المحيط ، ولا فرق بين الفرس المملوك والمستأجر والمستعار ، وكذا المغصوب على تفصيل فيه ، وذهب الشافعي ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم لما روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ أسهم للفارس ذلك وهو قول الإمامين . وأجيب بأنه قد روي عن ابن عمر أيضاً أن النبي ﷺ قسم للفارس سهمين ، فإذا تعارضت روايتاه ترجح رواية غيره بسلامتها عن

المعارضة فيعمل بها ، وهذه الرواية رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي الهداية أنه عليه الصلاة والسلام تعارض فعلاه في الفارس ، فنرجع إلى قوله عليه الصلاة والسلام . وقد قال ﷺ : « للفارس سهمان وللراجل سهم » . وتعقبه في العناية بأن طريقة استدلاله مخالفة لقواعد الأصول ، فإن الأصل أن الدليلين إذا تعارضا ، وتعذر التوفيق والترجيح يصار إلى ما بعده لا إلى ما قبله ، وهو قال : فتعارض فعلاه فنرجع إلى قوله ، والمسلك المعهود في مثله أن نستدل بقوله ونقول فعله لا يعارض قوله ؛ لأن القول أقوى بالاتفاق ، وذهب الإمام إلى أنه لا يسهم إلا لفرس واحد ، وعند أبي يوسف يسهم لفرسين ، وما يستدل به على ذلك محمول على التنفيل عند الإمام ، كما أعطى عليه الصلاة والسلام سلمة بن الأكوع سهمين وهو راجل ولا يسهم لثلاثة اتفاقاً) .

أقول : في عصرنا جدّت ظروف جديدة تقتضي فتوى مكافئة ونرجو أن نتعرض لهذه الأمور بتفصيل أكثر في القسم الثاني من هذه السلسلة (الأساس في السنة وفقهها) .

وقد آن أوان الانتقال إلى المقطع الثاني من القسم الثاني من السورة فلننتقل إليه .

المقطع الثاني من القسم الثاني

ويمتد من الآية (٤٥) إلى نهاية الآية (٧١) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ

إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ
إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ
ٱلۡحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأۡبِ
ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ
فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ
﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا
تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾
وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم
مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا
تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ

۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

كلمة في هذا المقطع

كما سبق المقطع الثاني من القسم الأول بمقطع تحدث عن غزوة بدر فكان بمثابة متكأ للمقطع الثاني وكما أن المقطع الثاني من القسم الأول كان فيه مجموعة نداءات لأهل الإيمان بصيغة « يأأيها » فإن هذا المقطع من القسم الثاني سبق بمقطع فيه حديث عن غزوة بدر ومقدمات أخرى سبقتها ، وهو يتألف كذلك من مجموعة نداءات بصيغة « يأأيها » بنيت على المعاني التي تقدمتها في المقطع الأول وإذن فهناك تشابه من هذه الحيثية بين القسم الأول والقسم الثاني من السورة ، كما أن هناك صلات بين مقدمة السورة وخاتمتها كما سنرى .

والمقطع كله في موضوع القتال ، وآثاره ومستلزماته ، والأحوال التي يمكن أن تمر على الأمة المسلمة فصلته بمحور السورة واضحة .

وفي المقطع أربعة نداءات نداء بصيغة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ وثلاثة نداءات بصيغة ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ إنه مقطع يتوجه بالنداء إلى القيادة ، وإلى الجند ؛ ليعرف كل منهما واجبه في تحقيق فريضة القتال ، فلنبدأ بعرض المعاني العامة للمقطع :

المعنى العام :

يبدأ المقطع بتعليم الله تعالى عباده المؤمنين آداب اللقاء عند مواجهة الأعداء ، فيأمرهم بالثبات ، ويأمرهم بذكر الله عند اللقاء ، ويأمرهم بالطاعة ، ويأمرهم بترك التنازع والاختلاف ، ويحذرهم إن اختلفوا الفناء ، ثم يأمرهم بالصبر والإخلاص ، وأن يتحرروا من أن يكونوا كالكافرين في حربهم ، إن في تصرفاتهم البطرة ، أو في غاياتهم الخسيسة . إذ يقاتلون للصد عن سبيل الله ، وبعد أن يأمر الله المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله ، وكثرة ذكره ، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً دفعاً للحق ورئاء الناس ، أي للمفاخرة والتكبر عليهم . يأمرنا الله أن نتذكر ما حدث للكافرين يوم بدر ، بعد أن زيّن لهم الشيطان ما هم فيه . ونفخ في مناخرهم الغرور ، موهما إياهم أنه معهم ، ثم تخلى عنهم إذ قام سوق القتال في معركة ظن غير أهل الإيمان أن قتال المؤمنين فيها نوع من أنواع الغرور ؛ إذ كيف يقاتل القليل

الكثير ، ناسين أن من توكل على الله كفاه . فكانت عاقبة الأمر أن الله عز وجل أعان المؤمنين بملائكته ، يعذبون الكافرين ويستلّون أرواحهم ليعجِّلوا بهم إلى النار ؛ بسبب كفرهم وظلمهم ، وصدهم عن سبيل الله .

وفي التذكير بهذا الجانب من غزوة بدر ، بعد الأمر بالثبات وغيره من أجل أن يبين الله للمؤمنين أنهم ما أقاموا أمر الله فإن سنته في الانتصار بهم من الكافرين قائمة ، لأن سنته خذلان الكافرين وتعذيبهم ، فإذا أقام المؤمنون أمر الله فإنهم أداة هذا العذاب . وليؤكد الله عز وجل هذه السنّة ، وليبين أنها سنّته في كل العصور ، ذكر بعد ذلك أن ما فعله بهؤلاء المشركين إنما هو كفعله في الأمم المكذبة قبلهم ، فتلك سنته في المكذبين من آل فرعون ومَنْ قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله ، أن يأخذهم الله بسبب ذنوبهم فيهلكهم ، وهو الذي لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، ثم يذكّر الله عز وجل بسنّة أخرى من سننه ، وهو أنه تعالى من تمام عدله وقسطه في حكمه إنه لا يغيّر نعمةً أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب . كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذّبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم ، من جنات ، وعيون ، وزروع ، وكنوز ، ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين . وبهذا استقر أن الكافرين ستصيبهم سنة الله بهم وهي العذاب ، إما العذاب المباشر المستأصل من الله ، وإما العذاب بأيدي المؤمنين ، كما استقر أن على المؤمنين أن ينفذوا أمر الله ، فيكونوا أهلاً لأن ينتقم الله بهم من الكافرين . ثم إن السياق يفيدنا أن علينا ألا نكون كالكافرين في شيء لنستحق نصر الله . فالسياق بقدر ما فيه من رفع لمعنويات المؤمنين ، فيه كذلك تحذير للمؤمنين أن يداخلهم شيء يستحقون به عذاب الله وزوال نعَمِه . فإذا ما استقرت آداب القتال في الأنفس ، وحدث اطمئنان لوعود الله في شأن الكافرين في جو التحذير من مسببات الفشل . تأتي الآن مجموعة توجيهات مهمة في قضايا القتال . التوجيه الأول فيه إخبار أن شرّ مادبّ على وجه الأرض الذين كفروا فهم لايؤمنون ، الذين من صفاتهم - والكافرون كلهم كذلك - أنهم كلما عاهدوا عهداً نقضوه ، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ، وهم لا يخافون الله في شيء ارتكبوه من الآثام ، فهؤلاء اضرِبْهم ضربة ساحقة ، تكون عبرة لمن وراءهم ، تلقي بها الرعب في قلب كل كافر ، فيحذر أي واحد من الناس أن ينكث عهدك إن عاهد . نفهم من هذا التوجيه جواز عقد معاهدات تقتضيها مصلحة المسلمين مع

المشركين ، ولكن ينبغي أن تكون الضربة ساحقة إن حدث غدر ، وهذا يقتضي أن يكون المسلمون دائماً على حذر ، وعلى استعداد ، وإذ تقرر جواز العهد ، وتقررت العقوبة على الغدر ، فإنّ مسألة تطرح نفسها وهي : أنه قد يدخل المسلمون في معاهدة ، ويكون الطرف الآخر يبيّت عملية غدر ، فماذا يفعل المسلمون ليقابلوا هذه الحالة ؟ الجواب أنه متى أحس المسلمون بروح الخيانة والغدر ، والنقض للمواثيق والعهود ، فإنّ عليهم أن يُعلِمُوا خصمهم أنّ العهد لاغ ؛ والاتفاقية منقوضة ، وأنّه لا عهد بينهم وبين الآخرين ، وذلك حتى لا يرتكب المسلمون خيانة ، لأن الله لا يحب الخيانة وأهلها ، ولو كانت الخيانة في حق كافر ، وإذن إذا حدث الغدر بعد العهد فالضربة القاصمة ، وإذا خيف الغدر قبل وقوعه فالإعلام أنه لا عهد ولا عقد . ومن ثمّ نلاحظ أنه بعد نزول هذه الآيات عندما غدرت قريش ببني خزاعة ، ناقضةً عهد الحديبية ، باغتهم رسول الله ﷺ ، وفتح مكة ، ولأن الضربة القاصمة تحتاج إلى جرأة ، ولأن الإعلام بإلغاء المعاهدات قد يتسبب عنه ما يفوّت على المسلمين فرصة المفاجأة . فقد أعلمنا الله عز وجل في هذا المقام أن الكافرين مهما بلغوا من القوة فإنهم في قدرته وقبضته فلا يعجزونه ، فلا يبالي المسلمون إذن إلا بتطبيق أمر الله .

ثم يأتي التوجيه الثاني في هذا المقام ، وهذا التوجيه فيه أمر ببذل منتهى الجهد للإعداد المادي للقتال ، والمتمثل بكل أدوات الرمي ، وبكل آليات المعركة ، من أجل إرهاب كل عدو لله عرفه المسلمون أو لم يعرفوه ، وحضّ في هذا المقام على الإنفاق ؛ لأنّ الإعداد لا يكون بلا مال ، ووعد عليه الأجر . ولنفرض أنه بعد القتال مال الكافرون إلى السلام أي إلى المسالمة والمصالحة والمهادنة فما العمل ؟ للمسألة صور وحالات وفي إحدي حالاتها يأمر الله رسوله ﷺ في هذه الحالة بالميل إليها والقبول منهم ذلك ، ولنفرض أنهم يريدون بالصلح الخديعة ، ليتقووا ويستعدوا ، فليكن ذلك : صالح وتوكل على الله ، فإنّ الله كافيك وناصرك ، وكيف لا ، وهو الذي فعل لرسوله ﷺ ببدر ما فعل ، ونصره بالمؤمنين ، وجمع بين قلوبهم على الإيمان وعلى الطاعة له ومناصرته ومؤازرته ، بعد ما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، حتى لو أنفقت أموال الأرض كلها لإصلاح ذات بينهم لم تفد ، ومع ذلك فإن الله جمع هذه القلوب ، فهو العزيز الجناب الذي لا يخيّب رجاء من توكل عليه ، الحكيم في أفعاله وأحكامه ، وباستكمال هذه المعاني تنتهي الفقرة الأولى في المقطع بعد أن أمر الله المؤمنين بها :

١ - بالتخلق بمجموعة الأمور التي يستأهلون بها النصر في القتال .

٢ - ببذل منتهى الجهد للوصول لأقصى درجات الإعداد المادي .

٣ - بجواز المصالحة والمهادنة في بعض الحالات مع الضربة الساحقة إذا حدث غدر ، وإلغاء المعاهدات إذا خيف الغدر .

وفي الفقرة تفصيلات كثيرة ، ويحتاج فهمها إلى أشياء كثيرة ، وتطبيقها على الواقع أمر مهم ، ولعلنا نُوفَّق إلى ذكر كل ما ينبغي في هذه الشؤون ، وبعد الفقرة التي بدأت بالنداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ تأتي فقرة مبدوءة بصيغة ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ وفيها ثلاث نداءات بهذه الصيغة ، وكأنها تحدثنا عن أدب القيادة في إقامة فريضة القتال .

تبدأ الفقرة بإخبار الله نبيه والمؤمنين أنه حسبهم أي : كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . ثم يأمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يحرِّض المؤمنين على القتال بأن يحثهم عليه ، ويعدهم الله أن يغلب العشرة منهم على المئة ، والمئة على الألف من الكافرين ، إن صبروا ؛ لأن الكافرين لا قلوب لهم ، وإذ كان الوعد من الله فيه معنى التنجيز فقد فهم المسلمون من هذا الوعد الأمر بحرمة الفرار إذا كان الواحد يقابل عشرة ، والعشرة تقابل مئة ، ومن ثَم فإن الله خفف الفرضية عنهم ، فأجاز للواحد أن يفرّ من الثلاثة ، وللعدد أن يفر إذا قابل أكثر من ضعفيه ، وذكّرهم بأن الله مع الصابرين . فالبشارة والوعد بغلبة القليل للكثير قائمة ، والفريضة على ما ذكرنا . ثم بين الله لرسوله ﷺ أن سنته أن لا يكون أسر حتى يتم الإثخان لأنبيائه في الأرض . وقد عرض الله هذه السنة في معرض العتب على المؤمنين يوم بدر ، إذ قبلوا فداء الأسرى مع إعلامه بعفوه عن فعلهم ، وإباحته لهم ما أخذوه من الفداء . وإذ أخذ الرسول ﷺ الفداء يوم بدر ، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يقول للأسرى الذين دفعوا الفداء ، بأن الله سيعوض عليهم - إن كان في قلوبهم خير - أكثر مما دفعوه فداءً ، ووعدهم كذلك بالمغفرة ، ثم هددهم إن كان في قلوبهم نية سوء وإرادة خيانة بالتمكين منهم كما مكّن من قبل . فالمقطع إذن فيه تهييج للمؤمنين على القتال في كل حال . وفيه مطالبة لهم بالتوكل ، وبشارة لهم بالنصر ، وإن قلّ العدد ، وتحريض لهم على الإثخان في الأرض ، دون النظر إلى المصالح المادية ، وفي حالة الأسر وأخذ الفداء فقد علّمنا الله ما نقوله للأسير في هذا المقام ، وهذا يشعرنا أن علينا أن نبذل جهداً مع الأسرى لإدخالهم في الإسلام ، أو لتخويفهم عن أن يقفوا موقفاً ضدّنا مرة

ثانية ، مع ملاحظة أن حكم الله في الأسير إذا وقع في الأسر مرة ثانية بعد إطلاق سراحه أن يقتل ، ولو أننا قلنا إن هذه الفقرة فيها توجيه لقيادات المسلمين ، ماذا عليها أن تفعل ، وكيف ينبغي أن تكون ، وكيف ينبغي أن تكون تطلعاتها وتصرفاتها لا نكون مبعدين .

المعنى الحرفي للفقرة الأولى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾ أي إذا حاربتم جماعة فاثبتوا ولا تفروا واللقاء اسم غالب للقتال ﴿ **واذكروا الله كثيرا** ﴾ في مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به ، داعين له على عدوكم ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أي لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة ، وفيه إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه ، أشغل ما يكون قلباً ، وأكثر ما يكون هماً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك ، وإن كانت متوزعة عن غيره ﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ في كل شيء ومن ذلك أوامر الجهاد وأوامر المعركة ﴿ **ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ أي دولتكم وسلطانكم ﴿ **واصبروا** ﴾ أي في القتال مع العدو وغيره ﴿ **إن الله مع الصابرين** ﴾ أي يعينهم ويحفظهم ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس** ﴾ أي كمن جاء إلى بدر من المشركين في بطرهم وريائهم ، نهى المسلمين أن يكون خروجهم للقتال كخروج هؤلاء بطرين مرائين بأعمالهم ، وهذا يقتضي أن يكونوا في خروجهم من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله ، مخلصين أعمالهم لله . والبطر : أن تشغل الإنسان كثرة النّعم عن شكرها ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ أي عن دينه والمعنى : ولا تكونوا بخروجكم كهؤلاء البطرين المرائين الصادّين عن سبيل الله ﴿ **والله بما يعملون محيط** ﴾ أي عالم بأعمالهم وهذا تهديد لهم ووعيد ، وهكذا بدأ المقطع بتوجيه المؤمنين إلى الآداب الربانية في القتال ، ليصل إلى الكلام عن أهل بدر من المشركين وخروجهم ونفسيتهم كنموذج للعقلية الكافرة والنفسية الفاجرة ، التي طبيعتها البطر والفخر والكبر والصد عن سبيل الله . هذه النفسية نهانا الله عز وجل أن نكون مثلها ، وبعد أن صوّر لنا هذه النفسية يقص علينا جل جلاله ما نعرف به هذه النفسية ، وذلك من خلال عرضه صفحة من صفحات معركة بدر التي هي النموذج الخالد للصراع بين الكفر والإيمان وأهلهما :

﴿ **وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ أي واذكروا إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداة رسول الله ﷺ ، والخروج لحربه وما هم عليه من فسوق ومجون

وضلال وكفر ﴿ **وقال لا غالب لكم اليوم من الناس** ﴾ أي لا غالب كائن لكم من الناس أبداً ، وهذه طبيعة الشيطان الغرور وينمي عند أتباعه الغرور ، وعلى المسلمين ألا يأبهوا لغرور أعداء الله ﴿ **وإني جاركم** ﴾ أي وإني مجير لكم ﴿ **فلما تراءت الفئتان** ﴾ أي فلما تلاق الفريقان ﴿ **نكص على عقبيه** ﴾ أي نكص الشيطان هارباً على عقبيه أي رجع القهقرى ﴿ **وقال إني بريء منكم** ﴾ أي رجعت عما ضمنت لكم من الأمان ﴿ **إني أرى ما لا ترون** ﴾ أي الملائكة ﴿ **إني أخاف الله** ﴾ أي أخشى عقوبته ، وكذَب عدو الله ، ما به مخافة الله ، ولكنه علم أنه لا قوة له ولا منعة ، وتلك عادة عدو الله مع من أطاعه وانقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم ﴿ **والله شديد العقاب** ﴾ لمن يريد أن يعاقبه ﴿ **إذ يقول المنافقون** ﴾ في المدينة ﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي المنافقون ، أو الذين هم على حرف ، ليسوا بثابتي الأقدام في الإسلام ﴿ **غر هؤلاء دينهم** ﴾ يعنون أن المسلمين غرّر بهم دينهم ، حتى تجرؤوا على القتال ، مع ما هم فيه من قلة وضعف ، والجواب ﴿ **ومن يتوكل على الله** ﴾ أي يكل إليه أمره ﴿ **فإن الله عزيز** ﴾ أي غالب ، ومن غلبته أنه يسلط القليل الضعيف على الكثير القوي ﴿ **حكيم** ﴾ ومن حكمته أنه لا يسوّي بين وليّه وعدوّه ، ولذلك فإنه ينصر وليه ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة** ﴾ أي يقبضون أرواحهم ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أى يضربون وجوههم إذا أقبلوا ، وظهورهم وأستاههم إذا أدبروا ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ أي ويقولون لهم ذوقوا مقدمة عذاب النار ، أو وذوقوا عذاب الآخرة بشارة لهم به ، أو يقال لهم ذلك يوم القيامة والمعنى لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيعاً ﴿ **ذلك بما قدمت أيديكم** ﴾ أي بما كسبت ﴿ **وأن الله ليس بظَلاَّم للعبيد** ﴾ أي ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم ، وبسبب أن الله عادل لأن تعذيب الكفار من العدل ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ الدأب : العادة . والمعنى : دأب هؤلاء الكافرين مثل دأب آل فرعون والذين من قبلهم الذي دأبوا عليه أي داوموا عليه ﴿ **كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب** ﴾ والمعنى أن هؤلاء جروا على عادتهم في التكذيب فأُجري عليهم مثل ما فعل بهم من التعذيب ﴿ **ذلك** ﴾ أي العذاب والانتقام ﴿ **بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ أي بسبب أن الله لم يصح في حكمته أن يغيّر نعمته عند قوم حتى يغيُروا ما بهم من الحال . نَعمْ لم يكن لآل فرعون وأمثالهم حال مَرْضيّة فيغيّروها إلى حال مسخوطة . لكن كما تتغيّر الحال

المرضية إلى المسخوطة تتغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها . ومشركو مكة كانوا قبل بعثة الرسول ﷺ إليهم كفرة عبدة أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات فكذبوه وسعوا في إراقة دمه غيّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغيّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿ **وأن الله سميع** ﴾ لما يقوله مكذبو الرسل ﴿ **عليم** ﴾ بما يفعلون ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ كرر ذلك للتأكيد وزاد هنا بياناً بتفصيل نوع العذاب ﴿ **والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون** ﴾ أي بماء البحر ﴿ **وكل** ﴾ أي من آل فرعون ومن قبلهم ومشركي مكة الذين عذّبهم بيد المؤمنين يوم بدر ﴿ **كانوا ظالمين** ﴾ أي أنفسهم بالكفر والمعاصي . وهكذا علمنا في هذا المقطع استحقاق الكافرين للعذاب الرباني ، فإذا كان الأمر كذلك علمنا لماذا لا يجوز أن نكون مثلهم ، وعلمنا لماذا أمرنا بقتالهم . فهذه الآيات في وسط المقطع هي تعليل لما قبلها وما بعدها . فما بعدها كلام عن الكافرين ، وكون نقض العهد من صفاتهم وعقوبتهم على ذلك ، وأن الكافرين لا يُعجزون . وأمر بالإعداد المادي . وأمر بالتوكل على الله الذي يتولى أولياءه ويعذب أعداءه ، وكل هذه المعاني مرتبطة بما مرّ .

﴿ **إن شر الدوابّ عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** ﴾ فلإصرارهم على الكفر لا يتوقع منهم الإيمان ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة** ﴾ أي في كل معاهدة ﴿ **وهم لا يتقون** ﴾ أي لا يخافون عاقبة الغدر ، ولا يبالون بما في الغدر من العار والنار ، جعل الذين كفروا شر الدواب ، ثم خصّ منهم الناقضين للعهود . قال النسفي : وجعلهم شر الدواب لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصِرّون ، وشرّ المصرين الناكثون للعهود . أليس هؤلاء يستحقون العذاب ﴿ **فإما تثقفنَّهم** ﴾ فإما تصادفنهم وتظفرن بهم ﴿ **في الحرب فشرّد بهم مَن خلفهم** ﴾ أي ففرق بقتلهم شرّ قتلة مَنْ وراءهم من الكفرة ، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد ؛ اعتباراً بهم واتعاظاً بحالهم وبتعبير مختصر : إفعل بهم ما تُفرِّق به جمعهم وتطرد به من عداهم ، وبتعبير أخصر : إضربهم ضربة قاصمة تكون عبرة لغيرهم ﴿ **لعلهم يذكّرون** ﴾ أي لعل المشردين من ورائهم يتعظون . هذا هو الموقف الذى فرضه الله من الغادرين ، وهو موقف لا يستطيعه المسلمون إلا إذا كانوا على أعظم أنواع الجاهزية للقتال بالعتاد والتخطيط والسلاح والتدريب ، ومن ثم نلاحظ أنه في هذا السياق يأتي الأمر بالإعداد كما سنرى ﴿ **وإما تخافنَّ من قوم** ﴾ أي معاهدين ﴿ **خيانة** ﴾ أي نكثاً بأمارات تلوح لك ﴿ **فانبذ إليهم** ﴾ أي فاطرح إليهم العهد ﴿ **على سواء** ﴾ أي على استواء منك ومنهم في

العلم بنقض العهد ، أي حتى تكونوا أنتم وإياهم حاصلين على استواء في العلم ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ أي الناقضين للعهود ، وهذا الموقف كذلك يحتاج من المسلمين لأن يكونوا على أنواع الاستعداد للقتال ، وأن يكون رصدهم لعدوهم قوياً ، ثم ذكّر الله المسلمين بشيئين : عجز الكافرين أمام قدرته ، ووجوب الإعداد فقال ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا** ﴾ أي فاتوا وأفلتوا من أن يُظفَر بهم ، أو وصلوا إلى حال لا يُغلَبون معها ﴿ **إنّهم لا يعجزون** ﴾ أي إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم ، كيف والطالب الله ثم جنُده ، وهذه بشارة للمؤمنين وشحذ لهممهم فلا يبالون بالقوة الكافرة مهما بلغت ، ثقة بنصر الله وتدبيره ﴿ **وأعدوا لهم** ﴾ أي للكافرين جميعاً ﴿ **ما استطعتم من قوة** ﴾ أي مهما أمكنكم قال ابن كثير : أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة ، والقوة مدلولها واسع ، وخص الرسول عليه الصلاة والسلام بالذكر منها الرمي فقال : « ألا إن القوة الرمي » ويدخل في ذلك إعداد كل ما يرمىٰ به من المدافع إلى القنبلة الذرية إلى غير ذلك ﴿ **ومن رباط الخيل** ﴾ أي ومن جنس ما يُركَب للقتال كالخيل ، فدخل في ذلك البارجة والطائرة والدبابة وغير ذلك ﴿ **تُرهِبون به** ﴾ أي بهذا الإعداد ﴿ **عدوَّ الله وعدوَّكم** ﴾ أي الكافرين ، وهذا عين ما يسمى حالياً الآن بمبدأ القوة من أجل السلام ، ولكنه هنا سلام أهل الإسلام ﴿ **وآخرين من دونهم** ﴾ أي من غيرهم من المنافقين أو المعاهدين الذين يفكرون بنقض العهد أو غير ذلك ﴿ **لا تعلمونهم** ﴾ أي لا تعرفونهم بأعيانهم ﴿ **الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم** ﴾ أي يوفّى لكم جزاؤه ﴿ **وأنتم لا تُظلَمون** ﴾ أي في الجزاء بل تعطون على التمام . بدأ الآية في الأمر بالإعداد ، وختمها بالأمر بالإنفاق ؛ لأن الإعداد يحتاج إلى إنفاق ﴿ **وإن جنحوا للسَّلْم** ﴾ أي وإن مالوا للصلح ﴿ **فاجنح لها** ﴾ أي فَمِلْ إليها ﴿ **وتوكَّل على الله** ﴾ أي ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السَّلْم ، فإن الله كافيك وعاصمك من مكرهم ﴿ **إنه هو السَّميع** ﴾ للأقوال وغيرها ﴿ **العليم** ﴾ بالأحوال كلها . بدأ بالموقف ممن ينقض الميثاق ، ثم بالموقف ممّن يُخشىٰ منه نقض الميثاق ، وجعل المسلمين في الوضع المناسب لكل الاحتمالات . ثم أذن لهم بالمصالحة وعقد المعاهدات ، متوكلين على الله بعد أخذ الأسباب كلها ، ثم قال مطمئناً ﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك** ﴾ أي أن يمكروا ويغدروا ﴿ **فإن حسبك الله** ﴾ أي كافيك الله ﴿ **هو الذي أيدك** ﴾ أي قوَّاك ﴿ **بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم** ﴾ بعد التعادي الطّويل بحيث ﴿ **لو أنفقت ما في**

الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ﴾ أي بلغت عداوتهم مبلغاً لو أنفقَ منفِق في إصلاح ذات بينهم ما في الأرض من الأموال لم يقدر عليه ﴿ **ولكن الله ألّف بينهم** ﴾ بفضله ورحمته ، وجمع بين كلمتهم بقدرته ، فأحدث بينهم التوادّ والتحابّ ، وأماط عنهم التباغض والتماقت ﴿ **إنه عزيز** ﴾ أي يقهر مَنْ يخدعون المؤمنين ﴿ **حكيم** ﴾ في إيصال المؤمنين إلى النصر ، وإذ كان الأمر كذلك فاجنح إلى السَّلْم مع ملاحظة كل ما مرّ . وهكذا جاء المقطع ليضع المسلمين في أفضل وضع في قضايا الحرب والسلام ، بما لا يجعل لكافر عليهم حجة في موضوع السلام ، وبما لا يؤدي السلام إلى إضرار بوضع المسلمين العسكري ، وهذه القضايا بمجموعها مهمة في عصرنا كثيراً ، ففي عصرنا إذ يتشدَّق المتشدِّقون بالسلام ، وفي عصرنا الذي يقدر معه الكثيرون على تضليل الشعوب بحجة السلام ، وضعنا الإسلام على الطريق الأمثل في كل شيء ، عندما نكون في الوضع الأقوى أو الأضعف ، عندما نكون كما نحن في عصرنا ، أو كما كنا في الماضي ، أو كما يمكن أن نكون في المستقبل .

وهكذا ابتدأت الفقرة في تعليم آداب القتال الإسلامي ، وانتهت بتعليم أحكام المعاهدات ، وبين ذلك كلام يخدم البداية والنهاية ، وكل ذلك تفصيل لمحور السورة من سورة البقرة ، وقد استطردنا في ذكر المعنى الحرفي للفقرة دون ذكر فوائد كل آية على حدة ؛ لتكتمل صورة الفقرة في الأذهان .

كلمة في آيات القتال :

ذكر من قبل كيف أن من أكبر ما يقع فيه الخطأ في عصرنا عدم وضع آيات القتال في مواضعها ، بحيث تحمل آية على غير الحال التي تتحدث عنها ، وفي ذلك من الخطر ما فيه ، إمّا على تعطيل أحكام الجهاد ، وإمّا على وضع المسلمين في وضع غير صحيح .

وفي عصرنا يفرّط بعض حكام المسلمين ، فيضعون المسلمين في المقام الأسوأ ، ثم يحملونهم على قبول الأمر الواقع .

إنّه لابدّ للمسلمين من حكومة إسلامية ، وعلى هذه الحكومة أن تقيم الإسلام ، وعليها أن توجِد القوة الإسلامية العسكرية ، فإذا قام الإسلام ، ووجد الإخلاص ، ووجدت النفقة ، ووجدت القوة ، فعندئذ يأتي دور الموقف السياسي الحكيم الذي تحكمه القدرات والطاقات بموازين الإيمان . إنّ على القيادات الإسلامية أن تكون مدرِكَة للطريق الذي تقيم به فريضة الجهاد في عصر ذي خصائص معينة ، وهذا يقتضي منها

فقهاً وعلماً ، كما يقتضي جرأة وشجاعة ، كما يقتضي بُعْد نظر سياسي ، كما يقتضي حكمة كبيرة .

نقول هذا بين يدي الفوائد التي سننقلها حول آيات الفقرة التي مرّت معنا :

فوائد :

١ - في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ». ثم قام النبي ﷺ وقال : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » . وروى عبدالرزاق ... عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله ، فإن ضجوا وصاحوا فعليكم بالصمت » . وروى الحافظ أبو القاسم الطبري ... عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعاً قال : « إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة » . وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى : « إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه » أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكري ودعائي واستعانتي .

يلاحَظ فيما نقلناه في هذه الفائدة أن رسول الله ﷺ يأمر بالصمت عند الزحف ، وهذه الوصية مهمة جداً ، إذ الملاحظ أن كتب فن الحرب تشير إلى أن الصخب والهرج والضوضاء ليلة المعركة عند الجيش تدلّ على خوفه ، وأنه لا يفعل ذلك إلا ليستر هذا الخوف ، ويستشهدون على ذلك بحالات كثيرة ، منها حالة جيش الفرس الذي كان يقوده دارا ضد الإسكندر المقدوني ، فإنه كان في ليلة المعركة الفاصلة على غاية من الضوضاء ، وحلّت به الهزيمة في اليوم الثاني ، فسبحان الله الذي علّم رسوله ﷺ ، فهدانا إلى كل ما يلزمنا في أمر دنيانا وأخرانا . فلْنتعلم الصمت ، ولْنبتعد عن الضجيج في شؤوننا كلها .

٢ - البطر والرئاء الذي وصف الله به المشركين من أهل بدر هو ما عبرَّ عنه أبو جهل عليه لعنة الله لَماَّ قيل له : إن العير قد نجت فارجعوا ، فقال : لا ، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب

بمكاننا فيها يومنا أبداً .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم** ... ﴾ ذكر ابن كثير عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين ، معه رايته في صورة رجل من بني مدلج ، في سورة سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلمّا اصطفّ الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا مدبرين ، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقة أتزعم أنّك لنا جار ، فقال : إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله ، والله شديد العقاب ، وذلك حين رأى الملائكة . وقد روى الإمام مالك عن طلحة بن عبيدالله بن كريز : أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤي إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر قالوا : يارسول الله وما رأى يوم بدر قال : أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة) .

٤ - وفي الذين قالوا : ﴿ **غرَّ هؤلاء دينُهم** .. ﴾ قال ابن جريج : هم قوم كانوا من المنافقين بمكة ، قالوه يوم بدر وقال عامر الشعبي : كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا : غرّ هؤلاء دينهم .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ نذكر الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : « ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ؛ فلا تظّالموا ، ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يُلومَنَّ إلا نفسه » .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فانبذ إليهم على سواء** ﴾ نذكر ما رواه الإمام أحمد .. عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير في أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدراً ، إن رسول الله ﷺ قال : « من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلّن عقدة ، ولا يشدّها حتى ينقضي أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء » قال : فبلغ ذلك

معاوية . فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه . وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي . وأخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه . وقال الترمذي حسن صحيح . وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن – أو مدينة – فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال : إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام ، فإن أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بإذن الله تعالى .

٧ – وبمناسبة قول الله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ نقول : إن كثيراً من الناس يخطئون في فهم هذه الآية . فالآية شملت إعداد كل أنواع الرمي ، وكل أنواع الآليات ، لأن « مِنْ » في الآية لبيان الجنس . فمعنى الآية وأعدوا لهم ما استطعتم من جنس ما يرمى به ، ومن جنس رباط الخيل ، أي من جنس ما يركب للمعركة . فشمل هذا وهذا كل عتاد يتصور . والرمي في الإسلام له أهميته العظمى ، لأن كل عتاد لا قيمة له إذا لم يكن إحسان في الرمي ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول – وهو على المنبر –: ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » . وروى الإمام أحمد وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ : « ارموا واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا » . وقد وردت آثار كثيرة في الندب على اقتناء الخيل . وقد تقلّصت الحاجة إلى الخيل للقتال في عصرنا ، وإن كانت لا تزال تستعمل نوع استعمال ، ولكنه قليل ، وعلى الأمة الإسلامية أن تبذل جهداً مضاعفاً في صناعة السلاح ، وأدوات القتال ، وآلاته من المدفع إلى الصاروخ ، ومن البارجة إلى الطائرة . وأن تتقن استعمال السلاح . وأن تتعمق في فهم فن الحرب ؛ لتقف على أقدامها في عالم مدجج بأدوات الدمار . وعليها أن تفقه متى تُقْدم ومتى تُحْجم .

٨ – ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها** ﴾ منسوخ بآية القتال في سورة براءة قال ابن كثير :(وفيه نظر أيضاً ؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك ، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلّت عليه هذه الآية الكريمة ، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية ، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص) .

أقول هذه الآية تدور حول فهمها معارك كلامية كثيرة ، قديماً وحديثاً ، وقد أشار ابن كثير إلى ذلك ، وقد لخص الألوسي الاتجاهات في شأنها فقال :

(والآية قيل مخصوصة بأهل الكتاب فإنها – كما قال مجاهد ، والسدي– نزلت في بني قريظة ، وهي متصلة بقصتهم ؛ بناء على أنهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **الذين عاهدت** ﴾ الخ ، والضمير في ﴿ **وأعدوا لهم** ﴾ لهم ، وقيل : هي عامة للكفار ، لكنها منسوخة بآية السيف ؛ لأن مشركي العرب ليس لهم إلا الإسلام أو السيف ، بخلاف غيرهم فإنه تقبل منهم الجزية ، وروى القول بالنسخ عن ابن عباس . ومجاهد . وقتادة . وصحح أن الأمر فيمن تقبل منهم الجزية على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم ، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً أو يجابوا إلى الهدنة أبداً ، وادّعى بعضهم أنه لا يجوز للإمام أن يهادن أكثر من عشر سنين اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه صالح أهل مكة هذه المدة ، ثم إنهم نقضوا قبل انقضائها كما مر فتذكّر) .

أقول : لقد رأينا أن ابن كثير يحمل الآية على ظاهرها ، ولا يرى أنها تتعارض مع غيرها حتى تحتمل النسخ أو التخصيص ، وهو يرى أنها على ظاهرها إذا كان العدو كثيفاً ، كما يحمل قوله تعالى في سورة القتال ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون** ﴾ على أنّ المراد بذلك القوة ، فإذا كان المسلمون ضعفاء جاز لهم أن يدعوا إلى السلم ، وإلا لم يجز لهم ، وعلى هذا فإن ابن كثير يرى أن المسلمين إن كانوا ضعفاء جداً جاز لهم أن يدعوا إلى السلام ، وإن كانوا في وضع لايستطيعون فيه السيطرة على خصومهم ، وإن كانوا يستطيعون قتاله جاز لهم أن يصالحوا وأن يعاهدوا ، أما في حالة القدرة على الغلبة فإن العدوّ ليس أمامه إلا الإسلام أو الجزية أو القتال .

أقول : إن قضايا الحرب والسلام والمعاهدات تتحكم فيها معان متعددة وعلى أمير المؤمنين ، وعلى الدولة المسلمة ، أن تجري موازنات كثيرة على ضوء الكتاب والسنة قبل الإقدام على شيء من ذلك .

٩ – وفي قوله تعالى : ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أَلَّفت بين قلوبهم** ﴾ يقول ابن مسعود بسند صحيح عنه : نزلت في المتحابين في الله ، وبمناسبة هذه الآية نذكر مايلي : روى عبدالرزاق ... عن ابن عباس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً**

ما ألَّفت بين قلوبهم ﴾ وروى أبو عمرو الأوزاعي .. أن عبدة بن أبي لبابة لقي مجاهداً فأخذ بيده ، فقال مجاهد : إذا التقى المتحابان في الله ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، وضحك إليه ، تحاتت خطاياه ، كما تحاتّ ورق الشجر ، قال عبدة : فقلت له : إنّ هذا ليسير . فقال : لا تقل ذلك فإن الله تعالى يقول : ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم** ﴾ قال عبدة : فعرفت أنه أفقه مني . وروى ابن جرير .. عن مجاهد قال : إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما ، قال الوليد (أحد رجال سند الرواية) : قلت لمجاهد : بمصافحة يغفر لهما ؟؟ قال مجاهد : أما سمعته يقول ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم ولكن الله ألَّف بينهم** ﴾ فقال الوليد لمجاهد : أنت أعلم مني . وروى ابن عوف عن عمير بن إسحاق قال : كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الألفة . وروى الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله تعالى .. عن سلمان الفارسي : أن رسول الله ﷺ قال : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف ، وإلاّ غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحر » .

فلتكن هذه المعاني على ذكر منا ولنحرص على الابتعاد عن كل ما يضعف أخوتنا ووحدة قلوبنا .

كلمة في السياق :

رأينا أن الفقرة بدأت بتعليم المسلمين ما ينبغي فعله إذا واجهوا ، ومن ذلك ألا يكونوا كالكافرين في أخلاقهم إذا خرجوا للقتال ، ثم ذكرت أخلاق الكافرين واستحقاقهم العذاب ، وفي ذلك ما ينفر عن التشبه بهم ، ويجرّىء عليهم ، ثم علمتنا كيف يكون موقفنا في العهد والصلح وغير ذلك ، وأمرنا في سياق ذلك بالإعداد المادي في آية جامعة شملت كل أنواع الإعداد الذي يخطر ببال إنسان ، وبهذا تكون هذه الفقرة قد شاركت في بناء صرح الجهاد في الإسلام ، بتعليم بعض الأحكام المتعلقة به ، وكل ذلك بما يحقق تفصيل محور هذه السورة من سورة البقرة . ولننتقل الآن إلى :

التفسير الحرفي للفقرة الثانية من المقطع الثاني من القسم الثاني :

﴿ **يأ يها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ أي كفاك وكفى أتباعك من

المؤمنين الله ناصراً ، أو كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين ، أي فقاتل بمن معك قلّوا أو كثروا ﴿ **يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال** ﴾ أي أكثر من الحثّ على القتال ، والتحريض في الأصل : المبالغة في الحثّ على الأمر ﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا** ﴾ هذه عِدَة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله وتأييده ﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أي بسبب أن الكفار قوم جهلة ، يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب ، كالبهائم ، فيقل ثباتهم ، ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ، بخلاف من قاتل على بصيرة من الله فإنه يرجو النصر من الله على حسب وعده ، ولمّا كان الوعد من الله لا يتخلف فإن على المؤمنين إذن أن يصبروا إذا قابلوا عشرة أضعافهم انتظاراً لموعود الله ، ومن ثم كانت البشارة السابقة فيها معنى الأمر بالثبات إذا قابل المسلمون عشرة أضعافهم ، وقد ثقل ذلك على المسلمين فأنزل الله يخفف عنهم فرضية الثبات في حالة المضاعفة المتعددة وأبقى البشارة والعدة ﴿ **الآن خَفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً** ﴾ أي في أبدانكم ﴿ **فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ وإذن فقد خفف الله الوجوب علينا ، فلم يأذن بالفرار إذا قابل الواحد اثنين ، وتكرير مقاومة الجماعة لأكثر منها بذكر عدد قليل وآخر كثير قبل التخفيف وبعده ، للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة لا تتفاوت . فقد يظن ظان أن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين ، والمائة الألف ، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والألف الألفين فذكر عدد قليل وعدد كثير وقد رأينا عند قوله تعالى : ﴿ **فلا تولّوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره** .. ﴾ تفصيلات مهمة في هذا الشأن ﴿ **ما كان لنبيّ** ﴾ أي ما صحّ له ﴿ **أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض** ﴾ الإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، من الثخانة : وهي الغلظ والكثافة ، يعنى حتى يذل الكفر بإشاعة القتل في أهله ، ويعز الإسلام بالاستيلاء والقهر ، ثم الأسر بعد ذلك ﴿ **تريدون عَرَض الدنيا** ﴾ أي متاعها بالرغبة في الفداء قبل الإثخان ﴿ **والله يريد الآخرة** ﴾ أي يريد ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان في القتل ﴿ **والله عزيز** ﴾ يقهر أعداءه ﴿ **حكيم** ﴾ في عتاب أوليائه ، وفي الآية عتاب لرسول الله ﷺ والمؤمنين يوم بدر على أخذهم الفداء ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ﴾ أي لولا حكم من الله سبق أن لا يعذّب أحداً على العمل بالاجتهاد في محله ، وكان مافعلوه اجتهاداً منهم ، لأنهم نظروا في أن استبقاءهم ربما كان سبباً في إسلامهم ، وأن

فداءهم يُتقوَىٰ به على الجهاد ، وخفي عليهم أن قتلهم أعزّ للإسلام ، وأهيب لمن وراءهم . ويمكن أن يكون المعنى : لولا كتاب ثابت من الله ألا يؤاخذ قبل البيان والإعذار ﴿ **لمسّكم** ﴾ أي لنالكم وأصابكم ﴿ **فيما أخذتم** ﴾ أي من فداء الأسرى ﴿ **عذاب عظيم** ﴾ ولكن رحمة الله واسعة ﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ حتى لا يفهم من العتاب حرمة ما عوتبوا به ذكر لهم إباحة الأكل من الغنائم ، والأسرى من الغنائم ﴿ **حلالاً** ﴾ أي مطلقاً عن العتاب والعقاب ﴿ **طيباً** ﴾ أي لذيذاً هنيئاً ، أو حلالاً بالشرع ، طيباً بالطبع ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أي فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه ﴿ **إن الله غفور** ﴾ لما فعلتم من قبل ﴿ **رحيم** ﴾ بإحلال ما غنمتم ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم** ﴾ أي في حوزتكم وفي ملكتكم ﴿ **من الأسرى** ﴾ جمع أسير ﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيرًا** ﴾ أي خلوص إيمان وصحة نية ﴿ **يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم** ﴾ أي من الفداء إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم في الآخرة ، ومع هذا ﴿ **ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ لا يعاقب على الكفر وعمله ، بعد الإسلام وعمله ﴿ **وإن يريدوا** ﴾ أي الأسرى ﴿ **خيانتك** ﴾ بالكيد لك أو بنقض ما قالوه عند إطلاق سراحهم ﴿ **فقد خانوا الله من قبل** ﴾ أي في كفرهم به ، ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿ **فأمكن منهم** ﴾ أي فأمكنك منهم أي : أظفرك بهم ، أي وسيمكّن منهم إن عادوا إلى الخيانة ﴿ **والله عليم** ﴾ بالمآل ﴿ **حكيم** ﴾ فيم أمر في الحال .

وبهذا انتهى المقطع .

ملاحظة : نلاحظ أنه في مقدمة هذه السورة - أو في مقاطعها - صور لها علاقة بغزوة بدر ، تخدم السياق الذي جاءت فيه ، وذلك أن معركة بدر هي النموذج العملي لتنفيذ فريضة القتال ، وما يحيط به ، وما يستتبع ذلك .

كلمة في السياق :

رأينا في هذه الفقرة ثلاثة نداءات موجّهة لرسول الله ﷺ :

١ - أمر بالاعتماد على الله وحده ، وذلك يفيد أن قرار القتال لا ينبغي أن يتوقف إلا على ضرورته وفريضته .

٢ - أمر لرسول الله ﷺ بالتحريض على القتال ، وهذا أدب القيادة في استبقاء الجاهزية القتالية كاملة بشكل دائم .

٣ - أمر لرسول الله ﷺ في أن يقول للأسرى ﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ وهذا أدب القيادة في أن تجري مع الأسرى حواراً ، خاصة عند إطلاق سراحهم .

فوائد :

١ - تنفيذاً لقوله جل جلاله : ﴿ **حرِّض المؤمنين على القتال** ﴾ فقد كان رسول الله ﷺ يحرض أصحابه على القتال عند صفهم ومواجهة العدو ، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عَدَدهم وعُدَدهم : « قوموا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض » . فقال عمير بن الحمام : عرضها السمٰوات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » . فقال : بخ بخ ، فقال : « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها . فقال : « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل رضي الله عنه .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض** ... ﴾ نذكر مايلي :

ا - عن الإمام أحمد ... عن أنس رضي الله قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس » . فقام عمر فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يارسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغمّ فعفا عنهم وقبِل منهم الفداء ، قال : وأنزل الله عز وجل ﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾ .

ب - روى الأعمش .. عن عبدالله قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : « ماتقولون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر : يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر : يارسول الله كذّبوك وأخرجوك فقدّمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبدالله بن رواحة : يارسول الله ائت في واد كثير الحطب

فأضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه ، قال : فسكت رسول الله ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً ، ثم قام فدخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبي بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبدالله بن رواحة ، ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : « إن الله ليليّن قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإنّ الله ليشدّد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة ، وإنّ مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ **فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم** ﴾ وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وإن مثلك ياعمر كمثل موسى عليه السلام قال : ﴿ **ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ وإن مثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام قال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً** ﴾ أنتم عالة فَلَا ينفكنّ أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » . قال ابن مسعود : قلت : يارسول الله إلاّ سهيل بن بيضاء فإنه يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ : « إلا سهيل بن بيضاء » . فأنزل الله عز وجل ﴿ **ما كان لنبي أن يكون له أسرى** ﴾ إلى آخر الآية . رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم في مستدركه . وقال صحيح الإسناد . ومن الفائدة اللاحقة لهذه الفائدة ندرك أن حق الإثخان لكل من يقود هذه الأمة قائم ، فليلاحظ من يعطيه الله قيادة للمسلمين كيف يفعل إذا بدأ الجهاد .

٣ - قال ابن كثير : وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخيّر فيهم ، إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع ، حيث ردّهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرقّ من أسر . وهذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

٤ - وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى** ﴾ قال الزهري : بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يارسول الله ﷺ كنت مسلماً . فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد

كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعقيل بن أبي طالب بن عبدالمطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بني الحارث بن فهر » . قال : ماذاك عندي يارسول الله . فقال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلْتَ لها : إن أصبت في سفري هذا فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل ، وعبدالله وقثم » قال : والله يارسول الله إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري ، وغير أم الفضل ، فاحسب لي يارسول ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي . فقال رسول الله ﷺ : « لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه فأنزل الله عز وجل فيه ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ قال العباس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً ، كلهم في يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

وفي إنجاز وعده تعالى : ﴿ **إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ نذكر الرواية التالية عن حميد بن هلال قال : بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً . ما أتاه مال أكثر منه ، لا قبل ولا بعد . قال : فنثرت على حصير ونودي بالصلاة . قال : وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائماً على المال ، وجاء أهل المسجد ، فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً ، وجاء العباس بن عبدالمطلب فحثا في خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع ، قال : فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله : ارفع عليّ ، قال : فتبسّم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له : « أعد من المال طائفة وقم بما تطيق » قال : ففعل ، وجعل العباس يقول : وهو منطلق : أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع في الأخرى ﴿ **يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى** ﴾ الآية ثم قال : هذا خير مما أخذ منا ، وما أدري ما يصنع الله في الأخرى ، فمازال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال حتى ما تبقى منه درهم ، وما بعث إلى أهله بدرهم ، ثم أتى الصلاة فصلى وفي مثل هذه الحادثة ، وفي مثل هذه الآية يجد الإنسان نموذجاً أو لوناً من ألوان الإعجاز في القرآن .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة الأنفال هو آيات سورة البقرة :

﴿ كُتب عليكم القتالُ وهو كُرْه لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

وقد رأينا كيف أنّ سورة الأنفال كانت في مقاطعها كلها تفصيلاً لقضايا القتال ، وكيف أن كل مقطع من مقاطعها اعتمد مشهداً من مشاهد بدر ، فكان هذا المشهد هو النموذج العملي لما يراد تقريره . وكانت السورة من الوضوح في تفصيل محورها ، بحيث لم نضطر لأن نتكلم كثيراً عن ذلك ، وحتى نهاية المقطع الذي مَرّ معنا لم نجد ذكراً للهجرة ، مع أننا قلنا إن سورة الأنفال هي تفصيل للآيات الثلاث في سورة البقرة فما السبب ؟ السبب أن الآية الأخيرة في الثلاث الآيات يأتي تفصيلها في خاتمة سورة الأنفال .

إن هناك تلازماً بين القتال والهجرة ، و بين الإيمان والجهاد بالمال والنفس ، والهجرة تقتضي من أهل دار الهجرة أن يؤووا وأن ينصروا . إن هذه المعاني وغيرها نراها في خاتمة سورة الأنفال :

ومقدمة سورة الأنفال قدّمت وصفاً لحقيقة الإيمان ، وخاتمة سورة الأنفال ترينا نموذج ذلك .

☆ ☆ ☆

خاتمة سورة الأنفال

وتمتد من الآية (٧٢) إلى نهاية الآية (٧٥) وهذه هي :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ

وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

المعنى العام :

قُسِّم الناس في الآيات أربعة أقسام : قسم آمنوا وهاجروا . وقسم آمنوا ونصروا . وقسم آمنوا ولم يهاجروا . وقسم كفروا ولم يؤمنوا . فبدأ بذكر المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤوا لنصرة الله ورسوله ﷺ وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك . وثنّى بذكر الأنصار : وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آوَوْا إخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء قضى الله بأن بعضهم ولي بعض أي : كل منهم أحقُّ بالآخر من كل أحد ، حتى إن أحدهم ليرث الآخر ، إلى أن نسخ ذلك بآيات المواريث ، ثمّ ذكر الله الصنف الثالث من المؤمنين وهم : الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم أو في أمكنتهم التي ليست دار إسلام . فهؤلاء قضى الله أنه ليس لنا من ولايتهم من شيء ، ومن ثم فليس لهم في المغانم نصيب ، ولا في الخمس إلا ما حضروا فيه القتال ، وكان ذلك عندما كانت الهجرة مفروضة إلى دار الإسلام . ثم بيّن الله عز وجل أن هؤلاء

الذين لم يهاجروا إذا استنصرونا على قوم من الكفار بيننا وبينهم مهادنة إلى مدة فعلينا ألا نخفر ذمتنا ، وألا ننقض مواثيقنا مع الذين عاهدناهم . وإذ قرر الله عز وجل الولاية المطلقة بين المهاجرين والأنصار - أي : بين رعايا دار الإسلام وقتذاك - والولاية الجزئية بيننا وبين المؤمنين من غير سكان دار الإسلام ،فقد قطع الله الموالاة بين المؤمنين والكفار . وعلمنا أن الكافرين يوالي بعضهم بعضاً في عدائنا ، ثم قرر أنه إن لم نجانب المشركين ، ونوالي المؤمنين ، فإن فتنة ستكون ، والفتنة هنا هي الْتِباس الأمر ، واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل . وبعد أن ذكر الله تعالى حكم الإيمان ومقتضاه ، بيّن من هم أهله في الدنيا ، فوصف المهاجرين والأنصار بأنهم المؤمنين حقاً ، وأخبر بما لهم في الآخرة ، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيّب الشريف ، الدائم المستمر أبداً ، الذي لا ينقطع ولا ينقضي ، ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر تعالى أن الذين ساروا على أثرهم أنهم معهم في الآخرة ، ثم ذكر الله عز وجل قاعدة عامة : أن أولي الأرحام بعضهم أحق ببعض ، ثم ذَكّرَ الله عز وجل بعلمه بكل شيء . وبهذا المعنى تنتهي السورة .

المعنى الحرفي :

﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ هؤلاء المهاجرون ﴿ **والذين ءاوَوْا ونصروا** ﴾ أي والذين آووهم إلى ديارهم ، ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار ، وبإجماع الأمة أن الهجرة أفضل من النصرة ، والمهاجرون أفضل من الأنصار ﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي ينصرون بعضهم بعضاً ، ويعينون بعضهم بعضاً ، وكانوا في الابتداء يتوارثون بالهجرة والنصرة ، دون ذوي القرابات حتى نسخ ذلك بقوله تعالى ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ فإذا تضمنت الآية الميراث كان المعنى - زيادة على ما مرّ - ويرث بعضهم بعضاً ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا** ﴾ إلى المدينة حين كانت الهجرة إليها مفروضة ﴿ **مالكم من وَلَايتهم من شيء** ﴾ فهم لا يستطيعون لكم نصرة ، ولا إعانة لكونهم في دار الحرب . ثم هم لم يكونوا يرثون . فكان لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر ممن آمن وهاجر ، ثم ليس لهم في الغنيمة والفيء نصيب ﴿ **حتى يهاجروا** ﴾ وعندئذ تكون لهم حقوق المسلم المقيم في دار الإسلام كاملة ﴿ **وإن استنصروكم في الدّين فعليكم النصر** ﴾ أي : إن وقع بينهم وبين الكفار قتال ، وطلبوا معونة ، فواجب عليكم أن

تنصروهم على الكافرين ﴿ **إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم ، لأنهم لا يُبتدؤون بالقتال إذ الميثاق مانع من ذلك ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ فاحذروا أن تتعدوا حدود ما شرع لكم ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي بعضهم ينصر بعضاً ، ويرث بعضهم بعضاً . ومعناه نهي المسلمين عن موالاة الكفار ، وإيجاب مباعدتهم ومفاصلتهم وإن كانوا أقارب ﴿ **إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ أي : إلا تفعلوا ما أمرتكم به ، من تواصل المسلمين ، وتولي بعضهم بعضاً ، واعتبار الكافرين أمة واحدة ، تحصل فتنة في الأرض ، ومفسدة عظيمة ؛ لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الكفر ، ويعتبروا الكفر يداً واحدة عليهم ، يكون الكفر ظاهراً والفساد زائداً ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً** ﴾ لأنهم صدّقوا إيمانهم ، وحققوه بتحصيل مقتضياته ، من هجرة الوطن ، ومفارقة الأهل والسكن ، والانسلاخ من المال والدنيا ؛ لأجل الدين والعقيدة . وإذا تذكرنا بداية السورة ، عندما وصف الله المؤمنين بأنهم : الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم ... وكيف أنه وصف المتصفين بهذه الصفات بأنهم هم المؤمنون حقاً ، فإذا ذكر الله تعالى هنا الهاجرين والأنصار بأنهم هم المؤمنون حقاً ، نعرف أن الذين تحققوا بصفات الإيمان العليا هم المهاجرين والأنصار ، وهم القدوة في ذلك ﴿ **لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ الرزق الكريم : هو الذي لا انقطاع فيه ، ولا تنغيص ، وقد يخطر ببال بعضهم أن هذه الآية تكرار للتي قبلها ، ولا تكرار ؛ لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم ، مع الوعد الكريم ، والأولى للأمر بالتواصل ، وتحقيق الولاء على أساس الإسلام ﴿ **والذين آمنوا من بعد** ﴾ أي : اللاحقون بعد السابقين إلى الهجرة ﴿ **وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ جعلهم منهم تفضيلا وترغيباً ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ أي : وأولوا القرابات أولى ببعضهم في الإرث ، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة ﴿ **في كتاب الله** ﴾ أي في حُكْمه وقَسْمه ، أو في اللوح ، أو في القرآن ، وقد فصلت آية المواريث ، ونصوصها هذه الأولوية ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ فهو الذي يقضي بين عباده بما شاء من أحكامه .

فوائد :

١ - المهاجرون والأنصار في المدينة المنورة هم الذين يمثلون سابقة المواطنين المسلمين في دار الإسلام ، فلكل منهم حقوق المسلم كاملة ، والمؤمنون الذين يعيشون في دار الحرب حيث تفترض عليهم الهجرة ، هم الذين تمثلهم السابقة التي ذكرها الله في المؤمنين الذين

لم يهاجروا ، وقد حكم الله عز وجل لمن عاش في دار الإسلام مهاجراً أو من أهلها الأصليين بأنهم هم المؤمنون الحقيقيون ، سواء كانوا سابقين أو لاحقين ، فهؤلاء عليهم فيما بينهم الولاء لبعضهم بعضاً ، والأقارب فيما بينهم لهم حقوق زائدة على حق الولاء ضمن هذا المجتمع ، كحق الإرث . أما المؤمنون الذين يعيشون في دار الحرب ، فهؤلاء ليس لهم حقوق المواطن المسلم في دار الإسلام كاملة ، فمثلا : المسلمون عدول ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ... ولكن ليس للمسلم المقيم في دار الحرب أن يجير ، كما أن الاعتداء عليه لا يعتبر كالاعتداء على المسلم المقيم ؛ لأن الاعتداء على المسلم في دار الإسلام يعتبر اعتداءً على هذه الدار كلها ، ومن ثم فعلى الدار كلها أن تحارب من أجله ، كما يعتبر الاعتداء عليه غدراً ونقضاً للمواثيق . أما الاعتداء على المسلم المقيم في دار الحرب ، فلا يعتبر غدراً أو نقضاً للمواثيق ، إلا إذا كان منصوصاً على ذلك ، ومن ثم فإننا لا ندخل معركة من أجله ، مع معاهدين بيننا وبينهم مواثيق . أما إذا لم تكن المسألة كذلك فعلينا نصره إن كان في طاقتنا ذلك . وتبقى قضية الميراث ، فهل هناك توارث بين المسلمين في دار الحرب ودار الإسلام ؟ الإجماع على أنه في أول الإسلام لم يكن توارث ، أما بعد نزول آيات المواريث فالإجماع منعقد على أن المسلمين يرثون بعضهم حيث كانوا ، وهناك مجموعة مواضيع تطرح نفسها من خلال المقطع : (دار الحرب ، ودار الإسلام) ، (الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام) ، (مسؤولية دار الإسلام عن المسلمين في كل مكان) وإذا تعارضت هذه المسؤولية مع عهود دار الإسلام فما الحكم ؟ مبدئياً نستطيع أن نقول مايلي :

نتيجة للتاريخ الطويل للمسلمين ، والتعقيدات الكثيرة التي حدثت ، والتعقيدات الكثيرة لأوضاع عالمنا المعاصر ، وانتقال من الأوطان من حال إلى حال ، وتتابع الأوضاع المختلفة على القطر الواحد ، وفقدان الخلافة الإسلامية فقد أصبحت هناك مجموعة اصطلاحات ، دار إسلام . دار حرب . دار عهد . ودار الإسلام منها دار ردّة ، ودار بغي ، ودار فسوق ، ودار بدعة ، ودار عدل . ولكل منها حكمة . والذي نقوله إن دار العدل الآن : التي تحكم بالإسلام ، ويقوم فيها نظام الإسلام ، وتتبنى أمور الإسلام ، وتبني علاقاتها الخارجية على أساس الإسلام . هذه الدار مفقودة تقريباً ، وعلى المسلمين أن يقيموها ، فإذا قامت هل تجب الهجرة إليها من بقية دار الإسلام ، كدار البدعة ، أو الردة ، أو الفسوق ...؟ الحنفية يرون وجوب ذلك . وبعض الفقهاء يفصلون وهل الهجرة إليها من دار الحرب أو العهد واجبة ؟ الحنفية يرون ذلك ، وبعض

الفقهاء يفصل . فنحن نعلم أنه في كثير من بلدان العالم تعطى حرية العبادة لكل من يقيم فيها . وهناك بلاد تلاحق الإنسان في عقيدته ، وتفتنه عنها ، فحيثما كانت الفتنة محققة للإنسان أو لأهله وذريته فقد وجبت الهجرة بالإجماع ، وحيثما تكون الحرية متوفرة ، فالشافعية يندبون إلى الإقامة .

وعلى كل حال فحيثما وُجد مسلمون مؤمنون فعليهم أن يوالي بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا يداً واحدة على من سواهم بالحق والعدل .

ولإقامة دار العدل لابد أن تقام دولة الإسلام في هذا العالم ، أي دولة الخلافة الراشدة فتقيم الإسلام حق القيام ، ومن أجل ذلك فعلى المسلمين بقلوب فتية أن يعملوا من أجل إقامة هذه الدولة ، وأن يهاجروا إليها إذا اقتضت مصلحة الإسلام والمسلمين ذلك أو كان الحكم الشرعي ذلك .

٢ - ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدّماً على القرابة ، حتى نسخ الله ذلك بآيات المواريث . فهذا النوع من الولاء بين المؤمنين منسوخ ، أما الولاء العام من نصرة وتعاون فذلك الذي بقي . روى أبو يعلى عن عبدالله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المهاجرون ، والأنصار ، والطلقاء من قريش ، والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة » ومن على قدمهم فهو معهم ومنهم إلى يوم القيامة .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا** ﴾ يروي ابن كثير مارواه الإمام أحمد عن بريدة بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش ، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيراً . وقال : « اغزوا باسم الله في سبيل الله . قاتلوا مَن كفر بالله ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خِلَال - فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكفّ عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أنّ لهم ما للمهاجرين ، وأن عليهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم ، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة

نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » وأخرجه مسلم .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ نذكر أن كل أنواع الولاء بين المؤمنين والكافرين منتفية حتى الولاء المؤدي إلى الإرث . ولذلك لا إرث بين المسلم والكافر ، فضلاً عن غير ذلك من أنواع الولاء ، وانظر هذه الأحاديث : روى الحاكم في مستدركه ... عن أسامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يتوارث أهل مِلّتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً ، ثم قرأ ﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾ ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد . وروى ابن جرير ... عن الزهري حديثاً مرسلاً . رُوي متصلاً من وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين » ثم قال : « لا يتراءى نارا هما » . وروى أبو داود .. عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » . أقول : وهذه المسألة فيها تفصيل .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ نذكّر بالحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « المرء مع من أحب » وفي الحديث الآخر : « من أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية « حشر معهم » .

٦ - لكلمة ذوي الأرحام معنيان . المعنى العام وهو القرابات ، ومعنى أخص عند علماء الفرائض - أي المواريث - ويطلقونها على الذين لا فرض لهم ، ولاهم عصبة ، بل يُدْلون بوارث ، كالخال ، والخالة ، وأولاد البنات ، وأولاد الأخوات ، ونحوهم . وقد فسر الحنفية قوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ بأن جعلوها شاملة للمعنى العام ، والمعنى الأخص ، وأبقاها كثير من المفسرين كابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد على أنها في القرابات عامة ، وأنها نسخت الإرث بالحلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً ، وبناءً على هذا الاختلاف ، فإن ترتيب الأحقية في التركة يختلف نتيجة لذلك فعند الحنفية : يرث أصحاب الفروض ، ثم العصبات ، ثم ذوو الأرحام - بالمعنى الأخص الذي ذكرناه - ثم مولى الموالاة ، ثم المقَرُّله بنسب على الغير ، ثم تنفيذ الوصايا فيما زاد على الثلث ، ثم

بيت المال .

وعند الشافعية أصحاب الفروض ، ثم العصبات ، ثم بيت المال .

كلمة في سورة الأنفال :

رأينا أن سورة الأنفال هي تفصيل للثلاث الآيات من سورة البقرة ، من الآية التي فرض فيها القتال ، إلى آخر الآيتين بعدها ، وقد فصّلت هذه السورة ، أن القتال فيه الخير للمسلمين ، كما فصّلت في القضايا الرئيسية اللازمة للقتال ، من طاعة ، وانضباط ، وثبات ، وكتمان ، وتقوى ، وفي آداب اللقاء ، والصلح وما يلزم لكل من إعداد كامل ، كما فصلت في واجبات القيادة الإسلامية ، كما فصّلت في أحكام الدار وأهلها التي تتحمل مسؤولية إقامة الإسلام ونصرة المسلمين ، وهي دار الإسلام بمواطنيها المهاجرين والسكان الأصليين ، وهي مواضيع لها صلة بفرضية القتال ، وقد فصّلت السورة في ما سوى ذلك ، ممّا مرّ معنا ، وكنا ذكرنا من قبل : أن سورة براءة إنما هي امتداد لسورة الأنفال ، وهي تشارك في تفصيل الآيات المذكورة في سورة البقرة ، وإذا كانت سورة الأنفال هي تفصيل لما رأيناه من قضايا نظرية وعملية في القتال ، فإن سورة براءة هي تفصيل للمواقف اللازمة وأمر بها ، وتحليل لما يكتنف تنفيذ هذه الأوامر وغير ذلك ، وكما قلنا من قبل إن سورة الأنفال وضعت الأسس اللازمة للقتال ، وتأتي بعد ذلك سورة (براءة) وهي بمثابة منشور القتال فلننتقل إلى سورة التوبة .





سورة التوبة

وهـي السـورة التاسعة بحسب الرسم القرآني
وهي مع سورة الأنفال تعتبران السورة
السابعة من قسم الطوال
وآياتها مائة وتسع وعشرون
وهي مدنية

(وسورة التوبة خاتمة قسم الطوال)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة التوبة :

قال النسفي عن هذه السورة : (لها أسماء : براءة ، التوبة ، المقشقشة ، المبعثرة ، المشرّدة ، المخزية ، الفاضحة ، المثيرة ، الحافرة ، المنكّلة ، المدمدمة ، لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تقشقش من النفاق أي : تبرىء منه ، وتبعثر عن أسرار المنافقين ، وتبحث عنها ، وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم ، وتنكلهم ، وتشردهم ، وتخزيهم وتدمدم عليهم ، وفي ترك التسمية في ابتدائها أقوال : فعن علي ، وابن عباس رضي الله عنهم ، أن بسم الله أمان ، وبراءة نزلت لرفع الأمان . وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا . وتوفي رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أين نضعها ، وكانت قصتها تشبه قصة الأنفال ، لأن فيها ذكر العهود ، وفي براءة نبذ العهود ، فلذلك قرنت بينهما ، وكانتا تدعيان القرينتين ، وتعدان السابعة من الطُّوَل وهي سبع . وقيل اختلف أصحاب رسول الله ﷺ فقال بعضهم : الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت في القتال . وقال بعضهم : هما سورتان وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة) .

وقال ابن كثير في مقدمة الكلام عنها :

(هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما روى البخاري ... عن البراء يقول : آخر آية نزلت ﴿ **يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة** ﴾ وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام ، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه كما روى الترمذي .. عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهي من المثاني ، وإلى براءة ، وهي من المئين ، وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموهما في السبع الطُّوَل ، ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان (أي الطويل) وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوّل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطُّوَل .

وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وقال : صحيح الإسناد . وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من تبوك وهمَّ بالحج . ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويُعْلِم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ **فلما قفل أتبعه بعليّ** ابن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه) .

من كلام النسفي وابن كثير نرى : أن براءة من السبع الطُّوَل ، ولا تكون من السبع الطُّوَل إلا إذا كانت هي والأنفال بمنزلة سورة واحدة ، لأن الأنفال وحدها ليست من الطُّوَل ، ففيما بعدها من سوى سورة التوبة ما هو أطول منها ، وإذن فالأنفال وبراءة بمنزلة سورة واحدة ، يشهد لذلك إجماع الصحابة على حذف البسملة بينهما في الكتابة في المصحف الإمام .

وكلا السورتين تفصيل لما ذكرناه من آيات البقرة الثلاث اللواتي ذكرناهن كثيراً ، وباستكمال فهم سورة براءة مع سورة الأنفال نكون قد فهمنا تفصيل ماله علاقة بآيات القتال الثلاث في سورة البقرة .

فمن أراد أن يحقق فرضية القتال علماً وعملاً فعليه أن يفهم سورتي الأنفال والتوبة ، وعليه أن يلتزم بما فيهما ، ويعمل بما فيهما ، ويتحقق بما فيهما ، ويسعى مع المسلمين لتنفيذ ما أمر الله به فيهما .

تتألف السورة من ثلاثة أقسام .

القسم الأول منها : ويمتدّ من الآية الأولى حتى نهاية الآية (٣٧) .

القسم الثاني منها : ويمتد من الآية (٣٨) حتى نهاية الآية (١٢٢) .

القسم الثالث : ويمتد حتى نهاية السورة أي نهاية الآية (١٢٩) .

وسنعرض القسم الأول بمقاطعه كلها دفعة واحدة ، وهو القسم الذي فيه الأمر بالبراءة من المشركين ، وتحريم إعطاء الولاء للكافرين ، والأمر بقتال المشركين جميعاً ، والأمر بقتال أهل الكتاب ، إنه القسم الذي يذكر المقدمات الكبرى التي ترتكز عليها انطلاقة الجهاد ، ولذلك فهو يأتي بين يدي القسم الذي يطالب بالنفير العام ، الذي يأتي بين يدي الأمر بقتال الأقرب فالأقرب .

القسم الأول

ويمتد من الآية (١) إلى نهاية الآية (٣٧) وهذا هو :

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ
مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن
تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ
أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ
إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا

ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟
ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ
وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ
يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ
لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُو۟لَٰٓئِكَ
حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ

خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

بين يدي هذا القسم :

يأتي هذا القسم بين يدي القسم الثاني الذي يطالب بالنفير العام للقتال في سبيل الله ، ولذلك فهو يقدّم المبررات لهذا النفير . كما يضع المرتكزات التي على أساسها يكون الانطلاق ، فأهل الكتاب انحرفوا وعلماؤهم فسدوا ، والمشركون نجس وهم لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة ، والولاء منعدم بين المسلم والكافر ، إلى غير ذلك .

المعنى العام :

تبدأ السورة بإعلان براءة الله ورسوله من كلّ من له عهد مطلق من المشركين ، (والمراد بهم مشركو جزيرة العرب) وكل من له عهد دون أربعة أشهر ، فهؤلاء وهؤلاء يعطون فرصة أربعة أشهر من تاريخ الإعلان ، ثم لا عهد بعد ذلك ، وأما من له عهد مؤقت فعهده إلى تأقيته ، ما لم يغدر ، أو يحس منه الغدر ، ومع هذا الإعلان تهديد لهم بانتقام الله منهم ، وتهديد لهم بأن الله سيذلهم .

ثم تثني السورة بالأمر بالإعلان في أعظم موسم من مواسم العالم - موسم الحج - وفي أعظم يوم من أيامه - يوم النحر - عن براءة الله ورسوله من كل مشرك ، ثم يندب الله المشركين إلى التوبة والإيمان ، ويعدهم على ذلك خيري الدنيا والآخرة ، ويهددهم إن أصروا على شركهم وكفرهم .

وبهذا استقرت براءة الله ورسوله من المشركين ،وبراءة من عهودهم المطلقة ، وأعطوا لذلك مهلة أربعة أشهر ، أما من له عهد مؤقت فقد ذكر الله بعد ذلك أنه

مستثنى من هذا الإطلاق ، وأن له أجله إلى مدته المضروبة له ، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهدَه ، ولم يظاهر على المسلمين أحداً ، أي بشرط ألا يمالىء عليهم مَن سواهم ، فهذا الذي يوفىٰ له بذمته وعهده إلى مدته ، وقد حرّض الله تعالى في هذا المقام على الوفاء لهؤلاء بعهودهم .

ثم بيّن تعالى أنه إذا انقضت هذه الأشهر الأربعة التي أعطاها فرصة للمشركين فحيثما وُجد المشركون ، فعلينا أن نقتلهم ، ثم أمرنا أن نقصدهم بالحصار في معاقلهم ، وحصونهم ، وأن نترصدهم في طرقهم ومسالكهم ؛ حتى نضيّق عليهم الواسع ، ونضطرهم إلى القتل أو الإسلام ، بإعلان التوبة ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ثمّ بيّن تعالى : أنه لو أن أحداً من هؤلاء المشركين الذين أمرنا بقتلهم ، وأحل لنا استباحة نفوسهم وأموالهم ، طَلَبَ الأمان ، فإن علينا أن نجيبه إلى طُلْبته حتى يسمع القرآن ، ويعلم الإسلام ؛ لتقوم عليه حجة الله ، ثم بعد ذلك نبلغه مأمنه ، وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ، وإنما شرع الله أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده .

ثمّ بيّن تعالى حكمته في البراءة من المشركين ، ونَظِرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك القتل أين ما وُجدوا ، بأنّه لا يصح أن يكون لهؤلاء أمان ، فيتركوا فيما هم فيه وهم مشركون بالله ، كافرون به وبرسوله ، واستثنى الله عز وجل من هؤلاء المشركين الذين عاهدونا وعاقدونا عند المسجد الحرام ، فهؤلاء مهما تمسكوا بما عاقدونا عليه وعاهدونا فإن علينا أن نفي لهم .

ثمّ بيّن الله حكمة أخرى من حكم فريضة قتل المشركين وقتالهم ، بعد أن ذكر أنهم لا يستحقون الأمن والأمان ؛ لشركهم وكفرهم برسول الله ﷺ ، هذه الحكمة هي أن هؤلاء المشركين لو أنهم ظهروا على المسلمين ، وأديلوا عليهم ، لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم قرابة ولا عهداً ، بل منتهى ما يقدمونه الكلمة المنافقة ، بينما قلوبهم ممتلئة حقداً ، وأعمالهم شرّيرة .

ثم حث الله المسلمين على قتل المشركين بسبب أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ، ومنعوا المؤمنين من اتباع الحق بإيذائهم لهم ، أمر الله بقتل هؤلاء لإرهاب غيرهم ، لقد اجتمع لهم من العمل السيء ما يوجب قتلهم وقتالهم ، فكيف نتردد في قتالهم ؟؟ ثم أكدّ الله استحقاقهم للقتل والقتال بسبب أنهم لا يخافون

الله ؛فلا يبالون أن يؤذوا المؤمنين ، غير ملتفتين إلى عهد أو قرابة ، أفيتردد المؤمن في قتلهم وقتالهم وهم على هذه الصفة من الاعتداء ؟؟ إنّ هؤلاء ليس أمامهم إلا طريقان : إما التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، أو القتل ، فإن أئمة الكفر لا ينتهون عن ما هم فيه إلا بقتل وقتال ، ثم هيّج الله المؤمنين ، وحضّهم ، وأغراهم على قتال المشركين بتذكيرهم بما فعلوه برسول الله ﷺ ، وبما بدأوا المؤمنين فيه من إيذاء وقتال ، أفهؤلاء في حقارتهم وحقدهم وكفرهم يستأهلون أن يخشى منهم ؟ والمؤمن لا يخشى إلاّ الله ، ثم أمر الله عز وجل بقتالهم أمراً جازماً ، ووعد المؤمنين إن قاتلوهم أن يعذبهم بأيديهم ، وأن يذلهم وأن ينصر المؤمنين عليهم ، فتشفى بذلك صدورهم ، ويذهب غيظها ، وعلينا أن نعلم أن الله عز وجل لم يشرع شيئاً إلا على مقتضى العلم والحكمة .

وبهذا استقر القسم على ضرورة القتال للمشركين ، وضرورة قتلهم ، مع بيان حكمة ذلك وحكمه .

والكلام كله في مشركي العرب ، فهؤلاء لابد من قتلهم واستئصالهم ، إنّه ليس أمامهم إلا السيف أو الإسلام ، ومن كان له عهد مؤقت يوفى له بمدته ، ثم يكون حكمه كالآخرين ، وقد وعد الله عباده أن ينصرهم ، وقد فعل المسلمون ما أمروا به ، وقد وفى الله لهم بوعده وعهده ، فأذلّ الشرك وأهله ، ونصر الإيمان وحزبه ، ولا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله . وكثيرون من الناس يتصورون أنّ الله لا يكلف إلا بما هو مريح لعباده ، وكثيرون من الناس ليس عندهم عزم على الجهاد ، ولذلك أنكر الله في هذا السياق على من يتصّور أن الله يتركنا مهملين ، فلا يختبرنا بأمر يظهر فيه أهل العزم الصادق من الكاذب ، وأهل الإيمان الصادق من الكاذب ، بالجهاد وترك اتخاذ بطانة دخيلة من غير المؤمنين ، فالحاصل أنه تعالى لما شرع الجهاد والقتال ، وأمر بقتل المشركين ، بيّن أنّ له في ذلك حكمة : وهي اختبار عبيده ، من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وبعد بيان حكم الله في المشركين وأنه القتل ، وبعد الإنكار على من يتصور عدم تكليف الله عباده بالجهاد ، وإخلاص الولاء لله والرسول والمؤمنين في الظاهر والباطن ، بيّن تعالى أن هؤلاء المشركين ما كان لهم أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، وهم على حالهم من الشرك لم يتوبوا منه ، فهؤلاء أعمالهم غير مقبولة ، والنار لهم قرار دائم ، ثم بيّن صفات المستحقين أن يعمروا مساجد الله بالعبادة

والذكر ، وهم الذين اجتمعت لهم معاني الإيمان ، والصلاة ، والزكاة ، ولم يخشوا إلا الله ، فهؤلاء هم المهتدون الجديرون بمساجد الله ، وليحطم الله عز وجل كل مظهر من مظاهر الشرك ، وليحطم دعاوى المشركين في زعمهم أنهم على خير بسبب بعض صور الخير التي يفعلونها ، وحتى لا يتوهم المسلمون ويخدعون ببعض صور الأعمال ، بيّن تعالى أنه لا يستوي أهل الإيمان والجهاد بأهل سقاية الحج ، وسكن المسجد الحرام ، مع الشرك ، ثم بيّن أن المؤمنين المجاهدين هم الفائزون وهم المبشرون بالجنة والرضوان .

وبهذه المعاني ينتهي المقطع الأول من هذا القسم وقد استقر فيه وجوب البراءة من المشركين ، ووجوب قتلهم وقتالهم أينما كانوا وحيثما كانوا ، وكيف ظهروا ومهما كانت أعمالهم .

ثم يأتي المقطع الثاني في هذا القسم وفيه يأمر الله تعالى بمباينة الكفار ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، كما نهى عن موالاتهم ماداموا قد اختاروا الكفر على الإيمان . ثم توعّد جل جلاله من آثر أهله وقرابته وعشيرته ، أو آثر الأزواج والأولاد والأموال والتجارة والمسكن على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله أن ينتظر ما يحل به من العقاب والنكال .

فلا ولاء إلا لله ولرسوله وللمؤمنين . ولا شيء مقدم على حب الله والرسول وحب الجهاد .

وفي هذا السياق يحذّر جل جلاله من العُجْب والاغترار بالكثرة من خلال ما حدث يوم حنين ، كما يأمر بالتوكل من خلال هذه القصة .

وهكذا يتقرر في هذا المقطع مجموعة أمور كلها مهم في موضوع القتال .

ثم يأتي المقطع الثالث : فيقرّر أنّ المشركين نجس ، وأن على المؤمنين أن ينفوا المشركين عن المسجد الحرام ، وأن يمنعوهم من قربانه ، وحتى لا يخشى المسلمون من انقطاع مورد من موارد الرزق عنهم بسبب منع المشركين من الحج إلى المسجد الحرام ، فقد وعدهم الله أن يغنيهم من فضله ، وبهذا تكون قد اتضحت أحكام الشرك والمشركين في وجوب قتالهم ومنعهم من الحج ، ليأتي الأمر بقتال أهل الكتاب الذين لهم أحكام خاصة ، فالمشركون العرب ليس أمامهم إلا الإسلام أو الاستئصال ، فأما أهل الكتاب فالأمر في حقهم أوسع ، فإما القتل ، وإما الإسلام ، وإما الجزية ، وقد ذكر الله

في هذا السياق مجموعة الأمور التي يستحقون بها القتل والجزية ، من كفرهم ونسبتهم إلى الله ما لا يليق به ، وحرص على إطفاء نور الله ، وفساد عند علمائهم .

ثم هدد الله الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، والصلة ما بين القتال والإنفاق واضحة .

ثم قرّر الله موضوع السَنة القمرية ، والأشهر الحُرم فيها ، وتلاعب المشركين في الأشهر الحُرم ، مما يدل على أنهم كاذبون في احترامها في الوقت الذي يثيرون فيه النكير على المسلمين يوم قتلوا في الأشهر الحرم . فإذا ما تذكرنا أن سورتي الأنفال وبراءة تفصلان الآيات الثلاث من سورة البقرة كما رأينا ، عرفنا الصلة بين ذكر الأشهر الحُرم هنا والأشهر الحُرم هناك .

وينتهي القسم الأول عندهذا الحدّ بعد أن بين الله فيه وجوب قتال المشركين وأهل الكتاب ،وأمر بكل مايلزم لتحقيق هذا المعنى .

كلمة في السياق :

بدأ هذا القسم بالكلام عن قتال المشركين ، وانتهى بالكلام عن قتال المشركين ، وفي الوسط تكلّم عن قتال أهل الكتاب ، وذكر في سياق ذلك مبررات قتال المشركين وأهل الكتاب ، وحرّر في هذا السياق المسلمَ من كل ما يحول بينه وبين القتال ، وصلة ذلك كله بمحور سورة براءة من سورة البقرة واضحة : ففي المحور قال جل جلاله : ﴿ **كُتب عليكم القتال** ﴾ وههنا تفصيل في موضوع القتال : من نقاتل ؟ ولماذا نقاتل ؟

وفي المحور ورد قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ وههنا يرد كلام عن الأشهر الحُرم ، وتلاعب المشركين بها ، كما يرد أحقية المسلمين بالمسجد الحرام ، كما يرد كيف أن المشركين لايرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمّة ، إلى غير ذلك مما له ارتباط بالمحور ، وفي المحور ورد قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾ وههنا يرد قوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون** ﴾ فهذه كلها مظاهر لتفصيل سورة براءة لآيات المحور ، إن

التفصيل الأول لآيات المحور جاء في سورة الأنفال ، وجاءت سورة براءة بمثابة منشور قتال ولكنه كذلك يفصّل في المحور الذي فصّلت في سورة الأنفال .

فائدة :

تحدّث القسم الأول في هذه السورة عن قتال المشركين ، وقتال أهل الكتاب ، ورأينا أن أهل الكتاب مخيّرون بين ثلاثة أشياء : الإسلام ، أو القتال ، أو الجزية ، وأما المشركون فلا خيار أمامهم ، إما القتل ، أو الإسلام ، وهذا في مشركي العرب ، لا خلاف عليه - تقريباً - وأما مشركو غير العرب فما حكمهم ؟ هل يعاملون معاملة أهل الكتاب ؟ أو يعاملون معاملة مشركي العرب ؟

لقد أجمع الصحابة على أن يأخذوا الجزية من المجوس ، وهذا يفيد أنهم عاملوا المجوس معاملة أهل الكتاب ، ولذلك فقد جرى العمل خلال التاريخ على أن يعامل غير مشركي العرب معاملة أهل الكتاب ، على خلاف بين الفقهاء في ذلك . وإذن فإنّ القسم الذي مرّ معنا ، أمرَنا أن نقاتل كل الناس ، مع ملاحظة أن الناس نوعان : نوع تقبل منه الجزية ونوع لا تقبل منه ، وعلى هذا فإن هذا القسم فصّل في موضوع فرضية القتال ، وحدّد الجهات التي يفترض علينا أن نقاتلها ، وحدّد ما نقبله من كلّ جهة وما لا نقبله .

ولعلّ من نافلة القولة أن نقول : إنّ أكثر المسلمين عن مثل هذا غافلون ، بل يستغربون إذا فاتحهم أحد بمثل ذلك ، بل يستنكر الكثيرون منهم أن يطالبهم أحد بالسير في الطريق العملي لإقامة هذه الأحكام ، على أن العلم بالإسلام - بفضل الله - بدأ ينتشر ، والملتزمون بكل مايطلبه منهم الإسلام بدأوا يكثرون ، وإنّ هذه الأمة لإلى خير بإذن الله .

المعنى الحرفي للمقطع الأول :

﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ أي هذه براءة واصلة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين والمعنى : أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين ، وأنه منبوذ إليهم . والمشركون إما أن يكونوا معاهدين أو لا ، والمعاهدون إما أن يكون عهدهم إلى مدة محددة ، أو لا ، والذين عهدهم إلى مدة محددة إما أن تكون هذه المدة أقل من أربعة أشهر ، أو أكثر ، والتي هي أكثر إما أن يكون أصحابها وافين بالتزاماتهم غير مبيتين نية غدر أو لا . فمن بيّت نيّة غدر ، فقد مرّ

معنا في سورة الأنفال حكمه ، ومن وفّى بالتزاماته ولا يُخشى منه غدر ، وعهده إلى أجل محدد زائد على أربعة أشهر ، فهذا سيأتي حكمه ، وواجب في حقّنا له الوفاء ، ومن كان عهده مطلقاً ، أو كان عهده دون أربعة أشهر ، فهؤلاء أعطوا فرصة أربعة أشهر - كما سنرى - ، ثم لا عهد بيننا وبينهم ، وإنما هو القتال . ثم المعاهدين إلى أجَل متى انتهى الأجل فليس بيننا وبينهم إلا القتال ، وأما المشركون غير المعاهدون فلا سَلام بيننا وبينهم ، مادمنا قادرين على قتالهم بل هو القتال حتى يحكم الله بيننا . وهل هذا خاص بمشركي العرب ؟ الإجماع منعقد على أن المشرك العربي - أي غير اليهودي أو النصراني أو المجوسي - لا تقبل منه الجزية ، فإما القتل وإما الإسلام . أما اليهودي أو النصراني أو المجوسي من العرب فتقبل منه الجزية ، أو الإسلام ، وإلا القتال . أما غير العرب فإن كانوا يهوداً أو نصارى أو مجوسا فكذلك . أما غير هؤلاء فقد اختلف العلماء هل تقبل منهم الجزية أو هو الإسلام أو القتل ؟ قولان والذي عليه العمل خلال العصور قبول الجزية من كل الناس ما سوى العرب المشركين ، والجزية هي رمز الخضوع لسلطان المسلمين بالإسلام ﴿ **فسيحوا في الأرض أربعة أشهر** ﴾ السيح : هو السير على مهل ، والمعنى : فسيروا في الأرض كيف شئتم أربعة أشهر ، أمروا أن يسيحوا في الأرض أربعة أشهر آمنين لا يتعرض لهم . وهل هذه الأربعة أشهر من تاريخ الإعلام بهذا الأمر - وهو يوم النحر في عام نزول هذه السورة - أو المراد بذلك الأربعة الأشهر الحُرم ، والتي لم يبق منها يوم الإعلام إلا خمسون ليلة ؟ قولان . رجّح ابن كثير أنها من تاريخ الإعلام ، وقال راداً القول الثاني : وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها ، وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر ، حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ، وإذن فقد أعطي المشركون فرصة أربعة أشهر على التفصيل الذي ذكرناه ، ثم إما الاستئصال أو الإسلام ﴿ **واعلموا** ﴾ أي أيها المشركون ﴿ **أنكم غير معجزي الله** ﴾ أي لا تفوتونه وإنْ أمهلكم ﴿ **وأن الله مخزي الكافرين** ﴾ أي مذلهم في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ **وأذان** ﴾ أي وإعلام ﴿ **من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر** ﴾ أي يوم عرفة ، لأن الوقوف بعرفة معظم أفعال الحج أو يوم النحر ، لأنّ فيه تمام الحج من الطواف والنّحر والحلق والرمي ، ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿ **أن الله بريء من المشركين ورسوله** ﴾ أي ورسوله بريء منهم ، في الآية الأولى من السورة : إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت ، وإنما علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين ، وعلق الأذان بالناس ؛ لأن البراءة مختصة

بالمعاهدين على التفصيل الذي ذكرناه ، وأما الأذان فعام لجميع الناس ، من عاهد ، ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ، ومن لم ينكث ﴿ **فإن تبتم** ﴾ أيها المشركون مما أنتم فيه من الكفر وعمله ﴿ **فهو** ﴾ أي التوبة ﴿ **خير لكم** ﴾ أي من الإصرار على الكفر في الدنيا وفي الآخرة ﴿ **وإن توليتم** ﴾ أي عن التوبة أي : إن أعرضتم عنها بأن ثبتُّم على الشرك والإعراض عن الإسلام ﴿ **فاعلموا أنكم غير معجزي الله** ﴾ أي غير سابقين الله ،ولا فائتين أخذه وعقابه ﴿ **وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ جزاءً على كفرهم ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً** ﴾ أي ثم لم ينكثوا ، ولم ينقصوكم من شروط العهد بمعنى : أنهم وفوا بالعهد ولم ينقضوه ﴿ **ولم يظاهروا عليكم أحداً** ﴾ أي ولم يعاونوا عليكم عدواً ﴿ **فأتمُّوا إليهم عهدهم** ﴾ أي فأدُّوه إليهم تاماً كاملاً ﴿ **إلى مدتهم** ﴾ أي إلى تمام مدّتهم ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ الذين يفون بعهودهم ، هذه الآية استثناء من الأمر بالسيح أربعة أشهر . ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ هل المراد بالأشهر الحرم هنا الأشهر الحرم بالمعنى المشهور أي شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، أو المراد بها هنا الأشهر الأربعة التي أعطيها المشركون كمهلة ؟ قولان . والذي رجّحه ابن كثير أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة التي أمهلوا فيها ﴿ **فاقتلوا المشركين** ﴾ ممّن لا عهد محدّداً بينكم وبينهم ﴿ **حيث وجدتموهم** ﴾ أي في حلٍّ أو في حرم ﴿ **وخذوهم** ﴾ أي وأسروهم ﴿ **واحصروهم** ﴾ أي واسجنوهم وقيّدوهم وامنعوهم من التصرف في البلاد ﴿ **واقعدوا لهم كل مرصد** ﴾ أي كلّ ممرّ ومجتاز ترصدونهم به ﴿ **فإن تابوا** ﴾ أي عن الشرك ﴿ **وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ اللتان هما علامتا الإسلام ﴿ **فخلّوا سبيلهم** ﴾ أي فأطلقوا عنهم قيد الأسر والحصر ، أو فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ غفور يستر ما حدث قبل الإسلام من كفر وغدر ، رحيم برفع القتل بعد الإسلام ، ومجيء ذكر اسم الله الرحيم في هذا المقام إشعار بأن الله ذا الرحمة هو الذي يأمر بمعاملة المشركين هذه المعاملة ، فإياكم أن تظنّوا أنّ الرحمة تتنافى مع هذه الأحكام ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** ﴾ أي وإن جاءك أحد من المشركين بعد الأشهر الأربعة ، ولا عهد بينك وبينه ، واستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن ، **فأمّنه** حتى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ **ثم أبلغه** ﴾ أي بعد ذلك ﴿ **مأمنه** ﴾ أي داره التي يأمن فيها إن لم يسلم ، ثم قاتله إن شئت ، وفيه دليل على أن المستأمن لا يؤذى ، وليس له الإقامة في دارنا ، ويمكّن من العود ﴿ **ذلك** ﴾ أي الأمر بالإجارة

﴿ **بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ أي بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه ، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا أو يفهموا الحق . وبعد إعلان البراءة وإيجاب القتل والقتال بيّن الله عز وجل الحكمة في ذلك وذلك ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام** ﴾ يستنكر الله عز وجل أن يثبت لهؤلاء المشركين عهد وفي هذا الاستنكار نهي عن تحديث النفس أصلاً في إعطائهم الأمن بل هو القتل ، ولكن استثنى من ذلك مَنْ عوهدوا عند المسجد الحرام ، فهؤلاء قال الله فيهم ﴿ **فما استقاموا لكم** ﴾ أي فما أقاموا على وفاء العهد ولم يظهر نكث ﴿ **فاستقيموا لهم** ﴾ أي على الوفاء ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ الذين لا يغدرون ﴿ **كيف** ﴾ أي كيف يكون للمشركين عهد ينالون به أماناً ﴿ **وإن يظهروا عليكم** ﴾ وحالهم إن يظفروا بكم ﴿ **لا يرقبوا فيكم إلاً** ﴾ أي حِلْفَاً أو قرابة ﴿ **ولا ذمة** ﴾ أي ولا عهداً ﴿ **يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم** ﴾ يتظاهرون بما لا يبطنون ، وبواطنهم مملوءة حقداً وغيظاً ﴿ **وأكثرهم فاسقون** ﴾ ناقضون للعهد ، أو متمردون في الكفر ، لا مروءة تمنعهم عن الكذب ، ولا شمائل تردعهم عن النكث ، ولم يقل كلهم لوجود القليل الذي يتحامى عن بعض ما لا يستقيم في العقول ﴿ **اشتروا بآيات الله** ﴾ أي استبدلوا بالقرآن ﴿ **ثمناً قليلاً** ﴾ أي عَرَضاً يسيراً وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿ **فصدوا عن سبيله** ﴾ عملاً وحالاً ، وعدلوا عنه وصرفوا غيرهم ﴿ **إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أي بئس الصنيع صنيعهم ﴿ **لا يرقبون في مؤمن** ﴾ أيّ مؤمن ، خصص في المرة الأولى أصحاب الرسول ﷺ ثم عمّم كل مؤمن ﴿ **إلاً ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون** ﴾ أي المجاوزون الغاية في الظلم والشر ، فمن كان هذا شأنهم كيف يستحقون أمناً ؟ وكيف نكف أيدينا عنهم فلا نقتلهم شر قتلة ؟ ﴿ **فإن تابوا** ﴾ عن الكفر ﴿ **وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين لا في النسب إذا اجتمع لهم الإسلام علماً وعملاً ﴿ **ونفصّل الآيات** ﴾ أي ونبيّنها ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أي يفهمون فيتفكرون فيها ، وفي النّص تحريض على تأمّل ما فصّل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها ، إذ النّص أفْهمَ أنّ مَنْ تأمل تفصيل هذه الآيات فهو العالم ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم** ﴾ أي وإن نكث المشركون المعاهدون إلى مدة محددة ﴿ **من بعد عهدهم** ﴾ أي من بعد عهودهم ومواثيقهم ﴿ **وطعنوا في دينكم** ﴾ أي عابوه وانتقصوه ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ أي زعماءه ورؤساء أهله ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ أثبت لهم الأيْمان في أول الآية ، ونفاها عنهم هنا ، مريداً في

ابتداء الآية أيْمانهم التي أظهروها ، وههنا أيْمانهم على الحقيقة ، فإنها لا تساوي شيئا ﴿ **لعلهم ينتهون** ﴾ فليس هناك من طريق لانْتِهَائهم عن الفساد إلا القتال ، ألا فليعقل المسلمون ذلك ، ثم حرّض على القتال فقال ﴿ **ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيْمانهم** ﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿ **وهمّوا بإخراج الرسول** ﴾ من مكة ، يذكرهم بفعلهم برسولهم وبهم فكيف يترددون في القتل والقتال ﴿ **وهم بدءوكم أول مرة** ﴾ والبادىء أظلم ، فما يمنعكم من قتالهم وفي الآية توبيخ على ترك القتال ، وحضّ عليه ، وتذكير بما يوجب القتال ، من نكث العهد ، وإخراج الرسول ، والبدء بالقتال من غير موجب ﴿ **أتخشونهم** ﴾ هذا توبيخ على الخشية منهم ﴿ **فالله أحق أن تخشوه** ﴾ أي فالله أحق أن تخشوه فقاتلوا أعداءه ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أي إن قضية الإيمان الكامل ألا يخشى المؤمن إلا ربّه ، ولا يبالي بمن سواه ، ولمّا وبخهم الله على ترك القتال جدّد لهم الأمر به ﴿ **قاتلوهم** ﴾ ووعدهم النصر ليثبّت قلوبهم ويصحح نياتهم ﴿ **يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ بالقتل ﴿ **ويخزهم** ﴾ بالأسر ﴿ **وينصركم عليهم** ﴾ أي ويغلبكم عليهم ﴿ **ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾ ممّا أصابهم من أذيّتهم ﴿ **ويذهب غيظ قلوبهم** ﴾ لما لقوا منهم من المكروه ، وقد حصلت هذه المواعيد كلها فكانت معجزة خاصة زائدة على ما في القرآن كله من إعجاز عام ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ هذا إخبار بأن بعضاً من المشركين يتوب ويدخل في الإسلام ﴿ **والله عليم** ﴾ يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان ﴿ **حكيم** ﴾ في قبول التوبة .

وبعد أن فرض القتال ، وأعلن البراءة ، وبيّن حكمة القتال وضرورته ، بدأ السياق يصحح التصورات ﴿ **أم حسبتم** ﴾ هذا توبيخ على وجود مثل هذا التصور ﴿ **أن تُترَكوا** ﴾ أي أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا جاء بعده ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾ أي : بطانة ودخيلة ، ففي الآية أمر بالجهاد ، ونهي عن اتخاذ الذين يضادّون رسول الله ﷺ والمؤمنين بطانة ودخيلة ، وخلّاناً وأصفياء والمعنى : أظننتم هذا الحسب الخاطىء أن تُتركوا ولا مجاهدة ولا براءة من المشركين . والمعنى : لا تتركون على ما أنتم عليه حتى يتبين المخلصون منكم ، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله ، ولم يتخذوا بطانة من دون المؤمنين ودلّ قوله تعالى ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا ..** ﴾ على أن الذين لم يخلصوا دينهم لله سيميّز الله بينهم وبين المخلصين ويُعرفون ﴿ **والله خبير بما تعملون** ﴾ أي من خير أو شر فيجازيكم

عليه . فالآية أكّدت أنّه لابد من جهاد ولا بد من مفاصلة لأهل الكفر والشرك والنفاق .

وبعد أن استقر هذا كله يقرر الله حكماً جديداً وهو وجوب منع المشركين من الحج فيقول : ﴿ **ما كان** ﴾ أي ما صح لهم وما استقام ﴿ **للمشركين أن يعمروا مساجد الله** ﴾ وخاصة إمام المساجد : المسجد الحرام ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ باعترافهم أنهم غير مسلمين والمعنى : ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله ، مع الكفر بالله وبعبادته ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ فلا يؤجرون عليها ﴿ **وفي النار هم خالدون** ﴾ أي دائمون ، ثم بيّن الله المستحقين لأن يعمروا مساجد الله ﴿ **إنما يعمر مساجد الله** ﴾ العمارة المعنوية : بالعبادة والذكر والعلم ، والعمارة الحسية من رمّ ما تهدّم منها وتنظيفها ، وتنويرها ، وصيانتها وبنائها أصلاً ، وكل ذلك داخل في الآية ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة** ﴾ فاجتمع له الإيمان والعمل بالأركان ﴿ **ولم يخشَ إلا الله** ﴾ من صنم أو إله مزعوم أو بشر أو غير ذلك ، والمراد الخشية في أبواب الدين ، بألا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف ؛ إذ المؤمن قد يخشى المحاذير خشية طبع ، ولا يتمالك ألا يخشاها ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ المعنى : إن أولئك هم المهتدون ، قال ابن كثير : كل عسى في القرآن فهي واجبة ، ولكن ذكرها هنا يفيد تبعيد الهداية للمشركين ، وحسم لأطماعهم في الانتفاع بأعمالهم ؛ لأن إذا كان من ذكروا عسى أن يكونوا من المهتدين فكيف يكون حال المشركين .

وكما صحح السياق بعد فرضية قتال المشركين مفهوماً خاطئاً ، فههنا كذلك بعد تحريم الحج على المشركين يصحح مفهوماً ﴿ **أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام** ﴾ مع الشرك وهي من مكارم قريش في الجاهلية ﴿ **كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله** ﴾ أي أجعلتم أهل سقاية الحج ، وعمارة المسجد الحرام أي سكناه ، كالمؤمنين بالله المجاهدين في سبيله ، وفي ذلك إنكار أن يشبّه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، وأن يسوّى بينهم ، وقد جعل الله جل جلاله تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر ، لأنهم وضعوا المدح والفخر في غير موضعيهما لذلك قال ﴿ **لايستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ ثم أكّد عدم الاستواء فقال ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة**

عند الله ﴾ من أهل السقاية والعمارة ﴿ **وأولئك** ﴾ أي المؤمنون المجاهدون ﴿ **هم الفائزون** ﴾ لا أهل السقاية والسكنى مع الشرك والكفر ﴿ **يبشرهم ربهم** ﴾ أي لهؤلاء المؤمنين المجاهدين ﴿ **برحمة منه ورضوان وجنات** ﴾ فما أعظم ما اجتمع لهم ﴿ **لهم فيها** ﴾ أي في الجنات ﴿ **نعيم مقيم** ﴾ أي دائم ﴿ **خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ ومن عظمته أنه لا ينقطع ، وبهذا يكون المقطع الأول من هذا القسم قد انتهى بعد أن تحدّد الموقف النهائي من المشركين .

فوائد :

١ - نلاحظ أن في القرآن تسجيلاً إلى حدّ ما ، للسيرة النبوية ، وللبيئة العربية ، **عصر** نزول القرآن ، ولكنّ هذا يأتي في سياق تحقق الأهداف الخالدة ، وبما يسع العصور أن تأخذ توجيهات منه ، فمثلاً مجموعة الآيات التي مرت معنا ، هي في ظاهرها مرتبطة بمرحلة زمنية معيّنة هي حالة الشرك التي كانت في زمن رسول الله ﷺ ، والتي صُفّيت تصفية تامة في زمن أبي بكر رضي الله عنه ، ولكنا سنرى في ما يأتي من الفوائد كيف أن النص القرآني لكل العصور .

٢ - يلخص هذه المجموعة من الآيات التي مرت معنا ما رواه الترمذي عن علي رضي الله عنه بسند حسن صحيح ورواه الإمام أحمد عن زيد بن يثيغ (رجل من همدان) : سألنا علياً بأي شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة قال : بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا . وقال أبو معشر المدني حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع ، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية - أو أربعين آية - من براءة ، فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر ، وقرأها عليهم في منازلهم وقال : لا يحجنَّ بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

٣ - وأما كيفية عملية الإعلام التي أمر الله بها رسوله بقوله ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر** ﴾ فتفسرها هذه النصوص :

روى الإمام أحمد .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنت مع علي بن أبي طالب

حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإنّ أجله ومدته إلى أربعة أشهر ، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسولُه ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال : فكنت أنادي حتى صحل صوتي .

روى محمد بن إسحاق .. عن أبي جعفر محمد بن الحسين قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس ، فقيل : يارسول الله لو بعثت إلى أبي بكر . فقال « لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي » . ثم دعا علياً فقال : « اذهب بهذه القصة من سورة براءة ، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنىً : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته » فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذّن بالناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال : يأيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، فلم يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته . ولا يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ ، فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام ، وأهل المدة إلى الأجل المسمّى .

روى ابن جرير .. عن أبي الصهباء البكري قال : سألت علياً عن الحج الأكبر فقال : إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج ، وبعثني معه بأربعين آية من براءة ، حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إليّ فقال : قم يا علي فأدّ رسالة رسول الله ﷺ فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ، ثم صدرنا فأتينا منى ، فرميت الجمرة ونحرت البدنة ، ثم حلقت رأسي ، وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبي بكر يوم عرفة ، فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم ، فمن ثَمَّ إخال حسبتم أنهّ يوم النحر ، ألا وهو يوم عرفة » .

٤ - وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **يوم الحج الأكبر** ﴾ خلاف حول هل هو يوم النحر أو

يوم عرفة ؟ وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح عن أبي بكرة قال : لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له ، وأخذ النّاس - بخطامه أو زمامه - فقال : « أي يوم هذا ؟ » قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال : « أليس هذا يوم الحج الأكبر » . وهذا اليوم الذي قعد فيه رسول الله ﷺ والذي ذكره أبو بكرة يوم النحر كما روى شعبة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة . فقال : « أتدرون أي يوم يومكم هذا ؟ قالوا يوم النحر . قال : صدقتم يوم الحج الأكبر » .

٥ - اعتمد الصديق في قتال مانعي الزكاة على مثل قوله تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** . ﴾ و ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ . إذ إن حرمة قتالهم عُلّقت على وجود هذه الأفعال . وهي الدخول في الإسلام ، والقيام بأداء واجباته ، ونبّة بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام - بعد الشهادتين - الصلاة التي هي حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة ، التي هي نفع متعدٍ إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، لهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » . الحديث . وروى أبو إسحاق ... عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : « أمرتم بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . ومن لم يزكّ فلاصلاة له » . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « أبىٰ الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه » . وروى الإمام أحمد ... عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا ، وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا ، فقد حرمت علينا دماؤهم ، وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم » . ورواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه .

أقول : وفي عصرنا والناس يرفضون تطبيق حكم الإسلام ، والقليل الذي يقيم الصلاة ،والنادر الذي يؤتي الزكاة . من لنا بأبي بكر جديد ؟ فقد أباح من يرفض الإسلام ، ولا يقيم الصلاة ، ولايؤتي الزكاة - إن كان مسلماً في الأصل أو من أبناء

المسلمين - دمه وماله ، وأما أهل الذمة في عصرنا فإذا رفضوا جهاراً الخضوع للإسلام ، فهؤلاء لم يبق بيننا وبينهم عهد .

٦ - قال علي بن أبي طالب : بُعث النبي ﷺ بأربعة أسياف في المشركين من العرب قال الله تعالى ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ قال ابن كثير : وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب بقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ والسيف الثالث : قتال المنافقين في قوله : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ الآية . والرابع قتال الباغين في قوله : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ .

٧ - روى ابن جرير عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته ، لا يشرك به شيئاً ، فارقها والله عنه راض » . قال : وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل ، وبلغوه عن ربهم ، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله ، وفي آخر ما أنزل ، قال الله تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان ، وعبادة ربهم ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ ورواه ابن مردويه ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له .

٨ - ومن قبل أن ينزل قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله** .. ﴾ كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش ، منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم واحداً بعد واحد ، يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ مابهرهم ، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ، وكانت هذه سنته في الرسل ، ولهذا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت عنقك ؟ » . وقد

قَيّض الله لهذا الإنسان ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة . وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة ، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في رسالة وأمر به فضربت عنقه ، لا رحمه الله ولعنه . وقد استقر الحكم أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة ، أو تجارة ، أو طلب صلح ، أو مهادنة ، أو حمل جزية ، أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً ، أعطي أماناً مادام متردداً في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه . ولكن قال العلماء : لا يجوز أن يُمكّن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يُمّكن من إقامة أربعة أشهر . وفيما بين ذلك ، فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن السنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

٩ - في قوله تعالى : ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ قال حذيفة (ما قوتل أهل هذه الآية بعد) . وروي عن علي بن أبي طالب مثله . فالآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم . وقد روى الوليد بن مسلم .. عن عبدالرحمن بن جبير ابن نفير أنه كان في عهد (أي وصية) أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوماً مجوفة رؤوسهم ، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم ، وذلك بأنّ الله يقول ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ رواه ابن أبي حاتم . ولعلنا لو قرأنا الآية ندرك سر كلام حذيفة وعلي رضي الله عنهما . ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ إن الآية تنطبق على عصرنا ، ولها تطبيقاتها في كل عصر . ألا ترى أنه في عصرنا قد كثر الطعن في الإسلام ، ووجد للكفر أئمة في كل مكان ، حتى انتقض كل شيء .

وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **وطعنوا في دينكم** ﴾ قال الألوسي :

﴿ **وطعنوا في دينكم** ﴾ قدحوا فيه ، بأن عابوه وقَبَّحوا أحكامه علانية ، وجعل ابن المنير طعن الذمي في ديننا بين أهل دينه إذا بلغنا كذلك ، وعدّ هذا كثير ومنهم الفاضل المذكور نقضاً للعهد ، فالعطف من عطف الخاص على العام ، وبه ينحل ما يقال : كان الظاهر أو طعنوا لأن كلاً من الطعن وما قبله كاف في استحقاق القتل والقتال ، وكون الواو بمعنى أو بعيد ، وقيل : العطف للتفسير كما في قولك . استخف فلان بي وفعل معي كذا ، على معنى وإن نكثوا أيمانهم بطعنهم في دينكم والأول أولى ، ولا فرق بين توجيه

الطعن إلى الدين نفسه إجمالاً ، وبين توجيهه إلى بعض تفاصيله كالصلاة والحج مثلاً ، ومن ذلك الطعن بالقرآن وذكر النبي ﷺ - وحاشاه - بسوء فيقتل الذمي به عند جمع ، مستدلين بالآية سواء شرط انتقاض العهد به أم لا . وممن قال بقتله إذا أظهر الشتم - والعياذ بالله - مالك ، والشافعي ، وهو قول الليث ، وأفتى به ابن الهمام ، ولا يخفى حسن موقع الطعن مع القتال المدلول عليه بقوله تعالى . ﴿ **فقاتلوا أئمة الكفر** ﴾ أي فقاتلوهم ، ووضع فيه الظاهر موضع الضمير ؛ وسموا أئمة لأنهم صاروا رؤساء متقدمين على غيرهم بزعمهم ، فهم أحقاء بالقتال والقتل . وروى ذلك عن الحسن ، وقيل : المراد بأئمتهم رؤساؤهم وصناديدهم مثل أبي سفيان . والحرث بن هشام ، وتخصيصهم بالذكر لأن قتلهم أهم ، لا لأنه لا يقتل غيرهم ، وأخرج ابن أبي شيبة ، وغيره عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : ماقوتل أهل هذه الآية بعد ، وما أدري ما مراده ، والله تعالى أعلم بمراده » أقول : لقد وجد أهل هذه الآية في عصرنا .

١٠ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ قال الألوسي : « والحاصل أن الإمام الأعظم يقول بالمنع عن الحج والعمرة ويحمل النهي عليه ، ولا يمنعون من دخول المسجد الحرام وسائر المساجد عنده ، ومذهب الشافعي . وأحمد ومالك رضي الله تعالى عنهم - كما قال الخازن - أنه لا يجوز للكافر ذميا كان أو مستأمناً أن يدخل المسجد الحرام بحال من الأحوال : فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام فيه لم يأذن له في دخوله ، بل يخرج إليه بنفسه ، أو يبعث إليه من يستمع رسالته خارجه ، ويجوز دخوله سائر المساجد عند الشافعي عليه الرحمة ، وعن مالك كل المساجد سواء في منع الكافر عن دخولها ، وزعم بعضهم أن المنع في الآية إنما هو عن تولي المسجد الحرام والقيام بمصالحه ، وهو خلاف الظاهر جداً ، والظاهر النهي على ما علمت ، وكون العِلّة فيه نجاستهم إن لم نقل بأنها ذاتية لا يقتضي جواز الفعل ، ممن اغتسل ولبس ثياباً طاهرة لأن خصوص العلة لا يخصص الحكم كما في الاستبراء ، والكلام على حد - لا أرينك هنا - فهو كناية عن نهي المؤمنين عن تمكينهم مما ذكر بدليل أن ما قبل وما بعد خطاب للمؤمنين ، ومن حمله على ظاهره استدل به على أن الكفار مخاطبون بالفروع حيث إنهم نهوا فيه والنهي من الأحكام ، وكونهم لا ينزجرون به لا يضر بعد معرفة معنى مخاطبتهم بها » .

١١ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ..** ﴾

نذكر هذه الأحاديث . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان . قال الله تعالى : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه وروى عبد بن حميد في مسنده .. عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما عمّار المساجد هم أهل الله » وروى الإمام أحمد .. عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجد » .

وروى عبدالرزاق ... عن عمرو بن ميمون الأزدي قال : أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون : إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها » .

١٢ - وفي قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن ..** ﴾ قولان للمفسرين هل المراد بالخطاب المسلمون أو المشركون ؟ وفي أسباب النزول ما يصلح لهذا وهذا ، فهناك روايات تفيد أن الخطاب للمسلمين . أخرج الإمام مسلم في صحيحه وأبو داود وابن جرير - وهذا لفظه - وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حبان في صحيحه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج . وقال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فأستفتيه فيما اختلفتم فيه . قال : ففعل فأنزل الله عز وجل ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ وهناك رواية تفيد أن الخطاب للمشركين فقد ذكر ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : قال : قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر . قال : لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد ، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني ، قال الله عز وجل ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك .

وعلى الرواية التي تفيد أن الخطاب للمسلمين يمكن أن نستخرج من الآية معنى

تكمّله نصوص كثيرة : إن هناك حسنات وهناك سيئات ، ولقد أعطى الشارع للسيئات أحجاماً ، كما أعطى للحسنات أحجاماً ، فالشرك أكبر من الربا ، والربا أكبر من الزنى ، والتوحيد أعظم من الصلاة ، والجهاد أفضل من مجاورة المسجد الحرام وهكذا .

وكثيراً ما يحدث عند بعض المسلمين أن يعطوا لقضيةٍ حجماً هو أكبر من حجمها ، أو هو أصغر من حجمها ، وكثيراً ما يفضّلون المفضول على الفاضل ، وكثيراً ما يعطّلون فرائض لصالح نوافل وكثيراً ما يتمسكون بالأقل ويفرّطون من أجله في الأكبر ، وكثيراً ما يكون استنكارهم لما هو أكبر جرماً عند الله ، أقل من استنكارهم لما هو أخف جرماً ، وهذا موضوع يمتحن فيه فقه العالم ، ولكن ما أندر الفقيه كل الفقه في عصرنا .

ولننتقل الآن إلى التفسير الحرفي للمقطع الثاني :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء** ﴾ أي أحباباً ونصراء ومُطاعين ﴿ **إن استحبوا الكفر على الإيمان** ﴾ أي إن آثروه واختاروه ﴿ **ومن يتولهم منكم** ﴾ يتول الكافرين منكم ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ لأنفسهم وللمؤمنين ولدين الله وشريعته . وما أكثر هؤلاء في عصرنا ، وما أكثر ماغاب معنى الولاء عن أذهان المسلمين علماء وعامّة حتى عمّ الضلال بسبب هذا النوع من الظلم ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم** ﴾ أي أقاربكم ﴿ **وأموال اقترفتموها** ﴾ أي اكتسبتموها ﴿ **وتجارة تخشون كسادها** ﴾ بفوات وقت بيعها ، أو لمقاطعة الكافرين لكم إن لم تتولوهم ﴿ **ومساكن ترضونها** ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها أي : إن كانت هذه الأشياء كلها ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله** ﴾ وكل من مسلمي عصرنا يدعي أن الله ورسوله أحب إليه من هذه الأشياء كلها ، ولكن مَنْ من مسلمي عصرنا يستطيع أن يدعي - ولو دعوى - أن الجهاد في سبيل الله أحب إليه من هذه الأشياء كلها . ألا ما أكثر استحقاقنا للعذاب ، وقد تهدّدنا الله به إن لم نكن كذلك ﴿ **فتربصوا حتى يأتي الله بأمره** ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل عليكم من عقابه ونكاله وعذاب عاجل أو عقاب آجل ، وقد عوقبنا فهل من توبة وجهاد ؟ نرجو لمسلمي عصرنا أن يفيئوا ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ دلّت الآية على أن من لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما ذكر ، ومن لم يكن الجهاد أحب إليه مما ذكر فهو فاسق ، ولا يستحق الهداية ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال النسفي : والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين ، إذ لا تجد عند أورع الناس

ما يستحب له دينه على الأباء والأبناء والأموال والحظوظ » وهكذا ذكرت هاتان الآيتان قضيتين رئيسيتين لابدّ منهما لإقامة القتال الإسلامي :

١ – أنه لا ولاء للكافرين . ٢ – وأن حب الله ورسوله والجهاد يجب أن يكون في قلب المسلم أكثر من كل شيء ، ومن لم يتحقق بهذا وهذا فإن روح الجهاد في قلبه لابدّ أن تكون ميتة ، ثمّ تأتي بعد ذلك القضية الثالثة التي لابدّ منها لإقامة القتال الإسلامي وهي : التوكل على الله والاعتماد عليه وحده : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطن كثيرة** ﴾ كوقعة بدر ، وقريظة ، والنضير ، وخيبر ، وفتح مكة ، ومواطن الحرب : مقاماتها ومواقفها ﴿ **ويوم حنين** ﴾ حنين : واد بين مكة والطائف ، كانت فيه الوقعة بين المسلمين ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف والتقدير : واذكروا يوم حنين ﴿ **إذ أعجبتكم كثرتكم** ﴾ فقال قائلكم لن نُغلَب اليوم من قلة ﴿ **فلم تغن عنكم** ﴾ أي كثرتكم ﴿ **شيئاً** ﴾ فهربتم ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نفر قليل ﴿ **وضاقت عليكم الأرض بما رحبت** ﴾ أي مع رحبها أي على سعتها أي : لم تجدوا موضعاً لفراركم عن أعدائكم فكأنها ضاقت عليكم ﴿ **ثم وليتم مدبرين** ﴾ أي منهزمين وماذاك إلا عقوبة لهم على غفلتهم عن أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود ﴿ **ثم أنزل الله سكينته** ﴾ أي رحمته التي سكنوا بها وأمِنُوا ﴿**على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها** ﴾ أي الملائكة ﴿ **وعذّب الذين كفروا** ﴾ بالقتل والأسر وسبي النساء والذراري ﴿ **وذلك جزاء الكافرين** ﴾ القتل والأسر ، وسبي الذرية والنساء وأخذ الأموال ﴿ **ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء** ﴾ بأن يلهمهم الدخول في الإسلام فيسلموا ويتوب عليهم ﴿ **والله غفور** ﴾ إذ يستر بالإسلام ما سبق من كفر ﴿ **رحيم** ﴾ إذ ينصر أولياءه على أعدائه . وبهذا ينتهي المقطع الثاني وقد تقرر فيه :

أنْ لا ولاء للكافرين ، وأن المحبة لله والرسول والجهاد يجب أن تفوق كل محبة ، وأن النصر من الله لا بالكثرة ، وأن الاعتماد يجب أن يكون على الله لا على عدد وعُدَّة . ولقد جاء هذا المقطع بين مقطعين : كل منهما يأمر بالقتال ، المقطع الأول أمر بقتال المشركين ، والمقطع الثالث وفيه أوامر بقتال الكافرين من مشركين ويهود ونصارى ، فكأن هذا المقطع بين المقطعين يذكّرنا بالمعاني التي لابد منها لإقامة القتال وهي المعاني الثلاثة التي ذكرها المقطع الثاني .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله** ﴾ نذكر هذه الأحاديث : روى الإمام أحمد .. عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يارسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : فأنت الآن - والله - أحب من نفسي . فقال رسول الله : « الآن ياعمر » . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

٢ - روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » . وهكذا رواه أبو داود والترمذي ثم قال : هذا حديث حسن غريب . وهذا الحديث أصل عظيم يتعلق بتنظيم السرايا والوحدات ، ويلاحظ أن الرسول ﷺ ذكر أن الإثني عشر ألفاً لا يغلبون من قلة . وهذا يعني أنهم يغلبون من غير القلة . وهذا الذي حدث يوم حنين إذ غلب المسلمون من العُجب .

٣ - وبمناسبة ذكر غزوة حنين نذكر طرفاً من أخبارها : كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النضري ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم ، وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بني هلال وهم قليل ، وناس من بني عمرو بن عامر ، وعون بن عامر ، وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان ، والشاء والنعم ، وجاؤوا بقضّهم وقضيضهم ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح ، وهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار ، وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء في ألفين ، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الوقعة في أول النّهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي ، وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، كما أمرهم ملكهم ، فعند ذلك ولّى المسلمون مدبرين ، كما قال الله عز وجل . وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب

يومئذ بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس - عمه - آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوّه باسمه عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول : « إليّ عباد الله ، إليّ أنا رسول الله » ويقول في تلك الحال : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبدالمطلب » . وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ومنهم من قال ثمانون ، فمنهم أبو بكر ، وعمر رضي الله عنهما ، والعباس وعلي ، والفضل بن عباس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأيمن بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد ، وغيرهم رضي الله عنهم ، ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي بأعلى صوته ياأصحاب الشجرة - يعني شجرة بيعة الرضوان التي بايعه المسلمون والمهاجرون والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادي بهم : ياأصحاب الشجرة ، ويقول تارة : ياأصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون : يالبيك يالبيك ، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيرهُ على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ ، فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ﷺ ، أمرهم عليه الصلاة والسلام أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره وقال : « اللهم أنجز لي ما وعدتني » ثم رمى القوم بها ، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ماشغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وماتراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ » . وروى الحافظ أبو بكر البيهقي .. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : «كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولّى عنه الناس ، وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال : ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً ، فحادت بغلته ، فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعك الله قال : « ناولني كفاً من التراب » فناولته قال : فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال : « أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت : هم هناك قال : « اهتف بهم » فهتفت بهم فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب ، وولى المشركون أدبارهم » . وروى البيهقي أيضاً .. عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال : خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين - والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكني أبيت أن تظهر هوزان على قريش - فقلت وأنا واقف معه : يارسول الله إني أرى خيلاً بلقاً فقال : « ياشيبة إنه لا يراها إلا كافر » فضرب بيده على صدري ثم قال : « اللهم

اهد شيبة » ثم ضربها الثانية ثم قال : « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثالثة ثم قال : « اللهم اهد شيبة » قال : فوالله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إليَّ منه ، وذكر تمام الحديث في التقاء الناس ، وانهزام المسلمين ، ونداء العباس ، واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين .

ولننتقل إلى المقطع الثالث في هذا القسم ، ولنلاحظ ماذكرناه من أن المقطع الثاني قد ذكر المعاني التي تعتبر مرتكز التنفيذ للأوامر الموجودة في المقطع الأول والثالث ، ولذلك نجد المقطع الثالث يبدأ بالموضوع الذي ختم به المقطع الأول ، وهو موضوع منع المشركين عن قربان المسجد الحرام ، ثم يعود السياق إلى إصدار أوامر القتال .

المعنى الحرفي للمقطع الثالث :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس** ﴾ لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس ، فكانوا أصحاب نجس ، ثم هم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات ،فهي ملابسة لهم أوهم النجاسة بعينها ؛ لأن ذرات روحهم وتصوراتهم نجسة ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام** ﴾ أي فلا يحجوا ولا يعتمروا وهم مشركون ﴿ **بعد عامهم هذا** ﴾ وهو عام تسع من الهجرة حين أُمّر أبو بكر رضي الله عنه على الموسم ، ويكون المراد من نهي القربان النهي عن الحج والعمرة ، وهو مذهب الحنفية ، وعندهم أن المشركين وغيرهم من الكافرين لا يمنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد ، وعند الشافعي رحمه الله يمنعون عن المسجد الحرام خاصة ، وعند مالك يمنعون منه ومن غيره . والنهي في هذا المقام يفيد أن على المسلمين أن لا يمكنوهم مما نهى الله عنه ﴿ **وإن خفتم عَيْلة** ﴾ أي فقراً بسبب منع المشركين عن الحج والعمرة وما كان للمسلمين في قدومهم عليهم من الأرفاق والمكاسب ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله** ﴾ أي فسوف يعوّض عليكم بما يغنيكم من خيرات السماء والأرض ، أو مما يغنمكم إياه ، أو من متاجر حجيج الإسلام ، أو من كل ذلك وغيره ﴿ **إن شاء** ﴾ هو تعليم لتعليق الأمور بمشيئة الله تعالى لتنقطع الآمال إليه ﴿ **إن الله عليم حكيم** ﴾ عليم بالأحوال ، عليم بمصالح العباد ، حكيم في تحقيق الآمال ، حكيم فيما حكم وأراد .

فائدة :

الخوف من الفقر إذا انقطع الحجيج يشبه خوف الكثير من الحكومات من انقطاع القطع النادر ، ومن الفقر إذا انقطع السُيَّاح نتيجة لتطبيق أحكام الإسلام ، وكل ذلك

أثر من آثار ضعف اليقين .

﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله** ﴾ أي لا يعرفونه حق المعرفة كما هو جل جلاله ، فاليهود المعاصرون لم يعرفوا الله حق المعرفة ، والنصارى مُثلّثة ؛ فهم لا يعرفون الله حق المعرفة ، ومن ثَم فهم غير مؤمنين بالله ﴿ **ولا باليوم الآخر** ﴾ فهم غير مؤمنين باليوم الآخر لأنهم فيه على غير إيمان به كما هو ﴿ **ولا يحرِّمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ أي ولا يعتقدون دين الإسلام الذي هو الحق ﴿ **من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ هذا بيان للموصوفين بالصفات السابقة وهم الذين أمر الله بقتالهم ﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ أي إلى أن يقبلوها ، وسمّيت جزية لأنها مما يجب على أهلها أن يجزوه أي يقضوه ، أو هي جزاء على الكفر ﴿ **عن يدٍ** ﴾ أي عن يد مواتية غير ممتنعة ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ أي تؤخذ منهم على الصغار والذل ونقل عن الشافعي : أن الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم ، ثم أغرى الله عز وجل المؤمنين بقتال أهل الكتاب بذكر شيء من مقالاتهم الشنيعة ﴿ **وقالت اليهود** ﴾ كلهم أو بعضهم ﴿ **عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ أي قول لا يعضده برهان ولا يستند إلى بيان فما هو إلا لفظ فارغ يفوهون فيه ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ المضاهأة : المشابهة ، ونسبة الأبوة إلى الله ضلالة ملعونة قديمة تجدها في كثير من ديانات العالم القديم ﴿ **قاتلهم الله** ﴾ أي هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك ﴿ **أنى يؤفكون** ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق بعد قيام البرهان ﴿ **اتَّخذوا** ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ **أحبارهم** ﴾ أي علماءهم ﴿ **ورهبانهم** ﴾ أي نُسَّاكهم وعُبّادهم ﴿ **أرباباً من دون الله** ﴾ أي اتخذوهم آلهة حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل الله ، كما يطاع الأرباب في أوامرهم ونواهيهم . وفي والبلاد الإسلامية الآن تقوم حكومات بهذا الدور ، وكثير من الأحزاب والمؤسسات تتتابع على هذا الدور ، وقد طمّ الكفر وعمّ ولابد من قتال ﴿ **والمسيح ابن مريم** ﴾ أي اتخذوه أي النصارى رباً حيث جعلوه ابن الله ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ أي تنزيها له عن الإشراك ﴿ **يريدون** ﴾ هؤلاء أهل الكتاب ﴿ **أن يطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ هذا تمثيل لحالهم في طلبهم إبطال الإسلام وتكفير الناس بمحمد ﷺ بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الإشراق ليطفئه بنفخة فما أشد جنونه ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم**

نوره ولو كره الكافرون ﴾ لهم مراد ، ولله مراد ، ومراد الله هو النافذ ، وفي الآية تهييج للمؤمنين على قتالهم وبشارة للمؤمنين بالنتيجة ، ومن عرف التاريخ والمحاولات الكثيرة المتجددة من قِبل أهل الكتاب سياسياً وعسكرياً واقتصادياً لإنهاء الإسلام ، ومن عرف مقدار ماتنفقه المؤسسات التبشيرية للكيد للإسلام ، ثم رأى بقاء الإسلام وانتصاره في النهاية في كل معركة أدرك معنى الآية عملياً ﴿ **هو الذي أرسل رسوله** ﴾ أي محمداً عليه الصلاة والسلام ﴿ **بالهدى** ﴾ أي بالقرآن والسنة ﴿ **ودين الحق** ﴾ أي بالإسلام ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ أي ليعليه على أهل الأديان كلها ، أو ليظهر دين الحق على كل دين ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ هذا الظهور وهذه الغلبة ولكن الله أقوى .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام ..** ﴾ ننقل هذه النقول : روى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك ، إلا أهل العهد وخدمهم » . وروى الإمام أبو عمرو الأوزاعي أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كتب : أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع نهيه قول الله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى : ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ ودلّت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح : « المؤمن لا ينجس » وهل نجاسة المشرك حسية أو معنوية ؟ الجمهور أنها نجاسة معنوية ، وليست نجاسة حسية فهو ليس بنجس البدن والذات بدليل أن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب .

٢ - وبمناسبة قوله : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله** ﴾ قال ابن كثير :(وهذه الآية الكريمة أول أمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين:اليهود والنصارى ، وكان ذلك في سنة تسع ، ولهذا تجهّز رسول الله ﷺ ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا(أي جاؤوا أجمعين) معه ، واجتمع المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ، ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم ،

فبلغ تبوك ، فنزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك ؛ لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر . وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك) .

٣ – وبمناسبة قوله تعالى : **﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾** قال ابن كثير : فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صَغَرة أشقياء ، كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه » ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم ، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبدالرحمن بن غنم الأشعري قال : « كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبدالله أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا ؛ إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ، ولا قلاية ولا صومعة راهب . ولا نجدّد ماخرب منها ، ولا نحيي منها ماكان خططاً للمسلمين ، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ، ولانكتم غشاً للمسلمين ، ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه ، وأن نوقّر المسلمين ، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم ، في قلنسوة ولا عمامة ، ولا نعلين ، ولا فرق شعر ، ولا نتكلم بكلامهم ، ولا نكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش خواتيمنا

بالعربية ، ولا نبيع الخمور ، وأن نجزَّ مقاديم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيث كنا ، وأن نشد الزنانير على أوساطنا ، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا ، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ، ولا أسواقهم ، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً ، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ، ولا نخرج شعانين ولا بعوثاً ، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ، ولانظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ، ولا نجاورهم بموتانا ، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه : ولانضرب أحداً من المسلمين ، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ، ووظفنا (أي ألزمنا) على أنفسنا فلا ذمة لنا ، وقد حلّ لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق » .

أقول : إن كل العهود التي كانت بيننا وبين أهل الذمة في الماضي أصبحت لاغية الآن ولابد من حركة لوضع الأمور في مواضعها ، والذي نؤثره في هذا الباب أن نكتفي من أهل الذمة بأقل ما تم بين بعضهم وبين المسلمين من عهود كضرورة من ضرورات العصر . هذا الحد الأدنى من قَبِلَه منهم كان بالإمكان أن نعطيه أمناً وأماناً ، ومن لم يقبله فلا عهد بيننا وبينه ، وقبل أن أذكر رأيي في الحد الأدني أحب أن أقول شيئاً :

إن أعداء الله ركزّوا كثيراً على موضوع الجزية وقد تحدثنا في كتابنا الإسلام عن هذا الموضوع ، وذكرنا هناك أن الجزية من أعظم مظاهر العدل الإسلامى ، فهي في مقابل عدم تكليف غير المسلمين بالقتال ، لأن القتال عندنا فريضة دينية ، فمن العدل ألا نكلف بتكاليف ديننا غيرنا ، وقد حدث خلال العصور أن من رضي أن يقاتل مع المسلمين أسقطت الجزية عنه ، فإذا استقر هذا تكون الجزية رمزاً على شيئين . أولها : هي بدل خدمة عسكرية . وثانيها : هي رمز على قبول الخضوع لسلطان المسلمين فإذا استقر هذا نقول : إن الحد الأدنى الذي عليه تكون المفاصلة بيننا وبين غير المسلمين على أرضنا هو :

١ - القبول بأن يكون دين الدولة الإسلام .
٢ - أن يقبلوا أن تكون السلطة بيد المسلمين .
٣ - أن يدفعوا بدل الخدمة العسكرية ، وأن يكون للمسلمين الحق في قبول أو رفض

من يريد أن يخدم الخدمة العسكرية ، إذا لم يرد أن يدفع بدلاً ، والذي نحب أن نذكر به : أنه في بلادنا يعتبر دفع البدل في مقابل الخدمة الإجبارية ميزة يسعى لها كل الناس . فمن قبل هذه الشروط الثلاثة فله مالنا وعليه ماعلينا ، وإلا فلا حرمة لدمه وماله وأهله . ولزيادة الوضوح في تفسير آية الجزية ننقل بعض ما قاله الألوسي عند هذه الآية .

قال الألوسي :

﴿ **حتى يعطوا الجزية** ﴾ أي ما تقرر عليهم أن يعطوه ، وهي مشتقة من جزى دينه أي قضاه أو مِنْ مَنَّ جزيته بما فعل، أي جازيته لأنهم يجزون بها مَنْ مَنَّ عليهم بالعفو عن القتل . وفي الهداية أنها جزاء الكفر فهي من المجازاة ، وقيل : أصلها الهمز من الجزء والتجزئة لأنها طائفة من المال يعطىٰ ، وقال الخوارزمي : إنها معرب – كزيت – وهو الخراج بالفارسية وجمعها جزى كلحية ولحى ﴿ **عن يد** ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ **يعطوا** ﴾ وأن يكون حالاً من الجزية ، واليد تحتمل أن تكون اليد المعطية وأن تكون اليد الآخذة و(**عن**) تحتمل السببية وغيرها ، أي يعطوا عن يد مؤاتية أي منقادين أو مقرونة بالانقياد ، أو عن يدهم أي مسلمين أو مسلمة بأيديهم لا بأيدي غيرهم من وكيل أو رسول لأن القصد فيها التحقير وهذا ينافيه ، ولذا منع من التوكيل شرعاً ، أو عن غنى أي أغنياء أو صادرة عنه ولذلك لا تؤخذ من الفقير العاجز ، أو عن قهر وقوة أي أذلاء عاجزين . أو مقرونة بالذل ، أو عن إنعام عليهم ، فإن إبقاء مهَجهم بما بذلوا من الجزية نعمة عظيمة ، أي منعماً عليهم ، أو كائنة عن إنعام عليهم ، أو نقداً أي مسلمة عن يد إلى يد ، أو مسلمين نقداً ، واستعمال اليد بمعنى الانقياد إما حقيقة أو كناية ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه ، هذي يدي لعمار ، أي أنا منقاد مطيع له ، واستعمالها بمعنى الغنى لأنها تكون مجازاً عن القدرة المستلزمة لها ، واستعمالها بمعنى الإنعام وكذا النعمة شائع ذائع ، وأما معنى النقدية فلشهرة يداً بيد في ذلك ، ومنه حديث أبي سعيد الخدري في الربا ، وما في الآية يؤول إليه كما لا يخفى على من له اليد الطولى في المعاني والبيان ، وتفسير اليد هنا بالقهر والقوة أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة ، وأخرج عن سفيان بن عيينة ما يدل على أنه حملها على ما يتبادر منها طرز ماذكرناه في الوجه الثاني ، وسائر الأوجه ذكرها غير واحد من المفسرين ، وغاية القتال ليس نفس هذا الإعطاء بل قبوله كما أشير إليه . وبذلك صرح جمع من الفقهاء حيث قالوا : إنهم يقاتلون إلى أن يقبلوا الجزية ، وإنما عبروا بالإعطاء لأنه المقصود من القبول ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ أي أذلاء .

ونقل عن الشافعي أن الصغار هو جريان أحكام المسلمين عليهم ، وهي تؤخذ عند أبي حنيفة من أهل الكتاب مطلقاً ، ومن مشركي العجم والمجوس ، لا من مشركي العرب ؛ لأن كفرهم قد تغلظ لما أن النبي ﷺ نشأ بين أظهرهم ، وأرسل إليهم ، وهو عليه الصلاة والسلام من أنفسهم ، ونزل القرآن بلغتهم ، وذلك من أقوى البواعث على إيمانهم ، فلا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ؛ زيادة في العقوبة عليهم من اتباع الوارد في ذلك ، فلا يرد أن أهل الكتاب قد تغلظ كفرهم أيضاً ، لأنهم عرفوا النبي ﷺ معرفة تامة ، ومع ذلك أنكروه وغيروا اسمه ونعته من الكتاب ، وعند أبي يوسف لا تؤخذ من العرب كتابياً كان أو مشركاً ، وتؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً ، وأخذها من المجوس إنما ثبت بالسنة ، فقد صح أن عمر رضي الله عنه لم يأخذها حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وقال الشافعي : رضي الله عنه إنها تؤخذ من أهل الكتاب عربياً كان أو عجمياً ، ولا تؤخذ من أهل الأوثان لثبوتها في أهل الكتاب وفي المجوس بالخبر ، فبقي مَن وراءهم على الأصل .

ولنا أنه يجوز استرقاقهم ، وكل من يجوز استرقاقه يجوز ضرب الجزية عليه ، إذا كان من أهل النصرة ، لأن كل واحد منهما يشتمل على سلب النفس . أما الاسترقاق فظاهر لأن نفع الرقيق يعود إلينا جملة . وأما الجزية فلأن الكافر يؤديها من كسبه والحال أن نفقته في كسبه فكان أداء كسبه الذي هو سبب حياته إلى المسلمين راتبة في معنىٰ أخذ النفس منه حكما ، وذهب مالك ، والأوزاعي إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار ولا تؤخذ عندنا من امرأة ولا صبي ولا زمِن ولا أعمى ، وكذلك المفلوج والشيخ ، وعن أبي يوسف أنها تؤخذ منه إذا كان له مال ، ولا من فقير غير معتمل ، خلافاً للشافعي ، ولا من مملوك ومكاتب ومدبر ، ولا تؤخذ من الراهبين الذين لا يخالطون الناس كما ذكره بعض أصحابنا ، وذكر محمد عن أبي حنيفة أنها تؤخذ منهم إذا كانوا يقدرون على العمل ، وهو قول أبو يوسف .

ثم إنها على ضربين : جزية توضع بالتراضي والصلح فتقدر بحسب ما يقع عليه الاتفاق ، كما صالح ﷺ بني نجران على ألف ومائتي حلة ، ولأن الموجب التراضي فلا يجوز التعدي إلىٰ غير ما وقع عليه .

وجزية يبتدىء الإمام بوضعها إذا غلب على الكفار ، وأقرهم على أملاكهم ، فيضع

على الغني الظاهر كل سنة ثمانية وأربعين درهما ، يؤخذ في كل شهر منه أربعة دراهم ، وعلى الوسط الحال أربعة وعشرين ، في كل شهر درهمين ، وعلى الفقير المعتمل - وهو الذي يقدر على العمل وإن لم يحسن حرفة - اثني عشر درهما ، في كل شهر درهماً ، والظاهر أن مرجع الغنىٰ وغيره إلى عرف البلد .

وبذلك صرح به الفقيه أبو جعفر . وإلى ماذهبنا إليه من اختلافها غنىٰ وفقراً وتوسطاً ، ذهب عمر وعلي وعثمان رضي الله عنهم . ونقل عن الشافعي أن الإمام يضع على كل حالم ديناراً أو ما يعدله ، والغني والفقير في ذلك سواء ، لما أخرجه ابن أبي شيبة عن مسروق أنه ﷺ لما بعث معاذاً إلىٰ اليمن قال له : خذ من كل حالم ديناراً أو عدله مغافر ، ولم يفصل عليه الصلاة والسلام ، وأجيب عنه بأنه محمول على أنه كان صلحاً . ويؤيده ما في بعض الروايات من كل حالم وحالمة ، لأن الجزية لا تجب على النساء ، والأصح عندنا أن الوجوب أول الحول ، لأن ما وجب بدلاً عنه لا يتحقق إلا في المستقبل ، فتعذر إيجابه بعد مضي الحول ، فأوجبناه في أوله ، وعن الشافعي أنها تجب في آخره اعتباراً بالزكاة . وتعقبه الزيلعي بأنه لا يلزمنا الزكاة لأنها وجبت في آخر الحول ليتحقق النماء ، فهي لا تجب إلا في المال النامي ، ولا كذلك الجزية ، فالقياس غير صحيح ، واقتضىٰ - كما قال الجصاص في أحكام القرآن - وجوب قتل من ذكر في الآية ، إلىٰ أن تؤخذ منهم الجزية على وجه الصغار والذلة أنه لا يكون لهم الذمة إذا تسلطوا على المسلمين بالولاية ، ونفاذ الأمر والنهي ، لأن الله سبحانه إنما جعل لهم ذمة بإعطاء الجزية وكونهم صاغرين ، فوجب على هذا قتل من تسلط على المسلمين بالغصب ، وأخذ الضرائب بالظلم ، وإن كان السلطان ولاه ، ذلك وإن فعله بغير إذنه وأمره فهو أولىٰ ، وهذا يدل على أن هؤلاء اليهود والنصارىٰ الذين يتولون أعمال السلطان وأمرائه ، ويظهر منهم الظلم والاستعلاء ، وأخذ الضرائب لا ذمة لهم ، وأن دماءهم مباحة ، ولو قصد مسلم مسلماً لأخذ ماله أبيح قتله في بعض الوجوه ، فما بالك بهؤلاء الكفرة أعداء الدين . اهـ . كلام الألوسي .

٤ - إن القرآن الكريم فيه إعجاز وفيه معجزات ، إنّه زيادة على الإعجاز في كل القرآن فإنك تجد معجزة في كلمة أو في آية ، أو في آيات ، ومعجزات القرآن متنوعة ، فمنها التاريخي ، ومنها المخبر عن مستقبل ، ومنها المعجزة الكونية ، ولقد أثبت علم مقارنة الأديان على ما فيه من ضلال معجزة في قوله تعالى ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله**

وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾ ففي قوله تعالى ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ معجزة كشف عنها علم مقارنة الأديان - كما سنرى -إنه لم يكن من المعروف في جزيرة العرب ديانات قديمة ، تقول بأن لله ابناً - تعالى الله عن قولهم - فأن يسجل القرآن ذلك ، ثمّ يكون الأمر على ذلك ، فتلك معجزة لا شك فيها ، ونحن سننقل في هذه الفائدة ثلاثة نقول حول الآية : نقلاً عن الألوسي في تحديد الجهة التي قالت ﴿ **عزيز ابن الله** ﴾ من اليهود ، ونقلاً عن الظلال في المضاهاة التي أخبرنا الله عنها ، ونقلاً عن أبي زهرة يقارن فيه بين نصوص كتب النصارى وكتب البراهمة والبوذيين .

ا - قال الألوسي في تحديد القائل : عزير ابن الله .

وقيل : قائل ذلك جماعة من يهود المدينة منهم سلام بن مشكم . ونعمان بن أبي أوفى . وشاس بن قيس . ومالك بن الصيف . أخرج ابن أبي حاتم . وأبو الشيخ . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن قائل ذلك فنحاص بن عازوراء وهو على ما جاء في بعض الروايات القائل : ﴿ **إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ .

أقول : تحدّث صاحب الظلال في صفحات كثيرة من ظلاله عن ﴿ **عزير** ﴾ ومكانته عند يهود ونقل كلام السيد رشيد رضا في تفسير المنار في ذلك وهو موضوع يحسن الاطلاع عليه ، ويبدو لي أن القائلين ببنوة عزير لله - تعالى الله عن ذلك - طائفة من يهود تأثرت بالعقلية النصرانية في ذلك .

ب - قال صاحب الظلال عند قوله تعالى في الآية ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ (ولقد كان المفسرون يقولون عن هذه الآية : إن المقصود بها أن قولتهم ببنوة أحد لله ، تماثل قول المشركين العرب ببنوة الملائكة لله .. وهذا صحيح ... ولكن دلالة هذا النص القرآني أبعد مدى . ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديثاً بعد دراسة عقائد الوثنيين في الهند ومصر القديمة والإغريق . مما اتضح معه أصل العقائد المحرّفة عند أهل الكتاب - وبخاصة النصارى - وتسربها من هذه الوثنيات إلى تعاليم « بولس الرسول » أولاً ؛ ثم إلى تعاليم المجامع المقدسة أخيراً ...

إن الثالوث المصري المؤلف من أوزوريس وإيزيس وحوريس هو قاعدة الوثنية الفرعونية ، وأوزوريس يمثل (الأب) وحوريس يمثل (الابن) في هذا الثالوث ، وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يدرس قبل المسيح بسنوات كثيرة « الكلمة هي الإله الثاني » ويدعى أيضاً « ابن الله البكر » .

والهنود كانوا يقولون بثلاثة أقانيم أو ثلاث حالات يتجلى فيها الإله : « برهما » في حالة الخلق والتكوين و « فشنو » في حالة الحفظ والقوامة و « سيفا » في حالة الإهلاك والإبادة .. وفي هذه العقيدة ، أن « فشنو » هو « الابن » المنبثق والمتحول عن اللاهوتية في (برهما) ! وكان الأشوريون يؤمنون بالكلمة ويسمونها (مردوخ) ويعتقدون أن مردوخ هذا هو ابن الله البكر ، وكان الإغريق يقولون بالإله المثلث الأقانيم . وإذا شرع كهنتهم في تقديم الذبائح ، يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات إشارة إلى التثليث » .

وعقد أبو زهرة في سلسلة مقارنات بين الأديان أبواباً أثبت فيها أن هناك تشابهاً كاملاً بين الكتب الدينية الهندية – وهي الأقدم زمناً – مع عقائد النصارى بما يفيد أن النصارى الذين حرّفوا وبدّلوا رسالة المسيح عليه السلام نقلوا ذلك عن ديانات سابقة ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ لذلك طالب أبو زهرة النصارى أن يعيدوا النظر ، وقد قارن بين نصوص الديانة البرهمية ، والديانة النصرانية ، وبين نصوص في الديانة البوذية ، والديانة النصرانية ، ونحن ننقل هاتين المقارنتين عنه وقد قدّم لمقارنته بين نصوص الديانة النصرانية والبرهمية بقوله : « والقول الجملي أن الهنود يعتقدون في كرشنة ما يعتقده المسيحيون في المسيح وقد عقد صاحب كتاب « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية » موازنة بين أقوال الهنود في كرشنة ،وأقوال المسيحيين في المسيح ، فتقارب الاعتقاد حتى أوشكا أن يتطابقاً ، وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرّفة ، فقد علم إذن المشتق والمشتق منه ، والأصل وما تفرع عنه ، وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم » .

« ولننقل لك بعضاً من هذه الموازنة على سبيل المثال وغيره يقاس عليه » .

أقول : سنضع عبارة الديانة الهندية أولاً ومرجعها ثمّ نتبعها بالعبارة النصرانية ومرجعها :

قال البراهمة : « كرشنة » هو المخلص والفادي ، والمعزي والراعي الصالح والوسيط ، وابن الله ، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس ، وهو الأب والابن وروح القدس » .
كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٥٩

وقال النصارى : « يسوع المسيح » هو المخلص الفادي ، والمعزي والراعي الصالح والوسيط ، وابن الله ، والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس » . إنجيل لوقا الإصحاح الثالث ص ٢٨ ، ٢٩ وإنجيل متى الإصحاح السابع .

قال البراهمة : « قد مجّد الملائكة ديفاكي والدة كرشنة ابن الله ، وقالوا يحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة » . كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٢٩

وقال النصارى : « دخل الملاك على مريم العذراء والدة يسوع المسيح وقال لها سلام لك أيها المنعم عليها الرب معك » . إنجيل متى الإصحاح الثالث العدد ٣ .

....

قال البراهمة : « عرف الناس ولادة كرشنة من نجمه الذي ظهر في السماء » .
كتاب تاريخ الهند المجلد الثاني ٣١٧ ، ٣٦٧

وقال النصارى : « لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمه في المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس محل ولادته » . إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد ٣

....

وقال البراهمة : « لما ولد كرشنة سبحت الأرض ، وأنارها القمر بنوره ، وترنَّمت الأرواح ، وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ، ورتل السحاب بأنغام مطربة » .
كتاب فشنو بورانا ص ٥٠٢

وقال النصارى : « لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسروراً ، وظهر من السحاب أنغام مطربة » . إنجيل لوقا الإصحاح الثاني العدد ١٣

....

قال البراهمة : « كان كرشنة من سلالة ملوكانية ولكنه ولد في غار بحال الذل والفقر » . كتاب دوان ص ٢٩٧

وقال النصارى : « كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه « ملك اليهود » ولكنه ولد في حالة الذل والفقر بغار » . دوان ص ٢٧٩

....

قال البراهمة : « لما ولد كرشنة أضيء الغار بنور عظيم وصار وجه أمه ديفاكي يرسل أشعة نور ومجد » . دوان ص ٢٩٧

وقال النصارى : « لما ولد يسوع المسيح أضيء الغار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أمه يوسف النجار » .
إنجيل ولادة يسوع المسيح الإصحاح ١٢ والعدد ١٢

قال البراهمة : « ومن بعد ما وضعته صارت تبكي وتندب سوء عاقبة رسالتها فكلمها وعزاها » . تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١١

وقال النصارى : « وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل يامريم أنا يسوع ابن الله وجئت كما أخبرك جبرائيل الذي أرسله أبي إليك وقد أتيت لأخلص العالم » .
إنجيل الطفولية الإصحاح الأول العدد الثاني والثالث .

....

قال البراهمة : « وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له » . دوان ص ٢٧٩

وقال النصارى : « وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له » .
إنجيل لوقا الإصحاح الثاني عدد ٨ - ١٠

....

قال البراهمة : « وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته وقدموا له هدايا من صندل وطيب » . كتاب الديانات الشرقية ص ٥٠٠ وكتاب الديانات القديمة المجلد الثاني ص ٣٥٣

وقال النصارى : « وآمن الناس بيسوع وقالوا بلاهوته وأعطوه هدية من طيب ومر » . إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد ٢

....

قال البراهمة : « وسمع نبي الهنود « نارد » بمولد الطفل الإلهي كرشنة فذهب وزاره في « توكول » وفحص النجوم فتبين له من فحصها أنه مولود إلهي يعبد » .
تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١٧

وقال النصارى : « ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذ المجوس من المشرق قد جاؤوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود » .
إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد ١ ، ٢

....

قال البراهمة : « لما ولد كرشنة كان «ناندا » خطيب أمه ديفاكي غائباً عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع ماعليه من الخراج للملك » .
كتاب فشنو بورانا الفصل الثاني من الكتاب الخامس

وقال النصارى : « ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غائباً عن البيت وأتى كي يدفع ما عليه من الخراج للملك » . إنجيل لوقا الإصحاح الثاني من عدد ١ — ١٧

....

قال البراهمة : « وكد كرشنة بحال الذل والفقر مع أنه من عائلة ملوكانية » .
التنقيبات الآسيوية المجلد الأول ص ٢٥٩ وتاريخ الهند المجلد الثاني ص ١٣٠ .

وقال النصارى : « ولد يسوع المسيح بحالة الذل والفقر مع أنه من سلالة ملوكانية » . انظر تعداد نسبه في إنجيل متى وإنجيل لوقا .

....

قال البراهمة : « وسمع ناندا خطيب أمه ديفاكي والدة كرشنة نداء من السماء يقول له : قم وخذ الصبي وأمه فهربهما إلى كاكول واقطع نهر جمنة لأن الملك طالب إهلاكه » . كتاب فشنو بوران الفصل الثالث

وقال النصارى : « وأنذر يوسف النجار خطيب مريم والدة يسوع بحكم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر لأن الملك طالب إهلاكه » .
إنجيل متى الإصحاح الثاني عدد ١٣

....

قال البراهمة : « وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل الإلهي وطلب قتل الولد .

وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي ولد فيها كرشنة » . دوان ص ٢٨٠

وقال النصارى : « وسمع حاكم البلاد بولادة الطفل يسوع الإلهي وطلب قتله وكي يتوصل إلى أمنيته أمر بقتل كافة الأولاد الذي ولدوا في الليلة التي ولد فيها يسوع المسيح ». إنجيل متى الإصحاح الثاني

....

قال البراهمة : « واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة « مطرا » وفيها عمل الآيات العجيبة ولم تزل محل التعظيم والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا » .
تاريخ الهند المجلد الثاني ص ١٧ والتنقيبات الآسيوية المجلد الأول ص ٢٥٩

وقال النصارى : « واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح في مصر لما ترك اليهودية المطرية ويقال إنه عمل فيها آيات وقوات عديدة » .
المقدمة على إنجيل الطفولية تأليف هيجين .

....

قال البراهمة : « كانت ولادة القديس راما قبل ظهور كرشنة في الناسوت بزمن قليل وقد سعى فانسا ملك البلاد في إهلاك القديس راما وإهلاك كرشنة أيضاً » .
تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١٦

وقال النصارى : « وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة يسوع المسيح بزمن قليل وقد سعى الملك هيرودس في إهلاك الطفل يسوع المسيح وكان يوحنا مبشراً بولادة يسوع المسيح » . إنجيل تاريخ ولادة يسوع المسيح الإصحاح السادس .

....

قال البراهمة : « وربي كرشنة بين الرعاة ولما جيء به إلى مطرا كان في احتياج عظيم إلى التعليم ، فأتى له بمعلم خبير وفي وقت قليل فاق على أستاذه في العلوم وأعياه في المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة » . دوان ص ٢٨٠ وتاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٢١

وقال النصارى : « وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم زاخوس كي يعلمه فكتب له أحرف ألف ، باء وقال ليسوع قل – ألف – فقال الرب يسوع أخبرني أولاً عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول حرف الباء ، فتهدد المعلم يسوع بالضرب ، فقام يسوع وفسر معنى الألف والباء وأخبره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتي لها نقط وحركات والتي ليس لها نقط ولماذا وضعت في هذا الترتيب أي بعض الحروف قبل غيرها وطفق يخبر عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها في كتاب » . إنجيل الطفولية الإصحاح العشرين عدد ١ إلى ٨

....

قال البراهمة : « وفي أحد الأيام كان كرشنة سائراً مع قطيع من البقر فاختاروه ملكاً عليهم وذهبت كل بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك » .

تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١٢

وقال النصارى : « وفي شهر آزار جمع يسوع الأولاد ورتبهم كأنه ملك عليهم وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصباً ويأمرونه بالسجود للملك » .

إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨ من عدد ١ – ٣

....

قال البراهمة : « وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فماتوا فأشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعاً من الموت وعادوا أحياء » . تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣٤٣

وقال النصارى : « وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم فلمس يسوع ذاك الصبي بيده فعاد إلى حال صحته » .

إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨

....

قال البراهمة : « وسرق بعض أصحاب كرشنة مع عجولهم وأخفاهم السارقون في غار فخلق كرشنة أصحاباً وعجولا مثلهم في الشكل والهيئة » .

تاريخ الهند المجلد الثاني ص ١٥ وكتاب خرافات الآريين المجلد الثاني ص ١٣٦

وقال النصارى : « وأخفى الأولاد الذين يلعبون مع يسوع أنفسهم في فرن فبدلوا إلى هيئة جداء فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا يا أيها الأولاد لنلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيئتهم الأولى صبياناً ». إنجيل الطفولية الإصحاح ١٨

....

قال البراهمة : « وأول الآيات والعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص » .
تاريخ الهند المجلد الثاني ص ٣١٩

وقال النصارى : « وأول الآيات والعجائب التي عملها يسوع هي شفاء الأبرص » . إنجيل متى الإصحاح الثامن العدد الثاني

....

قال البراهمة : « وأوتي كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كرشنة بعلامة مخصوصة وسكبت الباقي على رأسه » . تاريخ الهند المجلد الثاني .

وقال النصارى : « وفيما كان يسوع في بيت عتيا في بيت سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثيرة الثمن فسكبته على رأسه وهو متكىء » .
إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين عدد ٦ ، ٧

....

قال البراهمة : « كرشنة صلب ومات على الصليب » .
وقال النصارى : « يسوع صلب ومات على الصليب » .

....

قال البراهمة : « لما مات كرشنة حدثت مصائب ، وعلامات شر عظيم ، وأحاط بالقمر هالة سوداء ، وأظلمت الشمس في وسط النهار ، وأمطرت السماء ناراً ورماداً ، وتأججت أشعة نار حامية ، وصار الشياطين يفسدون في الأرض ، وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو السماء يتراوحون صباحاً ومساء ، وكان ظهورها في كل مكان » .
كتاب ترقي التصورات الدينية المجلد الأول ص ١٧

وقال النصارى : « لما مات يسوع حدثت مصائب جمة متنوعة ، وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت ، وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة ، وفتحت القبور ، وقام كثيرون من القديسين ، وخرجوا من قبورهم » .
إنجيل متى الإصحاح الثاني والعشرين وإنجيل لوقا أيضاً .

....

قال البراهمة : « وثقب جنب كرشنة بحربة » . دوان ص ٢٨٣
وقال النصارى : « وثقب جنب يسوع بحربة » . دوان ص ٢٨٢

....

قال البراهمة : « وقال كرشنة للصياد الذي رماه بالنبلة وهو مصلوب اذهب أيها الصياد محفوفاً برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة » . فتنوا برانا ص ٢٨٢

وقال النصارى : « وقال يسوع لأحد اللصين اللذين صلبا معه الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس » . إنجيل لوقا الإصحاح الثالث والعشرين عدد ٣ ، ٤

....

قال البراهمة : « ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات » . دوان ص ٢٨٢
وقال النصارى : « ومات يسوع ثم قام من بين الأموات » إنجيل متى الإصحاح ٢٨

....

قال البراهمة : « ونزل كرشنة إلى الجحيم » . دوان ص ٢٨٢
وقال النصارى : « ونزل يسوع إلى الجحيم »
دوان ص ٢٨٢ وكذلك كتاب الإيمان المسيحي

....

قال البراهمة : « وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً »
دوان ص ٢٨٢

وقال النصارى : « وصعد يسوع إلى "سماء وكثيرون شاهدوه صاعداً » .
إنجيل متى الإصحاح الرابع والعشرين

....

قال البراهمة : « ولسوف يأتي كرشنة في اليوم الأخير ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح ، وراكب على جواد أشهب ، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر ، وتزلزل الأرض ، وتهتز وتتساقط النجوم من السماء » . دوان ص ٢٨٢

وقال النصارى : « ولسوف يأتي يسوع في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح ، وراكب على جواد أشهب ، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر ، وتزلزل الأرض ، وتهتز وتتساقط النجوم من السماء » . إنجيل متى الإصحاح ٢٤

....

قال البراهمة : « وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الأخير » . دوان ص ٢٨٣

وقال النصارى : « ويدين يسوع الأموات في اليوم الأخير » .

إنجيل متى الإصحاح ٢٤ العدد ١ ، ٣ ورسالة الرومانيين .

....

قال البراهمة : « ويقولون عن كرشنة : الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي » . دوان ص ٢٨٢

وقال النصارى : « ويقولون عن يسوع المسيح : إنه الخالق لكل شيء ولولاه لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي » . إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ١ ، ٣ ورسالة كورنسوس الأولى افسس الإصحاح الثالث العدد ٩ .

....

قال البراهمة : «كرشنة الألف والباء ، وهو الأول والوسط ، وآخر كل شيء » .
دوان ص ٢٨٢

وقال النصارى : « يسوع الألف والباء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء » .
سفر الرؤية الإصحاح الأول العدد ٨

....

قال البراهمة : « لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة ، غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه ، ونشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات ، كإحياء الميت

وشفاء الأبرص والأصم والأعمى ، وإعادة المخلوع كما كان أولاً ، ونصرة الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه ، وكانوا إذ ذاك يعبدونه ، ويزدحمون عليه ، ويعدونه إلهاً » .

وقال النصارى : « لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة ، غير مبال بالأخطار التي كانت تكتنفه ، وكان ينشر تعاليمه بعمل العجائب والآيات ، كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأخرس والأعمى والمريض ، وينصر الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه ، وكان الناس يعدونه إلهاً » . انظر الإنجيل والرسائل ترى كثيراً من هذا الذي ذكرناه .

....

قال البراهمة : « كان كرشنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ »
كتاب بهاكا فات كيتا

وقال النصارى : « كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ » .
إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣ العدد ٢٣

....

قال البراهمة : « وفي حضور أرجونا بدلت هيئة كرشنة ، وأضاء وجهه كالشمس ، ومجد العلى ، اجتمع إله الآلهة ، فأحنى أرجونا رأسه تذللاً ومهابة ، وتكتف تواضعا ، وقال باحترام : الآن حقيقتك كما أنت وإني أرجو رحمتك يارب الأرباب ، فعد واظهر في ناسوتك ثانية أنت المحيط بالملكوت » .
كتاب مورس وليمس المدعو « دين الهنود » ص ٢١٥

وقال النصارى : « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل منفردين ، وتغيرت هيئته أقدامهم ، وأضاء وجهه كالشمس ، وصارت ثيابه بيضاء كالثلج ، وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم ، وصوت من السحابة قائل هذا هو ابني الحبيب الذي سررت له اسمعوا ، ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً » . إنجيل متى الإصحاح ١٧ من عدد ١ إلى ٩

....

قال البراهمة : « وكان كرشنة خير الناس خَلْقاً وخُلُقاً وعلماً بإخلاص ونصح وهو الطاهر العفيف ، مثال الإنسانية ، وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهميين ، وهو الكاهن العظيم برهما ، وهو العزيز القادر ، ظهر لنا بالناسوت » . المرجع السابق ص ١٤٤

وقال النصارى : « كان يسوع خير الناس خلقاً وعلماً بإخلاص وهو الطاهر العفيف ، مكمل الإنسانية ومثالها ، وقد تنازل رحمة ووداعة ، وغسل أرجل التلاميذ ، وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالناسوت » إنجيل يوحنا الإصحاح ١٣

....

قال البراهمة : « كرشنة هو برهماً العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية » . فشنو بورانا ص ٤٩٢ عند شرح حاشية عدد ٣

وقال النصارى : « يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر أسراره العظيمة الإلهية » : رسالة ثيموثاوس الأولى الإصحاح الثالث

....

قال البراهمة : « كرشنة الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته » . كتاب مورس ويمس المدعو العقائد

قال النصارى : « يسوع الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس عند النصارى » .
انظر كافة كتبهم الدينية وكذلك الأناجيل والرسائل

....

قال البراهمة : « وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهيه ، ويحبه من مجد هذا العالم ، ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره في الله فقط » . ديانة الهنود الوثنية ص ٢١١

قال النصارى : « وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتي وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك ، واغلق بابك ، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء ، فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية » . إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٦

....

قال البراهمة : « وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا : إنه مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ، ومهما أكلت ، ومهما قربت من قربان ، ومهما فعلت من الأفعال المقدسة ، فليكن جميعه بإخلاص لي ، أنا الحكيم والعليم ، ليس لي ابتداء ، وأنا الحاكم المسيطر الحافظ » . مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١١

قال النصارى : « فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله » . رسالة كورتسوس الأولى الإصحاح العاشر من عدد ١ : ٣

....

قال البراهمة : « قال كرشنة أنا علة وجود الكائنات ، فيّ كانت ، وفيّ تحل وعليّ جميع ما في الكون يتكل ، وفي يتعلق كاللؤلؤ المنظوم في خيط » .
مورس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٢

وقال النصارى «من يسوع وفي يسوع وليسوع كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء به كان » . إنجيل يوحنا الإصحاح الأول من عدد ٣١

....

قال البراهمة : « وقال كرشنة أنا النور الكائن في الشمس والقمر ، وأنا النور الكائن في اللهب ، وأنا نور كل ما يضيء ، ونور الأنوار ليس في ظلمة » .
كتاب موريس وليمس ديانة الهنود ص ٢١٣

قال النصارى : « ثم كلمهم يسوع قائلاً أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة » . إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ العدد ١٢

....

قال البراهمة : « قال كرشنة أنا الحافظ للعالم وربه وملجؤه وطريقه » .
دوان ص ٢٨٣

قال النصارى : « قال يسوع أنا هو الطريق الحق والحياة ليس أحد يأتي الأب إلا بي » . إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر عدد ٦

....

قال البراهمة : « وقال كرشنة ، أنا صلاح الصالح ، وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدي ، وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه » .
كتاب موريس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

قال النصارى : « وقال يسوع ، أنا هو الأول والآخر ولي مفاتيح الهاوية والموت » .
رؤيا يوحنا الإصحاح الأول من عدد ١٧ - ١٨

....

قال البراهمة : « وقال كرشنة لتلميذه الحبيب لا تحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك ، أنا أخلصك منها ، فقط تثق بي ، وتتوكل عليّ واعبدني ، واسجد لي ، ولا تتصور أحداً سواي ، لأنك هكذا تأتي إلى المسكن العظيم ، الذي لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما مني » . كتاب موريس وليمس ديانة الهنود الوثنيين ص ٢١٣

وقال النصارى : « وقال يسوع للمفلوج ثق يابني مغفورة لك خطاياك ، يابني أعطني قلبك والمدينة لا تحتاج إلى شمس ، ولا إلى قمر ليضيئا فيها الحروف سراجها » .
إنجيل متى الإصحاح ٩ عدد ٢ وسفر الأمثال الإصحاح ٣٢ عدد ٢٦ وسفر الرؤيا الإصحاح ١٢ عدد ٢٣

....

هذا ما نقله الشيخ أبو زهرة في كتابه (مقارنات الأديان : الديانات القديمة) في مقارنته بين نصوص الديانة البرهمية والديانة النصرانية ومنه ندرك سراً من أسرار قوله تعالى ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ . وكما فعل الشيخ أبو زهرة ذلك فقد قارن بين نصوص الديانة البوذية والديانة النصرانية وذلك بعد كلام عن الديانة البوذية وعقائدها :

وقد قدّم لهذه النّقول بقوله : « ومن الغريب أن الأوهام التي جعلها بوذيو التبت أوصافاً لبوذا تتوافق مع مايتخيله المسيحيون عن شخصية المسيح بعد تغيير النصرانية وها هي ذي بعض المقابلات بينهما لتعرف وجه التطابق » .

أقول : سننقل الكلمة البوذية مع مرجعها ، ثم نقفي بالكلمة النصرانية مع مرجعها ، وأصل هذا كله هو كتاب « العقائد الوثنية والديانة النصرانية » .

قال البوذيون : « كان تجسد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا » .
دوان ص ٢٩٠

وقال النصارى : « كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم » . إنجيل متى

....

قال البوذيون : « لما نزل بوذا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي ، وظهر بوذا فيه كزهرة جميلة » . دوان ص ٢٩٠

وقال النصارى : « لما نزل يسوع من مقعده السماوي ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة » . إنجيل متى

....

وقال البوذيون : « وقد دلّ على ولادة بوذا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه نجم بوذا » . دوان ص ٢٩٠

وقال النصارى : وقد دلّ على ولادة يسوع نجم ظهر في المشرق وقال دوان : من الواجبات أن يدعى نجم المسيح .

....

وقال البوذيون : « لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ، ورتلت الملائكة أناشيد المجد للمولود المبارك ، قائلين ولد اليوم بوذا على الأرض كي يعطي الناس المسرات والسلام ، ويرسل النور إلى المحلات المظلمة ويهب بصراً للعمي » .

وقال النصارى : « لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ، ورتلوا الأناشيد حمداً للواحد المبارك قائلين المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » .

....

وقال البوذيون : « وعرف الحكماء بوذا وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حَيّاه الناس ودعوه إلهاً » . دوان ص ٢٩٠

وقال النصارى : « وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على

ولادته حتى دعوه إله الآلهة » . إنجيل متى من الإصحاح ٢ عدد ١١

....

قال البوذيون : « وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة » . دوان ص ٢٩٠

وقال النصارى : « وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من ذهب وطيب ومن » .
إنجيل متى من الإصحاح ، عدد ١١

....

قال البوذيون : « لما كان بوذا طفلاً قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعاً » .
كتاب هروى المدعو العقائد البوذية ص ١٤٥ - ١٤٦ .

وقال النصارى : « لما كان يسوع طفلاً قال لأمه مريم (أنا ابن الله) » .
إنجيل الطفولية الإصحاح ١ عدد ٣ .

....

قال البوذيون : « كان بوذا ولداً مخيفاً وقد سعى الملك بميسارا وراء قتله لما أخبره أن هذا الغلام سينزع الملك من يده إن بقي حياً » .
كتاب تاريخ البوذية تأليف نيل ص ١٠٣ - ١٠٤

وقال النصارى : « كان يسوع ولداً مخيفاً سعىٰ الملك هيرودوس وراء قتله كيلاينزع الملك من يده » . إنجيل متى الإصحاح الثاني العدد الأول

....

قال البوذيون : « لما أرسل بوذا إلىٰ المدرسة أدهش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل ، وفاق الجميع في الكتابة ، والرياضيات والعلوم العقلية ، والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة » . كتاب حردى « العقائد البوذية » وتاريخ الديانة

وقال النصارى : « لما أرسل يسوع إلىٰ المدرسة أدهش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف « أتيتني بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم »
إنجيل الطفولية الإصحاح ٢٠ وإنجيل لوقا

....

قال البوذيون : « لما صار عمر بوذا اثنتي عشرة سنة دخل الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتىٰ فاق كافة مناظريه » .
بنصن « الملاك المسيح » ص ٣٧

وقال النصارى : « لما صار عمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاءوا به إلىٰ أورشليم وصار يسأل الأحبار والعلماء مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدهش الجميع » .
إنجيل الطفولية الإصحاح ٢١ عدد ٢١

. . . .

وقال البوذيون : « ودخل بوذا مرة أحد الهياكل فقامت الأصنام من أماكنها وتمددت عند رجليه سجوداً له » . بنصن « الملاك المسيح » ص ٦٧ – ٦٩

وقال النصارى : « وكان يسوع مارأقرب حاملي الأعلام فأحنت الأعلام رؤوسها سجوداً له » . إنجيل نيكوديموس الإصحاح الأول العدد ٢٠

. . . .

قال البوذيون : « ويصلون نسب كوتامابوا بوذا من أبيه « صدودانا » في أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلىٰ ماهاسماطا وهو – على زعمهم – أول ملك صار في الدنيا . والحوادث والأنساب المذكورة في كتاب « بيوراز » البرهمي وجد في أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث ونسبتها مع غيرها ، وسبب ذلك هو أن مؤرخي البوذية اخترعوا فيها أسماء تمكنهم من إعلان نسب حكيمهم فوق اعتبارهم إياه إلهاً » . دوان ص ٢٩١

وقال النصارى : « ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف في أشخاص مختلفين وكلهم سلالة ملوكانية إلى آدم أبي البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة في سلالته مذكورة في التوراة كتاب اليهود » .

. . . .

قال البوذيون : « لما عزم بوذا على السياحة قصد التعبد والتنسك وظهر عليه « مارا » أي الشيطان كي يجربه » . دوان ص ٢٩٢

وقال النصارى : « لما شرع يسوع في التبشير ظهر له الشيطان كي يجربه » .
إنجيل متى الإصحاح عدد ١ – ٨

....

قال البوذيون : « وقال ماردا « الشيطان » لبوذا لا تصرف حياتك في الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير ملك الدنيا » . دوان ص ٢٩٢

وقال النصارى : « وقال « إبليس » له أي يسوع ، أعطيك هذه « أي الدنيا » جميعها إن خررت وسجدت لي » . إنجيل متى الإصحاح ٤ من ١٠ - ١١

....

قال البوذيون : « فلم يعبأ بوذا بكلام الشيطان بل قال له اذهب عني » .
دوان ص ٢٩٢

« وقال النصارى : « فأجابه المسيح وقال اذهب ياشيطان » .
إنجيل لوقا الإصحاح ٤ عدد ٨

....

قال البوذيون : « ولما ترك مارا « أي الشيطان » تجربة بوذا أمطرت السماء زهراً وطيباً ملأ الهواء طيب عَرفه » . دوان ص ٢٩٢

وقال النصارى : « ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه » .
إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١١

....

وقال البوذيون : « وصام بوذا وقتاً طويلاً » . دوان ص ٢٩٢

وقال النصارى : « وصام يسوع وقتاً وطويلاً » . إنجيل متى الاصحاح ٤ عدد ٢

....

وقال البوذيون : « وقد عمد بوذا المخلص حين عمادته بالماء وكان روح الله حاضراً وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل وروح القدس الذي فيه صار بجسد كوماتا لما حل على العذراء مايا » . كتاب الملاك المسيح ص ٤٥ تأليف بنصن

وقال النصارى : « ويوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل والروح القدس الذي فيه تم تجسده عندما حل بالعذراء مريم

فهو الآب والابن وروح القدس » . إنجيل متى الإصحاح عدد ١ ، ٢

....

قال البوذيون : « ولما كان بوذا على الأرض في أواخر أيامه بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل « بندافا » أي الأصفر في سيلان ونزل عليه بغتة نور أحاط برأسه على شكل إكليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور عظيم وصار كتمثال من ذهب براق مضيء كالشمس أو كالقمر ، وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة وحينما رأىٰ الحاضرون هذا التحول في هيئته قالوا ما هذا بشر إن هو إلا إله عظيم » . كتاب الملاك المسيح ص ٤٥

وقال النصارى : « لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور » .

....

قال البوذيون : « وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخير الناس وكافة القصص المختصة فيه حاوية لذكرى أعظم العجائب مما يمكن تصوره » . دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخير الناس لذكرىٰ أعظم العجائب مما يمكن تصوره » . إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ٢٨ - ٣٤ وغيره

....

قال البوذيون : « وفي صلاتهم لبوذا يتأمل المؤمنون به دخول الفردوس » .
دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « وفي صلاتهم ليسوع يتأمل المؤمنون بألوهيته دخول الفردوس » .
دوان ص٢٩٣

....

قال البوذيون : « لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان وفتح غطاء التابوت بقوة طبيعية « أي بقوة إلٰهية » . كتاب بنصن الملاك المسيح ٤٩

وقال النصارى : « لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان وفتح القبر بقوة إلهية » .
إنجيل متى الإصحاح ٢٨ وإنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠

قال البوذيون : « وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكمل عمله على الأرض » . دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « وصعد يسوع إلى السماء من بعد صلبه لما كمل عمله في الأرض » . أعمال الرسل الإصحاح الأول عدد ١ - ١٢

....

قال البوذيون : « ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها » . دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض ويعيد السلام والبركة فيها » . أعمال الرسل الإصحاح الأول

....

قال البوذيون : « وَسَيِدين بوذا الأموات » . دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « وسيدين يسوع الأموات » . إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ٢٢

....

قال البوذيون : « وبوذا الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ، والواحد الأذلي » . دوان ص ٢٩٣

وقال النصارى : « يسوع الألف والباء ليس له انتهاء وهو الكائن العظيم ، والواحد الأبدي » . إنجيل يوحنا الإصحاح ١ عدد ١

....

قال البوذيون : « قال بوذا : فلتكن الذنوب التي ارتكبت في هذه الدنيا علي ، ليخلص العالم من الخطيئة » . كتاب مولر المدعو تاريخ الآداب السنسكرتية ص ٨٠

وقال النصارى : « يسوع هو مخلص العالم وكافة الذنوب التي ارتكبت في العالم تقع عليه عن الذين اقترفوها ويخلص العالم » . دوان ص ٩٣ ، وكذلك التعليم المسيحي

....

قال البوذيون : « قال بوذا : أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها . واعترفوا

بذنوبكم علانية » مولر كتابه المدعو العلوم الدينية ص ٢٨

وقال النصارى : « أخفوا الأعمال الحسنة التي تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية » . إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١ ورسالة يعقوب

....

قال البوذيون : « ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير طبيعية والشرير مارا « ويدعونه أيضاً الحية » ذات مظلمة غير طبيعية » .

بنصن الملاك المسيح ص ٣٩ ودوان ص ٢٩٤

وقال النصارى : « ويصفون يسوع أنه ذات من نور طبيعية شمس بر وعدوا الشيطان الحية القديمة » . إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ العدد ١ وإنجيل لوقا

....

قال البوذيون : « وفي أحد الأيام التقى أناندا تلميذ بوذا وهو سائر في البلاد بالمرأة « مناجي » وهي سبط الكندلاس المرذولين قرب بئر ماء . فطلب منها قليلاً من الماء فأخبرته عن سبطها وأنه لايجوز لها أن يقترب منها ، لأنها من سبط محتقر فقال لها ياأختي إني لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك . إنما سألتك شربة ماء فصارت من ذاك الحين تلميذة بوذية » . كتاب مولر المدعو العلوم الدينة ص ٤٠

وقال النصارى : « وفي أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء بعدما سار مسافة ، حتى كاد ينهكه التعب ، وبينما هو قرب البئر عند مدينة السامرة أتت امرأة سامرية لتملأ جرتها من البئر فقال لها يسوع اسقني شربة ماء فقالت له المرأة السامرية أنت يهودي وكيف تطلب مني شربة ماء فإن اليهود لا يستحلون معاملة السامريين » .

إنجيل يوحنا الإصحاح ٤ عدد ١ : ١١

....

قال البوذيون : « قال بوذا أنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله وقد سره عد نفسه حلقة في سلسلة المعلمين الحكماء » .

كتاب بنصن الملاك المسيح ص ٤٧ — ٤٨

وقال النصارى : « قال يسوع لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء ماجئت

لأنقض بل لأكمل » . إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ١٧

....

قال البوذيون : « وبحسب تعليم بوذا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالمحبة والحسنىٰ »

وقال النصارى : « وقال يسوع أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلىٰ مبغضيكم » . إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٤٤

....

قال البوذيون : « وفي أوائل أيام بوذا التي علم وبشّر وفيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها فتبعه كوندينا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلامذة له ومن ذلك الحين صار أينما علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه » .

وقال النصارى : « في أوائل أيام يسوع التي علم وبشر فيها ذهب إلى مدينة كفر ناحوم وعلم فيها فتبعه من ذاك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أينما كرز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به » .

إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ١٣ — ٢٥

....

قال البوذيون : « وقال بوذا للذين صاروا تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة » . هاردي في كتابه المدعو الرهبانية في الشرق ص ٥ — ٦

وقال النصارى : « وقال يسوع للذين صاروا تلامذة ليتركوا الدنيا وغناهم وينذروا عيشة الفقر والفاقة » .

إنجيل متى الإصحاح ٨ عدد ١٩ — ٢٠ والإصحاح ١٦ عدد ٣٥ — ٢٦

....

قال البوذيون : « وجاء في كتاب البوذية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوذا علامة « أي آية ليؤمنوا به » . كتاب علم الأديان ص ٣٧ تأليف مولر

وقال النصارى : « وجاء في كتب النصارى المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع آية كي يؤمنوا به ». إنجيل متى الإصحاح ١٢ عدد ١٢

قال البوذيون : « لما اقترب انتهاء أيام بوذا على الأرض وعلم الحوادث المقبلة التي ستقع قال لتلميذه أناندا مايأتي : يا أناندا متى أنا ذهبت لاتظن أنه لم يعد لبوذا وجود كلا ، فالكلام الذي قلته والفرائض التي افترضتها تكون خلفاً عني وهي لك كذاتي أنا » . كتاب الموناشيزم الشرقية ص ٣٢٠ تأليف هاردي

وقال النصارى : « لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه : اذهبوا وتلمِذوا جميع الأمم . وعلموهم أن يحفظوا هم جميع ما أوصيتكم به وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر » .
إنجيل متى ٢٤ وإنجيل مرقس الإصحاح ٨ عدد ٣١

....

قال البوذيون : « وجاء في التعاليم البوذية أن إنفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومن ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه ، لأن النفس تبخل بالمال وتتمسك به وبوذا قد وهب ونذر حياته شفقة وحنواً لخير الناس ، فلماذا نتمسك بغناء الدنيا الزهيد لما تخلص بوذا من حب المشتهيات الدنيوية وملذاتها نال المعرفة الإلّهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم الهاجر لملذات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير ، عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية » . مولر في كتاب علوم الدين ص ٢٤٤

وقال النصارى : « وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل ليكون الحياة الأبدية قال له يسوع : إن أردت أن تكون عاملاً فاذهب اعط ربع أملاكك الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني ، لاتكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون » . إنجيل متى الإصحاح ٦ عدد ١٩ ، ٢٠

....

قال البوذيون : « وكان قصد بوذا تشييد مملكة دينية أي مملكة سماوية » .
بيل تاريخ البوذية ص ١٠

وقال النصارى : « ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرر ويقول توبوا لأنه اقترب ملكوت السمٰوات » . إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٧

قال البوذيون : « وقال بوذا الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة بينارس لأهب نوراً للتائهين في الظلام وأفتح باب الحياة الإنسانية » . بيل تاريخ البوذية ص ١٤٤

وقال النصارى : « من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتدأ يسوع بتأسيس مملكة دينيه ومن أجل هذا الغرض ذهب إلىٰ مدينة كفر ناحوم ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله الشعب الجالس في ظلمة أبصر نوراً عظيماً والجالسون في كورة الموت وظلاله أشرق عليهم نور » .
إنجيل متى الإصحاح ٤ عدد ٢١ ، ١٧

....

قال البوذيون : « وقال بوذا للتلميذ الحبيب أناندا إن كلامي لا ريب فيه فلا يزول قطعياً ولو وقعت السمٰوات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعاً » . بيل تاريخ البوذية ص ١١

وقال النصارى : « الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لا يزول » .
إنجيل يوحنا الإصحاح الأول عدد ١٧ وإنجيل لوقا

....

قال البوذيون : « لا يوجد شيء أعظم فعلاً في الإنسان من الاشتهاء والهواء الشهواني ولحسن الحظ والسعادة لا يوجد سوىٰ اشتهاء شهواني واحد ولو كان يوجد اشتهاء آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهن وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم » . كتاب تقديم الأفكار الدينية المجلد الأول ص ٢٢٨

وقال النصارى : « قال يسوع : قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنىٰ بها قلبه » .
إنجيل متىٰ الإصحاح الخامس عدد ٢٧ ، ٢٨

....

قال البوذيون : « وقال بوذا الرجل العاقل الحكيم لا يتزوج قط ويرى الحياة الزوجية كأتون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنى » .
ريس دانس في كتابه المدعو البوذية ص ١٠٣

قال النصارى : « فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزويج أصلح من التحرق » .
رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ٧ عدد ١ – ٩

....

قال البوذيون : « ومن جملة التعاليم البوذية قولهم إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاماً ، وهذه الآلام جزاء عليها ، وإذا لم يكن ارتكب شيئاً من الآثام في هذا الدور الحاضر من حياته لابد أن يكون قد ارتكبه في أحد الأدوار السابقة من ظهوره « أي في أحد أدوار تقمصه » .
ريس دانس في كتابه المدعو البوذية ص ١٠٤

وقال النصارى : « وفيما هو مجتاز رأى إنساناً أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين : يامعلم من أخطأ .. هذا أم أبواه حتى ولد أعمى » .
إنجيل يوحنا الإصحاح التاسع عدد ١ ، ٢

....

قال البوذيون : « كان بوذا يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها » . هردي في كتابه المدعو خرافات البوذيين ص ١٨

قال النصارى : « كان يسوع يعلم أفكار الناس عندما يدير تصوراته نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها » .
إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع كلامه مع المرأة السامرية

....

قال البوذيون : « وجاء في كتاب الصومواديفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوذيين أنه قلع عينه ورماها لأنها شككته » .
كتاب مولر المسمى العلوم الدينية ص ٥٤٢

وقال النصارى : « قال يسوع فإن كانت عينك اليمين تعثرك فاقلعها وألقها عنك » . إنجيل متى الإصحاح ٥ عدد ٢٩

....

قال البوذيون : « لما عزم بوذا على التنسك كان راكباً جواداً يدعى كنتاكو ففرشت الملائكة طريقه بالزهر » . هردي في كتابه المسمى خرافات البوذيين ص ١٣

قال النصارى : « لما كان يسوع داخلاً أورشليم راكباً على حمار فرشت له الجموع الطريق بأغصان النخيل » . إنجيل متى الإصحاح ٢١ عدد ١ ، ٩

....

هذا ما نقله الشيخ أبو زهرة من مقارنات ، ولقد نقلناها لتتضح المعجزة في قوله تعالى ﴿ **يضاهئون قول الذين كفروا من قبل** ﴾ وليعرف كيف سرى الضلال إلى الديانة النصرانية ولتعرف ميزة هذه الشريعة .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ..** ﴾ ذكر ابن كثير مايلي :

(روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير - من طرق - عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام ، وكان قد تنصَّر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسا في قومه طيِّءْ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » . وقال رسول الله ﷺ : « يا عدي ما تقول ؟ أيفرّك[١] أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ؟ ما يفرّك ؟ أيفرّك أن يقال لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه

(١) أي أيحملك على أن تَفِرّ وتهرب .

استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » . وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حلّلوا وحرموا . وقال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم)

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ نقول : إن من قرأ كتاب الغارة على العالم الإسلامى . وكتاب التبشير والاستعمار . يجد صورة من صور إرادة النصارى إطفاء نور هذا الإسلام ، ومن قرأ كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، عرف مظهراً من مظاهر إرادة اليهود إطفاء نور الله ، ومن قرأ تاريخ الاستعمار في العالم الإسلامي ، عرف صورة أخرى من صور الرغبة في إطفاء نور الله ، والأمر واسع جداً ، فما من لحظة من التاريخ من زمن رسول الله ﷺ حتى عصرنا هذا إلا والتآمر على هذا الدين قائم . والرّد العملي على ذلك كله هو الجهاد . ولذلك فإن الله ذكر هذا المعنى في كتابه ههنا في سياق الأمر بالقتال .

٧ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ نقول :

إن كثيرين من المسلمين في عصرنا يظنون ظناً خاطئاً أن الإسلام قد انتهى دوره وغرب هلاله ، وبعضهم ينتظر ظهور المهدي وقيام الساعة ، وقد ناقشنا هذا النوع من التفكير في كتابنا جند الله ثقافة وأخلاقاً ، وقد بينا من السنة الصحيحة خطل هذا الفهم . وذكرنا ماورد في الحديث الصحيح من التبشير بفتح المسلمين روما بعد القسطنطينية ، ولم تفتح روما بعد . وهي مفتوحة بإذن الله . وذكرنا قوله عليه الصلاة والسلام هناك : « أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » مما يدل على أن الإسلام بعد فتوره سينشط ، وإني لأرجو ألا يموت جيلنا إلا وقد وضع الأساس لبداية عظيمة ، نهايتها نشر ظل الإسلام على العالم كله بإذن الله . وبهذه المناسبة نذكر ما ذكره ابن كثير مع حذف الأسانيد :

في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها » . وروى الإمام أحمد .. عن مسعود بن قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحي من مُحَارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب

منهم سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإنّ عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » . وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن تميم الداري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزاً ويذل ذليلاً ، عزاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل الله به الكفر » . فكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية » وروى الإمام أحمد أيضاً .. عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أوبذل ذليل ، إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلهم فيدينون لها » . وفي المسند أيضاً .. عن عدي بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : « ياعدي أسلم تسلم » . فقلت : إني من أهل دين . قال : « أنا أعلم بدينك منك » فقلت : أنت أعلم بديني مني ؟! قال : « نعم . ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت : بلى ، قال : « فإن هذا لا يحل لك في دينك » قال : فلم يَعدُ أن قالها فتواضعت لها ، وقال : « أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام ، تقول إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ » . قلت لم أرها ، وقد سمعت بها . قال : « فوالذي نفسي بيده ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذَلَنّ المال حتى لا يقبله أحد » . قال عدي بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وروى مسلم .. عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقلت : يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل ﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق** ﴾ إلى قوله ﴿ **ولو كره المشركون** ﴾ أن ذلك تامٌّ . قال : « سيكون من ذلك ماشاء الله عز وجل ثم يبعث الله ريحاً طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، فيبقى من لا خير فيه ،فيرجعون إلى دين آبائهم » .

وهذه البشائر طريق تحقيقها الجهاد ، والبشارة القرآنية جاءت في معرض الأمر في القتال .

ولنعد إلى التفسير الحرفي :

لقد مرّ معنا في المقطع الثالث ، أمر بقتال أهل الكتاب ، كما مرّ معنا في المقطع الأول أمر بقتال المشركين ، وذُكر فيما بين المقطعين مقطع حدّد معاني لابدّ منها ليقوم القتال الإسلامي . ونحن لازلنا في المقطع الثالث :

لقد مرّت الفقرة الأولى منه ، وفيها مظاهر من انحراف أهل الكتاب التي استوجبت قتالهم ، وتأتي بعد ذلك فقرة وفيها نموذج على ضلال أهل الكتاب ، ونموذج على ضلال مشركي العرب ، وفي ذكر هذين النموذجين بيان لموجبات أخرى تستوجب قتال هؤلاء وهؤلاء ، وفي ذلك بعث لهمم المسلمين أن يقاتلوا المشركين وأهل الكتاب .

المعنى الحرفي للفقرة الثانية من المقطع الثالث :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل** ﴾ أي ليأخذونها عن غير طريق ما أحلّ الله ﴿ **ويصدون عن سبيل الله** ﴾ أي ويمنعون الناس عن سلوك طريق الله أي عن دينه الحق ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ يحتمل هذا النص أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان للدلالة على اجتماع خصلتين ذميمتين فيهم : أخذ الرشا ، وكنز الأموال ، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير ، ومن أشركهم في صفتهم الذميمة هذه من المسلمين ، يدخل في حكمهم ، ويحتمل أن يراد بالنص المسلمون الكانزون غير المنفقين ، وقد قرن بينهم وبين المرتشين من أهل الكتاب تغليظاً ، والمراد بالكنز هنا على القول الراجح هو ما لم يُؤدَّ زكاته كما سنرى ﴿ **ولا ينفقونها** ﴾ أي هذه الكنوز والأموال ﴿ **في سبيل الله** ﴾ فيما شرع وكما أمر ﴿ **فبشِّرهم بعذاب أليم** ﴾ وأي عذاب أشد من النار ﴿ **يوم يُحمىٰ عليها في نار جهنم** ﴾ أي يوم تحمى النار على الكنوز أي توقد ﴿ **فتكوىٰ بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ وخُصّت هذه الأعضاء لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازورّوا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم ، أو معناه يكوون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿ **هذا ماكنزتم لأنفسكم** ﴾ أي يقال لهم : أهذا ما كنزتموه لتنتفع به نفوسكم وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم ؟ وهو توبيخ ﴿ **فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ أي فذوقوا وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال

كونكم كانزين ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً** ﴾ من غير زيادة والمراد بيان أن أحكام الشرع تبتنى على الشهور القمرية المحسوبة بالأهلة دون الشمسية ﴿ **في كتاب الله** ﴾ أي فيما أثبته وأوجبه من حكمه أو في اللوح ﴿ **يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم** ﴾ ثلاثة سرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وواحد فرد وهو رجب ﴿ **ذلك الدين القيّم** ﴾ أي الدين المستقيم لا ما يفعله أهل الجاهلية ، يعنى أن تحريم الأربعة الأشهر هو الدين المستقيم ، ودين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت العرب تمسكت به ، فكانوا يعظمونها ويحرمون القتال فيها حتى أحدثت النسيء فغيّروا ﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أي فلا تظلموا في الأشهر الحرم أو في مجموع الأشهر أنفسكم بارتكاب المعاصي ﴿ **وقاتلوا المشركين كافّة** ﴾ أي جميعاً ﴿ **كما يقاتلونكم كافّة** ﴾ أي جميعاً ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ ينصرهم ويعينهم ، حثّهم على التقوى ، وضمن لهم النّصرة إن كانوا من أهل التقوى . وقد جاء الأمر بالقتال في معرض ذكر تحريم الأشهر الحرم ؛ للدلالة على أن الله الذي حرم الأشهر الحرم هو الذي فرض على المسلمين قتال المشركين فيهن وفي غيرهن ، فلا تقوم للمشركين حجة بالاحتجاج على المسلمين في القتال بالأشهر الحرم ، كما فعلوا فيما قصّه الله علينا من ذلك في سورة البقرة بعد آية فرضية القتال ، وليقيم عليهم الله جل جلاله الحجة في كذبهم في تعظيم الأشهر الحرم ، قصّ علينا قصة النسيء عندهم مما يدل على تلاعبهم في الأشهر الحرم ، فأي تعظيم لهذه الأشهر مع هذا التلاعب ﴿ **إنما النسيء** ﴾ النسيء عندهم هو تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من بين شهور العام أربعة أشهر ﴿ **زيادة في الكفر** ﴾ أي هذا الفعل منهم زيادة في كفرهم ﴿ **يُضَل به** ﴾ أي بالنسيء ﴿ **الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً** ﴾ أي يحلون النسيء عاماً ، ويحرمونه عاماً ، أي إذا أحلوا شهراً من الأشهر عاماً رجعوا فحرموه في العام المقبل ﴿ **ليواطئوا عدةَ ما حرَّم الله** ﴾ أي ليوافقوا العدة التي هي الأربعة ولا يخالفوها ، وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين ﴿ **فيحلوا ما حرم الله** ﴾ أي فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص – كما أمر الله – ما حرم الله من ترك الاختصاص ﴿ **زُيِّن لهم سوء أعمالهم** ﴾ أي زين لهم الشيطان ذلك فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة ﴿ **والله لا يهدي القوم الكافرين** ﴾ حال اختيارهم الثبات على الباطل . وهكذا ذكر في هذه

الفقرة نموذج على انحراف أهل الكتاب ، ونموذج على تحريف المشركين ، وبين ذلك تهديد لمن يكنز ، وأمر بالقتال الشامل للمشركين ، والصلة بين الإنفاق والقتال واضحة ، والصلة بين فضح انحرافات المشركين والكتابيين ، وبين الأمر بالقتال واضحة ، وبهذا انتهى المقطع بعد أن وضّح كل ما له علاقة بقتال المشركين والكتابيين ، وبماذا استأهل الجميع أن يُقاتَلوا ، وبانتهاء المقطع الثالث ينتهي القسم الأول من أقسام سورة براءة بعد أن فصّل في ثلاثة أمور :

١ - في وجوب قتال المشركين وأهل الكتاب .
٢ - في موجبات ذلك ومبرراته .
٣ - في الأخلاق التي لابدّ منها لإقامة الجهاد الإسلامي .

حتى إذا استقرّت هذه المعاني كلها يأتي بعد ذلك القسم الثاني الذي يأمر بالنفير العام ويحذّر المتقاعسين وينذرهم .

فوائد :

١ - لقد حدثنا الله عز وجل عن فساد الأحبار والرهبان ، وفي ذلك تحذير لنا أن نصبح مثلهم ، قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى ، وفي الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » - وفي رواية : فارس والروم ؟ . قال : « فمن الناس إلا هؤلاء » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ..** ﴾ نذكر هذه الأحاديث والآثار :

أ - قال ابن عمر : « ما أُدي زكاته فليس بكنز ، وإن كان تحت سبع أرضين ، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز » . وقد روي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة وغيرهم .

ب - روى ابن أبي حاتم .. عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ الآية . كَبُر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرّج عنكم ، فانطلق عمر واتّبعه ثوبان ، فأتى النبيّ ﷺ فقال : يانبي الله إنه قد كَبُر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول

الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيّب بها ما بقي من أموالكم ، وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » قال : فكبّر عمر ثم قال له النبيّ ﷺ : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » . ورواه الحاكم ، وقال صحيح على شرطهما .

جـ - روى الإمام أحمد ... عن حسان بن عطية قال : كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلاً فقال لغلامه : ائتنا بالشَّفرة(١) نعبث بها ، فأنكرت عليه ، فقال : ماتكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها(٢) وأزمها غير كلمتي هذه فلا تحفظوها عليّ واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسالك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ماتعلم ، وأعوذ بك من شر ماتعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يوم يُحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وظهورهم ..** ﴾ ننقل هذه النقول :

أخرج ابن جرير .. عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « من ترك بعده كنزاً مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذي تركته بعدك ، ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ، ثم يتبعها سائر جسده » . وأصل هذا الحديث في الصحيح .. عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي صحيح مسلم ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل لايؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار ، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتي يقضى بين الناس ، ثم يرى سبيله ، إما إلى الجنّة ، وإمّا إلى النار » . وذكر تمام الحديث . وروى البخاري في تفسير هذه الآية .. عن زيد بن وهب قال : مررت على أبي ذر بالربذة فقلت : ماأنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنا بالشام فقرأت ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا في

---

(١) الشَّفرة : هي التي ترضى بأقل النكاح .

(٢) أي أحترز فيما أقول وأحتاط .

أهل الكتاب قال : قلت : إنها لفينا وفيهم » . وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها عامة . وقال السدي : هي في أهل القبلة . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « مايسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة أيام وعندي منه شيء إلا دينار أرصده لدَيْن » . وروى الإمام أحمد ... عن عبدالله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية ، فجعلت تقضي حوائجه ، ففضلت معها سبعة ، فأمرها أن تشتري به فلوساً قال : قلت :لو ادخرته لحاجة وللضيف ينزل بك . قال : إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أوكي[١] عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل .

٤ - قال ابن كثير :(كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادّخار مازاد على نفقة العيال . وكان يفتي بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ في خلافه . فنهاه معاوية ، فلم ينته ، فخشي أن يضرّ بالناس في هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، وأنزله بالربذة[٢] وحده ، وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضي الله عنه وهو عنده ، هل يوافق عمله قوله ، فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ، ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال : إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فأخطأت ، فهات الذهب ، فقال : ويحك إنها خرجت . ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به) .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن عِدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ..** ﴾ ننقل هذا الحديث : أخرج الإمام أحمد عن أبي بكرة أنّ النبيّ ﷺ خطب في حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر ، الذي بين جمادى وشعبان » ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أن سيسميه بغير اسمه قال : « أليس يوم النحر » قلنا : بلى ثم قال : « أي شهر هذا ؟ » . قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا بلى ، ثم قال : « أي بلد هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى ،

---

(١) شدَّ عليه وكاء وهو كناية عن كنزه .

(٢) قرية تبعد عن المدينة بثلاثة أميال .

قال : « فإن دماءكم وأموالكم – وأحسبه قال – وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، وستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدي ضُلّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

ومعنى قوله ﷺ : « إن الزمان استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض .. » أي إن هذا الشهر الذي حج فيه رسول الله ﷺ هو ذو الحجة كما هو عند الله ، ومن الآن فصاعداً فعلينا أن نحافظ على هذا التقويم من غير تقديم ولاتأخير ولازيادة ولا نقص ، ولانسيء ولا تبديل وأما قوله « ثلاثة متواليات ، ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . فإنما أضافه إلى مضر ليبيّن صحة قولهم في رجب إنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظن ربيعة من أن رجب المحّرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاث سرد وواحد فرد ؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون عن القتال ، وحرم ذا الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ، ويشتغلون فيه بأداء المناسك ، وحرّم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين . وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً .

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين : أحدهما وهو الأشهَر أنه منسوخ ، فالقتال في سبيل الله مفروض في كل الشهور وجائز في كل الشهور .

٦ – وأما قصة النسيء الذي عابه الله على أهله فهذه نُقول تفسره : كانت العرب قبل الإسلام بمدة قد أحدثت تحليل المحرّم فأخرّوه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال .

– وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس أنه قال في النسيء : أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام ، وكان يكنى أبا ثمامة فينادي : ألا إن أبا ثمامة لا يحاب[1] ولا يعاب وإن صفر العامِ الأولِ العامَ حلال ، فيحله للناس ، فيحرم

(١) يحاب : من الحُوْب وهو الإثم أي : لا ينسب إليه الإثم .

صفراً عاماً ، ويحرم المحرم عاماً . فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ **إنما النسيء زيادة في الكفر** ﴾ يقول : يتركون المحرّم عاماً ، وعاماً يحرمونه .

- وقال محمد بن إسحاق : (كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ماحرم الله ، وحرم منها ما أحل الله - عز وجل - ، القَلَمَّس وهو : حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ، ثم ابنه أمية بن قلع ، ثم ابنة عوف بن أمية ، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف ، وكان آخرهم ، وعليه قام الإسلام ، فكانت العرب إذا ما فرغت من حجها ، اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً ، فحرم رجبا ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، ويحل المحرم عاماً ، ويجعل مكانه صفر ، ويحرمه عاماً ليواطىء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله . يعني : ويحرم ما أحلّ الله) .

كلمة في السياق :

رأينا أن سورة براءة امتداد لسورة الأنفال ، وأن محور السورتين واحد ، هو آية فريضة القتال في سورة البقرة ، والآيتان بعدها ، وقد رأينا أن هذا القسم قد فصّل في موضوع القتال ، بإيجاب قتال المشركين ، وأهل الكتاب ، كما وضعنا على الطريق لتنفيذ فريضة القتال ، فإذا ما استقر في هذا القسم أن فريضة القتال تقتضي قتال العالم كله في مداها الواسع ، وكان هذا يقتضي تعبئة ، فإن القسم الثاني في هذه السورة يبتدىء بالأمر بوجوب الاستجابة لصوت النفير العام . وهكذا يأتي القسم الثاني :

☆ ☆ ☆

القسم الثاني من سورة براءة

ويمتدُّ من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (١٢٢)

يبدأ القسم بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثَّاقلْتم إلى الأرض** ﴾ .

وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافَّة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

لاحظ الصلة بين البداية والنهاية في القسم ، وبعد الآية الأخيرة في القسم يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ولْيجِدوا فيكم غلظة** ﴾ .

إن القسم الثاني كله في النفير ومايتعلق به . وقد أمرنا في القسم الأول بقتال غير المسلمين . ويبدأ القسم الثالث في تحديد أولويات القتال .

ويكاد أن يستغرق القسم الثاني معظم السورة ، ولذلك فسنعرضه على مقاطع :

المقطع الأول

ويمتد من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٧٢) ويأتي بعده مباشرة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ إنه المقطع الأول في موضوع النفير وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ
مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا
وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ
تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ
عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ
يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ
ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي
رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ
ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ
إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ
ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي

ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ
وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل
لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾
قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ
بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟
طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ
مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ
وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا
أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى
ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ

ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

المعنى العام :

كما رأينا في سورة الأنفال فقد وجدت نماذج تطبيقية من غزوة بدر على المعاني المرادة هناك ، وكذلك هنا . فإن الكلام عن ضرورة النفير العام وعن موقف الناس منه يأتي من خلال غزوة تبوك ، التي حدث فيها النفير الأقسى في تاريخ الدعوة النبوية ، إن ما حدث قبل غزوة تبوك وخلالها وبعدها هي النماذج التطبيقية على مواقف الناس من النفير ، فالإنسان هو الإنسان والإيمان هو الإيمان والنفاق هو النفاق ، ومن خلال النماذج يأتي الدرس والتوجيه والتربية والتعليم :

يبدأ المقطع بعتاب المؤمنين أن يتكاسلوا أو يميلوا إلى المقام في الدّعَة والأمن وطيب الثمار ، إذا دُعوا إلى النفير للجهاد في سبيل الله ، ثم سألهم عمّا إذا كانوا يفعلون ذلك رضاً منهم بالدنيا بدل الآخرة ، ثم زهّدهم تبارك وتعالى في الدنيا ورغّبهم في الآخرة بأن الدنيا بالنسبة للآخرة لا تساوي شيئاً . ثم توعّد تعالى من ترك الجهاد بالعذاب الأليم ، والاستبدال بقوم آخرين ينصرون دين الله ، مبيّناً لهؤلاء النّاكلين عن الجهاد بأنهم لا

يضرون الله شيئاً بتوليهم عن الجهاد ونكولهم وتثاقلهم عنه ، ومبيناً لهم أن الله قادر على الانتصار من أعداء الله ورسوله بدونهم ، قادر على الاستبدال ، قادر على التعذيب ، ثم بيَّن لهم تعالى أنهم إن لم ينصروا رسوله ﷺ فإن الله ناصره ومؤيّده وكافيه وحافظه ، كما تولى نصره عام الهجرة لمَّا همَّ المشركون بقتله ، أو حبسه ، أو نفيه ، فخرج منهم هارباً بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يسيروا نحو المدينة ، فخاف أبو بكر رضي الله عنه أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » فأنزل الله على رسوله ﷺ طمأنينته ونصره وتأييده ، وأيده بالملائكة وجعل الشرك هو الأسفل والتوحيد هو الأعلى ؛ وذلك كله أثر عن عزّة الله في انتقامه وانتصاره حتى لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بجنابه ، وذلك أثر حكمة الله في أقواله وأفعاله ، ثم أمر الله بالنفير العام لمن كان ثقيلاً أو خفيفاً ، شاباً أو كهلاً ، غنياً أو فقيراً ، نشيطاً أو غير نشيط ، معسراً أو موسراً ، راكباً أو راجلاً ، قوياً أو ضعيفاً ، ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المُهَج في مرضاته ، مبيناً أن هذا خير لأصحاب ذلك في الدنيا والآخرة ، لأنهم يغرمون في النفقة قليلاً فيغنمهم الله أموال عدّوهم في الدنيا مع مايدّخر لهم من الكرامة في الآخرة .

وبعد أن قرر الله عز وجل هذه المعاني ذكر ما حدث يوم تبوك من طلب الكثير الإذن لهم بالتخلف ليبين الله عز وجل لرسوله ﷺ أن هؤلاء الذين طلبوا الإذن بالتخلف ما طلبوا هذا الإذن إلا فراراً من المشقة لا لأنهم عاجزون حقيقة ، بدليل لو أن سفره عليه الصلاة والسلام كان لغنيمة قريبة ولمكان قريب ، ما تخلفوا ولا طلبوا الإذن . فهؤلاء هم الكاذبون في إيمانهم ، الكاذبون في كلامهم ، الذين سيستقبلون المسلمين بعد عودتهم بالأيمان الكاذبة ، أنهم ما خلّفهم عنهم إلا العذر ، وما هم بمعذورين ، ثم عاتب الله رسوله ﷺ على إذنه لمن أذن له ، مبيناً له أنّه كان عليه ألا يأذن ، ليتبيَّن صدق المستأذِن في استئذانه هل يتخلف أو يذهب إذا لم يكن إذن ؟ وليظهر الصادق في إيمانه من الكاذب في إيمانه ، ثم بين الله تعالى لرسوله ﷺ أن المؤمنين الصادقين لا يستأذنون في القعود عن الغزو لأنهم يرون الجهاد قربة يتقربون بها إلى الله ، فكيف يتخلّون عنها ؟ ثم بين تعالى أن الذين يستأذنون في القعود ممّن لا عذر لهم في الحقيقة هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة

على أعمالهم وشكت قلوبهم في صحة الإسلام حتى أصبحوا في شكهم يتحيرون ، يقدمون رِجْلاً ويؤخرون أخرى ، ثم دلل الله على كذبهم في استئذانهم وأنهم ما تخلفوا بسبب الإذن بل لأنهم من الأصل لا يريدون القتال والخروج أَذِهَن لهم رسول الله ﷺ أو لم يأذن ، بأنهم ما أظهروا أي علامة صدق للخروج فلم يستعدوا ويعدوا له أصلاً ، فلو كانوا صادقين لتأهبوا ، ثمّ بيّن الله عز وجل لرسوله ﷺ أن عدم خروج أمثال هؤلاء فيه مصلحة للمسلمين لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين لم يكن دورهم إلا دور المخلخل للصف ، الباث فيه الفتنة ، خاصّة وأن بعضاً من المؤمنين مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم ، لأنهم لا يعلمون حالهم ، فيؤدي ذلك إلى وقوعٍ شر بين المؤمنين وفساد كبير ، ومن ثَم فإن الله كره خروجهم مع المؤمنين فلم يُوفِّقهم للخروج ، بل قدّر عليهم أن يتخلفوا ؛ لعلمه بهم أنهم ظالمون ، ولعلمه بهم أنهم لو خرجوا مازادوا المسلمين إلا خبالاً ، ثم دلل الله تعالى على ما سيفعلونه لو خرجوا بما فعلوه قبل ذلك : من إعمالهم فكرهم ! وإجالتهم آراءهم في كيد الرسول ﷺ وأصحابه ، وخذلان الإسلام وإخماده مدة طويلة ، حتى إذا أعزّ الله دينه دخلوا فيه نفاقاً ، وغاظهم كل موقف أعزّ الله به جنده .

وهكذا أجمل الله حال هؤلاء المستأذنين عن الجهاد يوم يكون نفير ، حاكما عليهم بالنفاق بشكل عام ، ثم بدأ يذكر أصناف هؤلاء المنافقين من خلال كلامهم الذي يعبّر عن نفاقهم ، فبدأ بالنموذج الأول من هؤلاء المنافقين المستأذنين الذين يستأذنون ويعتذرون بما ليس عذراً إذ يطلبون الإذن بحجة أنهم إذا خرجوا للجهاد ورأوا النساء لا يصبرون عنهن فيقعون في الحرام ، فأي عذر هذا ! عذر يقودهم إلى النار التي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب ، وهكذا نجد أن النفير العام هو المحك الحقيقي للإيمان ، وهو المظهر العملي للنفاق وأهله ، وأن هذا النفاق يعبر عن نفسه بنماذج شتى ، وقد رأيناه كيف عَبَّر عن نفسه عند النموذج الأول بهذا النوع من الاستئذان السخيف والاعتذار السمج ، وبعد أن تحددت صفات هذا النموذج وأعيانهم أعلم الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنّه مهما أصابه من حسنة - أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسرُّه ويسرّ أصحابه - ساءهم ذلك ، وإذا كان العكس فرحوا بموقفهم الاحترازي من المتابعة والسير والغزو ، ثم أرشد الله رسوله ﷺ والمؤمنين إلى ما يقولونه لهؤلاء جواباً على عداوتهم التامة بالإعلان عن إيمانهم بقدر الله ، ورضاهم عن الله فيما

يقدره عليهم ، كيف وأنه هو مولى المؤمنين ، والمؤمنون عليه متوكلون ، وليس عند الله للمؤمنين إلا الخير مهما كان ظاهر الأمر خلاف ذلك ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء أنهم لا ينتظرون بالمؤمنين إلا النصر أو الشهادة ، غير أن المؤمنين ينتظرون بالمنافقين عذاب الله المباشر ، أو عذاب الله بأيدي المؤمنين ، فلْينتظروا إذن والمؤمنون منتظرون ، وشتان بين الانتظارين ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء أنهم مهما أنفقوا من نفقة طائعين أو مكرهين فإن الله لا يقبلها بسبب كفرهم بالله والرسول ﷺ ، والأعمال إنما تقبل وتصح بالإيمان ، وبسبب كسلهم إذا قاموا إلى الصلاة ، مما يدل على أنه ليس لهم قدم صحيح ولا هِمّة في العمل ، وبسبب كونهم لا ينفقون نفقة إلا وهم كارهون ، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً ؛ لأنه إنما يتقبل من المتقين ، ثم نهى الله رسوله ﷺ أن يعجبه ما هم فيه من أموال أو أولاد ، فما هي إلا نوع عذاب لهم ، ثم عاقبتهم أن يميتهم الله - حين يميتهم - على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، فما أموالهم ولا أولادهم إلا استدراج لهم ، ثم فضح الله تعالى ما يتظاهرون فيه من كونهم يحلفون الأيْمان المؤكدة للمؤمنين أنّهم منهم وما هم من المؤمنين ، ثم بين أن حلفهم أثر عن جزعهم وخوفهم ، وأنهم يودون أن لو وجدوا حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ، أو مقامات في الجبال يلجأون إليها ، أو سرباً ونفقاً في الأرض يسرعون إليه كي لا يخالطوا المؤمنين ولا يروهم ولا يروا من سلطانهم وعزهم ، فهم يخالطون المؤمنين ويعيشون في دولتهم كرهاً لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونهم . ولهذا لا يزالون في همّ وحزن وغمّ ؛ لأن الإسلام لا يزال في عزّ ونصر ورفعة ، فلهذا فإن كل ما سرَّ المؤمنين يسوؤهم ، فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين ، فلا يغرنّ المؤمنون بأيْمانهم أنهم مع المؤمنين ، وبعد أن ذكر الله عز وجل هذ النموذج المارّ ذكره من المنافقين ثنى بذكر نموذج آخر منهم .

هذا النموذج الثاني من المنافقين نموذج طامع لَمّاز ، يعيب على رسول الله ﷺ تقسيمه الصدقات ويتهمه في عدله ، فعليهم لعائن الله ؛ إذ أنهم لا يعلنون ذلك إلا لحَظّ النفس والشيطان ، ولا يمكن أن يكون فعلهم إلا حظاً للنفس والشيطان ، بدليل أنهم إذا أعطوا من هذا الزكوات رضوا ، وإذا لم يعطوا منها أظهروا سخطهم ،ولما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسمه الصدقات ، بيّن تعالى مصارف الزكوات ؛ ليعلم هؤلاء المنافقون أن الله هو الذي قسّمها وبيّن حكمها وتولى

أمرها بنفسه ، ولم يَكِل قسمها إلى أحد غيره ، وقد حدّد الله مصارفها بأنهم ثمانية أصناف : الفقراء ، والمساكين ،والعاملون عليها وهم : الجباة والسعاة ، والمؤلفة قلوبهم وهم أقسام:فمنهم من يُعطى ليسلم ، ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممّن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، أو ليكف ضرره ، والصنف الخامس من مصارف الزكاة هم الرقاب من مكاتبين أو غير ذلك على خلاف بين الفقهاء - كما سنرى - والصنف السادس : الغارمون وهم أقسام : فمنهم من تحمّل حمالة ، أو ضَمن دَيْناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب ، وتفصيل ذلك سيأتي ، والصنف السابع : في سبيل الله ويدخل فيهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان وغير ذلك مما سيأتي ، والصنف الثامن:ابن السبيل : وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيُعطىٰ من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه ، ثم ختم الله آية الزكاة بتبيان أن هذا فرض فرضه الله ،فهو حكم مقدّر بتقدير الله وفرضه وقسمه ، والله عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده ، حكيم فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وهكذا حدد الله مصارف الزكاة في معرض السياق العام في الأمر بالنفير ، وفي معرض قطع طمع المنافقين في الزكاة في السياق الخاص ، ومجيئها في السياق العام واضح الحكمة لما في الزكاة من إعانة على الجهاد ، ومجيئها في السياق الخاص واضح الحكمة .

ثم يذكر الله عز وجل نموذجاً ثالثاً من نماذج المنافقين : وهو النموذج الذي يؤذي رسول الله ﷺ بالكلام ، ويصف ما هو حسن فيه فيجعله غير حسن ، ومن ذلك قولهم عن رسول الله ﷺ بأنه أُذُن أي : يصدق كل ما يقال له ، وقد ردّ الله عز وجل عليهم بأن الرسول ﷺ شديد الإصغاء لمستمعه ، وليس ذلك شراً بل هو خير لصالح المؤمنين ولكنه عليه الصلاة والسلام يعرف الصادق من الكاذب ، فيصدق الصادق ويصدق المؤمنين ، وهو عليه الصلاة والسلام الرحمة الكاملة الخالصة للمؤمنين ، ثم هدّد الله هؤلاء الذين يؤذون رسوله عليه الصلاة والسلام بالعذاب الأليم ، ثم زادنا الله بصيرة بحال هذا الصنف من المنافقين ، وكيف أنهم يحلفون للمسلمين ليرضوا المسلمين ، مع أن الأجْدَر بهم أن يرضوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين حقاً ، ولكنهم ليسوا مؤمنين ،

ولذلك لم يعلموا ولم يتحققوا أنه من حارب الله ورسوله فأن له عذاب جهنم خالداً فيها ، مهاناً معذباً ، وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير ، وبعد أن بيّن الله عز وجل في بداية المقطع أن المحك الذي يظهر المنافق من المؤمن هو الموقف من النفير العام ، وأن الذين يستأذنون ولا عذر لهم هم المنافقون . وبعد أن ذكر لنا ثلاثة نماذج من نماذجهم بين الله عز وجل كيف أن المنافق يبقى دائماً خائفاً أن يفتضح أمره بأن ينزل الله سورة تتحدث عما في قلبه ، كما بيّن أن هؤلاء المنافقين من طبيعتهم الاستهزاء ، وقد هدّدهم الله عز وجل بأن الله سينزل على رسوله ﷺ ما يفضحهم ، ويبيّن أمرهم ، وقد كان ذلك بهذه السورة ، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين . وإذن وفي هذا السياق بيّن لنا الله عز وجل طبيعة من طبائع المنافقين وهي استهزاؤهم بالإسلام وأهله ، واستهزاؤهم بالله وآياته ، ولكنهم من جبنهم إذا وُوجهوا بأقوالهم تظاهروا بأنهم قالوا ما قالوه من باب المداعبات والملاطفات والتنكيتات ، وقد ردّ الله عز وجل عليهم أن تكون آيات الله محل استهزاء في مزاح أو جدّ ، وجعل ذلك كفراً وفتح باب التوبة لمن يتوب وهدّد بالعذاب لمن أصرّ .

وهكذا تكشّفت لنا طبيعة أخرى من طبائع المنافقين ، وظهر لنا نموذج من نماذجهم ثم ختم الله هذا المقطع بأن عرّف لنا المنافقين والمؤمنين الصادقين .

أما المنافقون فقد وصفهم بأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، وأنهم بخلاء عن الإنفاق في سبيل الله ، وأنهم ينسون ذكر الله ، وأنهم فاسقون خارجون عن طريق الحق ، داخلون في طريق الضلالة ، ثم ذكر الله ما أعدّه لهم من العذاب المقيم الخالد في نار جهنم . ثم ذكر الله عز وجل أن ما سيصيبهم قد أصاب أمثالهم من السابقين ، وقد كانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فأحبط الله أعمالهم وجعل عاقبتهم النار . وهؤلاء يسيرون على طريق أولئك في التمتع في الدنيا ، والخوض في الكذب والباطل ، فالطريق واحدة والنهاية واحدة : النار وبطلان العمل ، ثم وعظ الله هؤلاء المنافقين بأن ذكرهم بما أصاب الأمم السابقة عدلاً منه ، فلْيحذروا أن يصيبهم ما أصابهم .

ثم عَرّف الله المؤمنين بأنهم متناصرون متعاضدون فيما بينهم ، وأنهم أَمَرَةٌ بالمعروف ،نُهاة عن المنكر ، مقيمون للصلاة ، مؤتون للزكاة ، طائعون لله والرسول فيما أمر ونهى ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون ، وقد وعدهم الله أن يرحمهم بما اتصفوا

من هذه الصفات ، ثم ذكر الله بعزته وحكمته في هذا المقام فهو المعز لمن أطاعه ، المعز لمن اتصف بهذه الصفات ، الحكيم في قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ،فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى ، ثم أخبر الله بما أعده للمؤمنين والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في الجنات من مساكن وما حوت ، ومن رضوان الله ، وهو أعظم من كل نعيم وأي فوز أعظم من هذا الفوز .

وبهذا ينتهي المقطع الأول من القسم الثاني في هذه السورة ليأتي المقطع الثاني مبتدئاً بالأمر بجهاد الكافرين والمنافقين ، بعد أن وصف المنافقين كما رأينا ، وإذ كان الأمر الجديد بجهاد المنافقين مع جهاد الكافرين يقتضي مزيداً من وصف المنافقين فإن المقطع اللاحق سيكون امتداداً لوصف المنافقين وأحوالهم من خلال استكمال عرض ما حدث في غزوة تبوك ، وهذا شيء سنراه في المقطع الثاني .

كلمة في السياق :

١ - في القسم الأول من السورة جاء أمر بقتال المشركين ، وأمر بقتال أهل الكتاب ، ثم جاء القسم الثاني فأظهر لنا من خلال الموقف من النفير أن هناك منافقين ، وإذن فليس المظهر الوحيد للكفر هو الشرك وانحرافات أهل الكتاب ولذلك فإن المقطع الأول من القسم الثاني أوصلنا إلى المقطع الثاني في القسم الثاني والذي بدايته ﴿ **يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ فليس المشركون العرب وحدهم محل القتال ، وليس أهل الكتاب وحدهم محل قتال ، بل المشركون وأهل الكتاب وكل كافر ومنافق ، إن عملية الجهاد يجب أن تبقى مستمرة حتى يخضع العالم كله لكلمة الله ، ولا يعني هذا الإكراه على الدخول في دين الله ، إلا مشركي العرب .

٢ - عرفنا من السياق أن النفير العام هو الذي يظهر فيه النفاق ، كما يظهر الإيمان ، ورأينا أن المنافقين من شأنهم في النفير العام الاستئذان من غير ما عذر ، والطمع ، وأن من شأنهم التشكيك في القيادة ، والتشكيك في تصرفات المؤمنين .

٣ - عرّفنا السياق على صفات المؤمنين الحقيقيين ، كما عرّفنا على صفات المنافقين ، وإذ كان المنافق في الأصل يكتم سرّه ، ويتظاهر بالإيمان وإذ سيصدر أمر بجهاد المنافقين ، فإن

الله عز وجل في هذه السورة بيّن لنا ما نستطيع به من خلال المواقف والأفعال أن نتعرّف به على هؤلاء المنافقين .

٤ - من هذه السورة ندرك مضمون الحديث الشريف « من لم يغز ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق » إن المسلم مكلَّف بمهمات كبرى ، طريقها القتال ، ولذلك فإن كل مسلم يجب أن يكون إما في قتال أو في نية قتال ، وهذه السورة تكشف لنا مظاهر النفاق من خلال الموقف من أوامر القتال . فلننتبه كثيراً ونحن نقرأ تفسير هذا القسم .

فإلى التفسير الحرفي للمقطع الأول من القسم الثاني .

التفسير الحرفي :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا** ﴾ أي اخرجوا للقتال ﴿ **في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ أي تثاقلتم أي تباطأتم ومِلتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ، أو مِلْتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ﴿ **أرَضِيتم بالحياة الدنيا من الآخرة** ﴾ أي بدلها ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة** ﴾ أي في جنب الآخرة ﴿ **إلا قليل** ﴾ روى الإمام أحمد عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع » . وأشار بالسبابة ورواه مسلم . ﴿ **إلا تنفروا** ﴾ أي إلا تنفروا إلى الحرب ﴿ **يعذبكم عذابا أليماً** ﴾ إما عذاباً كونياً أو عذاباً بأيدي أعدائكم يذلونكم ويضطهدونكم ﴿ **ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ أي لنصرة دينه ﴿ **ولا تضروه شيئاً** ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ ومن ذلك التبديل والتعذيب والانتصار من الأعداء بدونكم ، وفي الآية تهديد عظيم للمتثاقلين عن الجهاد حيث أوعدهم كما قال النسفي : (بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين) يهلكهم ويستبدل بهم قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع ، وأنه غني عنهم في نصرة دينه فلا يضرّ دين الله تثاقل مَنْ تثاقل ، وإنما يضر المتثاقل نفسه ، ولو نظرنا إلى حال العرب خلال العصور - كمثال - فإننا نجد كيف أنه عندما تموت روح الجهاد فيهم ويتركون القيام به فإن الله يستذلهم ويهيىء لرفع لواء الإسلام أمماً أخرى كالأتراك وغيرهم ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله** ﴾ أي إلا تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى

نصره ﴿ **إذ أخرجه الذين كفروا** ﴾ حين هموا بقتله فأذن الله له بالخروج ، فكان همهم بقتله إخراجهم إياه ﴿ **ثانيَ اثنين** ﴾ أي أحد اثنين وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر والمعنى:إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد . ودل بقوله فقد نصره الله على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت ﴿ **إذ هما في الغار** ﴾ هو ثقب في أعلى جبل ثور وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة ، مَكَثا فيه ثلاثة أيام ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾ أي بالنصرة والحفظ وبهذه الآية استدلوا على من أنكر صحبة أبي بكر ، روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أنس أن أبا بكر حدّثه قال : « قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال : فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه** ﴾ أي على النبي ﷺ على الأرجح ، وقيل على أبي بكر لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته لكنّ هذا لا ينافي تجدّد سكينة خاصة بتلك الحال ، والسكينة : ما ألقي في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه ﴿ **وأيّده بجنود لم تروْهَا** ﴾ أي الملائكة فإن كان المراد يوم الغار فبصرف وجوه الكفار وأبصارهم عن أن يروه ، وإن كان فيما بعد فيكون المراد ما أمدّ به عليه الصلاة والسلام من مثل يوم بدر والأحزاب وحنين ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى** ﴾ أي دعوتهم أو شعاراتهم المشركة ﴿ **وكلمة الله** ﴾ أي دعوته أو شعار المسلمين الأول لا إله إلا الله ﴿ **هي العليا** ﴾ وكلمة الله لم تزل عالية لذلك رفعت في قراءة حفص ﴿ **والله عزيز** ﴾ يعز بنصره أهل كلمته ﴿ **حكيم** ﴾ يذل أهل الشرك بحكمته .

فوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل** ﴾ ذكر ابن كثير ما قاله عبدالعزيز بن أبي حازم عن أبيه قال : لما حضرت عبدالعزيز بن مروان الوفاة قال : ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه ، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال : **أما** لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفي غرور .

٢ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكلمة الله هي العليا** ﴾ نذكر الحديث الوارد في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن

الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

وبعد أن بيّن الله تعالى عاقبة ترك النفر واستغناء الله ورسوله عن نصرة من لم يشارك بالنفر أصدر الله عز وجل أمره الجازم بالنفر فقال : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ أي كلكم إلا من كان ذا عذر ، وقد دارت عبارات المفسرين بما يفيد ذلك ومما قالوه : أي خفافاً في النفور لنشاطكم وثقالاً عنه لمشقته عليكم ، أو خفافاً لقلة عيالكم وثقالاً لكثرتها ،أوخفافاً من السلاح وثقالاً منه ، أو ركباناً ومشاة ، أو شباباً وشيوخاً ، أو مهازيل وسماناً ، أو صحاحاً ومراضاً ، والمهم أن النفرة إذا جاء الاستنفار واجبة على الجميع إلا ما استثنى الله في سورة الفتح أو ما ذكره الله في هذه السورة من قوله ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج** ... ﴾ كما سنرى ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ هذا إيجاب للجهاد بالمال والنفس إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحالة والحاجة والاستطاعة ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ أي الجهاد خير لكم من تركه ﴿ **إن كنتم تعلمون** ﴾ فمن لم يعلم أن الجهاد خير ، ومن لم يجاهد ، فإنه جاهل .

فوائد :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ نذكر هاتين الحادثتين :

أ - قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله** ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً ، جهزوني يابني ، فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير فدفنوه فيها .

ب - أخرج ابن جرير قال حدثني حبان بن زيد قال : نفرنا مع صفوان بن عمرو - وكان والياً على حمص قبل الأفسوس - إلى الجراجمة فرأيت شيخاً كبيراً هرماً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت : ياعم لقد أعذر الله إليك ، قال : فرفع حاجبيه فقال : يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً ألا إنه

من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل »

وبمناسبة هذه الآية نذكر هذا الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال : « تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة » . ولنفرض أن أحداً وجد كراهة في نفسه للجهاد وتثاقلاً عنه ، فعليه في هذه الحالة أن يجاهد نفسه ويحملها على الجهاد ، كما ينبغي أن يفعل ذلك في كل شيء فرضه الله عليه ، روى الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل : « أسلِمْ قال : أجدني كارهاً . قال أسلم وإن كنت كارهاً » .

وبعد أن بيّن الله عاقبة ترك النفر وعقوبته ، وأمر بالنفير العام . بدأ يعالج ظاهرة التخلف وما يحيط بها من خلال ما حدث في غزوة تبوك التي كانت النفير الأقسى في زمن رسول الله ﷺ ، فما حدث يومها من تخلف ، وما حدث خلالها من وقائع إنما هي النماذج الخالدة لما يحدث عند إعلان النفير ، وما يكون خلاله ، ولذلك يستمر بعرض هذه النماذج إلى نهاية السورة تقريبا .

إن الناس يواجهون عادةً النفيرَ بأحد موقفين . إما بالاندفاع له ، وإما بالاستئذان عن المشاركة فيه ، وهذا ما حدث يوم تبوك إذ استأذن الكثير عن الخروج ، واندفع المؤمنون الصادقون للخروج ، وقد حكم الله على الذين استأذنوا دون عذر بالنفاق وفتح لهم باب التوبة ، ولم يستثن من الحكم بالنفاق إلا ثلاثة كانوا صادقي الإيمان ، فعوملوا معاملة العصاة كما سنرى ، والمقطع يعرض ظاهرة - فيما يعرض - الاستئذان وكيف قابلها رسول الله ﷺ وعتاب الله له عليه الصلاة والسلام على إذنه لمن استأذن وحكم هؤلاء المستأذنين فقال :

﴿ **لو كان عَرَضاً** ﴾ العرض هو ما يعرض للإنسان من منافع الدنيا ﴿ **قريباً** ﴾ أي سهل المأخذ ﴿ **وسفراً قاصداً** ﴾ أي وسطاً مقارباً ، والسفر القاصد هو المعتدل والمعنى: لو كان إلى مغنم سهل وسفر معتدل ﴿ **لاتبعوك** ﴾ أي لوافقوك في الخروج ﴿**ولكن بَعُدت عليهم** الشُقّة ﴾ أي المسافة الشاطة الشاقة ﴿ **وسيحلفون بالله** ﴾ أي سيحلف المتخلفون عند رجوعك من الغزوة معتذرين ﴿ **لو استطعنا** ﴾ استطاعة عدّة أو

استطاعة أبدان ﴿ **لخرجنا معكم** ﴾ وفي الآية دليل من دلائل النبوة لأنه أخبر بما سيكون بعد القفول فقالوا كما أخبر ﴿ **يهلكون أنفسهم** ﴾ أي بالحلف الكاذب ﴿ **والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ أي فيما يقولون ﴿ **عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم** ﴾ هذا من لطف العتاب إذ صُدّر بالعفو الخطاب ﴿ **لم أذنت لهم** ﴾ هذا بيان لما استحق به أن يخاطب بالعفو الذي يفيد سبق مايحتاج إلى عفو ، ومعناه : مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن ﴿ **حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ أي حتى يتبين لك الصادق في العذر من الكاذب فيه ﴿ **لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا** ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا في الجهاد أو في القعود عنه ، فالمؤمن يندفع نحو الجهاد اندفاعاً تلقائياً ، فكيف إذا صدر الأمر بالنفير ؟ ﴿ **بأموالهم وأنفسهم** ﴾ قدم الجهاد بالأموال على الأنفس لأن الجهاد بالنفس لا يقوم إذا لم يسبقه جهاد بالمال ﴿ **والله عليم بالمتقين** ﴾ فلْيجاهدوا إذن ومادام الله يعلم جهادهم فأجرهم عنده حاصل ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ يعنى المنافقين فهم الذين لا يرجون ثواب الله وهم الذين يستأذنون بالقعود عن الجهاد ﴿ **وارتابت قلوبهم** ﴾ أي شكوا في دينهم واضطربوا في عقيدتهم ﴿ **فهم في ريبهم** ﴾ أي في شكهم وحيرتهم ﴿ **يترددون** ﴾ أي يتحيرون لأن التردد ديدن المتحير ، كما أن الثبات ديدن المتبَصِّر ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له** ﴾ أي الجهاد أو للخروج ﴿ **عدة** ﴾ أي أهبة ، فدل ذلك على أنهم من الأصل قد نووا القعود ، أَذِنَ لهم رسول الله ﷺ أو لم يأذن ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم** ﴾ أي نهوضهم للخروج ﴿ **فثبطهم** ﴾ أي فكسلهم وضعّف رغبتهم في الانبعاث ؛ عقوبة لهم ونظراً للمسلمين لأن ذلك في صالحهم والتثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه ﴿ **وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ أي قال بعضهم لبعض ، أو قاله الشيطان بالوسوسة لهم وفي النص ذمّ لهم ، وإلحاق لهم بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود في البيوت ، ثم بيّن تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، وأن في ذلك مصلحة المؤمنين ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً** ﴾ أي إلا فساداً وشراً لأنهم جبناء مخذولون ﴿ **ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة** ﴾ أي ولسعوا بينكم بالنمائم وإفساد ذات البين يطلبون بذلك أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم ﴿ **وفيكم سمّاعون لهم** ﴾ تحتمل وجهين : الأول : أي سماعون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم ، والثاني : أي وفيكم مطيعون لهم ومستحسنون

لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير ﴿ **والله عليم بالظالمين** ﴾ هذا وصف للمنافقين بالظلم والنص فيه تهديد لهم ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل** ﴾ بصد الناس وبرجوعهم يوم أحد وغير ذلك من فعلهم القبيح في الكيد للإسلام ورسوله ﴿ **وقلّبوا لك الأمور** ﴾ أي ودبّروا لك الحيل والمكايد ، ودوّروا الآراء في إبطال الإسلام ، ونفوذ أمر رسوله ﴿ **حتى جاء الحق** ﴾ أي النصر والتأييد ﴿ **وظهر أمر الله** ﴾ أي وغلب دينه وعلا شرعه ﴿ **وهم كارهون** ﴾ أي علا أمر الله على رغم منهم ، وبهذه المجموعة من الآيات تحدّد حال المعتذرين عن الجهاد ، وتحدد وضعهم ، وتحدّدت العوامل التي أقعدتهم ، وتبيّن أن عدم وجودهم في الصف لمصلحة الصف ، ولئن عوتب رسول الله ﷺ في الإذن لهم فذلك من أجل فضحهم ، وإلا فقد كانت الحكمة ظاهرة في قعودهم .

الفوائد :

١ - قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ تنبيه على أنه ينبغي أن يستدل عليه الصلاة والسلام باستئذانهم على حالهم ولا يأذن لهم أي ليس من شأن المؤمنين وعادتهم أن يستأذنوك في ﴿ **أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ فإن الخلَّص منهم يبادرون إليه من غير توقف على الإذن فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف عنه ، أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعاً طار على متنه يبتغي القتل أو الموت مظانه) .

وقال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **إنما يستأذنك** ﴾ أي في التخلف ﴿ **الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ تخصيص الإيمان بهما في الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان فمن آمن بهما قاتل في سبيل دينه وتوحيده وهان عليه القتل فيه لما يرجوه في اليوم الآخر من النعيم المقيم ومن لم يؤمن بمعزل عن ذلك ، على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به ﴿ **وارتابت قلوبهم** ﴾ عطف على الصلة ، وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق الريب وتقرره ﴿ **فهم في ريبهم** ﴾ وشكهم المستمر في قلوبهم ﴿ **يترددون** ﴾ أي يتحيرون » أقول : دلت الآية الأولى على أن الجهاد -إذا تعيّن - لا يحتاج إلى استئذان وهذا موضوع مهمّ في عصرنا .

لقد رأينا مذهب الإمام مالك ، أنه إذا لم يبلغ المجاهدون اثني عشر ألفاً لا يفترض عليهم أن يقاتلوا مَنْ غَيّر أحكام الله وبدّلها ولكن إذا لم يفترض عليهم فإنه جائز لهم ، فإذا ما رغب أفراد أن يقاتلوا الذين غيّروا وبدّلوا فإن لهم ذلك ، ولا يحتاجون إلى إذن أحد في ذلك إلا إذا ترتب على ذلك أن تستضر جهات مسلمة غيرهم بسبب ذلك فعليهم أن يستأذنوها أو يعملوا على ألا يلحق غيرهم ضرر بسببهم ، وهو موضوع يحتاج إلى فتوى أهلها وتحتاج الفتوى فيه إلى موازنات متعددة .

٢ - قال النسفي : (وقيل شيئان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفدية من الأسارى فعاتبه الله ، وفيه دليل على جواز الاجتهاد للأنبياء عليهم السلام لأنه عليه الصلاة والسلام إنما فعل ذلك بالاجتهاد وإنما عوتب - مع أن له ذلك - لتركه الأفضل ، وهم يعاتبون على ترك الأفضل) .

٣ - وفي قوله تعالى : ﴿ **وفيكم سمّاعون لهم** ﴾ قال محمد بن إسحق : كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبدالله بن أُبيّ بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً في قومهم فثبّطهم الله لعلمه بهم إن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعةفيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ .

٤ - إن من المجمع عليه ألا يكتب المصحف إلا برسم الصحابة له وذلك لأن هذا الرسم هو الذي يستوعب قراءات القرآن ، وهو الذي حفظ به القرآن أول مرة ، وهو الذي لا اختلاف عليه ، وهو الذي منع الاختلاف أول مرة ، وبإبقائه على ما هو عليه تبقى الأمة غير مختلفة فيه وهذا سبب وجود بعض الأحرف وبعض أنواع الرسم الذي يختلف عن إملائنا الحالي ومن ذلك ما ذكره النسفي في كلمة في النص السابق قال : وخط في المصحف ﴿ **ولا أوضعوا** ﴾ بزيادة الألف لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ، ونحو (أولا أذبحنه) .

٥ - وفي قوله تعالى عن المنافقين ﴿ **يبغونكم الفتنة** ﴾ قال الألوسي : أي يطلبون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم وتهويل أمر العدو عليكم ، وإلقاء الرعب في قلوبكم ، وهذا هو المروي عن الضحاك . وعن الحسن أن الفتنة بمعنى الشرك أي يريدون أن تكونوا مشركين .

وبعد أن أجملت المجموعة السابقة موقف المنافقين جملة من النفير تأتي الآن مجموعات كل مجموعة تتحدث عن نموذج من نماذج النفاق من خلال موقفهم من النفير . النموذج الأول : نموذج يعتذر عن الجهاد بحجة ظاهرها أنها حجة يمليها الدين وهو كاذب منافق . وهذا هو النموذج ﴿ **ومنهم من يقول ائْذن لي** ﴾ أي في التخلف عن الجهاد والنفير ﴿ **ولا تفتني** ﴾ أي ولا توقعني في الفتنة - وهي الإثم - بألا تأذن لي فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت ، أولا تلقني في الهلكة فإني إذا خرجت معك هلك مالي وعيالي ، والآية عامة تدخل فيها صور كثيرة وسبب النزول يحدد أحد معانيها وسنذكره ﴿ **ألا في الفتنة سقطوا** ﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها بتخلفهم عما فرضه الله وأي فتنة أعظم من القعود عن الجهاد ﴿ **وإن جهنم لـمحيطة بالكافرين** ﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب لأن أسباب الإحاطة معهم ، هذا هو النموذج الأول وأصحابه يعتذرون عن الجهاد بصورة عذر ظاهره شرعي وهم منافقون في الحقيقة بدليل عواطفهم التي عبّرت عنها الآية اللاحقة وهي ﴿ **إن تصبك حسنة** ﴾ أي ظفر وغنيمة في غزوة ﴿ **تسؤهم** ﴾ لأن عواطفهم كافرة لا تفرح لفرح أهل الإيمان ﴿ **وإن تصبك مصيبة** ﴾ أي نكبة وشدة في بعض غزواتك ﴿ **يقولوا** ﴾ مفتخرين بشدة احتراسهم ، راغبين بأنفسهم أن يصيبهم ما أصاب المؤمنين ﴿ **قد أخذنا أمرنا** ﴾ الذي نحن مُتّسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبل ما حدث من النكبة والشدة ﴿ **ويتولوا** ﴾ أي ويعرضوا ﴿ **وهم فرحون** ﴾ أي مسرورون وهنا يأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء ثلاثة معانٍ . المعني الأول ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا** ﴾ أي ما قضى لنا من خير وشر ﴿ **هو مولانا** ﴾ الذي يتولانا ونتولاه وهو الذي يرعى شأننا كله ، ومهما أصابنا من شيء فهو - وإن كان ظاهره شراً فإنه في النهاية - خير لنا في دنيانا وأخرانا ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أي وحق المؤمنين ألا يتكلوا على غير الله ونحن متوكلون على ربنا ومنفذون أمره فلا تشمتوا بما يصيبنا فهو الذي يعوّض علينا ويبدّل عسرنا يسراً وهزيمتنا انتصاراً . المعنى الثاني ﴿ **قل هل تربَّصون بنا** ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ **إلا إحدى الحسنيين** ﴾ تثنية حسنى وهما هنا النصر أو الشهادة ﴿ **ونحن نتربّص بكم** ﴾ إحدى السوءيين وهما ﴿ **أن يصيبكم الله بعذاب من عنده** ﴾ كما عذب غيركم من الكافرين ﴿ **أو بأيدينا** ﴾ بأن نقتلكم بكفركم ﴿ **فتربصوا** ﴾ أي بنا ما ذكرنا ﴿ **إنا معكم متربصون** ﴾ أي منتظرون ما هو عاقبتكم . المعنى الثالث الذي أمر الله رسوله أن يقوله لهؤلاء المنافقين ﴿ **قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً** ﴾ أي طائعين أو

مكرهين ﴿ **لن يُتَقَبَّلَ منكم** ﴾ أي إنفاقكم سواء أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ثم عَلل سبب عدم قبول نفقتهم بقوله : ﴿ **إنكم كنتم قوماً فاسقين** ﴾ والله إنما يتقبل من المتقين ومعنى فاسقين: أي متمردين عاتين ومعنى قوله : طوعاً في الآية أي: من غير إلزام من الله ورسوله ، ومعنى قوله كرهاً: أي ملزمين ، وسمي الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه ، ثم ذكر سبباً آخر لعدم قبول نفقاتهم فقال : ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا** ﴾ أي وما منعهم قبول نفقاتهم إلا ما يأتي ﴿ **أنهم كفروا بالله وبرسوله** ﴾ أي كفرهم ﴿ **ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى** ﴾ جمع كسلان . فكفرهم أولاً وكسلهم عن الصلاة ثانياً ، ورياؤهم بالنفقة ثالثاً ﴿ **ولا ينفقون إلا وهم كارهون** ﴾ هذه الأسباب الثلاثة منعتهم قبول صدقتهم ، وقد وصفهم من قبل بالإنفاق الطوعي أحياناً ، وسلب الإنفاق الطوعي عنهم أصلاً هنا لأن المراد بطوعهم هناك أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله ﷺ أو من رؤسائهم وما طوعهم إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار ، وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنافقين ما رأيناه نهاه بعد ذلك أن يعجبه ما هم فيه من الدنيا ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ أي لا تستحسن ما أوتوا من زينة الدنيا ومعنى الإعجاب أن تُسَرَّ بالشيء سرور راضٍ به ، متعجب من حسنه ، ثم بين أن ما أوتوه ما هو إلا عذاب لهم فقال : ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا** ﴾ أي فإن الله أعطاهم ما أعطاهم ليعذبهم بالمصائب فيها أو بالإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له ، أو بنهب أموالهم وسبي أولادهم ، أو بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والخوف عليها وكل هذا عذاب ومع هذا العذاب عذاب آخر ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ أصل الزهوق: الخروج بصعوبة . أي وتخرج أرواحهم وهم كفرة ، وفي ذلك العذاب الأكبر ، وفي الآية دليل على بطلان قوْل المعتزلة بوجوب الأصلح على الله وبأن المعاصي ليست بإرادة الله ، لأن الآية أخبرت أن إعطاء الأموال والأولاد لهم للتعذيب ، والإماتة على الكفر ، وإرادة العذاب إرادة لما يُعذب به صاحبه وكل ذلك حجة على المعتزلة . ولنرجع إلى السياق : فبعد أن صور الله لنا هذا النموذج وأخبرنا عما يقول وعما نجيبه ، ونهانا عن الإعجاب بما هم فيه أكمل وصفهم بآيتين فقال : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾ أي لمن جملة المسلمين ﴿ **وما هم منكم** ﴾ لأن عواطفهم مع الكافرين ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أي يخافون فمن جبنهم وخوفهم أن تقتلوهم ، يتظاهرون بالإسلام تَقِيَّة ﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ أي مكاناً يلجؤون إليه متحصنين في

رأس جبل أو قلعة أو جزيرة ﴿ **أو مغارات** ﴾ أي أو غيران جمع غار وهي التي في رأس الجبل ﴿ **أو مدّخلاً** ﴾ أو نفقاً يندسون فيه ﴿ **لَوَلَّوْا إليه** ﴾ أي لأقبلوا نحوه ﴿ **وهم يجمحون** ﴾ أي وهم يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء ولكنهم لا يجدون مهرباً منكم فيتظاهرون بغير الحقيقة لكم .

فائدة :

النموذج العملي لهذا الصنف تحدده أسباب النزول وقد أخرج محمد بن إسحق عن الزهري وغيره قالوا : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة : هل لك ياجد العام في جلاد بني الأصفر ؟ فقال يارسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « **قد أذنت لك** » . ففي الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ **ومنهم من يقول ائْذن لي ولا تفتني** ﴾ الآية : أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به ، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم : « من سيدكم يابني سلمة » قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله ، فقال رسول الله ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » .

ولنعد إلى السياق :

لاحظنا أن المجموعة الأولى من هذا المقطع كانت دعوة إلى النفير ، وأن المجموعة الثانية كانت في وصف من يتخلف عن النفير ، وجاءت المجموعة الثالثة تحدّد مواصفات نموذج من نماذج المنافقين الذين يتخلفون عن النفير ، والآن تأتي مجموعة رابعة تحدد مواصفات صنف ثان من المنافقين وهذه هي : ﴿ **ومنهم** ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ **من يلمِزك في الصدقات** ﴾ أي يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك ﴿ **فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾ أي وإن لم يعطوا منها فاجؤوا بالسخط ، وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم ، لا للدين وما فيه صلاح أهله ، ﴿**ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾ أي ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم لكان خيراً لهم ﴿ **وقالوا حسبنا الله** ﴾ أي كفانا فضل الله وصنعه ﴿ **سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾ أي سيرزق الله ، ويؤتينا رسول الله ﷺ

﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ في أن يعطينا من فضله وقد تضمّنت الآية آداباً جمّة ، إذ علمتنا الرضا بعطاء الله ، والتوكل على الله وحده ، وعلمتنا أن نرغب إلى الله وحده في التوفيق لطاعة رسول الله ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره ، ولما ذكر الله تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات ، بيّن تعالى أنه هو الذي قسّمها وحدّد مصارفها وبين مواضعها التي توضع فيها فقال : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الفقير هو الذي لا يسأل لأن عنده ما يكفيه للحال ، والمسكين الذي يسأل لأنه لا يجد شيئاً فهو أضعف حالاً منه هذا فهم الحنفية وعند الشافعي العكس ﴿ والعاملين عليها ﴾ أي هم السعاة الذين يقبضونها ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ على الإسلام وهم زعماء في قبائلهم . كان رسول الله ﷺ يتألفهم على أن يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريراً على الإسلام أو لتشجيع أمثالهم على الإسلام ﴿ وفي الرقاب ﴾ أي المكاتبون على مذهب الشافعية والحنفية . وعند المالكية والحنابلة الرقاب يدخل فيها أن يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، والمكاتب : هو العبد الذي يتعاقد مع سيده على أن يشتري حريته في مقابل ثمن ، فإذا أدّاه أصبح حراً ﴿ والغارمين ﴾ أي الذين ركبتهم الديون بسبب مباح أو مندوب أو معصية وتابوا منها ﴿ وفي سبيل الله ﴾ أي فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم ، أو الغزاة الذين لا رواتب لهم ﴿ وابن السبيل ﴾ أي المسافر المنقطع عن ماله ولو كان غنياً . قال ابن كثير : وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطىٰ من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه ﴿ فريضة من الله ﴾ أي فرض الله هذه الصدقات لهؤلاء الأصناف فريضة ﴿ والله عليم ﴾ بالمصلحة وبما يسع العباد وبما لا يشق عليهم ﴿ حكيم ﴾ في الفرض والتوزيع وفي كل شيء وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصّة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسماً لأطماعهم وإشعاراً بأنهم بُعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها ؟ واستعمال كلمة ﴿ إنما ﴾ في ابتداء الآية يفيد قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة أي : هي مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم كأنه قيل إنما هي لهم لا لغيرهم ، واستعمل (اللام) للأصناف الأربعة الأولى ، (وفي) للأصناف الأربعة الثانية ، وأعاد ذكر (في) قبل الصنفين الأخيرين ، ليفيد أن الأربعة الأخيرة أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره فنبه باستعمال (في) على أنهم

أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ، وتكرير (في) يفيد فضل ترجيح صنفي : في سبيل الله ، وابن السبيل ، على الرقاب ، والغارمين ، وعلى هذا فأفضل ما تنفق فيه الزكاة : الإنفاق على الغزاة ، وابن السبيل ، هذا ما أفاده النسفي . وهل لابد من صرف الزكاة إلى الأصناف الثمانية ، أو أنه يكفي أن تصرف إلى بعضها ؟ قولان . الحنفية والمالكية على الثاني ، والشافعية على الأول . وقد أسقط الصحابة سهم المؤلفة قلوبهم في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم ، فإذا عاد الإسلام إلى غُرْبته ثم عَادَلَهُ سلطانه على ضعف فلا شك في جواز إعادة سهم المؤلفة قلوبهم ، وبهذا ينتهي المعنى الحرفي لهذه المجموعة التي حددت مواصفات صنف من المنافقين ، وجاءت آية الزكاة في سياق تحديد مواصفات هذا الصنف للحكمة التي رأيناها وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الرابعة التي تحدد مواصفات صنف آخر من أصناف المنافقين نذكر الفوائد التي لها علاقة بهذه المجموعة .

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يلمِزُك في الصدقات** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن جريج: أخبرني داود بن عاصم قال: أتي النبي ﷺ بصدقة فقسّمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت ، قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة في هذه الآية : وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة ، فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت . فقال نبي الله ﷺ : « ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟ » ثم قال نبي الله : « احذروا هذا وأشباهه فإن في أمتي أشباه هذا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » . وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول : « والذي نفسي بيده ما أعطيكم شيئاً ولا أمنعكموه إنما أنا خازن » . وهذا الذي ذكره قتادة يشبه مارواه الشيخان ... عن أبي سعيد في قصة ذي الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قَسَّم غنائم حنين فقال له : اعدل فإنك لم تعدل . فقال : « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً « إنه يخرج من ضئضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء) .

٢ – ومما يساعد على فهم آية الزكاة هذه النقول :

أ – روى الإمام أبو داود .. عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتي رجل فقال : أعطني من الصدقة فقال له : « إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزّأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » .

ب – روى الإمام أحمد والترمذي وأبو داود .. عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرّة سوي » .

جـ – روى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي .. عن عبيدالله بن عدي ابن الخيار : أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة ، فقلّب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال : « إن شئتما أعطيتكم ولاحظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب » .

د – قال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل : قرأ عمر رضي الله عنه ﴿**إنما الصدقات للفقراء**﴾ قال : هم أهل الكتاب . أقول : هذا اتجاه لا يوافق عليه جماهير العلماء فالزكوات في المسلمين ، وأما فقراء أهل الكتاب فيعطون من بيت مال المسلمين .

هـ – روى الشيخان .. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان » . قالوا : فما المسكين يارسول الله ﷺ ؟ قال : « الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً » .

و – ثبت في صحيح مسلم ... عن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال : « إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنمّا هي أوساخ الناس » .

ز – روى الإمام أحمد ... عن صفوان بن أمية قال : « أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلي ، فمازال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي » .

ح – ثبت عنه ﷺ أنه قال : « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم » .

ط - ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد : أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهيبة في تربتها من اليمن فقسّمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير وقال : « أتألفهم » .

ي - روى مسلم ... عن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال : « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » . قال ثم قال : « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قرابة قومه فيقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً » .

ك - روى مسلم ... عن أبي سعيد قال : أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دَيْنه ، فقال النبي ﷺ : « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه ، فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال النبي ﷺ لغرمائه : « خذوا ما وجدتم ،وليس لكم إلا ذلك » .

ل - روى الإمام أحمد ... عن عبدالرحمن بن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعو الله لصاحب الديْن يوم القيامة حتي يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين ، وفيم ضيّعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أني أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ، ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما وضيعة ، فيقول الله : صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته » .

م - روى الإمام أبو داود وابن ماجه ... عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : العامل عليها ، أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غازٍ في سبيل الله ، أو مسكين تُصدق عليه منها فأهدى لغني » .

س - روى أبو داود .. عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله ، وابن السبيل ، أو جار فقير فيهدي لك ، أو يدعوك » .

....

وممّا قاله الألوسي في آية الزكاة :

« والمشهور أن اللام – أي في قوله تعالى ﴿ **إنما الصدقات للفقراء** ﴾ – للملك عند الشافعية ، وهو الذي يقتضيه مذهبهم حيث قالوا : لابد من صرف الزكاة إلى جميع الأصناف إذا وجدت ، ولا تصرف إلى صنف مثلاً ، ولا إلى أقل من ثلاثة من كل صنف ، بل إلى ثلاثة أو أكثر إذا وجد ذلك ، وعندنا يجوز للمالك أن يدفع الزكاة إلى كل واحد منهم وله أن يقتصر على صنف واحد لأن المراد بالآية بيان الأصناف التي يجوز الدفع إليهم لا تعيين الدفع لهم ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ وإنه ﷺ أتاه مال من الصدقة فجعله في صنف واحد وهو المؤلفة قلوبهم ، ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين ، فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنف واحد ، ودليل جواز الاقتصار على شخص واحد منه أن الجمع المعرّف بأل مجاز عن الجنس ، فلو حلف لا يتزوج النساء ، ولا يشتري العبيد يحنث بالواحد ، فالمعنى في الآية: أن جنس الصدقة لجنس الفقير ، فيجوز الصرف إلى واحد لأن الاستغراق ليس بمستقيم إذ يصير المعنى : إن كل صدقة لكل فقير وهو ظاهر الفساد ، وليس هناك معهود ليرتكب العهد ، ولا يرد – خالعني على ما في يدي من الدراهم ، ولا شيء في يدها – فإنه يلزمها ثلاثة ، ولو حلف لا يكلمه الأيام أو الشهور فإنه يقع على العشرة عند الإمام ، وعلى الأسبوع والسنة عند الإمامين ، لأنه أمكن العهد فلا يحمل على الجنس . فالحاصل أن حمل الجمع على الجنس مجاز ، وعلى العهد أو الاستغراق حقيقة ، ولا مساغ للخَلَف إلا عند تعذر الأصل ، وعلى هذا ينصَّف الموصى به لزيد والفقراء كالوصية لزيد وفقير .

وماذهبنا إليه هو المروي عن عمر وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه قال سعيد بن جبير . وعطاء . وسفيان الثوري . وأحمد بن حنبل . ومالك عليهم الرحمة وذكر ابن المنير أن جده أبا العباس أحمد بن فارس كان يستنبط من تغاير الحرفين المذكورين دليلاً على أن الغرض بيان المصرف واللام لذلك فيقول : متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف فإما أن يكون التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء كما يقول مالك ومن معه ، أو مملوكة للفقراء كما يقول الشافعي ، لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً ويصح تعلق اللام (وفي) معاً فيصح أن يقال : هذا الشيء مصروف في كذا ولكذا ، بخلاف تقدير مملوكة ، فإنه إنما يلتئم مع اللام عند الانتهاء إلى (في) يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها ،فتقديره من الأول عام التعلق شامل الصحة متعين أ.هـ . وبالجملة لا يخفى قوة منزع الأئمة الثلاثة في الأخذ .

ولذا اختار بعض الشافعية ماذهبوا إليه ، وكان والد العلامة البيضاوي عمر بن محمد - وهو مفتي الشافعية في عصره - يفتي به » .

﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله . والاستقراض له خير من قبول الصدقة على ما في الظهيرية . وفي فتح القدير أنه لا يحل له أن يأخذ أكثر من حاجته ، وأُلحق به كل من هو غائب عن ماله وإن كان في بلده . وفي المحيط وإن كان تاجراً له دَيْن على الناس لا يقدر على أخذه ولا يجد شيئاً يحل له أخذ الزكاة ، لأنه فقير يداً كابن السبيل . وفي الخانية تفصيل في هذا المقام قال : والذي له دَيْن مؤجّل على إنسان إذا احتاج إلى النفقة يجوز له أن يأخذ من الزكاة قدر كفايته إلى حلول الأجل ، وإن كان الدَيْن غير مؤجل فإن كان مَن عليه الدين معسراً يجوز له أن يأخذ الزكاة في أصح الأقاويل لأنه بمنزلة ابن السبيل ، وإن كان المديون موسراً معترفاً لا يحل أخذ الزكاة ، وكذا إذا كان جاحداً وله عليه بينة عادلة ، وإن لم تكن عادلة لا يحل له الأخذ أيضاً ما لم يرفع الأمر إلى القاضي فيحلفه ، فإذا حلفه يحل له الأخذ بعد ذلك أ .هـ . والمراد من الدَيْن ما يبلغ نصاباً كما لا يخفى . وفي فتح القدير ولو دفع إلى فقيرة لها مهر دين على زوجها يبلغ نصاباً وهو موسر بحيث لو طلبت أعطاها لا يجوز ، وإن كان بحيث لا يعطى لو طلبت جاز أ هـ . وهو مقيد لعموم ما في الخانية ، والمراد من المهر ما تعورف تأجيله فهو دين مؤجل لا يمنع أخذ الزكاة ، ويكون في الأول عدم إعطائه بمنزلة إعساره ، ويفرق بينه وبين سائر الديون بأن رفع الزوج للقاضي مما لا ينبغي للمرأة بخلاف غيره ، ولكن في البزازية دفع الزكاة إلى أخته وهي تحت زوج إن كان مهرها المعجّل أقل من النصاب ، أو أكثر لكن الزوج معسر له أن يدفع إليها الزكاة ، وإن كان موسراً والمعجّل قدر النصاب لا يجوز عندهما ، وبه يفتىٰ للاحتياط ، وعند الإمام يجوز مطلقاً » .

وقال الألوسي :

(﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف . صنف كان يؤلفهم رسول الله ﷺ ليسلموا . وصنف أسلموا لكن على ضعف كعيينة بن حصن . والأقرع بن حابس . والعباس بن مرداس السلمي فكان عليه الصلاة والسلام يعطيهم لتقوى نيتهم في الإسلام ، وصنف كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين ، وعدّ منهم من يؤلف قلبه بإعطاء شيء من الصدقات على قتال الكفار ومانعي الزكاة) .

(وقال قوم : لم يسقط سهم هذا الصنف ، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي . وأبي ثور ، وروي ذلك عن الحسن ، وقال أحمد : يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك) .

وقال الألوسي في كلامه عن سهم ﴿ وفي سبيل الله ﴾

(وذكر بعضهم أن التحقيق ما ذكره الجصاص في الأحكام ، أن من كان غنياً في بلده بداره وخدمه وفرسه وله فضل دراهم حتى لا تحل له الصدقة فإذا عزم على سفر جهاد احتاج لعدة وسلاح لم يكن محتاجاً له في إقامته فيجوز أن يعطىٰ من الصدقة ، وإن كان غنياً في مصره وهذا معنى قوله ﷺ : « الصدقة تحل للغازي الغني) .

٣ - في كتابنا (الإسلام) في الفصل الأول منه، وفي الفصل الثالث منه بيان لكيفية الزكاة هي العمود الفقري في نظام الاقتصاد في الإسلام ، وهي التي تبين بدقة الفوارق بين النظام الإسلامي وغيره من الأنظمة ، كما أنها لو أحسن تطبيقها تحل المشاكل كلها ، من مشكلة الفقر ، إلى مشكلة الدراسة والعلم ، إلى مشكلة السكن والبطالة ، إلى مشكلة العزوبة ، إلى مشكلة الجهاد ، وإن أهم ما يجب أن يصرف فيه المسلمون زكاتهم ما يؤدي إلى إقامة الدعوة إلى الله ، وإقامة الجهاد ، ولعله من أجل هذا المعنى جاءت آية الزكاة في معرض سياق الأمر بالنفير ، لأن كثيراً من احتياجات الجهاد تغطيها الزكاة ، فلو أننا اشترينا لكل طالب بالغ غير غني - ولو كان أبوه غنياً - سلاحاً ، ولو أننا اشترينا لكل فقير سلاحاً وملكناهم إياه من مال الزكاة جاز ، ولو أننا اشترينا ذخيرة وملكناها للمجاهدين الذي لايستطيعون شراء ذخيرة جاز ، ولو أننا فرغنا ناساً وأعطيناهم رواتب من أجل الدعوة والجهاد من مال الزكاة جاز ، ولو كانوا يملكون في الأصل نصاباً ، وقد أفتى الكثيرون بجواز إعطاء الزكاة للحركات الجهادية ، لكني أقول : إن على هذه الحركات إذا عرفت أن شيئاً من مال الزكاة أصبح في يدها أن تراعى الدّفة الفقهية في الإنفاق .

ولننتقل الآن إلى المجموعة الخامسة في هذا المقطع وهي تحدد مواصفات صنف ثالث من المنافقين وهذه هي :

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ أي ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله بالكلام فيه ﴿ ويقولون هو أُذن ﴾ قولهم هذا هو إيذاؤهم له ، والأذن:هو الرجل يصدّق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد سُمّي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأن جملته أذن سامعة

﴿ **قل** ﴾ رداً عليهم ﴿**أذن خير لكم** ﴾ قصدوا بهذا التعبير مذمّته عليه الصلاة والسلام ، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة ، ففسّره الله تعالى بما هو مدح وثناء عليه ، كأنه قيل نعم هو أذن ولكن نِعْمَ الأذن ، إذ هو أذن في الحق والخير وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس بأذن في غير ذلك . ثم فسّر الله تعالى كيف أنه عليه الصلاة والسلام أذن خير فقال : ﴿ **يؤمن بالله** ﴾ أي يصدّق بالله لما عرفه من عظمته وجلاله وآياته ﴿ **ويؤمن للمؤمنين** ﴾ أي ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار كلامهم والملاحظ أنه قال ﴿ **يؤمن بالله** ﴾ فعدى يؤمن هنا بالباء وقال ﴿ **ويؤمن للمؤمنين** ﴾ فعَدّى الفعل يؤمن باللام لأنه ضَمّن يؤمن الأولى معنى التصديق الذي هو ضد الكفر ، وضمّن يؤمن الثانية معنى السماع من المؤمنين وأنّه يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه ؛ لكونهم صادقين عنده ﴿ **ورحمة للذين آمنوا منكم** ﴾ معطوفة على قوله ﴿**هو أذن** ﴾ أي هو أذن ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، فكما أنه شديد الإصغاء للمؤمنين مع التصديق لهم فهو رحمة خالصة بهم ، فبه استنقذهم الله من الكفر إلى الإيمان ، وبه طهّرهم الله من نجاسة الشرك وأدران الحيوانية ﴿ **والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم** ﴾ في الدارين ، دار الدنيا ودار الآخرة .

فائدة :

إن الإصغاء الشديد من أبرز صفات القادة العظام ،والمهذبين الكبار ، وقد أبرز ماللإصغاء من أثر عظيم في تأليف القلوب كاتب أمريكي في كتاب صدر تحت عنوان « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس » ولكن المنافقين عليهم اللعنة يرون الميزة نقيصة ، وقد رأينا من الآية كيف أن الله وصف رسوله ﷺ بالإصغاء الشديد مع الاحتراس ، فلا يصدّق إلا أهل الإيمان ، ووصفه بالرحمة الكاملة لهؤلاء . وعلى الدعاة إلى الله أن يلاحظوا هذين الخُلقين ، ثم أكمل الله تصوير الصنف المشار إليه من أهل النفاق فقال :

﴿ **يحلفون بالله لكم** ﴾ يامسلمون ﴿ **ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين** ﴾ أي إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق ، ولكنهم يجهلون – جهل عمى وعمه – عظمة الله ومقام رسوله ؛ فيحرصون على إرضاء المسلمين بالأيمان الكاذبة خداعاً لهم ﴿**ألم يعلموا** ﴾ أي ألم يتحققوا ﴿ **أنه** ﴾ أي أن الأمر والشأن ﴿ **من يحادد الله ورسوله** ﴾ أي يشاقق ويحارب ويخالف

ويجاوز الحدّ في الخلاف بأن يكون في حياته محارباً لله ورسوله ﷺ **﴿فأن له نار جهنم﴾** أي فحقت له **﴿ خالداً فيها ﴾** جزاءً على جرمه الذي لا جرم أعظم منه **﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾** وأي ذلة أكبر من دخول جهنم والخلود فيها ؟ ثم وصف الله حال هؤلاء المنافقين في خشيتهم من الفضيحة فقال : **﴿ يحذر المنافقون أن تُنزَّل عليهم سورة تنبئهم ﴾** أي تخبرهم **﴿ بما في قلوبهم ﴾** أي من الكفر والنفاق والمشاقة لله والرسول ﷺ **﴿ قل استهزءوا ﴾** هذا تهديد لهم **﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾** أي مظهر ماكنتم تحذرونه أي ما كنتم تحذرون إظهاره من نفاقكم ، وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم وفي استهزائهم بالإسلام وأهله **﴿ ولئن سألتهم ﴾** عما قالوه لكان جوابهم **﴿ ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾** فعليهم لعنة الله أي حرم يهتكون ؟ **﴿ قل ﴾** يا محمد **﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون ﴾** لم يعبأ باعتذارهم الكاذب لأنه حتى على فرض صدقهم فإن جلال الله ومقام آياته ومقام رسوله عليه الصلاة والسلام لا يُعتدَى عليه جداً أو هزلاً ، ثم خاطبهم الله موبّخاً **﴿ لا تعتذروا ﴾** أي لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سِرّكم **﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾** أي قد أظهرتم كفركم باستهزائكم بعد إظهاركم الإيمان **﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾** بتوبتهم وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق **﴿ نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾** بإصرارهم على النفاق وعدم توبتهم منه .

وهكذا انتهت هذه المجموعة بعد أن حدّدت مواصفات نوع من أنواع المنافقين في سياق وصف من يتخلف عن النفير العام بالنفاق ، فمن تتبع أقوال وأحوال من يتخلف عن النفير فإنه يجدهم واحداً من هذه الأصناف التي مرت والتي ستمر معنا في هذه السورة بكل خصائصه ، وقبل أن ننتقل إلى المجموعة السادسة التي تحدد بدقة شاملة صفات المنافقين بشكل عام ، وصفات المؤمنين ، وما أعد الله لكلٍ ، ننقل الفوائد التي لها علاقة بهذه المجموعة .

الفوائد :

١ - هذه المجموعة تحدثت عن منافقين يطعنون في القيادة النبوية ، ويتظاهرون بأعلى درجات الانتماء ، ويحرصون على إرضاء الصف الإسلامي ، وإذا حوسبوا على كثير من تصرفاتهم ، ادّعوا أنهم يفعلونها من قبيل اللطف والظُرف والنكتة ، هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مقاتلين في سبيل الله ، وهؤلاء منافقون ، من حيث إن إرضاءهم للصف

مصطنع ؛ ماداموا يحاربون الله ورسوله ، ومن حيث كفرهم بالاعتداء على مقام الله ورسوله ﷺ .

٢ - قال قتادة في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم ..** ﴾ قال : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم شر من الحمير ، قال فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد حق ولأنت شر من الحمار قال : فسعى بها الرجل [أي المسلم الصالح] إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « **ما حملك على الذي قلت ؟** » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدّق الصادق ، وكذّب الكاذب ، فأنزل الله الآية . [والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب] .

٣ - وهذه روايات منها ما هو سبب نزول ومنها مايفسر بعض آيات المجموعة فلنرها :

روى عبدالله بن وهب بسنده عن عبدالله بن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس : مارأيت مثل قُرّائنا هؤلاء أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسنا ، ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل في المسجد : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبدالله ابن عمر وأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول : يارسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله ﷺ يقول : ﴿ **أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون** ﴾ .

- وقال ابن إسحاق : وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بني أمية ابن زيد، من بني عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشّي ابن حميّر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً - والله لكأنا بكم غداً مقرّنين في الحبال - إرجافاً وترهيباً للمؤمنين - فقال مخشي بن حميّر : والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا نَنْفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » . فانطلق إليهم عمار فقال : ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال

مخشي بن حميّر : يارسول الله قعد بي اسمي واسم أبي ، فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير فتسمى عبدالرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ، ولم يوجد له أثر » .

وقبل أن ننتقل إلى المجموعة السادسة نحب أن نذكر ببعض ما مرّ :

في المقطع الأول من القسم الثاني جاءت حتى الآية الأخيرة التي عرضناها خمس مجموعات :

المجموعة الأولى : حضّت على النفير .

المجموعة الثانية : حكمت على الذين يستأذنون في ترك الجهاد بالنفاق .

المجموعة الثالثة : حدثتنا عن نوع من المنافقين يعتذرون عن الجهاد بعذر ظاهره شرعي .

المجموعة الرابعة : حدثتنا عن نوع من المنافقين طمّاع لمّاز .

المجموعة الخامسة : حدثتنا عن نوع من المنافقين يؤذون رسول الله ﷺ ويحاولون إرضاء المؤمنين ويبررون أفعالهم بأنها مزاح .

وهانحن وصلنا إلى المجموعة السادسة في المقطع .

وهي المجموعة الأخيرة فيه ، وفيها تحديد لصفات المنافقين والمؤمنين ، فليتأملها القارىء بدقة : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض** ﴾ أي كأنهم نفس واحدة ، وفيه نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيب لهم في ادّعائهم أنهم من المسلمين ، فإذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالي منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق ﴿ **يأمرون بالمنكر** ﴾ أي بالكفر والعصيان والمخالفة ﴿ **وينهوْن عن المعروف** ﴾ أي عن الطاعة والإيمان ، فإذا رأوا خيراً نهوا عنه ، وإذا أقبل إنسان على تطبيق سُنّة أنكروا عليه ، وإذا دعوا فإنهم يدعون إلى شر ﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ شحاً بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله ولا ينفي هذا أن يكون عندهم كرم جاهلي ، وإنما المنفي أن يكونوا كرماء في سبيل الله ﴿ **نسوا الله** ﴾ أي تركوا أمره أو أغفلوا ذكره ﴿ **فنسيَهم** ﴾ أي فتركهم من رحمته وفضله ﴿ **إن المنافقين هم الفاسقون** ﴾ أي هم الكاملون في الفسق ، الذي هو التمرد ، والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش ، الذي هو اسم الفاسق الذي وُصف به المنافقون حين بالغ النص في ذمهم ، وهكذا وُصف المنافقون بما يستطيع المسلم أن يكتشفهم من

خلال أوصافهم : ولاؤهم لبعضهم ، أمرهم بالمنكر ، نهيهم عن المعروف ، بخلهم عن الإنفاق في سبيل الله ، نسيانهم ربهم بترك الصلاة أو بالكسل فيها . وبعد أن حدّد الله صفات المنافقين ذكر ما أعد لهم وللكافرين من العذاب ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفارَ نارَ جهنم خالدين فيها هي حسبهم** ﴾ في قوله تعالى (هي حسبهم)ما يدل على عظم عذابها وأنّه بحيث لايزاد عليه ﴿ **ولعنهم الله** ﴾ أي وأهانهم مع التعذيب ، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملعونين ﴿ **ولهم عذاب مقيم** ﴾ أي دائم معهم في العاجل والآجل لا ينفكون عنه ، والعذاب العاجل هو مايقاسون من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن ؛ خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونول العذاب إن اطُّلع على أسرارهم ، وبعد أن وصفهم الله وذكر ما أعدّه لهم ضرب لهم مثلاً فقال ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ أي أنتم أيها المنافقون مثل الذين من قبلكم ، أو فعلتم مثل الذين من قبلكم ﴿ **كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً** ﴾ كانت أجسامهم أمتن ، وأعمارهم أطول ، وأولادهم أكثر ، وجمعهم أكثر ﴿ **فاستمتَعُوا بخلاقهم** ﴾ أي تلذذوا بملاذ الدنيا ، والخلاق : النصيب ﴿ **فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ أي فتلذذتم بحظكم من الدنيا كما تلذذ الذي من قبلكم بحظهم من الدنيا وبعضهم فسّر الخلاق هنا بالدين ، فيكون استمتاعهم بدينهم جعلهم إياه متعة يتمتعون بها استهزاء ومحل نكتة ﴿ **وخضتم كالذي خاضوا** ﴾ الخوض : الدخول في الباطل واللهو ، والمعنى: وخضتم في اللهو والباطل كالفوج الذي خاضوا، أو كالخوض الذي خاضوه، وإنما قدم﴿**فاستمتعوا بخلاقهم**﴾ مع أن قوله تعالى: ﴿**كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم** ﴾ مغن عنه ليذمّ الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة ، وطلب الفلاح في الآخرة ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة** ﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب ﴿ **ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين** ﴾ أي قوم شعيب ﴿ **والمؤتفكات** ﴾ أي مدائن قوم لوط ومعنى ائتفاكهن : انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿ **أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم** ﴾ أي فما صحّ منه أن يظلمهم بإهلاكهم ؛ لأنه حكيم فلا يعاقبهم بغير جرم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ بالكفر وتكذيب الرسل ، وبعد أن وصف الله المنافقين وجعل مثلهم مثل من قبلهم في الخوض بالباطل والاستمتاع ، ولفت نظرهم إلى

ما أصاب الأمم الظالمة ، بعد هذا كله وصف الله المؤمنين الخلص وما أعد لهم فقال ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ أي في التناصر والتراحم ، فهم يد على من سواهم ، يتناصرون فيما بينهم ، ويحاربون من عداهم ، ونعوذ بالله من حال أهل عصرنا ، فقد أصبح أبناء المسلمين بعضهم أعداء بعض ، كل ينصر طبقة من طبقات الكفر والنفاق والفسوق ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ يحبون المعروف ويأمرون به ، ويكرهون المنكر وينهون عنه ، ونعوذ بالله من حالٍ لا يدعى فيه إلى خير ، ولا يُنهى فيها عن شر ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ في كل ظرف ، ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ لأهلها ، ونعوذ بالله من حال تقام بها الصلاة على الكسل والظرف ، وتؤدى الزكاة - إن أُديت - لغير أهلها ﴿ **ويطيعون الله** ﴾ في كتابه ﴿ **ورسوله** ﴾ في أمره وسنته ﴿ **أولئك** ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات ﴿ **سيرحمهم الله** ﴾ في الدنيا والآخرة ، ومن رحمته إياهم في الدنيا أن يؤلف بين قلوبهم . ومن رأى حال المسلمين في عصرنا في تقصير عامة أفرادهم بمجموع هذه الصفات ، عرف سبب تردي أحوالهم وكثرة اختلافهم . إن علينا أن نراعي في تربية أنفسنا وغيرنا التحقق بمجموع هذه الصفات ، ووجود السين في قوله تعالى ﴿ **سيرحمهم** ﴾ يفيد وجود الرحمة لا محالة ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ أي غالب على كل شيء ، قادر عليه ، فهو يقدر على الثواب والعقاب ﴿ **حكيم** ﴾ أي واضع كلاً من الثواب والعقاب موضعه ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة** ﴾ أي يطيب فيها العيش لحسنها وما فيها ﴿ **في جنات عدن** ﴾ أي إقامة ، وعدن : اسم مدينة في الجنة على القول الراجح ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ أي وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما وعد أو إلى الرضوان ﴿ **هو الفوز العظيم** ﴾ دون ما يعدّه الناس فوزاً ، وهكذا بدأ المقطع في خطاب المؤمنين ، وانتهى بوصف المؤمنين الخلّص ، وما أعده الله لهم .

فوائد :

١ - في هذه المجموعة والمجموعات التي قبلها تحدّدت المعالم الكثيرة للشخصية المؤمنة ، والشخصية المنافقة ، وتحديد معالم الشخصية المنافقة يأتي بين يدي الأمر الأول في المقطع اللاحق ، الذي يأمر بجهاد الكافرين والمنافقين ، وتحديد معالم الشخصية المؤمنة يأتي في سياق الأمر بالنفير ؛ ليعرف من هم هؤلاء الذين يستجيبون للنفير في سبيل الله ، وهي معان يحتاجها القائد ، ويحتاجها المسلم ، وعلى المربّين أن يلاحظوها .

٢ - تذكر بعض الروايات أن المنافقين الذين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر كانو تسعة وثلاثين رجلاً ، ولقد شارك بعض المنافقين بالنفير - كما رأينا وكما سنرى - وأياً كان العدد فإن هذه النماذج التي ذكرتها السورة نماذج مستمرة في الحياة البشرية ، ولذلك فإنه من خلال إدراك طبيعتها وأقوالها وأفعالها نستطيع أن نتعرّف على أشباهها في كل جيل وعصر .

٣ - كل ما مرّ - وما سيمر - معنا في هذه السورة أمور تكتنف عملية الجهاد الإسلامي أولها صلة فيه ، فمن عرف هذه السورة استطاع أن يكتشف - بنور القرآن - مواقع الناس من حوله في موضوع إقامة فريضة الجهاد .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **كالذين من قبلكم** ﴾ نذكر ما رواه ابن جريج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا : ومن هم يارسول الله أهل الكتاب ؟ قال : « فمن » .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ..** ﴾ نذكر ما جاء في الصحيح :

أ - « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه .

ب - « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات ..** ﴾ نذكر بعض ما وصف به رسولنا عليه الصلاة والسلام هذه الجنات :

جاء في الصحيحين .. قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » . وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً في السماء ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليها ، لا يرى بعضهم بعضاً » . وفيهما أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها »

قالوا : يارسول الله أفلا نخبر الناس قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » . وفي الصحيحين .. عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما ترون الكوكب في السماء » وروى الإمام أحمد .. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا صليتم عليّ فسلوا الله لي الوسيلة » قيل : يارسول الله وما الوسيلة ؟ قال : « أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو » . وفي مسند الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يارسول الله : حدّثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال : « لبنة ذهب ولبنة فضة ، ومِلاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران : من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه » . وروى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال : يارسول الله لمن هي ؟ فقال « لمن طيّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » . وروى ابن ماجه ... عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمّر إلى الجنة ؟ ، هي ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحَبْرة ونعمة ، في محلة عالية بهية » قالوا : نعم يارسول الله نحن المشمِّرون لها ، قال : « إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله » . وروى الإمام مالك رحمه الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يارب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : ياربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر » . رواه البزار وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة : هذا عندي على شرط الصحيح. وبهذا ننهي الكلام عن المقطع الأول من القسم الثاني

المقطع الثاني من القسم الثاني

يبدأ هذا المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾

وينتهي بقوله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾ .

ويأتي بعده مباشرة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

وهذه الآية هي بداية المقطع الثالث من القسم الثاني .

وقد جاء المقطع الثاني مكمّلاً للمقطع الأول في قسمه ، من حيث إنه يفضح المنافقين ، ويوضح صفات المؤمنين من خلال الموقف من النفير والجهاد والعدو .

ويبدأ هذا المقطع بالأمر بجهاد الكفار والمنافقين ، بعد أن تحدّدت معالم النفاق .

في القسم الأول من السورة أوامر بقتال المشركين وأهل الكتاب ، وفي القسم الثاني يأتي الأمر بقتال الكفار والمنافقين ، وإذ استشرى النفاق في عصرنا ، وإذ يغيب عن الكثيرين أن جهاد الكفار واجب ، وجهاد المنافقين واجب ، فإن علينا أن نزيد من تأملنا لآيات هذا المقطع .

يمتد المقطع الثاني من الآية (٧٣) إلى نهاية الآية (١١٨) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى

ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا
وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ
لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾
فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ
ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟
مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ
عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى

ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ
﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ
ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى
ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ

إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا
يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ
قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ
ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۛ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۛ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ
سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ
خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ
سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ

وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى
التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ
أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ * إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا
عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ
الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

المعنى العام :

يبدأ المقطع بالأمر لرسول الله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، وأخبره بأن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، ثم بين بعد ذلك سبباً للأمر بجهاد المنافقين ، وهو قولهم كلمة الكفر بعد إسلامهم ، وإرادتهم الكيد للإسلام مع كثرة ما أنعمه الله عليهم ، وإن تظاهروا بغير هذا ، وحلفوا عليه . ثم ندبهم إلى التوبة النصوح ، وهدّدهم بعذاب الدنيا والآخرة . ثم أخبر الله عن صنف من المنافقين ، أعطى الله عهده وميثاقه ، لئن أغناه من فضله ليصدّقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما

قال ، ولا صدق بما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله .

وهكذا يعرض علينا السياق نموذجاً جديداً للنفاق وأهله ، ومن قبل أخبرنا الله عن المنافقين بأنهم ﴿ **يقبضون أيديهم** ﴾ ، وبعد ذكر النموذج من المنافقين ذكر الله عز وجل صفةً أخرى من صفاتهم ، وهي أنه لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ، حتى المتصدقون لا يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء ، وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغني عن صدقة هذا .

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم رسول الله ﷺ سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ، ولأن سنة الله أنه لا يهدي القوم الفاسقين .

وهكذا استمر السياق يصور لنا المنافقين في أحوالهم وأقوالهم ، في سياق الأمر بالنفير وموقفهم منه .

وبعد هذه الجولات الطويلة ، تأتي الآن صورتان للتخلف عن النفير : صورة التخلف المنافق ، وصورة التخلف الاضطراري للمؤمنين ، فأما التخلف المنافق فتخلف يرافقه فرح ، وكراهية للجهاد في سبيل الله ، ومحاولة للتثبيط عن النفير ، وأشر وبطر ، ومن ثَم فإن أمثال هؤلاء لا يستأهلون شرف الجهاد ، ولا يستأهلون كرامة الصلاة عليهم إذا ماتوا ، ولا يستأهلون أن ينظر الإنسان إلى شيء مما هم فيه بإعجاب ، كيف وهم لا يستقبلون سُوَر الجهاد إلا بالاستئذان عنه ، والرغبة في القعود ، فهؤلاء يفرون من جهاد الكفار ، وهؤلاء هم الكاذبون ، فهذه صورة التخلف الذي هو علامة نفاق ، ثم بين تعالى أن أصحاب الأعذار الحقيقية لا حرج على من قعد منهم عن القتال مع وجود العواطف الإيمانية عندهم فبيّن تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لاينفك عنه ، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ، ومنه العمى ، والعرج ، ونحوهما ، ولهذا بدأ السياق به ، ومنها ما هو عارض ، بسبب مرض عنّ لصاحبه في بدنه ، شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقر لايقدر معه صاحبه على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ، ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم ، وهم محسنون في أنفسهم ، وحزانى على تركهم الجهاد ، وعواطفهم مع المسلمين ، فهؤلاء

يمثلون ظاهرة التخلف الذي لا حرج فيه ، وإنما ظاهرة التخلف التي فيها حرج هي ظاهرة التخلف الذي لا يرافقه عذر حقيقي جسمي أو مالي ، فهذا الذي هو علامة أهل النفاق ، الذين يتخلفون ويعتذرون ويحلفون ، ثم أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ، وأن كفر هؤلاء ونفاقهم أعظم من كفر ونفاق غيرهم وأشد ، كما أنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ ، وأن من هؤلاء الأعراب من يعتبر ما ينفق في سبيل الله غرامة وخسارة ، وينتظر بالمسلمين الحوادث ، والآفات وأن تدور عليهم الدوائر ، والأمر منعكس عليهم ، وفي المقابل فهناك القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول ﷺ لهم وقد حقق الله لهم ما أرادوه . وبعد أن ذكر الله عز وجل التخلف المشروع ، والتخلف المرذول ، وبين وضع الأعراب ومواقفهم ، أخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعدّ لهم من جنات النعيم ، والنعيم المقيم . ثم أخبر تعالى أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقين ، وفي أهل المدينة أنفسهم منافقون ، مرنوا على النفاق ، واستمروا عليه ، وقد تهدّد الله هؤلاء المنافقين بالعذاب الدنيوي مرة بعد مرة ، ثم بالعذاب الأخروي . ثم ذكر الله تعالى نوعاً آخر من التخلف غير ما مرّ ، فالذي مَرَّ معنا نوعان : تخلف أهل النفاق ، وتخلف أهل العذر ، والآن يحدثنا السياق عن الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً ، وميلاً إلى الراحة ، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، وقد أقروا واعترفوا ، بينهم وبين ربهم بذنوبهم ، ولهم أعمال أخر صالحة ، خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله ، وقد أمر الله رسوله ﷺ في هذا المقام أن يأخذ من أموال الناس صدقة ، ليطهرُوا ويزكُوا ، ووجود هذا الأمر في هذا السياق فيه إشعار لهؤلاء المذنبين بأن طريق تكفيرهم ذنبهم العظيم بالتخلف هو هذا ، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو لهؤلاء المتصدقين ، ثم هيّج الله عباده على التوبة والصدقة ، بتذكيرهم بقبوله التوبة ، وأخذه الصدقات ، وأنه التواب الرحيم .

ثم أمر الله تعالى عباده جميعاً أن يعملوا ، وأعلمهم أن أعمالهم معروضة عليه ، ثم طمّع الله بعض المتخلفين بأن أمرهم إليه ، إن شاء تاب وعفا ، وإن شاء عذب .

وهكذا ذكرت أنواع التخلف عن النفير ، وصفات كل نوع ومواصفاته وحكمه وطريقه ، ثم بعد ذلك يستمر السياق في عرض قضية النفاق ، لأن السياق الخاص في هذا المقطع هو الأمر بقتال المنافقين ، فلا بد من تعريتهم .

ومن ثم فإن السياق يقصّ علينا قصة مسجد الضرار ، كنموذج على تصرفات المنافقين ، إذ نجد هنا محاولة من محاولات المنافقين للتجمع للكيد للإسلام في ظل المسجد ، فهم يريدون أن يستغلوا الإسلام للكيد للإسلام ، وقد حرّم الله على رسوله ﷺ أن يُصَلي في هذا المسجد ، فهدمه رسول الله ﷺ وحرّقه ليبقى الصف واحداً ، ولتبقى مساجد المسلمين للمسلمين المؤمنين .

ثم يختم الله هذا المقطع بإعلانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، في مقابل الجنة ، ثم وصف المؤمنين الحقيقيين الذي هم مظنة الجهاد ، ثم حرّم على المؤمنين الاستغفار للمشركين ، ثم بين سنته في إضلال من يستحق الضلال ، ثم أعلن توبته عن كل من شارك في غزوة تبوك أي في النفير العام من المؤمنين . ثم أعلن توبته عن الثلاثة الذين خُلِّفوا وبهذا انتهى المقطع .

ملاحظة : يتألف المقطع من عدة مجموعات ، وسنذكر في التفسير الحرفي كل مجموعة ، ثم نقفي بالفوائد المتعلقة بها ، وهكذا حتى نهاية المقطع .

المعنى الحرفي :

﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ فقد استأهلوا ذلك ﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ وأي مصير أسوأ من النار ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ أي المنافقون إذا ووجهوا بما قالوه من مخالفات تبرأوا وحلفوا وهم في هذا وهذا يكذبون ﴿ **ولقد قالوا كلمة الكفر** ﴾ كالاستهزاء بآيات الله ، وبشعائر الإسلام ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ **أي أظهروا** كفرهم بعد إظهارهم الإسلام قال النسفي : وفيه دلالة على أن الإيمان والإسلام واحد لأنه قال ﴿ **وكفروا بعد إسلامهم** ﴾ ﴿ **وهمّوا بما لم ينالوا** ﴾ من الكيد للإسلام وأهله مما فوّته الله عليهم ﴿ **وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أي وما أنكروا وما عابوا إلا مِنّة الله عليهم ، ومِنّة رسوله بما أوتوا ﴿ **فإن يتوبوا** ﴾ أي عن النفاق ﴿ **يَكُ خيراً لهم** ﴾ أي يكن ثواب ذلك خيراً لهم في الدنيا والآخرة ﴿ **وإن يتولوا** ﴾ عن التوبة بأن يصروا على النفاق ﴿ **يعذبهم الله عذاباً أليماً** ﴾ أي مؤلماً ﴿ **في الدنيا** ﴾ بأنواع العذاب ومن ذلك تسليط المؤمنين عليهم ﴿ **والآخرة** ﴾ بالنار ﴿ **وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير** ﴾ ينجيهم مما يريده الله بهم من العذاب .

هذه هي مقدمة المقطع ، وفيها أمر بجهاد الكافرين والمنافقين ، وتعليل لما استحق به هؤلاء المنافقين أن يجاهَدوا . وجهاد المنافقين إما أن يكون جهاد حجة وغلظة ، وإما أن يكون بالقتل والقتال ، وإما أن يكون بإفساد المخططات على حسب ما هم فيه ، وما يحتاجه جهادهم .

قال ابن كثير : أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة . وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أن قال : بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين** ﴾ وسيف للكفار وأهل الكتاب ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يَدٍوهُم صاغرون** ﴾ . وسيف للمنافقين ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ . وسيف للبغاة ﴿ **فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾ . وهذا يقتضي أنهم يُجاهَدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير ، وقال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه . وقال ابن عباس : أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم . وقال الضحاك : جاهد الكفار بالسيف ، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وعن مقاتل والربيع مثله ، وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم ، وقد يقال : إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا ، بحسب الأحوال . والله أعلم » . اهـ . كلام ابن كثير .

لاحظنا قوله رحمه الله (وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير) وقد أظهر المنافقون النفاق في عصرنا ، وأصبحت لهم الشوكة والسلطان ، وكل يوم يأتي يزداد الأمر شدّة ، والمسلمون متقاعسون عن القتال ، متراخون عنه ، يتهيبون في ذات الله ، خوفاً من لسان كافر أو منافق ، فأين منهم قوله تعالى ﴿ **يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾ .

فوائد :

- وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا ...** ﴾ نذكر هذه الروايات : قال عروة بن الزبير : نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت ؛

أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها ، فقال مصعب : أما والله ياعدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فأتيتُ النبي ﷺ ، وخفت أن ينزل فيَّ القرآن ، أو تصيبني قارعة ، أو أن أخلط بخطيئته ، فقلت : يارسول الله ، أقبلت أنا والجلاس من قباء ، فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته أو تصيبني قارعة ما أخبرتك ، قال : فدعا الجلاس فقال : « ياجلاس أقلت الذي قاله مصعب ؟ » فحلف ، فأنزل الله ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية . وقال محمد بن إسحاق : كان الذي قال تلك المقالة — فيما بلغني — الجلاس بن سويد بن الصامت ، فرفعها عليه رجل كان في حجره ، يقال له عمير بن سعد ، فأنكرها ، فحلف بالله ما قالها ، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع ، وحسنت توبته ، فيما بلغني . وقال ابن جرير .. عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة ، فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعيني الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه » فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال : « علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿ **يحلفون بالله ما قالوا** ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ قيل : أنزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ ، وقيل في عبدالله بن أبيّ ، همّ بقتل رسول الله ﷺ ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوّجوا عبدالله ابن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ . وقد ورد أن نفراً من المنافقين همّوا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي ، في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ، قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية ، وذلك بيّن فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة .. عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ ، أقود به ، وعمار يسوق الناقة — أو أنا أسوقه وعمار يقوده — حتى إذا كنا بالعقبة ، فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال فانبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم ، فولّوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله ﷺ: « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا : لا يارسول الله — وقد كانوا متلثمين — ولكنا قد عرفنا الركاب قال : « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة . وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا : لا ، قال « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة ، فيلقوه فيها » . قلنا : يارسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : « لا أكره أن

تتحدث العرب بينهم أن محمداً قاتَل بقومٍ حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم – ثم قال – اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة » قلنا : يارسول الله وما الدُّبَيْلة ؟ قال : « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى : إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد ، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ، ويسوقه عمار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ ، فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة « قد ، قد[1] » حتى هبط رسول الله ﷺ ، فلما هبط نزل ورجع عمار فقال : « ياعمار ، هل عرفت القوم ؟ » فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال : « هل تدري ماأرادوا ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه ، قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب النبي ﷺ فقال : « نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلاً ، فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر ، قال : فعدّ رسول الله ﷺ منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ . وما علمنا ما أراد القوم ، فقال عمار : أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . وهكذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي ، وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة ، فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون ، وهم متلثمون ، فأرادوا سلوك العقبة ، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ ، فأمر حذيفة فرجع إليهم ، فضرب وجوه رواحلهم ، ففزعوا ورجعوا مقبوحين ، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم ، وما كانوا هموا به من الفتك به ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأمرهما أن يكتما عليهم . وكذا روى يونس بن بُكَير عن ابن إسحاق إلا أنه سمّى جماعة منهم فالله أعلم . وكذا قد حكي في معجم الطبراني قاله البيهقي ، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم .. عن أبي الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة، وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم أصحاب العقبة ؟ قال : فقال له القوم : أخبره إذا سألك ، فقال : كنا نخبر أنهم أربعة عشر ، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر ، وأشهد بالله أن اثني عشر منهم حرب لله

---

(١) أي حسبك .

ولرسوله في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا : ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ، ولا علمنا بما أراد القوم ، وقد كان في حرة فمشى فقال : إن الماء قليل ، فلا يسبقني إليه أحد ، فوجد قوماً قد سبقوه ، فلعنهم يومئذ . ويشهد لها أيضاً ما رواه مسلم أيضاً ... عن عمار بن ياسر قال : أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال : « في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها ، حتى يلج الجمل في سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة ، سراج من نار ، يظهر بين أكتافهم حتى ينجم في صدروهم » ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره - أي من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء - قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره ، والله أعلم . وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى .. عن الزبير بن بكار أنه قال : هم مُعَتّب بن قشير ، ووديعة بن ثابت ، وجد بن عبدالله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف ، والحارث بن يزيد الطائي ، وأوس بن قيظي ، والحارث بن سويد ، وسعد بن زرارة ، وقيس بن فهد ، وسويد وداعس من بني الحبلى ، وقيس بن عمرو بن سهل ، وزيد بن اللصيت ، وسلالة ابن الحمام ، وهما من بني قينقاع أظهروا الإسلام .

وبعد أن أمر الله رسوله ﷺ بجهاد المنافقين ، وذكر موقفاً من مواقفهم التي تهيِّج على جهادهم ، يستمر السياق في عرض مواصفاتهم ، وخصائصهم ، وسماتهم :

﴿ **ومنهم** ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ **من عاهد الله لئن آتانا من فضله** ﴾ أي المال ﴿ **لنصدَّقنَّ** ﴾ أي لنتصدقن أي لنُخْرجن الصدقة منه ﴿ **ولنكونـنَّ من الصالحين** ﴾ بشكره بالإيمان والعمل الصالح على ما آتانا ﴿ **فلما آتاهم من فضله** ﴾ أي أعطاهم الله المال ونالوا مناهم ﴿ **بخلوا به** ﴾ أي منعوا حق الله ولم يفوا بالعهد ﴿ **وتولوا وهم معرضون** ﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله وهم مصرون على هذا الإعراض ﴿ **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم** ﴾ أي فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم ، لأنه كان سبباً فيه ، فما أفظع العقاب ، فليحذر أهل الإيمان من عمل يترتب عليه العقاب بالنفاق ﴿ **إلى يوم يلقونه** ﴾ أي أورثهم البخل نفاقاً إلى يوم يلقونه جزاء فعلهم وهو يوم القيامة ، ويمكن أن يكون المعنى: فأعقبهم هذا الطبع نفاقهم إلى يوم يلقون الله، ويمكن أن يكون فأعقبهم الله جزاء على فعلهم نفاقاً إلى يوم يلقونه يوم القيامة ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه** ﴾ أي بسبب إخلافهم ماوعدوا الله من التصدق والصلاح ﴿ **وبما كانوا يكذبون** ﴾ أي وبسبب كونهم كاذبين وقد جعل رسول الله ﷺ الإخلاف في الوعد والكذب علامتي

نفاق ﴿ **ألم يعلموا** ﴾ أي المنافقون ﴿ **أن الله يعلم سرَّهم** ﴾ أي ما أسروه من النفاق بالعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿ **ونجواهم** ﴾ أي ما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية ، وتدبير منعها ﴿ **وأن الله علّام الغيوب** ﴾ فلا يخفى عليه شيء ، وهكذا عرفنا من خلال هذه الآيات أن من صفات المنافقين منع الصدقة ، وانعدام الصلاح ، وإخلاف الوعد والكذب ، وهم - عليهم اللعنة - لا يكتفون بمنعهم الصدقات ، بل يعيبون أهلها ، كما ستقصّ علينا الآية الآتية : ﴿ **الذين يلمزون المطَّوِّعين** ﴾ أي الذين يعيبون المتطوعين المتبرعين ﴿ **من المؤمنين** ﴾ المخلصين ﴿ **في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم** ﴾ أي : طاقتهم أي ويعيبون الذين لا يجدون إلا القليل فينفقون منه ، فلا يسلم من لسانهم من أكثَر من النفقة ، ومن أقل ﴿ **فيسخرون منهم** ﴾ أي فيهزؤون من المؤمنين المقلين ، والمكثرين في الإنفاق ﴿ **سخر الله منهم** ﴾ أي جازاهم على سخريتهم ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ أي مؤلم ﴿ **استغفرْ لهم أوْلَا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ لأنهم كفار ، والله لا يغفر لمن كفر به ، والمعنى:وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم ، وليس المراد بذكر السبعين التحديد والغاية ، وإنما المراد التكثير ، فالسبعون في لغة العرب تستعمل ويراد بها التكثير ، ولا يراد منها عينها إلا إذا دلّ السياق على ذلك ﴿ **ذلك** ﴾ أي عدم المغفرة ﴿ **بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ أي بسبب كفرهم بالله ورسوله ، ولا غفران للكافرين ﴿ **والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾ أي الخارجين عن الإيمان ، ما داموا مختارين للكفر والطغيان . وبهذا تنتهي هذه المجموعة في هذا السياق ، وقد حددت مواصفات للمنافقين ، في سياق الأمر بجهادهم ، وحدّدت ما يستحقون من عقاب ، وحدّدت بعض ما يتنافى مع الأمر بجهادهم كالاستغفار لهم وسنرى في أسباب النزول نماذج لهؤلاء ولنلاحظ أن سبب النزول يعتبر إحدى حالات ما يدخل تحت عموم النص ويبقى النص على عمومه ليسع كل ما يدخل تحته من حالات .

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقَنَّ ..** ﴾ يقول ابن كثير : قد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم .. عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال رسول الله ﷺ : « ويحك ياثعلبة

قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » قال : ثم قال مرة أخرى فقال : « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت » قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارزق ثعلبة مالاً » قال : فاتخذ غنماً ، فَنَمَت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل وادياً ، من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت ، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ، يسألهم عن الأخبار ، فقال رسول الله ﷺ : « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا : يارسول الله ، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة وأنزل الله جل ثناؤه ﴿ **خذ من أمَوَالهم صدقة** ﴾ الآية . قال : ونزلت عليه فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة ، رجلاً من جهينة ، ورجلاً من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ، وقال لهما : « مُرا بثعلبة ، وبفلان - رجل من بني سليم - فخذا صدقاتهما » فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ ، فقال: ماهذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة . وإنما هي لي فأخذاها منه ، فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرّا بثعلبة فقال : أروني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال : « ياويح ثعلبة » . قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة ، والذي صنع السلمي . فأنزل الله عز وجل ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدَّقَنَّ** ﴾ الآية . قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ﷺ : « هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني » . فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي

من رسول الله ، وموضعي من الأنصار ، فاقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ ، وأبى أن يقبلها ، فقُبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها ، ثم ولي عثمان رضي الله عنه فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان » .

أقول : هناك صحابي شهد بدراً اسمه ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، فهذا حتماً ليس هو صاحب القصة ، فإما أن هناك وهماً في اسم صاحب القصة وإما أن القصة كلها لا أصل لها فقد شكك بعضهم في أسانيدها وفي استقامة متنها ، والآيات مستغنية عن القصة لفهمها .

٢ – في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات** .. ﴾ روى البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا : مرائي . وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون المطوّعين** ﴾ الآية ، وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه وروى الإمام أحمد .. عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال : فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما ، فأدركني ما يدرك ابن آدم ، فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد سواداً ولا أصغر منه ، ولا أذمّ ، ببعير سَاقَهُ ، لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يارسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل ، فقال ، هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهي خير منه ، قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال : « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « ويل لأصحاب المئين من الإبل » – ثلاثاً – قالوا : إلا مَنْ يارسول الله ؟ قال : « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال : « فقد أفلح المزْهِد المجْهِد » ثلاثاً – المزهد في العيش والمجهد في العبادة . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وجاءه رجل من

الأنصار بصاع من طعام ، فقال بعض المنافقين : **والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا** رياءً ، وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع . وروى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً ، فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم ، فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر ، فقال : يارسول الله هذا صاع من تمر ، بت ليلتي أجرُّ بالجرير (أي الحبل)الماء حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما ، وأتيتك بالآخر ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات ، فسخر منه رجال وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا ، وما يصنعان بصاعك من شيء ، ثم إن عبدالرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لم يبق أحد غيرك » فقال له عبدالرحمن بن عوف : فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات : فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أمجنون أنت ؟ قال : ليس بي جنون . قال : فعلت ما فعلت ؟ قال : نعم ؛ ما لي ثمانية آلاف . أما أربعة آلاف فأقرضها ربي ، وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ : « **بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت** » ولمزه المنافقون فقالوا : والله ما أعطى عبدالرحمن عطيته إلا رياءً ، وهم كاذبون ، إنما كان به متطوعاً ، فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذين جاء بالصاع من التمر .

٣ - في قال تعالى في كتابه ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مَرَّة فلن يغفر الله لهم** ﴾ نقول : إن من كمال رحمة رسول الله ﷺ بالأمة أنه كان إذا وجد رخصة في موضوع سار بها ، حتى ينزل نهيٌ جازم ، ولاحتمال الرخصة في قوله تعالى ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ...** ﴾ فإنه عليه الصلاة والسلام بقي يستغفر لأهل النفاق ، ويصلي عليهم ، حتى نزل الأمر الجازم بالمنع .

قال ابن كثير: (روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لما نزلت هذه الآية أسمع ربي وقد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة ، لعل الله يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم:﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم** ﴾ الآية . وقال الشعبي : لما ثقل عبدالله بن أبي ، انطلق ابنه إلى النبي ﷺ ، فقال : إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلي عليه ، فقال له النبي ﷺ : « **ما اسمك ؟** » قال : الحباب بن عبدالله ، قال : « بل أنت عبدالله بن عبدالله ، إن الحباب اسم شيطان » قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو

عرق وصلى عليه ، فقيل له : أتصلي عليه ؟ فقال : « إن الله قال : ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة** ﴾ ولأستغفرن له سبعين وسبعين وسبعين » . وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ، ورواه ابن جرير بأسانيده .

٤ - وفي قوله تعالى : ﴿ **إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ قال النسفي : (والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، وليس على التحديد والغاية . إذ لو استغفر لهم مدة حياته لن يغفر الله لهم ، لأنهم كفار والله لا يغفر لمن كفر به . والمعنى : وإن بالغت في الاستغفار فلن يغفر الله لهم . وقد وردت الأخبار بذكر السبعين وكلها تدل على الكثرة لا على التحديد والغاية . ووجه تخصيص السبعين من بين سائر الأعداد أن العدد قليل وكثير ، فالقليل ما دون الثلاث ، والكثير الثلاث فما فوقها ، وأدنى الكثير الثلاث وليس لأقصاه غاية . والعدد أيضاً نوعان شفع ووتر ، وأول الأشفاع اثنان ، وأول الأوتار ثلاثة ، والواحد ليس بعدد ، والسبعة أول الجمع الكثير من النوعين ، لأن فيها أوتاراً ثلاثة وأشفاعاً ثلاثة ، والعشرة كمال الحساب ، لأن ما جاوز العشرة فهو إضافة الآحاد إلى العشرة ، كقولك اثنا عشر وثلاثة عشر إلى عشرين ، والعشرون تكرير العشرة مرتين . والثلاثون تكريرها ثلاث مرات ، وكذا إلى مائة . فالسبعون يجمع الكثرة والنوع والكثرة منه ، وكمال الحساب والكثرة منه . فصار السبعون أدنى الكثير من العدد من كل وجه ، ولا غاية لأقصاه ، فجاز أن يكون تخصيص السبعين لهذا . والله أعلم) .

* * *

ثم تأتي الآن مجموعة ثانية في هذا المقطع تبيّن حال المنافقين حين يتخلفون عن الجهاد ، وموقفهم من آيات الجهاد ، وتذكر فيما بين ذلك مايستأهلون من عقوبات معنوية فقال :

﴿ **فرح المخلَّفون** ﴾ المنافقون الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿ **بمقعدهم** ﴾ أي بقعودهم عن الغزو ﴿ **خلاف رسول الله** ﴾ أي مخالفة لرسول الله ، أي قعدوا لمخالفته ، أو قعدوا مخالفين له ﴿ **وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله** ﴾ فهم ليسوا كالمؤمنين الذين يسارعون إلى بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله ، وكيف لا يكرهونه وليس فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعي الإتيان ﴿ **وقالوا لا تنفروا في الحر** ﴾ أي : قال بعضهم لبعض ذلك أو قالوا ذلك للمؤمنين

تثبيطاً ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾ هذا استجهال لهم لأن من تصوّن من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل ﴿ **فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً** ﴾ أي يضحكون قليلاً على فرحهم بتخلفهم في الدنيا ، ويبكون كثيراً جزاءً في العقبى . إلا أنه أُخرج بلفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب ، لا يكون غيره ، وقد دلت الآية على أن فرحهم بالتخلف والقعود بالغ الغاية ، فسيعاقبهم الله بما يقابل هذا الفرح ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ أي جزاءً على كسبهم السيء الذي هو أعمال النفاق ﴿ **فإن رجعك الله** ﴾ أي ردّك من نفيرك ﴿ **إلى طائفة منهم** ﴾ لم يقل إليهم جميعاً لأن منهم من يتوب من النفاق ويصلح حاله ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ إلى غزوة أخرى ﴿ **فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً** ﴾ هذه أول العقوبات المعنوية : منعهم من شرف الجهاد ﴿ **إنكم رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ أي أول مادعيتم إلى النفير ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ أي مع من سيتخلف ﴿ **ولا تُصَلِ على أحد منهم** ﴾ أي من المنافقين ﴿ **مات أبداً** ﴾ هذه هي العقوبة الثانية ألا يصلي على المنافقين صلاة الجنازة ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أي ولا تقف على قبره داعياً له ﴿ **إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾ هذا تعليل للنهي عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبرهم ، أي إنهم ليسوا بأهل للصلاة عليهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا على ذلك ﴿ **ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ هذه الآية قد تقدم مثلها ، وفي حكمة تكريرها قال النسفي : التكرير للمبالغة والتأكيد وأن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ، وأن يعتقد أنه مهم ، ولأن كل آية في فرقة غير الفرقة الأخرى فهذه العقوبة المعنوية الثالثة احتقار ما هم فيه من متاع ، ثم زادنا الله بياناً عنهم وعن مواقفهم ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ يجوز أن يراد سورة بتمامها ، وأن يُراد بعضها ، كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه ﴿ **أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله** ﴾ أي آمرة بذلك ﴿ **استأذنك أولوا الطَوْل** ﴾ أي ذو اليسار والسعة ﴿ **منهم** ﴾ أي من المنافقين ﴿ **وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين** ﴾ أي مع الذين لهم عذر في التخلف كالمرضى والزمنى ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ الخوالف جمع خالفة ، والخالفة المرأة ، أي رضوا بأن يكونوا مع النساء ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ أي ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق ﴿ **فهم لا يفقهون** ﴾ أي ما في الجهاد من الفوز والسعادة ، وما في التخلف من الهلاك والشقاوة ﴿ **لكن** ﴾ أي إنْ تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد فقد نهض إلى الغزو

من هو خير منهم ﴿ **الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ فنالوا شرف الدنيا والآخرة ﴿ **وأولئك لهم الخيرات** ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ أي الفائزون بكل مطلوب ﴿ **أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾ نسأل الله ألا يحرمنا إياها وأن يجعلنا منها في الفردوس الأعلى . وهكذا وصفت هذه المجموعة من الآيات حال هؤلاء المنافقين في تخلفهم عن الجهاد ، وما ينبغي أن يقابَلوا به ، وما هو حال الإيمان في مباشرة الجهاد .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل نار جهنم أشد حراً** ﴾ نذكر بالحديث الذي رواه الإمام مالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا : يارسول الله : إن كانت لكافية ؟ فقال : « فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به . ونذكّر بالحديث الذي أخرجاه في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلي منهما دماغه ، كما يغلي المرجل ، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً » أخرجاه في الصحيحين .

٢ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً** ﴾ روى البخاري عن ابن عمر قال : لما توفي عبدالله بن أبيّ جاء ابنه عبدالله بن عبدالله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصاً يكفّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيرني الله فقال ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ وسأزيده على السبعين » . قال : إنه منافق ، قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره** ﴾ وكذا رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لما توفي عبدالله بن أبيّ ، دعي رسول الله ﷺ فقام إليه ، فلمّا وقف عليه يريد الصلاة عليه ، تحوّلت حتى قمت في صدره فقلت : يارسول الله أعلى عدو الله عبدالله

بن أبي ، القائل يوم كذا ، كذا وكذا – يعدد أيامه – قال : ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرتُ عليه قال « أخر عني ياعمر » إني خيّرت فاخترت ، قد قيل لي ﴿ **استغفر لهم** ﴾ الآية ، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت » قال : ثم صلى عليه ، ومشى معه ،وقام على قبره ، حتى فرغ منه ، قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ ، – والله ورسوله أعلم – قال فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً** ﴾ الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذي في التفسير وقال : حسن صحيح .

٣ – بعد نزول قوله تعالى : ﴿ **ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً** ﴾ كان رسول الله ﷺ لايصلي على أحد من المنافقين ، ولا يقوم على قبره ، كما روى الإمام أحمد عن أبي قتادة قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها : « شأنكم بها » ولم يصل عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله ، حتي يصلي عليها حذيفة بن اليمان ، لأنه كان يعلم أعيان المنافقين ، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره – أي من الصحابة – .

٤ – دل نهيه جل جلاله عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم للاستغفار لهم ، أن هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين ، كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » قيل : وما القيراطان ؟ قال : « أصغرهما مثل أحد » . وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو داود ... عن عثمان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل » انفرد بإخراجه أبو داود رحمه الله .

٥ – علينا أن ننتبه جيداً في عصرنا إلى موضوع الصلاة ، والاستغفار للمنافقين – إذ في عصرنا كثر النفاق وليس لنا دليل عليه – إلا أن نتفهم النصوص في شأنهم ، فنعرفهم من خلال صفاتهم ، وأقوالهم ، ومن النفاق الصريح ادعاء الإسلام مع الانخراط في كل تكتل غير مسلم ، وإعطاء الولاء لأهله على أساس غير الإسلام ، إلا بتكليف من أهل الإسلام والعاملين له .

ثم تأتي الآن مجموعة ثالثة تحدّد مسألة العذر عن النفير ، متى تصح ومتى لا تصح وخلال ذلك نتعرَّف على طبيعة النفاق وصفات المنافقين :

﴿ **وجاء المعَذِّرون من الأعراب** ﴾ المعذر هو المقصِّر في الأمر المتواني عنه ، الذي يوهم أن له عذراً فيما فعل ، ولا عذر له ، أو المعتذر ، والمراد هنا الاعتذار بالباطل ﴿ **ليؤذَن لهم** ﴾ أي في ترك الجهاد والقعود ﴿ **وقعد الذين كَذَبوا الله ورسوله** ﴾ هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا ، فظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان ، فالمتخلفون ثلاثة : متخلف بعذر ، ومتخلف بغير عذر ولكن يستأذن ، ومتخلف بغير عذر ولا يستأذن أصلاً ، فهذا شرهم ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم** ﴾ من هؤلاء المتخلفين غير المعتذرين والمستأذنين غير المعذورين ﴿ **عذاب أليم** ﴾ أي مؤلم في الدنيا وفي الآخرة ، ثم بين الله تعالى من هم المتخلفون بحق وهم معذورون عندالله بل مأجورون على نياتهم فقال ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ أي الهرمى والزمنى ﴿ **ولاعلى المرضى** ﴾ فهذا النوع الثاني المقبول العذر ﴿ **ولا على الذين لا يجدون ماينفقون** ﴾ أي هم الفقراء الذين لا يستطيعون الجهاز ﴿ **حرج** ﴾ أي إثم وضيق ﴿ **إذا نصحوا لله ورسوله** ﴾ بأن آمنوا في السر والعلن وأطاعوا ، كما يفعل الناصح بصاحبه ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ أي لا جناح عليهم ولا طريق للعتاب عليهم ﴿ **والله غفور** ﴾ يغفر لمن تخلف بعذر ﴿ **رحيم** ﴾ بمن يستحق رحمته ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتَوْك لتحملهم** ﴾ أي لتعطيهم حمولة ليشاركوا في الجهاد ﴿ **قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ فهؤلاء كذلك معذورون إن كانوا صادقين كما وصفهم الله ﴿ **تولوا وأعينهم تفيض من الدمع** ﴾ تسيل ﴿ **حزناً ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ فهم يتخلفون وقلوبهم تفيض أسىً على التخلف ، على خلاف المنافقين ، يتخلفون وقلوبهم فرحة لتخلفهم ، فهذه الأصناف الأربعة لا حرج عليها ، ولا إثم في تخلفها واستئذانها ، وهؤلاء هم أصحاب الأعذار الحقيقية ، وقد بدأ الله بالأعذار الملازمة للشخص التي لا تنفك عنه ، وهي الضعف في التركيب الذي لا يستطيع صاحبه معه الجهاد ، ومنه العمى ، والعرج ، ونحوهما ، ثم ثنى بما هو عارض كالمرض الطارىء ، ثم ثلث بالعجز الحكْمي بسبب الفقر الذاتي ، أو ضيق ذات يد الإمام ، فلا يقدر على تجهيز من يريد الجهاز .

ثم بيّن الله من لا يعذر بحال ممن ليس من هؤلاء ﴿ **إنما السبيل** ﴾ أي الإثم واستحقاق آثاره من عقوبات دنيوية وأخروية ﴿ **على الذين يستأذنونك** ﴾ أي في

التخلف ﴿ **وهم أغنياء** ﴾ فليسوا ضعفاء ولا مرضى ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف** ﴾ أي رضوا بالانتظام في جملة الخوالف أي : النساء جمع خالفة ﴿ **وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون** ﴾ العلم النافع المؤدي إلى جنات النعيم ﴿ **يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم** ﴾ من غزوكم وحربكم ، محاولين أن يقيموا لأنفسهم عذراً باطلاً ﴿ **قل لا تعتذروا** ﴾ بالباطل ﴿ **لن نؤمن لكم** ﴾ أي لن نصدقكم ، فلا فائدة لكم في اعتذاركم إذ غرض المعتذر أن يصدَّق فيما يعتذر به ، ثم بين سبب عدم تصديقهم ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ هذه هي علة انتفاء تصديقهم أنه تعالى أوحى إلى رسوله بأخبارهم وما في ضمائرهم ، فكيف يعقل بعد ذلك تصديقهم في معاذيرهم ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله** ﴾ أتتوبون أم تثبتون على كفركم وعملكم الكافر ﴿ **ثم تُردُون إلى عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي تردون إليه وهو عالم كل سر وعلانية ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فيجازيكم على حسب ذلك ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم** ﴾ أي رجعتم ﴿ **لتعرضوا عنهم** ﴾ أي لتتركوهم ولا توبِّخوهم ﴿ **فأعرضوا عنهم** ﴾ أي فاتركوهم وأهملوهم ، ثم علل سبب الأمر بذلك بقوله ﴿ **إنهم رجس** ﴾ فلا تنفعهم موعظة ولا يصلحهم شيء ، لأنهم أنجاس لا سبيل إلى تطهيرهم ﴿ **ومأواهم جهنم** ﴾ أي ومصيرهم النار أي وكفتهم النار عقوبة ﴿ **جزاءً بما كانوا يكسبون** ﴾ أي يجزون بالنار جزاء كسبهم ﴿ **يحلفون لكم لترضَوْا عنهم** ﴾ أي هذا هو هدفهم الحقيقي بالحلف ، طلب رضاكم لئلا تتضرر بغضبكم دنياهم ﴿ **فإن ترضَوْا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ أي إن رضاكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها ، وإنما قيل ذلك لئلا يُتوهم أن رضى المؤمنين يقتضي رضا الله عنهم ، ولما كان المتخلفون من الأعراب بغير عذر قسمين ، قسماً اعتذر وقسماً لم يكلف نفسه حتى عناء الاعتذار ، فإن الله تعالى في هذا السياق أعطانا التصور الصحيح عن الأعراب خاصة وأن كثيرين من الناس قد يتوهمون أن أهل البادية أكثر صفاءً ونقاءً ، وأجود استعداداً ، فجاءت الآيات تبيّن أن هذا يصدق على القليل منهم ﴿ **الأعراب** ﴾ أي أهل البدو ﴿ **أشدُّ كفراً ونفاقاً** ﴾ أي من أهْل الحضر ، لجفائهم وقسوتهم وبعدهم عن مجالس العلم ﴿ **وأجدرُ ألا يعلموا** ﴾ أي وأحق بألا يعلموا ﴿ **حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ يعني حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام ﴿ **والله عليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **حكيم** ﴾ في إمهالهم ﴿ **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق** ﴾ أي ما يتصدق به ﴿ **مغرماً** ﴾ أي غرامة وخسراناً ، لأنه لا يدفع زكاته ولا

ينفق إلا تقية من المسلمين ، ورياءً لا لوجه الله ، وابتغاء المثوبة عنده ﴿ **ويتربَّص بكم الدوائر** ﴾ أي ينتظر دوائر الزمان ، وتبدل الأحوال ، بدور الأيام ، لتذهب غلبتكم عليهم ، فيتملصوا من إعطاء الزكاة وغيرها . وقد ظهر مصداق ذلك بعد وفاة رسول الله ﷺ مباشرة ، ففي الآية معجزة ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ أي عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعون وقوعها في المسلمين ﴿ **والله سميع** ﴾ لما يقولونه إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿ **عليم** ﴾ بما يضمرونه غير أنه إذا كان الأعراب في الجملة كذلك ، وبعضهم كما وصف ، فإن منهم صالحين ﴿ **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق** ﴾ في الجهاد والصدقات ﴿ **قربات** ﴾ أي أسبابا للقربة ﴿ **عند الله وصلوات الرسول** ﴾ أي دعواته ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ﴿ **ألا إنها** ﴾ أي النفقة أو صلوات الرسول . ﴿ **قربة لهم** ﴾ هذه شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، كما أنها تصديق لرجائه ﴿ **سيدخلهم الله في رحمته** ﴾ أي جنته . قال النسفي : وما أدل هذا الكلام على رضا الله عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان إذا خلصت النية من صاحبها ﴿ **إن الله غفور** ﴾ يستر عيب المخل ﴿ **رحيم** ﴾ يقبل جهد المقل ، وكما ختمت المجموعة السابقة بذكر الرسول ، والمؤمنين الصادقين ، وما أعد لهم ، فإن هذه المجموعة كذلك تنتهي بهذه الآية ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين** ﴾ هم إما من صلى إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدراً أو بيعة الرضوان ﴿ **والأنصار** ﴾ أي والسابقون الأولون من الأنصار وهم أهل بيعة العقبة الأولى والثانية وكان الأولون سبعة وأهل الثانية سبعين ﴿ **والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ دخل في ذلك من اتبعهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة ﴿ **رضي الله عنهم** ﴾ بأعمالهم الحسنة ﴿**ورضوا عنه** ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية ﴿ **وأعدّ لهم** ﴾ مع الرضا ﴿ **جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾ وهكذا زادتنا هذه المجموعة والتي قبلها معرفة في موضوع النفاق من خلال المواقف من قضية الجهاد .

الفوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وجاء المعذرون من الأعراب ..** ﴾ قال ابن إسحاق : وبلغني أنهم نفر من بني غفار ، خفاف بن إيماء بن رحضة ..

٢ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ روى ابن كثير هذه القصة :

قال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا)

٣ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ..** ﴾ ذكر ابن كثير ما ننقله دون ذكر الأسانيد قال (وقال قتادة نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني .. وعن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب براءة ، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف لي يارسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ الآية . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مقرن المزني ، فقالوا : يارسول الله احملنا ، فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال : ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ إلى قوله ﴿ **فهم لا يعلمون** ﴾ . وقال مجاهد في قوله ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ نزلت في بني مقرن بن مزينة ، وقال محمد بن كعب : كانوا سبعة نفر : من بني عمرو بن عوف ، سالم بن عوف . ومن بني واقف حرمي بن عمرو ، ومن بني مازن بن النجار عبدالرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بني المعلى فضل الله ، ومن بني سلمة عمرو بن عتبة ، وعبدالله بن عمرو المزني . وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكّاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار ، وغيرهم من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلية بن زيد أخو بني حارثة ، وأبو ليلى عبدالرحمن ابن كعب أخو بني مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمه ، وعبدالله بن المغفل المزني ، وبعض الناس يقول : بل هو عبدالله بن عمرو المزني ، وحرمي بن عبدالله أخو بني واقف ، وعياض بن سارية الفزاري ، فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » . وروى ابن أبي حاتم .. عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً ، ولا

نلتم من عدو نيلاً ، إلا وقد شركوكم في الأجر » . ثم قرأ ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ الآية . وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم مسيراً ، إلا وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم حبسهم العذر » وروى الإمام أحمد .. عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم في الأجر ، حبسهم المرض » . ورواه مسلم وابن ماجه من طرق .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** .. ﴾ نذكر مايلي :

أ - روى الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني ، فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ .

ب - وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن غريب .

ج - قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾ . (سورة يوسف : ١٠٩)

د - وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبِّلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبِّل ، فقال رسول الله ﷺ : « وأملك أن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ » وقال ابن نمير : (من قلبك الرحمة) .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ نذكر أن هناك قراءة برفع الأنصار ، وقراءة حفص التي عليها هذا التفسير بالخفض ، وقد أشرنا إلى هذا لأننا سننقل كلام ابن كثير كله في هذه الآية ، وقد أشار هو إلى هذا الموضوع .

قال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول : ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا)

٣ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ..** ﴾ ذكر ابن كثير ما ننقله دون ذكر الأسانيد قال (وقال قتادة نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو المزني .. وعن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ ، فكنت أكتب براءة ، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يارسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ الآية . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبدالله بن مقرن المزني ، فقالوا : يارسول الله احملنا ، فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعزَّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال : ﴿ **ليس على الضعفاء** ﴾ إلى قوله ﴿ **فهم لا يعلمون** ﴾ . وقال مجاهد في قوله ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم** ﴾ نزلت في بني مقرن بن مزينة ، وقال محمد بن كعب : كانوا سبعة نفر : من بني عمرو بن عوف ، سالم بن عوف . ومن بني واقف حرمي بن عمرو ، ومن بني مازن بن النجار عبدالرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بني المعلى فضل الله ، ومن بني سلمة عمرو بن عتبة ، وعبدالله بن عمرو المزني . وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكّاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار ، وغيرهم من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلية بن زيد أخو بني حارثة ، وأبو ليلى عبدالرحمن ابن كعب أخو بني مازن بن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمه ، وعبدالله بن المغفل المزني ، وبعض الناس يقول : بل هو عبدالله بن عمرو المزني ، وحرمي بن عبدالله أخو بني واقف ، وعياض بن سارية الفزاري ، فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون » . وروى ابن أبي حاتم .. عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً ، ولا

نلتم من عدو نيلاً ، إلا وقد شركوكم في الأجر » . ثم قرأ ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾ الآية . وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم مسيراً ، إلا وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم حبسهم العذر » وروى الإمام أحمد .. عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم في الأجر ، حبسهم المرض » . ورواه مسلم وابن ماجه من طرق .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ..** ﴾ نذكر مايلي :

أ - روى الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني ، فقال زيد : ما يريبك من يدي إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال . فقال زيد بن صوحان : صدق الله ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله** ﴾ .

ب - وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن غريب .

ج - قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى** ﴾ . (سورة يوسف : ١٠٩)

د - وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبِّلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبِّل ، فقال رسول الله ﷺ : « وأملك أن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ » وقال ابن نمير : (من قلبك الرحمة) .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ نذكر أن هناك قراءة برفع الأنصار ، وقراءة حفص التي عليها هذا التفسير بالخفض ، وقد أشرنا إلى هذا لأننا سننقل كلام ابن كثير كله في هذه الآية ، وقد أشار هو إلى هذا الموضوع .

قال ابن كثير في الآية :(يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه ، بما أعد لهم من جنات النعيم ، والنعيم المقيم . قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ . وقال محمد بن كعب القرظي : مَرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار** ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أُبيّ بن كعب ، فقال : لاتفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم : قال : وسمعتَها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال : أبي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿ **وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم** ﴾ وفي سورة الحشر ﴿ **والذين جاؤوا من بعدهم** ﴾ الآية . وفي الأنفال : ﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم** ﴾ الآية . رواه ابن جرير قال : وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفاً على ﴿ **والسابقون الأولون** ﴾ فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان : فياويل من أبغضهم ، أو سبّهم ، أو أبغض أو سبّ بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم - أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه - فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم - عياذاً بالله من ذلك - وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ؟؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضّون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبّه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متّبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون » . ا .هـ . كلام ابن كثير .

أقول : نرجو أن يكون المسلمون - سُنَّة وشيعة - على أبواب عهد جديد ، يعتمد في التحقيق العلمي على الإنصاف ، وفي الحركة السياسية على التحرر من عُقَد الماضي ، وفي التعامل اليومي على الحب والإخاء ، وأن لا يتكلفوا الخوض فيما لا يعني ، وأن يعفوا ألسنتهم عما هو مظنة الإثم ، وأن يلجموا الأهواء بنصوص الكتاب والسنة .

كما نرجو من العلماء العاملين - سُنَّة وشيعة - أن يتكلموا بما يؤلف القلوب ، وبما يجمع على الحق ، وأن يكتبوا جميعاً بلغة التحقيق لا بلغة السبّ والشتم .

ثم تأتي الآن مجموعة رابعة تزيدنا بياناً عن المنافقين ومواقفهم وطريقهم التي عليهم أن يسلكوها - إن أرادوا التوبة - كما تحدّد في المقابل صفات المؤمنين .

﴿ **ومن حولكم** ﴾ أي حول بلدتكم أو داركم وهي المدينة عاصمة الإسلام الأولى ﴿ **من الأعراب** ﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار . وكانوا نازلين حولها ﴿ **منافقون ومن أهل المدينة** ﴾ منافقون كذلك ﴿ **مردوا على النفاق** ﴾ أي تمهّروا فيه ، مرنوا عليه واستمروا عليه ﴿ **لا تعلمهم** ﴾ أي يخفون عليك مع فطنتك وصدق فراستك لفرط خبثهم واحتراسهم في تحامي ما يشكك في أمرهم ﴿ **نحن نعلمهم** ﴾ أي لا يعلمهم إلا الله ولا يطلع على سرهم غيره لأنهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ﴿ **سنعذبهم مرتين** ﴾ هاتان المرتان قد يكون المراد بهما القتل وعذاب القبر ، أو الفضيحة وعذاب القبر ، أو أخذ الصدقات من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿ **ثم يُردّون إلى عذاب عظيم** ﴾ أي عذاب النار بعد أن ذكر في هذه المجموعة المنافقين الخلص في سياق التخلف عن الجهاد ، سيذكر الآن نوعاً من المتخلفين لم يكن تخلفهم عن نفاق وإنما هي المعصية مع الإيمان ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم** ﴾ أي وقوم آخرون سوى المذكورين من قبل لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا وقد ندموا ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾ أي خلطوا خروجاً إلى الجهاد وتخلفاً عنه ، أو خلطوا التوبة والإثم ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم** ﴾ اعترافهم بالذنب توبة وختم الآية بما ختمت به تطميع لهم بقبولها ، وبعد أن ذكر حالهم وطمّعهم بقبول التوبة أمر رسوله ﷺ ﴿ **خذ من أموالهم صدقة** ﴾ تكون كفارة لذنوبهم ، ويمكن أن يكون المراد بالصدقة هنا الزكاة ﴿ **تطهرهم** ﴾ أي الصدقة عن الذنوب ﴿ **وتزكيهم بها** ﴾ التزكية المبالغة في التطهير والزيادة فيه ، ويمكن أن يراد بالتزكية هنا الإنماء والبركة في المال ، ويمكن أن يكون المعنى تطهرهم من الإثم وتزكيهم بتحقيقهم بمكارم الأخلاق ، وقد دلت الآية على فضيلة الصدقة إذ بها تمحى الخطايا ولو كانت تخلفاً عن النفير ﴿ **وَصَلِّ عليهم** ﴾ أي وادع لهم وترحّم ، ومن ثم كانت السُّنَّة أن يدعو جابي الصدقة لصاحب الصدقة إذا أخذها ﴿ **إن صلاتك سكن لهم** ﴾ أي سكينة وطمأنينة لقلوبهم ﴿ **والله سميع** ﴾ لدعائك أو سميع لاعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿ **عليم** ﴾ بما في

ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرط منهم ، ثم هيجهم الله على التوبة والصدقة فقال : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ إذا صحت ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ أي ويقبلها إذا صدرت عن خلوص نية أي فاصدقوا بالتوبة وأخلصوا بالصدقة ، وتفيد الآية أن التوبة والصدقة ليست لرسول الله ﷺ ولا لغيره بل هي لله ، فإن شاء قَبِل ، وإن شاء ردّ ، فاقصدوه فيهما ووجهوهما إليه ﴿ **وأن الله هو التواب** ﴾ أي الكثير قبول التوبة ﴿ **الرحيم** ﴾ بمن علم منه صدق الإنابة والإخلاص في العمل ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم ﴿ **وقل** ﴾ أي لهؤلاء التائبين ﴿ **اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ أي فإن عملهم لا يخفى ، خيراً كان أو شراً ، على الله أو رسوله أو المؤمنين بإطلاع الله المؤمنين على عملهم ، وفي الآية حَضّ لهم على العمل الصالح ، ووعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة ﴿ **وستردون إلى عالم الغيب** ﴾ أي ما يغيب عن الناس ﴿ **والشهادة** ﴾ أي ما يشاهدونه ﴿ **فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ يخبركم به ويجازيكم عليه . وهكذا وصف الله لأهل الإيمان - إذا تخلفوا عن النفير - طريق العودة إلى الله ، وهو التوبة النصوح والإنفاق والعمل الصالح ، وقد دلتنا هذه الآيات الأربع على صنف من المتخلفين تخلفوا وصدقوا في التوبة غاية الصدق . وبالغوا في الشعور بالذنب والاعتراف فيه . فقبل الله توبتهم مباشرة ، ودلهم على ما ينبغي فعله ، والآن يحدثنا عن فريق آخر من المتخلفين المؤمنين لم يبالغوا في التوبة كالأولين فأرجأ الله قبول توبتهم ، ثم قبلها كما ستحدثنا أواخر السورة ﴿ **وآخرون مُرْجَون لأمر الله** ﴾ أي وآخرون من المتخلفين موقوفون إلى أن يظهر أمر الله فيهم ، والإرجاء : التأخير ﴿ **إما يعذبهم** ﴾ إن لم يقبل توبتهم ﴿ **وإما يتوب عليهم** ﴾ فلا يعذبهم إن قبل توبتهم ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ عليم بصدقهم أو كذبهم في توبتهم ، حكيم في تأخير قبول توبتهم ، وقد أظهر قبول توبتهم كما سنرى .

وهكذا استمر السياق يحدثنا عن حال مَنْ تخلف عن النفير في سياق الأمر بالنفير ، حتى إذا عرفنا كل ما ينبغي أن نعرفه عن موضوع التخلف عن النفير آن الأوان ليحدثنا السياق عمّا يسمّى في اصطلاحات العصر الطابور الخامس : أي العدو الداخلي الذي ظاهره معنا وهو يعمل ضمن مخططات الأعداء ولصالحهم ، وما ينبغي فعله بهؤلاء وبمخططاتهم من خلال قصة مسجد الضرار ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً** ﴾ أي مضارة للمسلمين ﴿ **وكفراً** ﴾ أي وتقوية للنفاق ﴿ **وتفريقاً بين المؤمنين** ﴾ ليجمعوا قسماً منهم في مسجدهم ويشركوهم في مخططاتهم ﴿ **وإرصاداً** ﴾ أي وإعداداً ﴿ **لمن**

حارب الله ورسوله ﴾ أي لأجله ﴿ **من قبل** ﴾ بناء المسجد ﴿ **وليحلفُنَّ** ﴾ . وهم كاذبون في حلفهم ﴿ **إن أردنا إلا الحسنى** ﴾ **أي** ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على المصلين ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أي في حلفهم ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾ أي لا تصل فيه لهم ﴿ **لمسجد أُسس على التقوى من أول يوم** ﴾ من أيام وجوده ﴿ **أحق أن تقوم فيه** ﴾ أي مُصلِّياً ﴿ **فيه** ﴾ أي في المسجد المؤسس على التقوى ﴿ **رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾ من النجاسات كلها ومعنى محبتهم للتطهير أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء ﴿ **والله يحب المطهرين** ﴾ **فهو** يرضى عنهم ويحسن إليهم ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بنيانه** ﴾ أي وضع أساس ما يبنيه ﴿ **على تقوى من الله ورضوان خير** ﴾ أي **أفمن** أسَّسِ بنيان دينه على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ﴿ **أَمْ مَنْ أَسَّسَ بنيانه على شفا** ﴾ أي حرف وشفير ﴿ **جرف** ﴾ جرف الوادي جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى **واهنا** ﴿ **هار** ﴾ أي هائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط والمعنى:أفمن أُسس على قاعدة محكمة وهي تقوى الله ورضوانه ، خير أم من أُسس على قاعدة هي أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك ﴿ **فانهار به في نار جهنم** ﴾ أي وطاح به الباطل في نار جهنم ﴿ **والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ أي لا يوفقهم للخير عقوبة لهم على نفاقهم ﴿ **لا يزال بنيانهم الذي بَنوا ريبة في قلوبهم** ﴾ أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، **فإنه** أورثهم نفاقاً في قلوبهم أو لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم ﴿ **إلا أن تقطَّع قلوبهم** ﴾ أي إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً وتتفرق أجزاءً ، فحينئذ يسلون عنه وأما دامت سالمة **مجتمعة فالريبة** باقية متمكنة ويمكن أن يكون المعنى : إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم **ندماً** وأسفاً على تفريطهم ﴿ **والله عليم** ﴾ بعزائمهم ﴿ **حكيم** ﴾ في جزاء جرائمهم ، ثم ختم **الله** هذه **المجموعة بما** ختم المجموعات السابقة بالتذكير بما أعد الله للمؤمنين إذا قاموا بما عاهدوا ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾ مَثَّل الله إثابة المؤمنين **بالجنة على** بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء ﴿ **يقاتلون في سبيل الله** ﴾ **هذا بيان** لمحل التسليم وهو مواطن القتال وممارسته ﴿ **فيَقتُلون ويُقتَلون** ﴾ **أي** تارة **يقتلون** العدو وطوراً يقتلهم العدو ﴿ **وعداً عليه حقاً** ﴾ أي وعدهم بذلك **وعداً** ثابتاً ﴿ **في التوراة والإنجيل والقرآن** ﴾ أخبر تعالى بأن **هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في** سبيله **وعد**

ثابت قد أثبته في التوراة والإنجيل والقرآن وهو دليل على أن كل ملة أمروا **بالقتال** ووعدوا عليه ﴿ **ومن أوْفَىٰ بعهده من الله** ﴾ لا أحد أوفى بعهده من الله لأن **إخلاف** الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكريم منا فكيف بأكرم الأكرمين ، وأي ترغيب في الجهاد **هذا** الترغيب ؟ وأين البائعون ؟ ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به** ﴾ أي فافرحوا **غاية** الفرح بهذا البيع ، فإنكم تبيعون فانياً بباق ﴿ **وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وأي ربح أعظم من الجنة ؟ ولكن من هم المرشحون لهذا البيع ؟ ﴿ **التائبون** ﴾ الذين **تابوا من** الشرك وتبرؤوا من النفاق وإذا واقعوا المعصية أنابوا مباشرة ﴿ **العابدون** ﴾ أي الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة ﴿ **الحامدون** ﴾ الله على نعمة الإسلام وعلى **كل** نعمة ﴿ **السائحون** ﴾ أي الصائمون ، أو طلبة العلم ؛ لأنهم يسيحون في الأرض يطلبونه من مظانه ، أو السائرون في الأرض للاعتبار ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ أي المحافظون على الصلوات ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ أي والآمرون بالإيمان والمعرفة والطاعة والعمل الصالح ﴿ **والناهون عن المنكر** ﴾ أي عن الشرك والمعاصي ﴿ **والحافظون لحدود الله** ﴾ أي أوامره ونواهيه أو معالم الشرع ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ أي المتصفين بهذه الصفات ، فهذه صفات عشر : الإيمان ، وحفظ حدود الله ، والنهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف ،والسجود ، والركوع ، والسياحة ، والحمد ، والعبادة ، والتوبة ، من تحقق بها فهو المرشح للبيع ، وعلى هذا فإن على المربين في هذه الأمة أن يربوا على هذه الخصال إذا ما أرادوا جيلًا يستسهل البيع والجهاد والقتال ، وإذا وَزَنّا الناس بهذه الصفات العشر ، وفتبين لنا نقصانها في المسلمين عرفنا لم لا نرى جهاداً أو قتالًا وبيعاً للأنفس في سبيل الله وَلِمَ لا نرى مسارعة لذلك .

وبهذا تنتهي المجموعة الرابعة من هذا المقطع وقد فصلت أحوال أصناف من الناس .

الفوائد :

١ ـ بمناسبة قوله تعالى ﴿ **وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم** ﴾

نذكر هذه الروايات :

أ ـ روى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم في جحر ثعلب »

وأصغى إليّ رسول الله ﷺ برأسه فقال : « وإن في أصحابي منافقين » ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم .

ب ـــ روى الحافظ ابن عساكر عن أبي الدرداء : أن رجلًا يقال له حرملة أتى النّبي ﷺ فقال: «الإيمان ههنا»وأشار بيده إلى لسانه ، والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه«ولم يذكر الله إلا قليلًا) فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكرا ، وارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيّر أمره إلى خير » فقال : يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأسًافيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصرَّ فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستراً » قال : وكذا رواه أبو أحمد الحاكم .

ج ـــ قال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال : قام رسول الله ﷺ خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يا فلان فإنك منافق ، واخرج يا فلان فإنك منافق » فأخرج من المسجد ناساً منهم ، فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا وأختبأوا هم من عمر ظنوا قد علم بأمرهم ، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم قال ابن عباس : فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد . والعذاب الثاني عذاب القبر .

وقال سعيد عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرّ إلى حذيفة باثني عشر رجلًا من المنافقين فقال : ستة منهم تكفيهم الدبيلة ـــ سراج من نار جهنم يأخذ كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره ـــ وستة يموتون موتاً . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة ، فإن صلى عليه ، وإلا تركه . وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أمِنهم أنا ؟ قال : لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

د ـــ وروى عبد الرزاق عن قتادة في هذه الآية أنه قال : مابال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري ، لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، وقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء

قبلك ، قال نبي الله نوح عليه السلام ﴿ **وما علمي بما كانوا يعملون** ﴾ وقال نبي الله شعيب عليه السلام ﴿ **بقيَّةُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ **لا تعلمهم نحن نعلمهم** ﴾ .

٢ – في سبب نزول قوله تعالى ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوبوا عليهم** ﴾ قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس ﴿ **وآخرون** ﴾ نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال بعضهم : أبو لبابة وخمسة معه وقيل : وسبعة معه ،وقيل: تسعة معه فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم** ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم .

وبمناسبة هذه الآية قال النسفي : ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً** ﴾ خروجاً إلى الجهاد ﴿ **وآخر سيئاً** ﴾ تخلفاً عنه ، أو التوبة والإثم ، وهو قولهم بعت الشاء شاة ودرهما أي شاة بدرهم قالوا وبمعنى الباء ، لأن الواو للجمع ، والباء للإلتصاق ، أو المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر : فكل واحد منهما مخلوط ومخلوط به كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصا حبه بخلاف قولك:خلطت الماء باللبن لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به . وإذا قلته بالواو فقد جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت:خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

وبمناسبة هذه الآية نقل ابن كثير ما رواه البخاري مختصراً... عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ لنا : أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فتلقانا رجال شطر من خلقكم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كان شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم .

٣ – اعتقد بعض ما نعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة لا يكون إلى الإمام وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ محتجين بقول تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة**

تطهرهم وتزكيهم بها ... ﴾ وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، حتى قال الصديق : والله لو منعوني عناقاً ــ وفي رواية عقالًا ــ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه .

٤ – تنفيذاً لقوله تعالى ﴿ **وصل عليهم** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم** ﴾ كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبي (أي والد الراوي وهو عبد الله بن أبي أوفى) بصدقة فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » رواه مسلم . وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت يا رسول الله صل علي وعلى زوجي فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » ومعنى الصلاة هنا الدعاء والاستغفار .

وروى الإمام أحمد ... عن ابن لحذيفة عن أبيه : أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده .

٥ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات** ﴾ ننقل ما يلي :

روى الثوري ووكيع عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أُحد » وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات** ﴾ . وقوله ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾ . وروى الثوري والأعمش ... عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات** ﴾ . وقد روى ابن عساكر في تاريخه قال : غزا الناس في زمن معاوية رضي الله عنه ، وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، فغلّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية ، فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير ، فأبى أن يقبلها منه فقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يستقري الصحابة فيقولون له مثل ذلك . فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فمّر بعبد الله بن الشاعر السكسكي فقال : ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال أو مطيعي أنت ؟ فقال : نعم : فقال : اذهب إلى معاوية

فقل له : اقبل خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل ، فقال معاوية رضي الله عنه لأن أكون أفتيته بها أحب إليّ من كل شيء أملكه ، أحسن الرجل .

٦ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ ننقل ما ذكره ابن كثير مع حذف الأسانيد :

(روى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » . وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، كما روى أبو داود الطيالسي ... عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول ﷺ : « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » . وروى الإمام أحمد ... عمّن سمع أنساً يقول : قال النبيّ ﷺ : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا) .

وروى البخاري أن عائشة رضي الله عنها قالت : إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل ﴿ **اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ وقد ورد في الحديث شبيه بهذا فقد روى الإمام أحمد ... عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنتظروا بم يختم له ، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لومات عليه دخل الجنة ، ثمّ يتحول فيعمل عملًا سيئاً وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته » قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال : « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه ») .

٧ - أفهم من ذكر المؤمنين في قوله تعالى ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ أن المؤمنين إذا لم يروا عملًا صالحاً ممّن عمل سوءاً فإن الأصل ألا يغيّروا رأيهم فيه ، وأنهم معذورون إذا عاملوه بما ظهر لهم منه

٨ - وتفسيراً لقوله تعالى : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب**

عليهم ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا – أي عن التوبة –.. وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد ، كسلًا وميلًا إلى الدعة ، والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونفاقاً ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجيء هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله تعالى ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار** ﴾ الآية ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ... ﴾ الآية كما سيأتي في حديث كعب بن مالك .

٩ – وفي سبب نزول آيات مسجد الضرار في قوله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً** ... ﴾ قال ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تَنصّر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل . وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشجّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق ياعدو الله ، ونالوا منه وسبّوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة . وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد ، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ ، فوعده ومنّاه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله

ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا لهم معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك .

فشرعوا في بناء مسجد في قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك . وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : « إنّا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلمّا قفل عليه الصلاة والسلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم - مسجد قباء - الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مقدمه المدينة ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية : هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجنود من الروم ، وأخرج محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة . فأنزل الله عز وجل ﴿ **لا تقم فيه أبداً** ﴾ إلى قوله ﴿ **الظالمين** ﴾ وكذا روي عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، وقتادة ، وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن قتادة ، وغيرهم قالوا : أقبل رسول الله ﷺ ــ يعني من تبوك ــ حتى نزل بذي أوان ــ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ــ وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذي العلة ، والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال : « إني على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ : « ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بذي أوان ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدّخشُم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي - أو أخاه عامر بن عدي - أخا بلعجلان فقال : «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم ، فاهدماه وحرقاه » فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ــ وهم رهط مالك بن الدخشم - فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ،

فحرّقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً** ﴾ إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثني عشر رجلًا : خذام بن خالد ، من بني عُبيد بن زيد ، أحد بني عوف ، - ومن داره أخرج مسجد الشقاق - وثعلبة ابن حاطب من بني عبيد موالي بني أمية بن زيد ، ومعتِّب بن قشير ، من بني ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن زيد ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، من بني عوف ، وحارثة بن عامر وابناه ، مُجمَّع بن حارثة ، وزيد بن حارثة ، ونبْتل الحارث ، وهو من بني ضُبيعة ، ومخرج وهو من بني ضبيعة ، وبجاد بن عمران وهو من بني ضبيعة ، ووديعة بن ثابت ، موالي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

ومن هذه القصة نفهم أنه لا ينبغي أن نتردد في استئصال كل ما يعكِّر أمن المسلمين ووحدتهم ، وأن علينا أن نسارع إلى تحطيم مخططات أهل الكفر والنفاق .

١٠ - وأما المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ، فالسياق يدل على أنه مسجد قباء ، وعلى ذلك كثير من الآثار والأحاديث ، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى قال ابن كثير : وهذا صحيح ولا منافاة بين القول الأول وبين هذا لأنه إن كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولمسجد قباء فضله ، ولمسجد رسول الله ﷺ زيادة فضل . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجد قباء كعمرة » . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بني عمرو بن عوف كان جبريل هو الذي عيّن له جهة القبلة ، فالله أعلم .

١١ - ومما أثنى الله عز وجل على أهل قباء في هذه الآيات : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ وقد روى البزار ... عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾ فسألهم رسول الله ﷺ فقالوا : إنا نتبع الحجارة بالماء .

وفي الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة ، المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له . وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتنزه عن ملامسة القاذورات . ذكره ابن كثير ،

وقد ورد ما يدل على أن كمال الطهارة يسهّل القيام بالعبادة ، ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وروى الإمام أحمد عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها . فأوهم ، فلما انصرف قال : « يلبّس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » .

١٢ – وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ... ﴾ ذكر ابن كثير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم** ... ﴾ الآية .

وتعليقاً على الآية قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم الله فأغلى ثمنهم ، وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة ، وفى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية ولهذا يقال : من حمل في سبيل الله بايع الله – أي قبل هذا العقد ووفى به – وسواء قُتلوا ، أو قَتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا ، فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء في الصحيحين : « وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد في سبيلي ، وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة .

١٣ – وفي تفسير السياحة في قوله تعالى : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون** ... ﴾ قال ابن كثير ما يأتي نذكره مع حذف الأسانيد : (بيان أن المراد بالسياحة الصيام) . قال سفيان الثوري .... عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ **السائحون** ﴾ . الصائمون . وكذا روي عن سعيد بن جبير والعوفي عن ابن عباس : وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون ، وكذا قال الضحاك رحمه الله وروى ابن جرير ... عن عائشة رضي الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عُيينة وغيرهم أن المراد بالسائحين الصائمون .

قال الحسن البصري : ﴿ **السائحون** ﴾ . الصائمون شهر رمضان . وقال أبو عمرو العبدي : ﴿ **السائحون** ﴾ الذين يديمون الصيام من المؤمنين . وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا وروى ابن جرير ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **السائحون** ﴾ هم الصائمون ، وهذا مرسل جيد ، وهذا أصح الأقوال وأشهرها . وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد . وهو ما روى أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يارسول الله ائذن لي في السياحة . فقال النبي ﷺ : « سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » . وروى ابن المبارك ... عن عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول لله ﷺ : « أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتكبير على كل شرف » . وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم . قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : هم المهاجرون . رواهما ابن أبي حاتم . وليس المراد السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعَفَ الجبال ، ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن » اهـ . كلام ابن كثير

أقول : من أهم ما يلزم لإحكام أمر القتال معرفة الأرض ، ولذلك فإن كثيراً من كتب فن الحرب تذكر موضوع التعرف على الأرض التي سيجري عليها القتال ، على أنه ركن من أركان اتخاذ قرار القتال ، وممّن ذكر ذلك (صن تزو) أحد حكماء الصين الأقدمين في كتابه (فن الحرب) وهو كتاب لازال يحتفظ بالكثير من الأهمية ، لقد ذكر في هذا الكتاب : أن قرار الحرب يقتضي مجموعة أمور : ثقة بين الحكومة والشعب ، وقيادة قادرة على إدارة المعركة المطلوبة ، وروحاً معنوية عالية عند الجند ، وتعرفاً على الأرض التي ستدور عليها المعارك ، ومعرفة الطقس الذي ستكون فيه المعارك .

ولأهمية معرفة الأرض في القتال ، ولأن الأصل في السياحة أن تكون سفراً وتعرّفاً على الأرض ، فإنني لا أستبعد أن يكون المراد بالسياحة في الآية معناها الأصلي ، وهو التعرف على الأرض لصالح المعركة ، خاصة وأن النص قد جاء في سياق الأمر بالنفير والجهاد . وعندئذ يكون ما فسّرت به السياحة فيما سوى ذلك إنما هو من باب المجاز ، فالصائم مسافر نوع سفر إذ تجوب روحه في ملكوت الله ، وطالب العلم سائح إنْ في رحلته الحسّية أو المعنوية في سفره للتعرف على الحقيقة .

ولننتقل إلى عرض المجموعة الخامسة من المقطع الثاني ، وهي المجموعة الأخيرة فيه :

﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى** ﴾ أي ما صح لهم الاستغفار للمشركين في حكم الله وحكمته ولو كانوا أقرباء لهم ﴿ **من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم** ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك : لقد فصّلت العقيدة بين أهل الإيمان والشرك في الدنيا والآخرة ، ثم ذكر عذر إبراهيم إذ استغفر لأبيه ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾ أي هو وعد أباه أن يستغفر له فاستغفر ، تنفيذاً لذلك الوعد ومعنى استغفاره : سؤاله المغفرة له ليسلم ، أو سؤاله أن يعطيه الله الإسلام الذي به يغفر له ﴿ **فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرّأ منه** ﴾ أي فلما تبين من جهة الوحي لإبراهيم أن أباه يموت كافراً ، وانقطع رجاؤه عنه ، تبرأ منه ، وقطع استغفاره ﴿ **إن إبراهيم لأواه** ﴾ أي كثير التأوه شفقاً وفرقاً لفرط ترحمه ورقته ﴿ **حليم** ﴾ أي : صبور على البلاء ، صفوح عن الأذى ، ومن حلمه أنه كان يدعو لأبيه وأبوه يتهدده ويتوعده بالرجم . ﴿ **وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبيّن لهم ما يتقون** ﴾ أي وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال ،بعد إذ رزقكم الهداية ، ووفقكم للإيمان به وبرسوله ﷺ حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتتركوا ،فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال ، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان بعد بيان المأمور والمنهي ، أما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينْه عنه .

وعلى هذا فالقاعدة أن الله لا يؤاخذ عباده على شيء إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره ، وعلمهم بأنه واجب الاجتناب ، أما قبل العلم والبيان فلا ، فالآية إذن فيها تطمين لمن خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل نزول النهي . ﴿ **إن الله بكل شيء عليم إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾ هذا تذكير من الله لعباده بصفاته ، وهو في هذا السياق يفيد الحض على التقوى ، والتحريض على الجهاد . قال ابن جرير : (هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين ، وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لاوَليَّ لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه) ثم ختم الله هذا المقطع وهذه المجموعة بتبيان ما كافأ به من خرج للنفير يوم تبوك وتبيان قبوله توبة من أرجأ الله قبول توبته ليمحصّهم فقال : ﴿ **لقد تاب الله على النبي**

والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ أي في غزوة تبوك ، أي اتبعوا رسول الله ﷺ في وقتها ،مع ما أحاط الغزوة من عسرة في المال والعتاد ، والطقس والقلة ، وبُعْد الطريق ، وكثرة العدو وشدة بأسه ، فكوفئوا على الاستجابة بتكفير الذنوب ، وفي الآية بعث للمؤمنين على التوبة ، وسلوك الطريق المؤدي إلى تطهير الذنوب كالجهاد ﴿ **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ أي عن الثبات على الإيمان أو عن اتباع الرسول ﷺ في تلك الغزوة والخروج معه ﴿ **ثم تاب عليهم** ﴾ تاب عليهم إذ تابعوا وتاب عليهم إذ رجعوا ﴿ **إنه بهم رؤوف رحيم** ﴾ إذ ثَبَّتهم وإذ تاب عليهم ﴿ **وعلى الثلاثة** ﴾ وهم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، ﴿ **الذين خُلِّفُوا** ﴾ أي أرجئوا عن قبول التوبة ، وهم الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله** ... ﴾ فههنا أعلن الله قبول توبتهم .

﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾ أي برحبها أي مع سعتها ، وهو مثل لحيرتهم في أمرهم ، حتى كأنهم لا يجدون في الأرض مكاناً يقرون فيه قلقاً وجزعاً ﴿ **وضاقت عليهم أنفسهم** ﴾ أي قلوبهم لايسعها أُنس ولا سرور ، لأنها حرجت من فرط الوحشة والغم ﴿ **وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه** ﴾ أي وعلموا أن لا ملجأ من سخط الله إلا إلى استغفاره ﴿ **ثم تاب عليهم** ﴾ بعد خمسين يوماً ﴿ **ليتوبوا** ﴾ أي ليكونوا من جملة التوابين ﴿ **إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ يقبل التوبة ويرحم أهلها . قال أبو بكر الوراق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض وتضيق عليه نفسه كتوبة هؤلاء . وهكذا انتهت هذه المجموعة وانتهى المقطع الثاني من القسم الثاني ليأتي المقطع الثالث فيه وهو استمرار لسياق الأمر بالنفير .

الفوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفرواللمشركين ولو كانوا أولي قربى** ...﴾ روى الإمام أحمد ... عن علي رضي الله عنه قال : سمعت رجلًا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفرو للمشركين** ﴾ الآية .

٢ - قال عطاء بن أبي رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا ، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، يقول الله عز وجل : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾ الآية :

أقول : قد مر النهي عن الصلاة على المنافقين فإذا كان مراده بالصلاة الاستغفار للحي فالأمر واسع .

٣ - وقد فُسِّر الأوّاه في قوله تعالى عن إبراهيم ﴿ **إن إبراهيم لأوَّاه حليم** ﴾ بتفسيرات شتى : قال ابن جرير : وأولى الأقوال من قال : (إنه الدّعاء وهو المناسب للسياق ...) ولنذكر هذه النصوص بهذه المناسبة لعل الله يحققنا بما فيها : روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو النجادين : « إنه أوّاه » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء . ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبي : « الأواه المسبّح » وقال ابن وهب ... عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : « لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه » قال شفي بن ماتع عن أبي أيوب : «الأواه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها » وعن مجاهد : «الأواه الحفيظ الرجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً » ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله . وروى ابن جرير ... عن الحسن بن مسلم بن بيان أن رجلًا كان يكثر ذكر الله ويسبح ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « إنه أواه » . وروى ابن جرير ... عن ابن عباس أن النبي ﷺ دفن مَيْتاً فقال : « رحمك الله إن كنت لأواهاً » يعني تلّاء للقرآن .

٤ - وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة** ...﴾ قال مجاهد وغير واحد : نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر ، على ما يعلم الله من الجَهْد ، أصابهم فيها جَهْد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم ، يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم . وأقفلهم من غزوتهم .

وبمناسبة ذكر في العسرة في الآية ذكر ابن جرير ... عن ابن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلًا ، فأصابنا عطش حتى ظننا أنّ رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يارسول الله إن الله عز وجل قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا فقال : « تحب

ذلك ؟ » قال : فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ثم سكنت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾ ذكر ابن كثير رواية كعب بن مالك أحد الثلاثة للحادث ثم علّق عليها وسننقل ذلك كله مع حذف الأسانيد :

قال الإمام أحمد ... أن عبيد الله كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غيرها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلّفت في غزاة بدر ، ولم يعاتَب أحدٌ تخلّف عنها . وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام . وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أُذْكَرَ في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً فجلّى للمسلمين ، أمرهم ليتأهّبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وَجْهَه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لايجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيّب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر[1] ، فتجهّز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغد لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمّر بالناس الجدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً .

---

(١) — أي أميل .

وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً من جهازي فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط [١] الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليت أني فعلت - ثم لم يقدّر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجتُ في الناس بعد رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم يحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصاً عليه في النفاق ، [٢]أو رجلًا ممّن عذره الله عزو وجل ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال : وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة : حبسه يارسول الله بُرْدَاه والنظر في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ ، قال كعب بن مالك : فلماّ بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلًا من تبوك ، حضرني بثّي وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلمّا قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظلّ قادماً ، زاح عني الباطل ، وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعتُ صدقه ، فأصبح رسول الله ﷺ ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثمّ جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلًا - فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ،حتى جئت ، فلما سلمت عليه تَبَسَّمَ تَبَسمَ المغضَب ثم قال لي : « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه : فقال لي : « ماخلّفك ، ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ »فقلت: يارسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكنه والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علّي ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله تبارك وتعالى ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ،فقم حتى يقض الله فيك » فقمت وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبْت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ،

---

(١) - أي فات .

(٢) - أي : مطعونا في دينه .

قال : فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي ، قال : ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ ، قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا مُرارة بن الربيع العامري ، وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة ، قال : — فمضيت حين ذكروهما لي — قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا —أيها الثلاثة — من بين من تخلّف عنه ، فاجتَنَبنا الناس وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي ، فاستكاناوقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشدّ القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ،وآتي رسولَ الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : أحرك شفتيه برد السلام علّي أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه ، وأسارقه النظر ، فإذا التفت على صلاتي نظر إليَّ ، فإذا التفتُ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي ، فسلّمت عليه ، فوالله ما ردّ علي السلام . فقلت له يا أبا قتادة أنشُدُك الله : هل تعلم أني أحبّ الله ورسوله ؟ قال : فسكت قال : فعدتُ فنشدته فسكت ، فعدتُ فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم . قال : ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطي من أنباط الشام ممّن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إليّ ، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أنّ صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة ، فالْحقْ بِنَا نُواسك . قال : فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء ، قال فتيمَّمت به التنور فسجرته به ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك ، قال : قلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها . قال : وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتي يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء . قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إنّ هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت : والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال : فقال لي بعض أهلي :

لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب . قال فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا . قال : ثم صلّيت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة ، على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى مناقد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : أبشر ياكعب بن مالك ، قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجل فرساً وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل ،

فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجاً ، فوجاً يهنئونني بتوبة الله يقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنّأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » قال قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يارسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ، وإلى رسوله ، قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . » قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر ، وقلت : يارسول الله إنما نجّاني الله بالصدق ، وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمّدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي . (قال) وأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه**

بهم رؤوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ إلى آخر الآيات . قال كعب : فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحد ، فقال تعالى : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾ قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلّفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم ، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها ، وكذا روي عن غير واحد من السلف في تفسيرها ، كما رواه الأعمش عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال : هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال : مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم : ابن ربيعة في بعض نسخه ، وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك : مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب ، وقوله : فسمّوا رجلين شهدا بدراً قيل : إنه خطأ من الزهري ، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدراً ، والله أعلم . ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أي مع سعتها ، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله ، وثبتوا حتى فرّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان من غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيراً وتوبة عليهم .

كلمة في السياق :

يتألف القسم الثاني من ثلاثة مقاطع ، كلها آتية في موضوع النفير والموقف منه أو القتال وما يحيط به ، وقد مرّ معنا مقطعان وبقي مقطع واحد . والمقطع الثالث في هذا القسم ، يتحدث عن ثلاثة معان رئيسية :

١ـ الكينونة مع الصادقين .

٢ـ وجوب النفير على الحاضر والبادي .

٣ـ استثناء المتفقهة من النفير العام في بعض الأحوال .

وكل ذلك مرتبط بسياق القسم ، إنه في كثير من الأحيان ، يختلط الأمر على المسلم ، هل يلتحق بالصف أولا ؟ وفي كثير من الأحيان ، يقع المسلم في حيرة وتردد في أي جماعة يكون ؟ يظهر ذلك في عصرنا كثيراً بسبب من فقدان منصب الخلافة الجامع ، ولأن هذا الموضوع من الأهمية بمكان في عصرنا فسنعقد له فصلًا يكون بمثابة مقدمة للمقطع الثالث .

فصل : في الكينونة مع الصادقين :

لقد أمر الله تعالى في بداية المقطع الثالث بالكينونة مع الصادقين فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ وما أكثر الذين يدّعون مقام الصادقين ، ويدعون الناس إلى أنفسهم بحجة أنهم صادقون ، وحتى الذين يعطّلون معاني الجهاد في هذه الأمة ، يزعمون أنهم صادقون ، ويدعون الناس إلى أنفسهم . لقد جاء الأمر بالكينونة مع الصادقين في سياق سورة تتحدث عن الجهاد ، وهذا وحده كاف لأن نعرف ارتباط صفة الصادق بموضوع الجهاد .

ولكن النصوص القرآنية لم تكتف بأن نفهم هذا الفهم من مجرد السياق ، بل نصّت عليه نصّاً ، وحّددت مفهوم الصادقين بما يقطع الدعاوى .

قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** .﴾ فهذا نص في أن الصادقين هم الذين اجتمع لهم إيمان ، وجهاد بالمال والنفس .

وقال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة** ،

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ فالذين صدقوا هم من اجتمعت لهم هذه الصفات التي من جملتها الصبر حين البأس ، أي في القتال .

قال تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم مَن قضى نحْبه ، ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلًا .** ﴾ فهؤلاء هم الصادقون ، أخذوا الإسلام كله ، ولم يدخلوا عليه تغييراً ، وهم بين شهيد ومنتظر للشهادة . فعلى ضوء هذه الآيات يعرف المسلم الصادقين ، ومجيء قوله تعالى ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين** ﴾ في سياق الأمر بالكينونة مع الصادقين يفهم منه أنه حيث لا يكون النفير فرض عين فطلب العلم جهاد ، ويدخل في الصادقين العلماء وعلى هذا فالصادقون مجاهد أو عالم .



المقطع الثالث من القسم الثاني

كلمة بين يدي هذا المقطع :

إنّ هذا المقطع يكمّل المقطعين اللذين قبله ، فالمقطعان يحدثاننا عن قضية النفير العام ، ومواقف الناس منه ، وأحكام هؤلاء الناس وحقيقتهم ، وكل ذلك من خلال الواقع الذي حدث يوم تبوك ، فهذا القرآن يحدثنا عن كل قضية ، ويعطينا النموذج لها ، حتى يظهر لنا من خلال التقرير والتمثيل الأمرَ على غاية الظهور ، وقد أدركنا من خلال هذه السورة كلها كيف أن الأمر بقتال الكافرين والمشركين والمنافقين جزم ، ولم يبق عندنا من القسم الثاني إلا مقطع واحد وهذا هو :

ويمتد من الآية (١١٩) إلى نهاية الآية (١٢٢)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

المعنى العام :

بعد أن استقر معنا في السورة ضرورة الجهاد والقتال ووصف المتخلفين ، تبدأ هذه الآيات بأمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين ، والصادقون هم المؤمنون المجاهدون ، والعلماء العاملون وبعد الأمر بالكون مع الصادقين ، تذكر الآيات أنه ما كان لأحد من أهل المدينة ومن حولها - أي ممن يشملهم الأمر بالنفير- أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ ؛ راغبين بأنفسهم عن نفسه ، ثم بين لهم : أن مايصيبهم من ظمأ أو تعب أو جوع ، أو ما يفعلونه من إغاظة لكافر ، كل ذلك سيكافؤهم الله عليه ، وأنه ما من نفقة قليلة أو كثيرة ، ولا حركة أو سير ، إلاوسيكافؤهم الله عليه ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون تخلفاً ؟ !

ثمّ بيّن الله عز وجل أن هناك نفيراً آخر ، يجب أن يُعطى أهمية ، وأن يتفرغ له ناس ، وهو النفير لطلب العلم .

المعنى الحرفي .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ بإقامة شرعه ﴿ **وكونوا مع الصادقين** ﴾ في إيمانهم دون المنافقين ، أي كونوا مع الذين صدقوا في دين الله قولًا ونية وعملًا ، وقد عرّف الله هؤلاء الصادقين في أكثر من مكان في كتابه ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ فمن اجتمع له الإيمان والجهاد بأنواعه كما ذكرناها في كتاب « جند الله ثقافة وأخلاقا » فهو الصادق وهو الذي أمرنا الله أن نكون معه ، وما أكثر ما غفل المؤمنون عن هذا المعنى ، وما أكثر ما ادعى الصدق غير أهله . ﴿ **ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله** ﴾ هذا نفي يراد به النهي ، وخصّ هؤلاء بالذكر - وإن استوى كل الناس في ذلك - لقربهم ، ولكونهم لا يخفى عليهم أمر النفير ﴿ **ولا يرغبوا** ﴾ أي ولا أن يضنّوا ﴿ **بأنفسهم عن نفسه** ﴾ أي عما يصيب نفسه ، أي لا يختاروا إبقاء أنفسهم في الشدائد ، بل أمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء ، ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة ، وهكذا أدب المسلم مع قيادته الراشدة ، وشأن القيادة كذلك الإمامة في الجهاد وغيره ، والقدوة في الجهاد وغيره . ﴿ **ذلك بأنهم** ﴾ أي النهي عن التخلف بسبب أنهم ﴿ **لا يصيبهم ظمأ** ﴾ أي عطش

﴿ ولانصَب ﴾ أي تعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ أي مجاعة ﴿ في سبيل الله ﴾ أي في الجهاد ﴿ ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ولا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم ، وأخفاف رواحلهم وأرجلهم ، يغيظ الكفار وطئوه ، ويغضبهم ، ويضيق صدورهم ، لا يتحركون حركة تغيظ الكفار ﴿ ولا ينالون من عدو نيلًا ﴾ أي ولا يصيبون منهم إصابة بقتل أو أسر أو جرح أو كسر أو هزيمة ، أو غير ذلك مما يسوؤهم ﴿ إلا كُتِب لهم به ﴾ أي بهذه الأعمال ﴿ عمل صالح ﴾ أي عمل لهم ثوابه ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي إنهم محسنون ، والله لا يبطل ثوابهم ، وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً ، من قيام وقعود ، ومشي وكلام وغير ذلك . ﴿ ولا ينفقون ﴾ أي هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ﴾ أي قليلة ﴿ ولا كبيرة ﴾ أي ولا كثيرة ﴿ ولا يقطعون واديا ﴾ أي أرضاً في ذهابهم ومجيئهم وحركتهم للجهاد ، والوادي في الأصل : هو كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ﴿ إلا كتب لهم ﴾أي ذلك الإنفاق والحركة ، أي أُثبت في صحائفهم . ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي ليجزيهم على كل واحد جزاء أحسن عمل كان لهم ، فيلحق به مادونه توفيراً لأجرهم . ﴿ وماكان المؤمنون لينفروا كافّة ﴾ إلى الجهاد إذا كان الجهاد فرض كفاية ، لما يترتب على ذلك من تعطيل مصالح ، وخاصة مصلحة طلب العلم الشرعي . ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ أي من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة منهم لطلب العلم الشرعي ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليتكلفوا الفقاهة في الدين ، ويتجشموا المشاق في تحصيلها ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ أي ليجعلوا مرمى همتهم في الفقه إنذار قومهم ، وإرشادهم إذا رجعوا إليهم ، دون الأغراض الخسيسة من التصدّر والترؤس والتشبّه بالظلمة في المراكب والملابس . ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ أي ما يجب اجتنابه ، ويمكن أن تفهم الآية فهوماً أخرى ، قال به مفسرون ، وأياً كان فهمُ الآية فإن مجيئها في هذا السياق يدل على أن الفقه فى دين الله والجهاد متلازمان ؛ إذ لايمكن أن يقوم جهاد حقيقي بلا فقه ، ومن ثم فإننا نرى جيشاً كالجيش الانكشاري بدأ متديناً وكيف آل أمره عندما انفصل فيه الجهاد عن الفقه .

الفوائد:

١ ــ استدل النسفي بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين** ﴾ على أن الإجماع حجة ، لأنه أمر بالكون مع الصادقين ، فلزم قبول قولهم . واستدل ابن مسعود بهذه الآية بأن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل . وقال الحسن البصري في الآية : إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا ، والكف عن أهل الملة .

٢ ــ بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون .** ﴾ ذكر ابن كثير ما أنفقه عثمان يوم العسرة ، فذكر هاتين الروايتين :

أ ــ روى عبد الله ابن الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن حباب السلمي ، قال : خطب رسول الله ﷺ فحثَّ على جيش العسرة . فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عليَّ مائة بعير بأحلاسها [١]وأقتابها . قال : ثم حثَّ ، فقال : عثمان : عليَّ مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حثَّ ، فقال : عثمان بن عفان : عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها (وأخرج عبد الصمد - أحد رجال سند الحديث - يده كالمتعجب) : « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » .

ب ــ وروى عبد الله ابن الإمام أحمد أيضاً ... عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهّز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبي ﷺ ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ، ويقول : « ما ضَرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً .

٣ ــ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلًا ،إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ قال النسفي : وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً ، من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك ، وعلى أن المدد

---

(١) الحِلْس : هو الكساء الذي يكون تحت قتب البعير .

يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب ، لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، وقد أسهم النبي ﷺ لابني عامر وقد قدما بعد تقضّي الحرب .

٤ ـــ هناك حالات أجاز فيها الفقهاء لنوع من الناس ألا ينفروا ، وهم الذين تحتاج الأمة إلى علمهم ، ولايغني عنهم غيرهم ، أي هم الذين يعتبرون مراجع دينية للمسلمين ، وعلى هذا فإن النص يمكن أن يكون في أمثال هؤلاء .

وبمناسبة قوله تعالى . ﴿**فلولا نفر من كل فرقة...**﴾ الآية قال الألوسي: (قال حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة : كان اسم الفقه في العصر الأول اسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، وتدل عليه هذه الآية فما به الإنذار والتخويف هو الفقه ، دون تعريفات الطلاق واللعان والسَّلَم والإجارات ، وسأل فرقد السنجي الحسن عن شيء فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن : ثكلتك أمك هل رأيت فقيهاً بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكافّ عن أعراض المسلمين ، العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى) ا .هـ .

وهو من الحسن بمكان ، لكن الشائع إطلاق الفقيه على من يحفظ الفروع مطلقاً ، سواء كانت بدلائلها أم لا ، كما في (التحرير) . وفي (البحر) عن (المنتقى) ما يوافقه ، واعتبر في (القنية) الحفظ مع الأدلة ، وذكر غير واحد أن تخصيص الإنذار بالذكر لأنه الأهم ، وإلا فالمقصود الإرشاد الشامل لتعليم السنن والآداب ، والواجبات والمباحات ، والإنذار أخص منه ، ودعوىٰ أنهما متلازمان ، وذكْر أحدهما مُغْن عن الآخر غفلة أو تغافل ، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفر : الخروج لطلب العلم ، فالآية ليست متعلقة بما قبلها من أمر الجهاد ، بل لما بيَّن سبحانه وجوب الهجرة والجهاد ، وكل منهما سفر لعبادة ، فبعد ما فضل الجهاد ، ذكر السفر الآخر وهو الهجرة لطلب العلم ، فضمير يتفقهوا وينذروا للطائفة المذكورة لمذكورة ، وهي النافرة ، وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد . فقد أخرج عنه ابن جرير وابن المنذر وغيرهما أنه قال : إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا في البوادي ، فأصابوا من الناس معروفا ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى . فقال لهم الناس : ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا ! فوجدوا في أنفسهم من ذلك

تحرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ﴿ **وما كان المؤمنون** ﴾ الخ أي : لولا خرج بعض وقعد بعض يبتغون الخير ليتفقهوا في الدين ، وليسمعوا ما أنزل ، ولينذروا الناس إذا رجعوا إليهم . واستدل بذلك على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية . وذكر بعضهم أن في الآية دلالة على أن خبر الآحاد حجة ، لأن عموم كل فرقة يقتضي : أن ينفر من كل ثلاثة تفرّدوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر قومها كي يتذكروا ويحذروا . فلو لم تعتبر الأخبار مالم تتوافر لم يفد ذلك ، وقرر بعضهم وجه الدلالة بأمرين : الأول أنه تعالى أمر الطائفة بالإنذار ، وهو يقتضي فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً . والثاني أمره سبحانه القوم بالحذر عند الإنذار ، لأن معنى قوله تعالى : ﴿ **لعلهم يحذرون** ﴾ ليحذروا ، وذلك أيضاً يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، وهذه الدلالة قائمة على أي تفسير شئت من التفسيرين ....) اهـ . كلام الألوسي .

كلمة في السياق :

بالمقطع الثالث من القسم الثاني ينتهي القسم ، بعد أن تحدث عن كل ماله علاقة بالنفير ، وبهذا تكون سورة التوبة قد حدثتنا عن وجوب قتال المشركين ، وأهل الكتاب ، والكفار عامة ، والمنافقين إذا أظهروا نفاقهم . كما حدثتنا عن وجوب نوعين من النفير يحتاجهما بقاء الإسلام : النفير للقتال ، والنفير لطلب العلم ، وحدثتنا عن موقف الناس من النفير ، وعرَّفتنا على المنافقين ، وماذا يفعلون لخلخلة الصف ، وتوهين المسلمين ، والهروب من الجهاد ، إلى غير ذلك . وعرَّفتنا على من هم مظنة للجهاد والقتال ، وحضّت وحرضّت حتى لتكاد تكون منشور القتال لأهل الإسلام .

وبانتهاء هذا القسم ، لا يبقى معنا إلا القسم الأخير ، الذي هو بمثابة خاتمة السورة ، ويتألف من سبع أيات ، ويبدأ بآية تحدد استراتيجية الحركة الجهادية في الإسلام .

☆ ☆ ☆

القسم الثالث والأخير

ويتألف من مقطع واحد ويمتد من الآية (١٢٣) إلى نهاية الآية (١٢٩) وهذا هو :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

كلمة في هذه الآيات :

هذه الآيات تشكل خاتمة السورة ، فتبدأ بوضع استراتيجية الحركة الجهادية ، وإذ كانت هذه الاستراتيجية تستند إلى مامرَّ في السورة ، فإن أربع آيات بعد ذلك تأتي لتصف موقف المؤمنين والمنافقين من القرآن . وحتى لايفهم فاهم أن الأمر بالقتال تفريط بالمؤمنين ، فإن الآية السادسة في المقطع تبين أن بعثة رسول الله ﷺ كانت خيراً وبركة ، وأن رسول الله ﷺ لايحب إعنات المؤمنين ، بل هو حريص عليهم ، ورؤوف

رحيم بهم ، ثم تختم السورة بآية تأمر رسول الله ﷺ في حال إعراض المسلمين عن الجهاد أن يقول : ﴿ **حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم** ﴾

المعنى العام :

تبدأ خاتمة السورة بأمر للمؤمنين بأن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب ، وهي الاستراتيجية التي لا يجوز للمسلمين أن يغفلوها إطلاقاً ، لأن إغفالها فيه قضاء على الإسلام ، فأنت عندما تنطلق لتجاهد الأبعدين تعطي فرصة للقريبين أن يجتثوك في المركز ، وقد أمر الله عز وجل المؤمنين مع هذا بأن يكونوا غلاظاً في حربهم ، وأن يعلموا أن الله معهم ، والأمر الأخير في هذا المقام يفيد : ألا ينظر المسلمون إلى ما يمكن أن يقوله عنهم أعداؤهم ، أوباصطلاح العصر ألا يبالوا بما يقوله الرأي العام ، وهم يجاهدون أعداء الله .

ثم ختم الله السورة بالبيان أن سور القرآن تزيد المؤمن إيماناً ، أما المنافق فلا تزيده إلا نفاقاً ، ثم ذكر الله هؤلاء المنافقين بأن ما يحدث لهم ينبغي أن يكون مذكراً لهم ليتوبوا وهيهات . ثم بيّن الله عز وجل كيف أن موقف المنافقين مما يتنزل من القرآن الإعراض والفرار ؛ لأن قلوبهم مصروفة عن الحق ، ثم امتن الله عز وجل على المؤمنين بما أكرمهم به من خصائص رسول الله ﷺ وصفاته ، من حرصه عليهم ، ورغبته عن كل ما يشق عليهم ، ورأفته ورحمته بهم ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يتوكل على الله وحده إذا صادف إعراضاً . وهكذا وجهت هذه الآيات المؤمنين ، وعرّت المنافقين ، وعلّمت قيادات المسلمين كيف ينبغي أن تكون . وعلّمت رسول الله ﷺ والقيادات الإسلامية ماذا تقول إذا رأت إعراضاً من المسلمين عن القتال وغيره من أوامر الإسلام .

المعنى الحرفي :

﴿ **ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ أي يقربون منكم أي قاتلوا الأقرب فالأقرب ، إن قتال كل الكافرين واجب ، ولكن قتال الأقرب فالأقرب أوجب ، ومن ثَمَّ كان قتال المسلمين الكفارَ المتسلطين من مرتدين وناكثين في أوطانهم أوجب ، ولهذا التوجيه أهمية خاصة في الحركة الجهادية ﴿ **وليجدوا فيكم غِلْظة** ﴾ أي شدة وعنفاً في المقال والقتال ، وهذا التوجيه مهم جداً ، وخاصة في عصرنا ، إذ يحاول الكثيرون أن يخدعونا عما تحتاجه الحرب من غلظة تحت شعاري : الإنسانية ، أو مراعاة الرأي العام ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ أي بالنصرة والغلبة ، وهذا التوجيه

في هذا المقام فيه تحرير للنفسية الإسلامية من خوف الكفرة المجاورين ، أو خوف الرأي العام في حالة الغلظة ، وهكذا حدَّدت السورة مع سورة الأنفال كل ما يلزم في شأن القتال والجهاد ، فكيف تكون مواقف الناس بعد هذا البيان ؟ هذا ما تحدده الآيات الأربع الآتية : ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم** ﴾ أي فمن المنافقين ﴿ **من يقول أيُّكم زادته هذه إيماناً** ﴾ أي هذا ما يقوله بعضهم لبعض إنكاراً واستهزاءً وتعليقاً على السورة ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم** ﴾ أي السورة ﴿ **إيماناً** ﴾ أي يقيناً وثباتاً ، أو خشية والتزاماً ، ولنتذكر في هذا المقام ما بدأت به سورة الأنفال في وصف المؤمنين من كونهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً لنرى الصلة بين خاتمة براءة وبداية الأنفال ، ولنرى بعد ذلك الصلة بين السورتين ، وأن كلًا منهما تكمل الأخرى ، فهما في حكم سورة واحده كما رأينا أكثر مرة ﴿ **وهم يستبشرون** ﴾ أي مع زيادة الإيمان هم يستبشرون بوعد الله مع قيامهم بحق الله ، إذا أنهم يعدّون زيادة التكليف بشارة التشريف ﴿ **وأما الذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي شك ونفاق ﴿ **فزادتهم رجساً إلى رجسهم** ﴾ أي كفراً مضموماً إلى كفرهم ، إذ أنهم أضافوا كفراً بالسورة الجديدة إلى كفرهم بما سبق ﴿ **وماتوا وهم كافرون** ﴾ فهم مُصرُّون على الكفر حتى الموت ﴿ **أوَ لايرون** ﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿ **أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين** ﴾ أي يبتلون بالقحط والمرض وغير ذلك في كل عام مرة أو مرتين ، أو يمتحنون للتنفيذ والتطبيق مرة أو مرتين ، ولا ينفذون ، ولا يطبقون فيفتضحون ﴿ **ثم لا يتوبون** ﴾ عن نفاقهم ﴿ **ولاهم يذّكّرون** ﴾ أي ولاهم يعتبرون ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ أي تغامزوا بالعيون ؛ إنكاراً للوحي وسخرية به قائلين ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ أي من المسلمين لننصرف حتى لا نفتضح ، أو حتى لا يرانا أحد إن انصرفنا ﴿ **ثم انصرفوا** ﴾ أي خلسة ﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ أي عن فهم القرآن ﴿ **بأنهم** ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ **قوم لا يفقهون** ﴾ أي لا يتدبرون حتى يفقهوا ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الفقيه من تدبّر كتاب الله وقام بحقوقه وإذ تبيَّنت المواقف من التكليف الشاق في سور القرآن ختم الله السورة بَبيان منّتِه على المؤمنين ، إذ أرسل لهم رسوله ﷺ مع البيان لرسوله ﷺ ماينبغي أن يقوله في حالة إعراض أحد عن التكليف ، وفي ذلك إشارة إلى أن الأمر بالجهاد هو عين الرحمة ، وأن المتولي يغني الله عنه ﴿ **لقد جاءكم رسول** ﴾ هو محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **من أنفسكم** ﴾ أي من جنسكم ونسبكم أيها العرب المخاطبون الأُوَل بهذا القرآن ، أو من جنسكم أيها البشر لتقوم عليكم الحجة به أن ما جاء به

مستطاع للبشر ﴿ **عزيز عليه ما عَنِتُّم** ﴾ أي شديد عليه عنتكم أي لقاؤكم المكروه أي صعب على نفسه كل ما يرهقكم ﴿ **حريص عليكم** ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم ، فما لكم لا تقومون بحق الله معه ، وتجاهدون معه ؟!﴿ **بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ عظيم الرأفة والشفقة ، كثير الرحمة بالمؤمنين . تعلّمنا الآية أن على قادة المسلمين - أي على خلفاء رسول الله ﷺ على أمته أن يتّصفوا بهذه الصفات :من الشفقة ، والحرص على المؤمنين ، وكمال الرأفة بهم ، ولا يكون ذلك إلا بتطبيق أمر الله كاملًا ، ومن ذلك الجهاد . فرسول الله ﷺ - وهو أكمل الخلق في هذه الصفات - خاض بالمؤمنين غمرات الجهاد السنين الطوال .

فمن دَعَتْهُ رحمته وشفقته وحرصه على المؤمنين ، ورغبته عن إعناتهم إلى ترك الجهاد فهو غير وارث . ومن ثم ندرك سر ختم هذه السورة بمثل هذه الآية والتي بعدها . ﴿ **فإن تولوا** ﴾ أي أعرضوا عما تدعوهم إليه من أمر الجهاد وغيره ﴿ **فقل حسبيَ الله** ﴾ أي الله يكفيني أي فاستعن بالله وفوِّض إليه أمورك ، فهو كافيك ﴿ **لا إله إلا هو عليه توكلت** ﴾ أي فوَّضت أمري إليه ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ ومن كان رب العرش - الذي هو أعظم المخلوقات - فإن التوكل عليه يغني عن جميع المخلوقات . وبهذا انتهت السورة .

الفوائد :

١ - في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ . قال ابن كثير:(أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولًا فأولًا ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام . ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم ، وفتح الله عليه مكة والمدينة ، والطائف ، واليمن ، واليمامة ، وهجر ، وخيبر ، وحضرموت ، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً ، شرع في قتال أهل الكتاب ، فتجهّز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام ، لكونهم أهل الكتاب ، فبلغ تبوك ، ثم رجع لأجل جَهْد الناس وجدب البلاد وضيق الحال ، وذلك سنة تسع من هجرته ، عليه السلام ، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد حجته بأحد وثمانين يوماً ، فاختاره الله لما عنده ، وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد مال الدين ميلة كاد أن

ينجفل ، فثبته الله تعالى به ، فوطّد القواعد ، وثبّت الدعائم ، وردّ شارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ، ممّن منعها من الطغام ، وبيَّن الحق لمن جهله ، وأدّى عن الرسول ما حمّله ، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عَبَدَة الصلبان ، وإلى الفرس عَبَدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد ، وأنفق كنوزهما في سبيل الله ، كما أخبر بذلك رسول الله ، وكان تمام الأمر على يدي وصيّه من بعده ، وولي عهده الفاروق الأوّاب ، شهيد المحراب ، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً ، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً ، ففرقها على الوجه الشرعي ، والسبيل المرضي ، ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً ، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار ، على خلاقة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسا الإسلام برياسته حلة سابغة، وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله، وظهر دينه، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار ، امتثالًا لقول تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وليجدوا فيكم غلظة** ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم . فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رقيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر ، كقوله تعالى ﴿ **فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ (المائدة : ٥٤) وقوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم** ﴾ (الفتح : ٢٩) وقال تعالى ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** . ﴾ (التحريم : ٩) وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : أنا الضحوك القتال يعني أنه ضحوك في وجه وليِّه قتّال لهامة عدوه ، وقوله : ﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكّلوا على الله ، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خيرة هذه الأمة في غاية الاستقامة ، والقيام بطاعة الله تعالى ، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سَفال وخسار ، ثم لما وقعت الفتن والأهواء ، والاختلافات بين الملوك ، طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها ، فلم يمانَعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض، ثمّ تقدّموا إلى حوزة الإسلام ، ولله الأمر من قبل ومن

بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام ، وأطاع أوامر الله ، وتوكل على الله ، فتح الله عليه من البلاد ، واسترجع من الأعداء بحسبه ، وبقدر ما فيه من ولاية الله ، والله المسئول المأمول أن يمكّن المسلمين نواصي أعدائه الكافرين ، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً** ﴾ قال ابن كثير : (وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك)

٣ ـ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أَوَلا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون** ... ﴾ روى ابن جرير عن حذيفة في الآية قال: (ويظهر أن المراد بذلك قبول قلوب هؤلاء للشائعات ضد الإسلام والمسلمين وتجاوبهم معها) .

٤ ـ وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** .. ﴾ إلى آخر السورة ننقل ما يلي :

أ ـ روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم : فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفْر ، انتهوا إلى رأس مفازة (١) ، ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولاما يرجعون به ، فبينما هم كذلك ، إذ أتاهم رجل في حلة حبرة (٢) ، فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رواء تتبعوني ؟ فقالوا نعم ، قال : فانطلق بهم ، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم ، ألم ألفكم على تلك الحال ، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رواء ، أن تتبعوني ؟ فقالوا : بلى . قال : فإنّ بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه ، وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني ، فقالت طائفة : صدق والله لنتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه »

---

(١) أي صحراء لا ماء فيها .

(٢) نوع من برود اليمن .

ب ـــ وروى البزار عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ليستعينه في شيء ، قال عكرمة : (أراه قال في دم) ـــ فأعطاه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابي : لا ، ولاأجملت ، فغضب بعض المسلمين ، وهمّوا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كُفّوا ، فلما قام رسول الله ﷺ ، وبلغ إلى منزله ، دعا الأعرابي إلى البيت فقال : « إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت » فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال : « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، قال النبي ﷺ : « إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت ، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم » فقال : نعم ، فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه ، فزعم أنه قد رضي كذلك يا أعرابي ؟ » قال الأعرابي :نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال النبي ﷺ : « إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأنا أعلم بها ، فتوجّه إليها ، وأخذ لها من قشام الأرض ، ودعاها حتى جاءت واستجابت ، وشدّ عليها رحلها ، وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار » .

وبمناسبة الكلام عن هاتين الآيتين ، نذكر ماروي في الصحيح من أن زيداً المكلف بكتابة القرآن في زمن أبي بكر قال : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت – أو أبي خزيمة – فسجّلها زيد بناءً على شهادته ؛ لأن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين ، ولا يعني هذا أن هاتين الآيتين ليستا متواترتين ، بل هما متواترتان رواية ، إذ كثير من الصحابة الحفاظ كانوا يحفظونهما ورووهما ، ولكنّ هذه رواية حال ، لا تنفي وجود رواة آخرين .

٥ ـــ روى أبو داود عن أبي الدرداء . من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبي الله لا إله هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، إلا كفاه الله ما أهمه ،

كلمة في أواخر سورة براءة

انتهت السورة بما رأينا من الأمر للمسلمين بالكون مع الصادقين أهل الجهاد ، كما

ذكرت ما أعد الله لأهل الجهاد ، وكيف ينبغي أن يترافق الجهاد مع العلم ؟ وكيف ينبغي أن يسير خط الجهاد من الدائرة الأقرب إلى ماوراءها ؟ وكيف ينبغي أن يكون الموقف الإيماني من سور القرآن عامة بما في ذلك سور الجهاد ، وما هو موقف أهل النفاق من هذه السور ؟ ثم ذكرت بعض صفات رسول الله ﷺ ثم جاء توجيه له عليه الصلاة والسلام لما ينبغي أن يقوله إذا رأى إعراضاً ، وهكذا استكملت قضية القتال والجهاد .

والذي نراه ان ما جاء بعد قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ إنما هو على الصادقين الذين ينبغي أن يكون المسلم معهم كما هو تعريف بالكاذبين الذين لا ينبغي أن يكون المسلم معهم :

فالكينونة ينبغي أن تكون مع الذين يزاولون الجهاد و مع العلماء ولا يصح أن تكون الكينونة مع أهل النفاق الذين عرفوا في السورة من مواقفهم وأقوالهم وذكرت أواخر السورة موقفين من مواقفهم ، وختمت السورة بوصف رسول الله ﷺ ليقتدي به الصادقون في تعاملهم مع أتباعهم وليعرف بذلك من هم الصادقون الذيم ينبغي أن يكون الإنسان معهم :

فمن ينعت المسلمين بالمشقة الظالمة عليهم ومن لم يكن عنده حرص على المؤمنين ومن لم تكن عنده رأفة ورحمة بالمؤمنين فهذا ليس صادقا ولا يستأهل المتابعة .

كلمة في سورتي الأنفال وبراءة

رأينا أن سورتي الأنفال وبراءة محورهما آية افتراض القتال في سورة البقرة ، والآيتان بعدها ، فهناك فُرض القتال ، ثم جاءت سورتا الأنفال وبراءة لتبين من يجب علينا أن نقاتل ، وما يلزم لهذا القتال من شروط مادية ونفسية ، وما هي أحكام الله في كل قضية ترافق القتال ، من سلم إلى عهد ، إلى غنائم إلى غير ذلك ، وهذه المعاني كلها عرضت من خلال التطبيق العملي لفريضة القتال من قِبَل رسول الله ﷺ وصحبه ،فسجلت سورة الأنفال معركة بدر ، وسجّلت سورة سورة براءة غزو تبوك ، وبسورة الأنفال وبراءة ينتهي القسم الأول من أقسام القرآن .

كلمة حول القسم الأول من أقسام القرآن :

القسم الأول من أقسام القرآن يشمل : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة الأنفال والأنعام وبراءة . غير أنا رأينا أن سورتي الأنفال وبراءة تعتبران في حكم السورة الواحدة ، وقد رأينا كيف أن النسفي اعتبرهما سورة واحدة ، وأدخلهما في السبع الطوَل ، وإذن فهذه السور السبع تسمى السبع الطوال ، وقد عنون ابن كثير في أوائل كلامه عن سورة البقرة بهذا العنوان « ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال » ثم روى بأكثر من إسناد قوله عليه الصلاة والسلام : « أعطيتُ السبع الطوَل مكان التوراة ، وأعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وفضّلت بالمفصّل » ثم روى بأكثر من إسناد قوله عليه الصلاة و السلام : « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر » غير أنه ذكر أن مجاهداً وابن جبير قد جعلا السابعة هي سورة يونس وأغفلا الأنعام وبراءة ، ونحن نرجح رأي النسفي إذ هو الذي يتفق مع كون ترتيب القرآن توقيفياً ، ولكوننا لا نرى فرقاً بين سورة يونس وما بعدها ، حتى نلحق سورة يونس بما قبلها ، بدلًا من أن نجعلها مع مابعدها ، خاصة وهي مبدوءة بالأحرف التي بد أت بها أكثر من سورة بعدها . إن التذوق العميق لكتاب الله يرجح إلحاق سورة يونس بالقسم الثاني من أقسام القرآن .

لقد استعرضنا القسم الأول من أقسام القرآن .ورأينا فيه إجمالًا ثم تفصيلًا .

رأينا سورة البقرة ، ورأينا المعاني فيها كيف أنها تتسلسل على سياق ، ثم رأينا كيف أن السور التالية فصّلت ما أجمل في بعض آيات سورة البقرة على الترتيب نفسه .

أو نقول : إن مقاطع أو آيات في سورة البقرة أجملت ، فجاءت السور الست بعدها توضح هذا الإجمال على التسلسل الوارد في سورة البقرة ، و الملاحظ أن السبع الطول ، أي القسم الأول من أقسام القرآن يكاد يعدل ثلث القرآن تقريباً ، فإذا كان القرآن كما قسّموه ثلاثين جزءاً ، فإن السبع الطول حوالي عشرة أجزاء ونيف ، وبعد ذلك يأتي القسم الثاني من أقسام القرآن ، ويبدأ بسورة يونس ، وينتهي بسورة القصص ، ويعدل هذا القسم كذلك ثلث القرآن إلا قليلًا ، فهو حوالي تسعة أجزاء ونيف ، وهو تسع عشرة سورة . وسنبدأ الكلام عنه في المجلد الخامس متوكلين على الله ، سائلين الله أن يفتح علينا، وأن يجنبنا أن نقول على كتابه زوراً أو أن نُحمِّله مالا يحتمل، أو أن نتكلف فيه ماليس لنابه علم ، وإذا كنا رأينا في القسم الأول كيف أن السور فصّلت بعض ما

أجمل في سورة البقرة على ترتيب معيّن ، فسنرى في القسم الثاني كيف أنه مؤلف من مجموعات ، وأن كل مجموعة تفصّل إجمالًا في سورة البقرة على ترتيب معيّن ، ثم تعود المجموعة اللاحقة لتفصّل إجمالًا آخر على ترتيب معيّن وهكذا .

ملاحظات حول هذا القسم :

ــ ملاحظات للمربين

أ ــ نقترح على المربي الذي يقرىء هذا القسم أو يدرس تفسيره أن يلاحظ تحقيق ما يلي :

أن يركّز في ذهن المتعلم الهدف العام من كل سورة ، فيركّز على سورة البقرة واستيعابها معاني القرآن ، ويلفت النظر إلى شمول الإسلام ، وحقيقة التقوى ، وطرق الوصول إليها ، فمن لم يتحرر من كل قصور في فهم الإسلام بعد البقرة فما أخذ شيئاً . ومن لم يتحقق بالتقوى ويتعرّف على حقيقتها من سورة البقرة فما أخذ شيئاً .

ويركّز في سورة آل عمران على قضية الإيمان ، والمواقف اليومية والحياتية المنسجمة معه ، فما لم يفعل ذلك يكون قد أهمل كثيراً .

ويركّز في سورة النساء على التطبيق الحرفي لمعانيها كطريق موصل إلى التقوى .

ويركز في سورة المائدة على التحقق بها على اعتبار أن من لم يتحقق بها يبقى معرّضاً للضلال .

ويركز في سورة الأنعام على العبودية لله والقيام بشكره .

ويركز في سورة الأعراف على ضرورة اتباع هدى الله وترك ما سواه .

ويركز في سورتي الأنفال وبراءة على ضرورة القتال والجهاد والاستعداد له ، والتخلص من كل مانع حسي أو معنوي يحول دونه ، وإذا قلنا إن هذه ملاحظات للمربين ، فهي ملاحظات ينبغي أن يعطيها الدارسون أهمية بالغة بشكل عام .

ب – المفروض أن يلاحظ المربي شيئين : الفهم الصحيح ، والتطبيق الصحيح . وفي هذا القسم – كغيره – آيات واضحة وآيات تحتاج إلى دقة فهم ، فالمفروض أن يلفت المربي نظر المتعلم إلى المعاني الصحيحة للنوع الثاني ، وخاصة في القضايا التي هي مظنة أن يجهلها الإنسان أو يغفل عنها ، وأما في موضوع التطبيق فلا ينبغي أن يكلفه بما لا

يطيق ، وإنما يحققه بصحة الفهم ، ويدله على العمل بقدر الإمكان .

ج ــ في كل سورة من السور ينبغي أن يختص بعض الآيات بوقفات تربط بين الإنسان والواقع ، وبين الحياة والسلوك .

وكمثال يركز في سورة البقرة على مقدمتها ، وعلى الآيات التي تحدد طرق الوصول للتحقق بصفات المتقين ، ويركز على قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا في السلم كافّة** ﴾ وعلى ملامح الاقتصاد الإسلامي القائم على الإنفاق ،وتحريم الربا ، وضبط المعاملات .

وفي سورة آل عمران يركز على قضية الطاعة والبطانة والتحرر من طاعة الكافرين أثناء مروره على ﴿ **إن تطيعوا ....** ﴾ . أو ﴿ **لا تتخذوا بطانة من دونكم ...** ﴾ .

وفي سورة النساء يركز على شبَه العصر في موضوع تعدد الزوجات ، وموضوع نظام الإرث ، ونظام الرق ، والاحتكام إلى الله ورسوله . وقضية الجهاد ....

وفي سورة المائدة يركز على آيات الحكم ، وعلى الآيات التي لها علاقة بقسوة القلب أو فتنته ، وعلى الآيات التي تشرح نماذج من الفساد ...

وفي سورة الأنعام يركّز غلى النّعم ، وعلى الشكر ، وعلى خطر تحريم الحلال .

وفي سورة الأعراف يركّز على خطورة الموقف من الأمر والنهي في حياة الأمم .

وفي سورة الأنفال وبراءة يركّز على ارتباط الإيمان بقضية الجهاد ، ولا شك أن كل سورة فيها ما يذكّر بمعاني السورة الأخرى ، ولكن المربي ينبغي أن يضع أمامه هدفاً في كل سورة يحققه من خلال إقرائها أو تحفيظها أو تدريسها .

د ــ وعلى المربي في عصرنا أن يبتعد ابتعاداً كلياً في الدروس العامة عن التصريح ، وعن الهجوم الواضح على الأشخاص والهيئات إلا إذا دعت ضرورة لذلك ، ويكتفي بإبراز الفكرة والإشارة البعيدة من باب قوله تعالى : ﴿ **ولاتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عَدْواً بغير علم ...** ﴾ .

إنّ نقل الإنسان من طور إلى طور من خلال القرآن عملية تحتاج إلى صبر طويل دؤوب ، وحكمة بالغة ، وكل سورة تحقق – بشكل من الأشكال – عملية النقل هذه ، إذا أتقن المربي – أو المعلم – عملية النقل ، وهذه الملاحظة لاتختص بهذا القسم بل هي في القرآن كله .

(فهرس المجلد الرابع)

الموضوع | **الصفحة**

☆ ☆ ☆